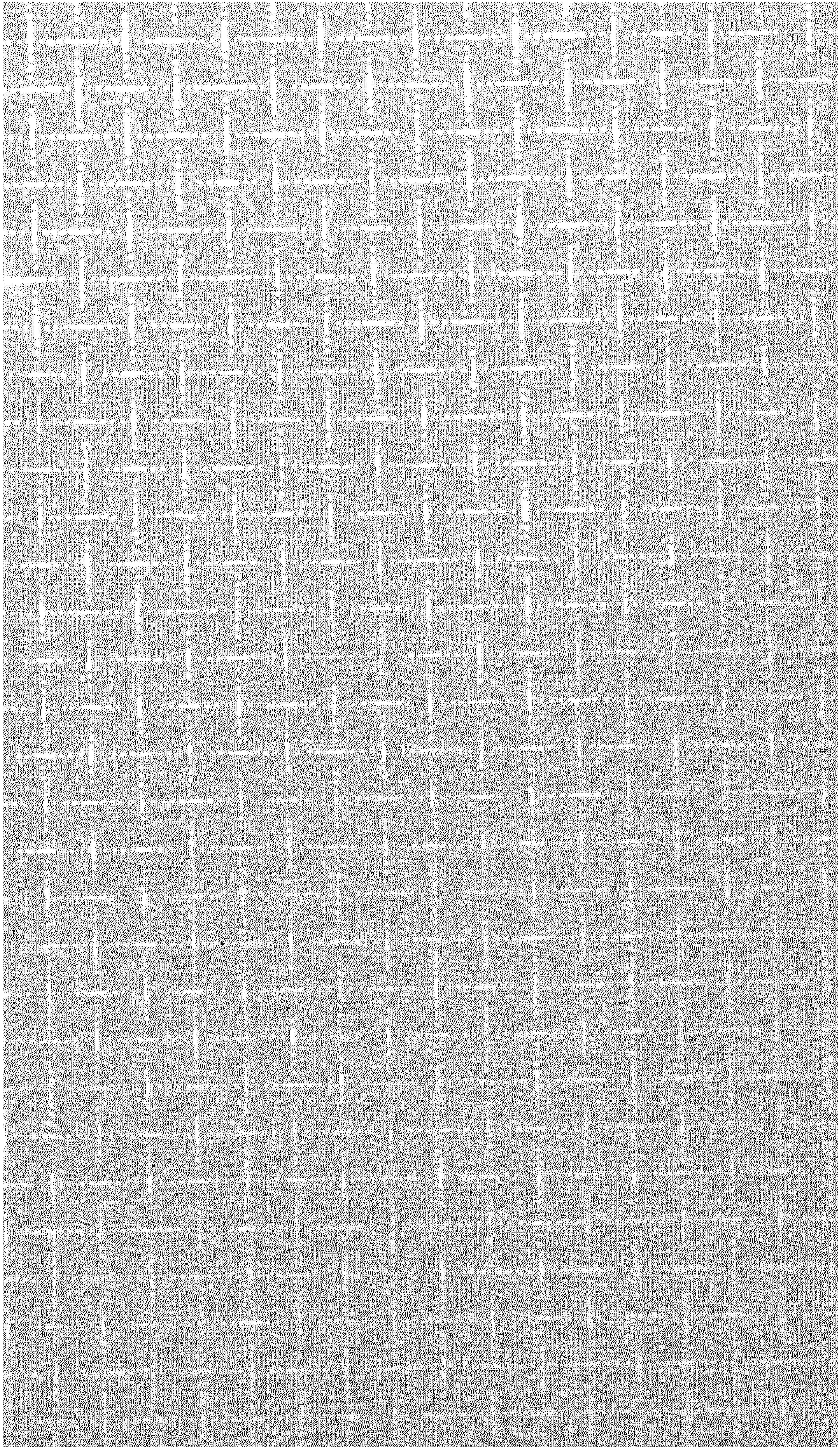




الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

SOCIÉTÉ ÉGYPTIÈNNE D'ÉTUDES HISTORIQUES

المجلة التاريخية المصرية

المجلد الرابع والعشرون ١٩٧٧

المراسلات باسم

الأستاذ الدكتور إبراهيم نصحى

رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

٢ شارع ناصر الدين المتفرع من شارع عبد السلام عارف (البستان سابقاً)
القاهرة تليفون ٩٧١٩٧٢

مطبعة الجبلاوى
٢٩ شارع الترعة البولاقية

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٧/٤٠٥

المحتويات

بحوث :

بحـــوث

التعريب فى العصرين الأموى والعباسى

الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي
كلية الآداب — قسم التاريخ

لقد أثرت حركة الفتح الاسلامى للعراق وفارس والشام ومصر تأثيراً كبيراً فى حياة المجتمع الاسلامى ؛ لأن التوسع الاسلامى بمظاهره العسكرية والبشرية والفكرية أحدث توسعاً ثقافياً وحركة علمية كبرى نابعة من الاسلام وهدفها الدعوة إلى العقيدة الاسلامية ، فأقبل سكان البلاد المفتوحة على تعلم العربية وآدابها وعلى دراسة المصادر الاسلامية للقرآن ، الحديث ، الفقه ، فبرز فيهم الكثير من العلماء الذين أصبح لهم أثر فى الثقافة العربية ونشر الحركة الفكرية نلمح أسماء كثير منهم فى كتب التاريخ والتراجم والطبقات[1] . كما أن ظهور الفرق الاسلامية ومذاهبها كان لها أثر أيضاً فى توسع الثقافة فى البلاد المفتوحة حيث التقت الثقافة العربية بالثقافات الفارسية واليونانية والهندية ، ولكل منها صفاتها ومميزاتها ، ثم لم تلبث أن اندمجت وانصهرت فى بوتقة عربية إسلامية مكونة الحضارة العربية الاسلامية .

(أثر الثقافات الأجنبية ومدارسها فى التعريب)

لقد أقبل سكان البلاد المفتوحة على تعلم اللغة العربية ودراسة آدابها — كما أشرنا قبلا — وأخذوا يصوغون أفكارهم وعلومهم وآدابهم بما ينسجم والدين الاسلامى والتقاليد العربية ، فأصبحت اللغة السياسية والثقافية السائدة هي العربية ، لذلك فإن الشعوب (غير العربية) فقدت ذاتيتها اللغوية[2]

بمرور الزمن للتقرب من الفاتحين وقد أدى انتشارها إلى شعور شعوب هذه البلدان بالانسجام والتجانس رغم اختـــلاف قومياتهم وحتى أديانهم . فوحدت اللغة العربية انتماءهم وشعورهم وأهدافهم وكان لها أثر فى إقبال الكثير من غير المسلمين على الدخول في الإسلام(٣). ولم يكن إقبال الشعوب غير العربية على تعلم العربية وترك لغتها الأصلية بسبب الإكراه أو الإجبار وإنما كما يقول المستشرق بارتولد(٤) : أن غلبة اللغة العربية كان بالاختيار لا بسلطان الحكومة وأن تسامح العرب أدى إلى انتشار العربية فدرس حنين ابن إسحق الخليل بن أحمد الفراهيدى وسيبويه حتى أصبح حجة في العربية(٥). وبعد أن قطع الموالى وأهل الذمة مرحلة كبيرة فى تعلم العربية وآدابها أخذوا ينقلون إليها علومهم فاستطاعوا بذلك إضافة علومهم وأفكارهم إلى ذخيرة العرب المسلمين فتكونت من مزيج تلك الحضارات حضارة مطبوعة بالطابع العربى والأسلوب الإسلامى وأخذت تنمو وتزدهر منذ العصور الإسلامية الأولى (الراشدى والأموى) وأتت ثمارها فى العصر العباسى حيث أصبحت بغداد حاضرة العالم الإسلامى يتهافت عليها رجال العـــلم والثقافة والأدب والاقتصاد والمال لما أصبحت تتمتع به من مركز سياسى واقتصادى وثقافى فنبغت أعداد كبيرة من العلماء والفلاسفة والأدباء والشعراء ينحدرون من عناصر ذمية وغير عربية ومن أخصهم النصارى والفرس والصابئة . وأهم ما برزوا فيه الترجمة من اليونانية والفارسية والهندية والسريانية وأقلهم تأثيراً فى الحضارة وتأثرا بهـــا اليهود . يقول المستشرق ديورانت(٦) : ولم يكن لليهود القابلية الفكرية والعلمية على الإبداع الفكرى ففى التصوف اليهودى تأثر بالزرادشتية وبالأفلاطونية الحديثة باستبدال الفيض الإلهى بعمليـة الخلق وتأثروا بالكتب المسيحية والمتصوفة الهنود والمصريين . ويؤكـد ذلك ماجاء فى دائرة المعارف اليهودية(٧): أن الفلسفة العبرية جاءت عن طريق كتبهم المقدسة وعن طريق تأثرهم بالفلاسفة العرب .

وقد استفاد اليهود من العلوم العربية التى كانت سائدة فى البلاد الإسلامية فترجموا البعض من المؤلفات العربية إلى العبرية ، وأتقن بعضهم اللغة العربية وآدابها ، واهتموا بقواعد النحو ومن أولئك مروان بن موسى اليهودى البصرى الذى اشتغل بالأدب وضبط النحو ولكنه لم يؤلف فيه(٨) .

ويبدو أن بروز هؤلاء اليهود فى بعض الميادين العلمية يعود إلى اتصالهم بالحضارة العربية الإسلامية فاستقوا من مناهلها علومهم المختلفة .

أما النصارى فى العراق فقد نعموا بعد الفتح الإسلامى بالحرية الدينية ولما كان أغلبهم عرباً فقد التفوا حول المسلمين للروابط القومية واللغوية التى تربطهم بإخوانهم العرب فأقبلوا على العناية باللغة العربية وآدابها فأخذوا ينقلون من السريانية إلى العربية لأن اللغة العربية أوسع من السريانية بدليل أن فيها أسماء كثيرة لم تكن موجودة عند السريانيين ولا عند غيرهم بخلاف اسم واحد فقط(٩) . وأن قبائل الغساسنة فى الشام منذ خضوعهم لكنيسة رومة وهم يستخدمون اللغة العربية فى طقوسهم الدينية(١٠) .

وقد برز الصابئة بالفلك والتنجيم واعتبروه عنصراً مهماً من العناصر التى يعتمد عليها دينهم ومستقبلهم فهم يعتقدون أن كل كوكب يحكم فى يوم من الأيام ويتحكم ملائكة معينون بالأيام ومن هنا تكون لهم صفات فلكية(١١) .

ويعزو أيضاً اهتمام الصابئة بدراسة الفلك والتنجيم إلى اعتقادهم بالتنبؤات، وبأثر النجوم على مستقبل الإنسان وعملوا الطلسمات والسحر والكهانة والتنجيم والتقويم والخواتيم(١٢).

ولما اتصل الصابئة بالخلافة العباسية صار لهم شأن كبير فى نقل هذه العلوم إلى العربية .

ولعل ازدهار الحضارة وتطور العلوم فى العصرين الأموى والعباسى يعود إلى رغبة العرب المسلمين فى الاطلاع على ماعند الأمم الأخرى من علوم ومعارف حتى قال المستشرق سيديو[١٣] عنهم : كان العرب وحدهم حاملين لواء الحضارة فى القرون الوسطى وقد حرروا بربرية أوربا وسار العرب إلى منابع فلسفة اليونان ولم يقفوا عند حد ما اكتسبوه من كنوز المعرفة بل وسعوه وفتحوا أبواباً جديدة فى مختلف العلوم وإذا مابحث فى الوجه الذى أيقظ الحضارة فى الشرق هو حب العرب للعلم وشوقهم إلى تعجيل رقيه بأنفسهم . ولعل تشوق العرب للاطلاع على علوم وثقافات الأمم الأخرى واهتمامهم البالغ بالعلم دفعهم إلى الإبقاء على المؤسسات العلمية التى كانت لأهل الذمة فى البلاد المفتوحة ولعل ماذكره ديورانت[١٤] يؤيد ذلك كان بنو أمية حكماء إذا تركوا المدارس الكبرى المسيحية أو الصابئية أو الفارسية قائمة خاصة فى حران ونصيبين وجنديسابور وغيرها ولم يمسوها بأذى . وقد حفظت هذه المدارس أمهات الكتب الفلسفية والعلمية معظمها ترجمت إلى العربية على أيدى النساطرة المسيحيين . وقد بقيت هذه المدارس تؤدى عملها فى العصور الإسلامية وزاد اتصالها بالمسلمين فى العصر العباسى .

ولابد من الإشارة إلى دور هذه المدارس فى نشر الثقافة .

مدرسة حران :

وحران مدينة تقع فى الجزيرة شمال العراق بين الرها ورأس العين وهى مدينة قديمة عاصرت الرومان واليونان والنصرانية والإسلام سكانها من العرب والسريان والأرمن والمقدونيين وقد تأثرت حران بالثقافة المقدونية لدرجة أن الآلهة المعبودة فى حران كانت أسماء بعضها يونانية[١٥] وأصبحت حران منبعاً من منابع الثقافة اليونانية فى العهد الإسلامى واتصلت مدرستهم بالخلفاء العباسيين وكان لها شأن كبير فى نشر الثقافة اليونانية وفى ترجمة كثير من الكتب عن اليونانية[١٦] .

وقد برز نخبة من أساتذتها وخريجيها لعبوا دوراً كبيراً فى تعريب علوم اليونان فى الفلك والرياضيات والطب منهـــم أبو عبد الله البتانى وهو أحد المشهورين برصد الكواكب والمتقدمين فى علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحساب النجوم وله كتاب فى الزيخ والبروج وغيرها(١٧) . ويعتبر ثابت ابن قرة (ت ٢٨١ هـ) أعظم من عرف فى مدرسة حران كان يعيد اليونانية والسريانية والعبرية ترجم فى المنطق والرياضيات والتنجيم والطب ونقح كتاب أقليدس الذى عربه حنين بن إسحق رحل إلى بغداد وأقام فيها ومن أولاده وأحفاده ابراهيم بن ثابت وأبو الحسن ثابت وإسحق أبو الفرج وكل هؤلاء نبغوا فى الرياضيات والفلك(١٨) واشتهر ابنه سنان بالطب وكان عالمـــاً بالظواهر الحيوية(١٩) . وكان حفيده ابراهيم بن سنان عالماً بالحكمة والهندسة وله ثلاثة كتب فى علم النجوم وله مقالة فيها إحدى وأربعون مسألة هندسية(٢٠) واشتهر هلال بن ابراهيم بالطب كما اشتهر ابراهيم بن هلال بالأدب وقد رثاه الشريف الرضى(٢١) لمنزلته فى الأدب .

أما مدرسة نصيبين :

ونصيبين مدينة تقع بين أعالى بلاد ما بين النهرين ودمشق حصنهـــا الرومان تحصيناً قوياً وأصبحت مركز كرسى الأسقفية لوجود نصارى فيها وأسس مطران نصيبين مدرسة تحاكى مدرسة الإسكندرية فى الفلسفة . وكانت الغاية منها نشر اللاهوت الاغريقى بين المسيحيين الذين يتكلمون السريانية(٢٢) ومزج النصرانية بالأفلاطونية ، وأغلقت مدرسة نصيبين فانتقلت إلى الرها وهكذا انتقلت فكرة مزج النصرانية بالفلسفة فى أنحاء الشرق(٢٣) . وساعد بذلك على نشر كتب الفلسفة اليونانية التى ترجمها النصارى النساطرة .

وأما مدرسة جند يسابور :

جند يسابور : ومدينة جند يسابور تقع فى خوزستان ، أسسها سابور

الأول، وإليه تنسب وأسكنها الأسرى الذين أسرهم من جيش الروم وخاصة الذين كانوا على جانب كبير من الثقافة والخبرة الفنية وكان يؤمل استخدامهم مهندسين ومعماريين وأطباء وسمح لهم باستعمال لغتهم واتباع دياناتهم كما سمح لهم ببناء الكنائس فتمتعوا بالحرية الدينية أكثر مما كان يسمح لهم تحت حكم الامبراطورية الرومانية(٢٤) وأسس فيها كسرى انوشروان مدرسة للطب كما أنشأ فيها بيمارستان وأول من علم بها الطب من اليونان والهنود فالتقت في هذه المدرسة الثقافة اليونانية والهندية والفارسية(٢٥) وقد واصلت هذه المدرسة نشاطها العلمي بعد الفتح الإسلامي وزاد إتصالها بالمسلمين في العصر العباسي واشتهر من أساتذتها وطلابها في العصر العباسي جرجيس بن بختيشوع (ت ٧٧١ م) وهو من أطباء المنصور وأقـــدم ممثل لطبقة الأطباء الذائعي الشهرة من أسرته ومنهم حفيده جبريل بن بختيشوع (ت ٨٠٠م). ويحيى بن البطريق (ت ٨٠٠م) الذى اختصه المنصور للقيام بالترجمة. وكذلك زكريا بن يحيي بن البطريق. وممن اشتهر في الترجمة والتأليف في الطب، أبو زكريا يوحنا بن ماسويه (ت ٨٥٧م)(٢٦) فكان لهم جيش وشأن كبير في الحركة العلمية في العصر العباسي بفضل هذه المدرسة.

وكانت هذه المدارس لا تقوم فقط بمهمة تعليم مختلف صنوف العلم المعروفة وإنما قامت بدور التعريب والتأليف. وتعتبر الفترة الواقعة بين ظهور الفرق المسيحية وبين الفتح الإسلامي للعراق غنية بالترجمة من اليونانية إلى السريانية وذلك لأن الفرق المسيحية استخدمت الفلسفة اليونانية لتأييد معتقداتها وكانت الترجمة منصبه على علم اللاهوت والدراسات الدينية وبعد الفتح ابتدأت الترجمة من اليونانية إلى العربية وذلك منذ العصر الأموى. وشجع الأمويون حركة الترجمة إلى العربية وأول كتاب طبي ترجم اليها كان في خلافة مروان بن الحكم ٦٤ هـ، وهو كناش(٢٧) هرون القس بن اعين

وقد احتوى على ثلاثين مقالة نقلها من الأرامية إلى العربية ما سرجويه الطبيب البصرى وزاد عليها مقالتين(٢٨) .

دوافع حركة التعريب :

إن حركة التعريب قديمة ترجع جذورها إلى عصر الراشدين ولكن هذه الحركة نشطت فى عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد حين جعلا اللغة العربية اللغة الرسمية فى دواوين الدولة ومراسلاتها ، فما لبثت أن اكتسحت لغات الشعوب المفتوحة من فارسية ورومية وقبطية وبربرية ويونانية وسريانية وعبرية وأصبحت وحدها شائعة فى دار الإسلام لأنها لغة الفاتح ولغة الدين .

إن اقبال أهل الذمة بأعداد كبيرة على الدخول فى الإسلام ساعد كثيرا على إنتشار اللغة العربية بينهم لإتقان القرآن وفرائض الإسلام واقتضت الحاجة بالنسبة لهؤلاء إلى تنقيط الحروف العربية وإلى إيجاد قواعد اللغة العربية وهو ما اصطلح على تسميته فيما بعد بعلم النحو(٢٩) ، ولعل من أقوى الشواهد على المكانة التى أصبحت للغة العربية فى الحياة الفكرية اهتمام المثقفين آنذاك بفقهها وتاريخها والاهتمام بفقه اللغة قوى الصلة بالقرآن فكان من الضرورة الماسة أن يفهم هذا العدد الغفير من الداخلين الحديث بالعربية التى هى لغة التعبد الإسلامى، وقد دعت الحاجة إلى تمهيد السبل أمام هؤلاء الأعاجم إلى إمتلاك ناصيته الدقائق المعنوية فى العربية والتضلع فى متنها الزاخر بالمفردات وهذا هو السبب الذى جعل معجم الخليل بن أحمد الفراهيدى البصرى أساساً لنشأة فقه اللغة العربية وتطوره ، ثم أن سيبويه الفارسى أحد تلاميذ الخليل قام بخدمة جليلة عندما وضع علم النحو فى صورة نظامية جرت عليها الأجيال المقبلة وكان ينافس سيبويه فى هذا العلم الكسائى الكوفى(٣) . ولذا كان على سكان البلاد المفتوحة أن يتعلموا العربية

وأن يقرأوا ويكتبوا بها ليستفيدوا منها لدينهم ودنياهم حتى اضطروا أن يتعلموا النحو لإصلاح لغتهم[31] . وأقبلوا على تعلمها فعلا ونقلوا إليها علومهم وحتى كتبهم المقدسة كالتوراة والإنجيل والزبور[32] وذلك لإظهار تراثهم الحضارى والثقافى للفاتحين ونتيجة لشعورهم برغبة المسلمين الاطلاع على ماعند الأمم الأخرى من علوم ومعارف كما إن إقبال البعض من أهل البلاد المفتوحة على ذلك تحقيقا لمكاسب مادية ومعنوية[33] .

ويبدو أن إقبال المسلمين على تشجيع حركة التعريب يعود أيضا إلى ظهور الفرق الإسلامية وبروز فكرة الاعتزال ، والقول فى القضاء والقدر واحتدام الجدل بين هذه الفرق الإسلامية ، ثم اتساع نطاق الجدل الدينى بين المسلمين وأهل الذمة ولاسيما النصارى واليهود وقد وجد المسلمون أن هؤلاء يقارعونهم الحجج للدفاع عن آرائهم ومعتقداتهم بالمنطق والفلسفة فأقبل المعتزلة على دراسة كتب الفلسفة اليونانية المعربة للاستفادة منها فى الدفاع عن الاسلام تجاه أقرانه من الذميين[2] .

وقد لعبت الفتوحات الاسلامية والفكر الاسلامى دوراً كبيرا فى عملية التعريب ، حيث أقبل العرب تحت شعار المساواة بين مختلف الشعوب على التزوج بالأجنبيات من البلاد المفتوحة هذا الاقبال الشديد كان له أثره فى إقبالهم على تعلم العربية واتقانها . وتبع ذلك نشاط تجارة الرقيق وأخذ النخاسون يقيمون المدارس لتعليم الجوارى الفارسيات والروميات والتركيات اللغة العربية وفنون الغناء واستخدام آلات الطرب ولم يلبث الخلفاء أن أنشأوا فى جميع المدن المهمة مراكز للتعليم وجمعوا حولهم كل عالم قادر على ترجمة علوم اليونان وكتبهم ولا سيما كتب أرسطو وجالينيوس وغيرهم ونقلها من السريانية إلى العربية . ولم يدم اكتفاء العرب بما نقل إلى لغتهم طويلا فقد تعلم عدد غير قليل منهم اللغة اليونانية ليستقوا منها مباشرة ثم تعلموا اللغة اللاتينية واللغة القشتالية فى أسبانيا كما يشهد بذلك ما فى مكتبة الاسكوريال

من المعجمات العربية اليونانية والعربية اللاتينية والعربية الأسبانية التى ألفها علماء من المسلمين(٣٥). وأصبحت مهنة الترجمة حرفة فصارت عملا وراثيا يتولى عليه من الأسرة الواحد تلو الآخر .

وقد بدأت أولى المحاولات للتعريب فى العهود الاسلامية الأولى بـ (تعريب النقود) وذلك منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب فقد ضرب الدراهم على نقش الكسروية وجعل نقش بعضها (الحمد لله) ونقش بعضها الآخر (محمد رسول الله) أو (لا اله إلا الله وحده)(٣٦)وثبت معيارها وأوزانها وضرب عثمان بن عفان دراهم عربيـــة بنقش (الله أكبر)(٣٧) أما على بن أبى طالب فقد شغلته الفتنة عن ضرب عملة جديدة ، ولما تولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة كتب إلى زياد بن ابيه والى العراق ليضرب عملة جديدة غير عملة عمر ينقش عليها اسمه(٣٨) . ولما أعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة فى الحجاز ضرب دراهم ونقش على أحد وجهى الدرهم (محمد رسول الله) وعلى الوجه الآخر (أمر الله بالوفا والعدل)(٣٩)وضرب أخوه مصعب سنة ٧٠ هـ دراهم فى العراق أعطاها للناس فى العطاء(٤٠). نقش على أحد وجهى الدرهم (بركة) وعلى الوجه الآخر كلمة : (الله)(٤١).

ولم يكن فى الأمصار الاسلامية فى بداية العهد الأموى سكة عربية اسلامية معترف بها قبل مجىء عبد الملك بن مروان، بل كان لأمراء الولايات دور سك خاصة يسكون فيها العملة حسب احتياجاتهم ولهذا كانت قيم النقد غير مستقرة الأمر الذى شجع على التزييف والتلاعب (٤٢) . وإن ما فعله عبد الملك والحجاج من تعريب للنقود إنما جاء مبنيا على ما صنعه عمر بن الخطاب حين نظر إلى الدراهم الفارسية التى اختلفت أوزانها صغارا وكبارا فوجد أوزانها عشرة قراريط ، أو اثنى عشر قيراطا ، أو عشرين قيراطا فجمع ذلك فبلغ اثنين وأربعين فأخذ ثلثه أو(معدله) فكان أربعة عشر قيراطا فجعله الوزن الشرعى(٤٣). الذى حدده عمر كاملا غير منقوش(٤٤) وروى البلاذرى(٤٥)

أن سعيد بن المسيب سأل : عن أول من ضرب الدنانير المنقوشة ؟ فأجاب : عبد الملك بن مروان عام الجماعة سنة ٧٤ هـ ، وأن ضرب الدراهم بدأ فى سنة ٧٥ هـ ، ثم أمر بتعميمه فى جميع النواحى سنة ٧٦ هـ .

وقال ابن الأثير(٤٦) : انه لما صارت الخلافة إلى ملوك بنى أمية وقد أغفلوا أمر المعاملة بما تشاغلوا به عن أمور نفوسهم تفاحش الغش فى التجارة وصارت تنسب إلى الروم سكة ليست من ضربهم ولأن ضرب الناس فيما ابتدع الناس من دنانير كسرى وقيصر ، فعنى عبد الملك بتمييز المغشوش من الدنانير والدراهم فضرب السكة فى دمشق . ويرى البعض من المؤرخين أن هناك صلة من سوء العلاقات بين دولتى الإسلام والروم وبين تفكير المسلمين فى وضع عملة مستقلة لهم(٤٧) ، ويعلل Gibbon (٤٨) هـذا الإجراء بسبب أن الحرب أدت إلى انقطاع التجارة وقلة النقد مما دعا عبد الملك إلى الشروع فى إصدار عملة خاصة ليحقق للدولة استقلالها الاقتصادى فأنشأ داراً للضرب .

وقيل : ان قيام الحرب اقترنت بمسألة خطيرة وأدت من سوء العلاقات لمـاسها بالدين والمصلحة الاقتصادية وهى مسألة (القراطيس) (ورق الكتابة) التى ذكرتها المصادر العربية ، وخلاصة هذه المسألة كما ذكرها البلاذرى(٤٩) أن القراطيس كانت تؤخذ من مصر إلى بلاد الروم التى تضرب فيها الدنانير وكانت الأقباط تكتب فى رؤوس الطوامير (الصحف) عبارات تنسب الربوبية إلى المسيح كما ترسم فى صدرها الصليب ، فأمر عبد الملك أن يكتب فى مكانها آية (قل هو الله أحد) وغيرها من ذكر الله ، فكره ذلك ملك الروم واشتد عليه ، وكتب إلى الخليفة : (انكم أحدثتم فى قراطيسكم كتاباً نكرهه فإن تركتموه ، وإلا آتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ماتكرهونه) ، قال : فكبر ذلك فى صدر عبد الملك لأنه كره أن يدع سنة حسنة سنها ، إزاء هذا التهديد استشار من حوله ، فأشار عليه خالد بن يزيد بن معاوية بأن

يحرم دنانيرهم ويمنع التعامل بها ويضرب للناس سككا ويمنع أن يدخل بلاد الروم شيء من القراطيس (فمكثت حيناً لا تحمل إليهم) . فانقطعت التجارة التى كان بها يقيم التبادل بالأوراق والدنانير ، ويبدو أن السبب المباشر الذى دفع عبد الملك إلى تعريب النقود يعود إلى توقف التجارة وانقطاع النقد ورغبة فى تحقيق الاستقلال الاقتصادى للدولة فأنشأ داراً للضرب[٥٠] كما أشرنا سابقاً وضرب دنانير ذهبية عرفت بالدمشقية[٥١] .

ويعلل أمير على[٥٢] هذا الإجراء بقوله : ان الدولة الإسلامية التى مضى عليها أكثر من نصف قرن منذ أيام الفتح الأولى لا يمكنها أن تظل معتمدة فى نشاطها الاقتصادى المتزايد على النقد الأجنبى - كما أن العملة الفارسية كانت مغشوشة ومضطربة لفساد الوضع فى الدولة الفارسية ، ويؤيد ذلك ما رواه الماوردى[٥٣] بقوله : وقد كان الفرس عند فساد أمورهم فسدت نقودهم فجاء الإسلام ونقودهم من العين والورق والفضة والذهب غير خالصة إلا أنها كانت تقوم فى المعاملات مقام الخالصة إلى أن ضربت الدراهم الإسلامية فتميز المغشوش من الخالص .

ورغم أن العملة البيزنطية والفارسية كانت متداولة بجانب العملة المحلية إلا أن اتساع أطراف الدولة العربية وتقدم التجارة أدى إلى وضع نظام ثابت للنقد[٥٤] مما دفع عبد الملك بن مروان إلى ضرب سكة إسلامية جديدة وأصبحت النقود عربية صرفة[٥٥] . وبعث بها إلى الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق حتى إذا فرغ من ضرب الدراهم بعث بالسكة إلى سائر الأمصار لتضرب الدراهم بها ، وكان قد ضرب فى دمشق دنانير من الذهب سنة ٧٣ هـ بعد أن كانت كلها حتى ذلك التاريخ رومية[٥٦] وبعد أن فرغ عبد الملك من الدنانير والدراهم كتب إلى عماله بالأمصار يأمرهم بأن يقسروا الناس على التعامل بالسكة الجديدة وأن يتهددوا بالقتل كل من تعامل بغيرها من العملة القديمة المتداولة حتى يحولها إلى سكة إسلامية[٥٧] ، وفى عهده أيضاً بدأ

بتعريب الدواوين ولاسيما تلك التي وجدت في البلاد المفتوحة ، أما الدواوين الأولى (الجند وبيت المال) فقد كانت باللغة العربية منذ نشأتها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب[٥٨] ، أما التي وجدت في البلاد المفتوحة فقد أبقاها العرب على حالها وهي المختصة بالجباية وحساباتها ظلت على ما كانت عليه ففي العراق وسائر بلاد الشرق كان بالفارسية وفي الشام كانت بالرومية[٥٩] (اليونانية) وفي مصر بالقبطية[٦٠] . ويبدو أن دوافع تعريب الدواوين المالية كان يقصد منه ضبط أعمالها والإشراف عليها منعاً من الغش والتزوير[٦١] . وأدى هذا الإجراء (التعريب) إلى إيجاد طبقة جديدة من الكتاب وإلى نهضة لغوية أدبية رائعة[٦٢] .

بدأ عبدالملك بعمله الجليل هذا بتعريب دواوين الشام ، وأمر كاتبه على الرسائل سليمان بن سعد الخشني أن يحول الديوان من الرومية إلى العربية[٦٣] وكان ذلك سنة ٨١ هـ . وقد طلب من عبدالملك أن يجعل له خراج الأردن في مقابل العمل والذي بلغ يومئذ ١٨٠ الف دينار[٦٤] .

أما دواوين العراق فقد عربت أيام ولاية الحجاج بن يوسف على العراق ، فقد عهد إلى صالح بن عبد الرحمن بنقل الديوان من الفارسية إلى العربية ، وقد كان صالح يحذق الفارسية والعربية معاً وجعل له أجلا لذلك فأتم صالح مهمته بنجاح وقيل : أن (مراد نشاه) بن (زازان فروخ) كاتب الحجاج بذل له مائة الف درهم على أن يظهر العجز عن هذا العمل ويمسك عنه فأبى فدعا عليه إذ أنه قطع أصل الفارسية[٦٥] .

وقد عربت الدواوين المصرية في ولاية عبد الله بن عبد الملك في خلافة الوليد سنة ٨٧ هـ وصرف (انشناس) عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزاري من أهل حمص[٦٦] ، غير أن الدواوين المالية في خراسان لم تعرب وبقيت بالفارسية وكان أكثر كتابها من المجوس حتى كتب يوسف بن عمر

فى سنة ١٢٤ هـ إلى نصر بن سيار عامله على خراسان يأمر بنقله إلى العربية ولا يستعان فيـــه من الكتاب بغير المسلمين ، وقام بعملية التعريب هناك اسحاق بن طليق الكاتب — من بنى نهشل — وقد كان مع نصر بن سيار فاصبح خاصاً به(٦٧) .

أما تعريب العلوم فقد بدأت المحاولات الأولى فيه خلال العصر الأموى وكانت على الأغلب جهود فردية وعلى نطاق ضيق واقتصرت على العلوم العملية كالطب والفلك والعــــلوم العقلية (كالمنطق والفلسفة والهندسة) كما عربت بعض الألفاظ اليونانية وأطلقوا عليها كلماتها الأصلية مثل البرجد (وهو كساء غليظ مخطط) وأسماء أشياء عرفها العرب بعد اتصالهم بالروم كالزبرجد والزمرد والياقوت ومقاييس وأوزان رومانية كالقيراط والأوقية وأسماء طبية أو نباتية كالقولنج والبرقوق أو كلمات نصرانية كالجاثليق والبطريق وغيرهم(٦٨) . وقد توسعت حركة التعريب خلال القرن الأول الهجرى بتأثير المسيحيين ورغبة بعض الأمويين فإن خالد بن يزيد الأول (ت ٨٥ هـ) كان عالماً وأديباً ومن أول المحبين لعلوم اليونان فأمر بترجمة الكتب فى علم الهيئة والطب والكيمياء حتى روى أنه وجد الحجر الفلسفى الذى يصنع به الذهب الاصطناعى(٦٩) .

وترى هونكة(٧٠) أن لفشل الأمير الأموى خالد بن يزيد وإكراهه على التنازل عن العرش أثر كبير فى نفسه دفعه إلى حقل جديد بمجاله العلوم وأبحاثها.

ويرى بعض المؤرخين(٧١) : أن تنحية خالد بن يزيد عن الخلافة وغلبة مروان بن الحكم عليها كانت صدمة قوية للأمير خالد فتحول إلى ملهى شريف يلهو به ويناسب أرستقراطيته فكان ذلك هو (الصنعة) رأى أنه إذا استطاع أن يحول المعادن إلى ذهب استطاع أن يحول الناس إليه أو على أقل تقدير سيكون له من المنزلة ما يحسده عليه الخلفاء .

وهذا الرأى ينسجم مع ما أشار إليه ابن النديم[٧٢] قول خالد : ما أطلبه بذلك إلا أن أغنى أصحابى وإخوانى ، ان طمعت فى الخلافة فاختزلت دونى فلم أجد منها عوضاً إلا أن أبلغ آخر هذه الصناعة فلا أحوج أحداً — عرفنى يوماً أو عرفته — إلى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة .

وشجع عمر بن عبدالعزيز تعريب كتب الطب ، فأمر بنشر كتاب الطب الشرعى الذى نقـــله إلى العربية متطبب البصرة ماسرجويه فى عهد الخليفة مروان بن الحكم وقد وجده فى خزائن الكتب بالشام[٧٣] .

وأشهر من قام بدور التعريب فى العصر الأموى يعقوب الرحاوى الذى ترجم كثيراً من كتب الإلاهيات اليونانية إلى العربية[٧٤] . واضطلع السريانيون بنشر الفلسفة اليونانية فى العراق وما حوله وأخذوا ينقلون الكتب اليونانية إلى لغتهم السريانية — وهى إحدى اللغات الآرامية — التى انتشرت فيما بين النهرين والبلاد المجاورة لها — وكان من أهم مراكزها الرها ونصيبين وكانت هذه المدن مراكز للثقافة اليونانية إلى ما بعد الفتح الإسلامى تدرس فيها الرياضيات والفلك والفلسفة على المذهب الأفلاطونى وهم الذين تسموا — بعد ذلك — فى عصر المأمون وبعده بالصابئيين . وكان منهم كثيرون من المؤلفين وممن تولوا الترجمة إلى العربية بعد ذلك . وقدم السريانيون العلم والفلسفة بما ترجموا من كتب الفلسفة اليونانية التى أصبحت الأساس الذى اعتمد عليه العرب والمسلمون وكان لهم الفضل الكبير فى نقل الفلسفة والعلوم إلى العربية فى العصر العباسى[٧٥] .

إن العرب مع كثرة ما نقلوه عن اليونان لم يتعرضوا لشىء من كتبهم التاريخية أو الأدبية أو الشعر مع أنهم نقلوا من تاريخ الفرس وأخبار ملوكهم ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودتس ولا جغرافية استرابون ولا الياذة هوميروس ولا أوديسته ويرى بعضهم أن أكثر ما بعث المسلمين على النقل رغبتهم فى الفلسفة

والطب والنجوم والمنطق ويرى غيرهم أن الراحلين من اليونان أيام الاضطهاد إلى حران لم يكونوا أدباء ولا مؤرخين وإنما كانوا فلاسفة وأطباء(٧٦) .

ويرى بعض المؤرخين(٧٧) أن وراء عملية التعريب قوى ظاهرة وخفية تحركها نوايا خيرة تريد خدمة العلم والعمل على نشره أو سيئة تريد أن تشيد بماضي الفرس وتراثهم وتعمل على الحط من تراث العرب مضرة للمسلمين . ويبدو أن لازدهار الحضارة ونشاط الحركة العلمية والثقافية دوراً كبيراً في نشاط حركة التعريب فقد أخذ المثقفون الفرس يعربون تراث آبائهم في التنجيم والهندسة والجغرافية وخاصة من يجيدون اللسانين الفارسي والعربي ويبدو أنهم قلة بالمقارنة عما نقل عن اليونانية والسريانية ومرده إلى العلاقة السياسية ومجرى التيار الحضاري .

وقد أقبل كثير من الفرس على حذق اللغة العربية والتثقف بآدابها فقد عجب الجاحظ بموسى بن سيار الأسواري - أحد القصاص - فقال : ومن أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس في مجلسه المشهور فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية في كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية(٧٨) . ويقول عنهم أحمد أمين إن هؤلاء الفرس الذين تعربوا وهؤلاء العرب الذين أخذوا بقسط من الثقافة الفارسية ملأوا الدنيا في العصر العباسي علماً وحكمة وشعراً ونثراً لسيادة اللغة العربية فكان نتاج العقول الفارسية الراجحة إنما هو باللغة العربية لا الفارسية(٧٩) .

وقد عقد ابن النديم(٨٠) في كتابه الفهرست فصلاً لأسماء النقلة من الفارسية إلى العربية ذكر منهم عبد الله بن المقفع وآل نوبخت وموسى ويوسف ابني خالد ومحمد بن الجهم البرمكي وزادويه بن شاهويه الأصفهاني ومحمد بن بهرام

ابن مطيار الأصفهانى وبهرام بن مردان شاه وعمر بن الفرخان الطبرى وإسحق بن يزيد الذى نقل إلى العربية كتاب سيرة الفرس المعروف باختيار نامه والبلاذرى أحمد بن يحيى بن جابر المؤرخ المشهور وقد ترجم عهد أردشير شعرا ولم يعن المترجمون بترجمة وتعريب كتب تاريخ الفرس فقط بل عربوا الكتب الدينية ككتاب زرادشت المسمى (الافستا) وما عليه من شروح . كما ترجموا فى الأدب عن الفرس كتاب كليلة ودمنة واليتيمة والأدب الكبير والصغير وكتاب (هزار افسانة) ومعناه ألف خرافة وكتاب موبذ موبذان وكتاب أردشير فى التدبير وتوقيعات كسرى وكتاب أدب الحروب[٨١].

وإن ما ترجم عن العبرية لا يتعدى الاهتمامات الدينية اليهودية من ذلك ترجمة التوراة إلى العربية التى قام بها سعديا الفيومى المصرى فى عام ٣٣٠ هـ ، وهو أقدم من نقله إلى العربية ووضع عليها الشروح والتفاسير وذلك لسيادة اللغة العربية على ما يبدو وأن ما نقل عن الهندية كتب الطب والرياضيات والحساب وبعض كتب السحر[٨٢] .

وأهم ما عرب من كتب الهند كتاب عرف بـ (السند هند) المؤلف (براهما جوبتا) فى حركات النجوم . وأمر المنصور بترجمته إلى العربية وبأن يؤلف كتاب على نهجه وعهد بهذا العمل إلى محمد بن إبراهيم الفزارى الذى ألف على نهجه كتاب يعرفه الفلكيون باسم (السند هند الكبير) وقاد هذا الكتاب إلى أبحاث كثيرة فى الفلك ومنه أيضاً عرف العرب الأرقام والأعداد الهندية[٨٣] .

لقد بدأت حركة تعريب واسعة النطاق فى النواحى العملية والثقافية فى العصر العباسى الأول منذ خلافة المنصور الذى كان شغوفاً بالطب والهندسة ويعتقد بالنجوم وهو أول من راسل ملك الروم يطلب منه كتب الحكمة

فبعث إليه كتاب إقليدس وبعض كتب الطبيعيات[٨٤] . وجمع حوله العلماء وشجعهم على ترجمة العلوم من اللغات الأخرى وقد عرب كل من جورجيس ابن جبرائيل الطبيب وعبد الله بن المقفع كتب المنطق لأرسطوطاليس واعتنى يوحنا بن ماسويه وسلام الأبرش وباسيل المطران بكتب الطب[٨٥]. وفي عهده قام إبراهيم الفزاري بتعريب كتاب الفلك الهنـــدي الموسوم بـ (السند هند)[٨٦] .

كما استهل أبو يوسف يعقوب الكندي (فيلسوف العرب) وأحد العقول الكبرى في تاريخ العالم آنذاك نشاطه الفكري الذي لم يقتصر على تعريف مواطنيه بالفلسفة الارسطوطاليسية والأفلاطونية عن طريق الترجمة فحسب بل تعدى ذلك إلى توسيع آفاقهم العقلية بما أخرج من دراسات في التاريخ الطبيعي وعلم الظواهر الجوية مكتوبة بروح تلك الفلسفة[٨٧] .

وقد زادت عناية الرشيد واهتمامه بتعريب الكتب فأمر بترجمة جميع ماوقع في حوزتهم من الكتب اليونانية . كما وسع ديوان الترجمة الذي كان قد أنشأه المنصور لنقل العلوم إلى العربية وزاد عدد موظفيها فأسند تعريب الكتب إلى الطبيب يوحنا بن ماسويه وعين له كتاباً حذاقاً يشتغلون بين يديه ويساعدونه في عمله[٨٨] . وكان الفضل بن نوبخت المكنى بأبي سهل الفارسي ينقل كتب حكماء الفرس التي جمعت من خراسان وفارس إلى العربية[٨٩] . ومثله علان الفارسي الذي كان يعمل في خزانة الحكمة ويترجم للرشيد وللبرامكة[٩٠] .

ولما تولى المأمون الخلافة اهتم بتعريب علوم الأوائل واقتدى بسياسة والده الرشيدة في اهتمامه بالعلوم وأخذ يضمن شروط الصلح مع ملوك الروم إرسال كتب الحكمة فكان أحد شروط الصلح بينه وبين ميخائيل الثالث أن يتنزل للمأمون عن إحدى المكتبات الشهيرة في القسطنطينية وكان من بين

ذخائرها الثمينة كتاب بطليموس فى الفلك فأمر المأمون بتعريبه وسماه المجسطى(٩١)، كما أنشأ بيت الحكمة وهو مجمع علمى ومرصد فلكى ومكتبة يقيم فيه طائفة من المترجمين من أهل الذمة وتجرى عليهم الأرزاق من بيت المال. وأرسل المأمون بعد ذلك بعثة علمية لشراء كتب الحكمة من بلاد الروم مكونة من الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب دار الحكمة فأخذوا مما اختاروه عدداً كبيراً وحملوه إلى بغداد فأمرهم المأمون بتعريبها فاجتمع عنده فى دار الحكمة مجموعة كبيرة من كتب الفلسفة والمنطق والموسيقى والفلك وغيرها(٩٢) إلى جانب كنوز العلوم الإسلامية(٩٣). وما أضافه الرشيد والمأمون من كتب العلم فى لغات مختلفة وما جمعه يحيى بن خالد من كتب الهند(٩٤).

وبلغت حركة التعريب أشدها فى عهده إذ حرص على نقل ما يتفق مع العقلية العربية الجديدة من التراث الهيلينى والشرقى إلى العربية. فقد بلغ التمازج الثقافى بين الثقافة العربية الإسلامية الجديدة وعلوم الأولين درجة كبيرة من التقدم. ويرى البعض من المؤرخين(٩٥) أن ازدهار التعريب لا يعطى للمأمون أكثر من كونه رمز للعصر وليس بالمحرك ولا الباعث له إذ لم يبق المأمون فى بغداد أكثر من عشر سنوات بين ٢٠٤ – ٢١٤ هـ وكان تشجيعه للعلماء فى جانب كبير منه عملا سياسياً أكثر مما هو علمى وكان ما فعله المأمون فى هذا المجال أنه وسع دائرة الترجمة الموجودة فى البلاط لجعل من مهمة (خزانة الحكمة) وأصحابها تعريب الكتب الفلسفية أيضاً.

ويرى البعض من المؤرخين(٩٦) أن المأمون قد تأثر بالإعتزال عن طريق أستاذه ومؤدبه يحيى بن المبارك الذى كان قد اتصل به منذ صباه فى أيام الرشيد بالإضافة إلى أنه كان محوطا بشيوخ الاعتزال أمثال ثمامة بن أشرس ويحيى بن أكثم. أو أنه أراد من إتخاذ الاعتزال مذهباً رسمياً للدولة

ان يظفر بتكوين دولة موحدة سياسياً بامتزاج الأحزاب وتوحيد القوى لاستتباب الأمن فكان يريد أن يتخذ من مذهبه الدينى مذهباً وسطاً إلا أنه لم يظفر بغايته لا من الوجهة السياسية بانتهاء حياة الرضا بالموت مسموماً ولا من الوجهة الدينية التى لم ترض عنها المذاهب الإسلامية الأخرى .

وفى عهده ترجمت كتب اليونان الكبرى مثل كتب أفلاطون وأرسطو فى الفلسفة وأبقراط وجالينوس فى الطب وأقليدس وأرخميدس وبطليموس فى الرياضيات وغير ذلك(٩٧) .

ان عصر التعريب الحقيق إنما قادته جماهير المتعلمين والمترجمين عبر عهد المأمون فى عهد المعتصم والواثق والمتوكل واستمر التعريب فى عنفوانه وكثافته حتى أواسط القرن الثالث الهجرى وان المد التعريبى لم ينقطع وقد استمر حتى أواسط القرن الرابع الهجرى .

لقد ازدهرت حركة التعريب والترجمة على أيدى أهل الذمة الذين عكفوا على ترجمة وتعريب أمهات الكتب السريانية واليونانيـــة والفهلوية والسنسكريتية ، وكان ذلك بتأثير الخلفاء العباسيين إلا أنهم لم يكونوا وحدهم يهتمون بالترجمة والنقل إلى العربية بل نافسهم الوزراء والأمراء والأغنياء وأهل العلم وأخذوا ينفقون الأموال الطائلة عليها(٩٨) قال ابن الطقطاقى (٩٩): (إن البرامكة شجعوا تعريب صحف الأعاجم حتى قيل : إن البرامكة كانت تعطى المعرب زنة الكتاب المعرب ذهبا) وبالغ الفتح بن خاقان وزير المتوكل فى إنفاق الأموال على الترجمة والتأليف ولم يكن محمد بن عبد الملك الزيات أقل منه سخاء فى هذا وممن اشتهر بتشجيع حركة التعريب والتأليف من الأغنياء محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر المنجم الذين أنفقوا الأموال الضخمة فى الحصول على كتب الرياضيات وترجمتها وكانت آثارهم

قيمة فى الهندسة والموسيقى والنجوم وقد أنفذوا حنين بن اسحاق إلى بلاد الروم لجاؤهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات[100] .

وممن عرب لهم الكتب بالإضافة إلى حنين بن اسحق حنين بن الحسن وثابت بن قرة وكانوا يرزقوهم فى الشهر نحو خمسمائة دينار[101] .

ولو رجعنا إلى المصادر التاريخية التى تناولت تدوين أسماء النقلة لوجدنا أسماء جمهرة كبيرة منهم أصبحوا يشكلون طبقة بارزة وواضحة فى المجتمع العباسى يذكر ابن أبى أصيبعة أنه كان فى بلاط الخلافة العباسية منهم ستة وخمسون رجلا من أهل المذاهب .

واضطر النقلة إلى استخدام الكثير من المصطلحات والصيغ الأعجمية اليونانية والسريانية والفارسية والهندية على صيغتها الأجنبية على الرغم من أن التراجمة باللغة العربية ابتكروا معظم الألفاظ والمصطلحات من العربية فان أعجزهم ذلك استعاروا الكلمات الأجنبية نفسها[102] .

ومن آثار مشاركة الفرس فى العصر العباسى فى الإدارة والدواوين والقيادة والإمارة والإختلاط والتمازج بين العرب والفرس خاصة أن تسربت إلى اللغة العربية بعض الألفاظ الفارسية وذلك لأن العرب المسلمين بعد الفتح الإسلامى وجـــدوا بعض أسماء الأدوات والحاجات وأنواع المأكولات والملابس لا يوجد لها مقابل فى العربية فاضطروا إلى تعريبها أو أخذها كما هى بلغتها الأجنبية بما يتفق واللسان العربى[103] . وساعد هذا الاختلاط أيضاً على نقل بعض تراث الفرس الحضارى فى الأدب والتاريخ والقصة كما قام من يجيد منهم اليونانية والهندية بترجمة كثير من أسماء الأدوات اليونانية والهندية إلى العربية[104] .

ونختتم بحثنا هذا بالقول أن نشاط حركة التعريب كان بدافع رسمى

وشفهي وكان للإسلام أثر كبير في نجاح عملية تعريب الأمم التي انتشر الإسلام فيها كما لعبت الحركات السياسية والفكرية والازدهار الثقافي والحضاري ورغبة بعض خلفاء المسلمين دوراً بارزاً ومهما في توسع هذه الحركة وإنتشارها بين أغلب الشعوب التي خضعت لدار الإسلام .

مصادر ومراجع البحث

ابن أبي أصيبعة : موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجي ٦٦٨ هـ/١٢٧٠ م .
١ — (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) .
بيروت ، دار الفكر ، ١٩٥٦

ابن الأثير : أبي الحسن علي بن الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الخزرجي والمكنى بعز الدين ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م
٢ — (الكامل في التاريخ)
مطبعة بولاق ١٢٩٠ هـ ، مصر .

ابن خلدون : عبد الرحمن المغربي ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م .
٣ — (المقدمة) .
مطبعة مصطفى محمد — القاهرة .

ابن شيبى : إيليا مطران نصيبين
٤ — (كتاب المجالس السبعة) (مخطوط) .
وهو رسالة الوزير المغربي العباسي للمطران إيليا
من مقتنيات الأستاذ سعيد الديوجي — الموصل .

ابن الطقطقى : فخر الدين محمد بن على بن طباطبات ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م
٥ — (الفخرى فى الآداب السلطانية)
مطبعة محمد على صبيح — القاهرة .

ابن القفطى : جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م .
٦ — (تاريخ الحكماء) مختصر الزوزنى) .
من كتاب (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) .
طبع ليبتسك ١٣٢٠ .

ابن النديم : ت ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م .
٧ — (الفهرست) .
سلسلة روائع التراث العربى / مكتبة خياط / بيروت .

البلاذرى : أحمد بن يحيى بن كابرت ٢٧١ هـ / ٨٩٢ م .
٨ — (فتوح البلدان) .
نشر صلاح الدين المنجد .
مطبعة الموسوعات ١٩٥٧ القاهرة .

الجاحظ : ابن عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصرى ، ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م .
٩ — (البيان والتبيين) .
نشر مكتبة المثنى ، بغداد .

الجهشيارى : محمد بن عبدوس ت ٣٣١ هـ .
١٠ — (الوزراء والكتاب) .
مطبعة البابى الحلبى ، مصر ١٩٣٨ م .

خليفة : مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجى خليفة ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٦ م .
١١ — (كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون) .
دار المعارف التركية ١٩٤١ م .

الدميرى : كمال الدين ت ٨٠٨ هـ .
١٢ — (حياة الحيوان الكبرى) .
المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٢٧٤ هـ .

الشهرستانى : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد .
(ت ٥٤٨ هـ — ١١٥٣ م) .
١٣ — (الملل والنحل) .
تحقيق محمد سيد كيلانى .
نشر مصطفى البابى الحلبى / مصر ١٩٦١ م .

الماوردى : أبى الحسن على بن محمد بن حبيب المصرى البغدادى .
ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م .
١٤ — (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) .
مطبعة الوطن ١٢٩٨ هـ / القاهرة .

المقريزى : تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م .
١٥ — (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) .
مطبعة بولاق / مصر .

أمين . أحمد .
١٦ — (فجر الإسلام) .
مطبعة لجنة التأليف ١٩٣٥ ط ٣ القاهرة .
١٧ — (ضحى الإسلام) .
نشر دار الكتاب العربى ط ٣ بيروت .

أوليرى : دى لاسى .
١٨ — (إنتقال علوم الإغريق إلى العرب) .
مطبعة الرابطة بغداد ١٩٥٨

بروكلمان : كارل .
١٩ — (تاريخ الشعوب الإسلامية) ط ٣
دار العلم للملايين — بيروت ١٩٦١

بارتولد : ف
٢٠ — (تاريخ الحضارة الإسلامية) .
ترجمة حمزة طاهر .
ط ٣ طبع دار المعارف بمصر .

الخربوطلى : ٢١ — على حسنى
(تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى) .
دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م .

دراوور : الليدى
٢٢ — (الصابئة المندائيون) .
ترجمة نعيم بدوى وغضبان رومى .
مطبعة الإرشاد - بغداد ١٩٦٩ م .

ديمومبين : موريس غود فروا
٢٣ — (النظم الإسلامية) .
ترجمة صالح الشماع ورفيقه .
مطبعة الزهراء — بغداد ١٩٥٢

ديورانت : ول
٢٤ — (قصة الحضارة) .
طبع الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية .

رفاعى : أحمد فريد
٢٥ - (عصر المأمون)
مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٨ م.

الريس : محمد ضياء الدين
٢٦ - (الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية)
دار المعارف بمصر ط٣ ١٩٦٩ م .

زيدان : جرجى
٢٧ - (تاريخ التمدن الإسلامى)
طبع دار الهلال القاهرة .

سيديو : ل . أ
٢٨ - (تاريخ العرب العام) ترجمة عادل زعيتر
نشر البابى الحلبى / مصر ١٩٤٨

شاكر مصطفى
٢٩ - (التعريب فى الإسلام)
مقالة بمجلة البيان الكويتية التى تصدرها رابطة الأدباء
العدد ١١١ حزيران ١٩٧٥ م .

على : سيد أمير
٣٠ - (مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى)
ترجمة رياض رأفت .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ / القاهرة .

غنيمة : يوسف رزق الله
٣١ - (نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق)
مطبعة الفرات - بغداد ١٩٢٤ م .

لوبون : ڤوستاف
٣٢ – (حضارة العرب)
ترجمة عادل زعيتر .
مطبعة عيسى البابي الحلبي .

ماجد : عبد المنعم
٣٣ – (الحضارة الإسلامية فى القرون الوسطى) .

هونكة : زيغريد
٣٤ – (شمس العرب تسطع على الغرب)
المكتبة التجارية بيروت .

اليوزبكى : توفيق سلطان
٣٥ – (تاريخ أهل الذمة فى العراق)
رسالة دكتوراه غير منشورة .

الحـــواشى

(١) انظر ، ابن النديم: الفهرست ، البلاذرى فتوح البلدان ، ابن سعد الطبقات .

(٢) انظر : Goitein, jews and Arabs, p. 127.

(٣) انظر : ديموبين النظم الإسلامية ص ١١ .

(٤) انظر ، بارنولد : الحضارة الإسلامية ص ٣٠ .

(٥) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنبياء جـ١ ص١٨٥ ، ص١٨٩ .

(٦) انظر ديورانت : قصة الحضارة جـ١٤ ص١٣٦ .

(٧) انظر : The Jewish Encyclopedia Y I. p.

(٨) انظر : جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٢ ص ١١٤ ، غنيمة : نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق ص ١٦٧ .

(٩) ايليا المجالس السبعة (مخطوط) ورقة ٢٨ .

(١٠) توماس أرنولد الدعوة إلى الإسلام ص ٧٠ .

(١١) دراوور : الصابئة المندائيون ص ١٣٣ ، ص١٣٥ .

(١٢) الشهرستانى : الملل والنحل جـ٢ ص٥٠ .

(١٣) انظر سيديو : تاريخ العرب العام ص٣٨٣ ، ٣٨٥ .

(١٤) انظر ديورانت قصة الحضارة جـ١٣ ص١٧٧ .

(١٥) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ١ ص ٢٠٦ .

(١٦) سيدة كاشف : الوليد بن عبد الملك ص٢٢٦ .

(١٧) ابن القفطى: أخبار الحكماء ص٢٨٠ ، ص٢٨١ ، دائرة المعارف الإسلامية (مادة صابئة) جـ١ ص٩١ .

(١٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢٤ — ١٢٥ ، ابن النديم الفهرست ص ٣١٢ .

(١٩) ابن النديم : الفهرست ص ٢٠٢ .

(٢٠) ابن القفطى : أنباء الحكماء ص٥٧ — ٥٦ .

(٢١) المصدر نفسه ص ٧٥ — ٧٦ .

(٢٢) أوليرى انتقال علوم الإغريق إلى العرب ص٦٦ — ٦٧ .

(٢٣) أحمد أمين: ضحى الإسلام جـ١ ص١٦٠ .

(٢٤) أوليرى : انتقال علوم الإغريق ص٢١ .

(٢٥) هونكه : شمس العرب تسطع ص ١٨١ .

(٢٦) اليوزبكي : تاريخ أهل الذمة في العراق ص١٨٤ — ١٨٥ .

(٢٧) كناش جمعها كناشات أوراق تجعل كالدفتر يقيد فيها الفوائد والشوارد (الزبيدي تاج العروس جـ٤ ص٣٤٧ مصر سنة ١٩٤٨) .

(٢٨) ابن القفطي أخبار العلماء ص٨٠ .

(٢٩) ابن خلدون المقدمة ٤٥٤ — ٤٥٥ .

Ency of Islam (art Nahw) T3. p. 894. 15.

(٣٠) كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ص٢٦ — ٢٧ .

(٣١) أحمد أمين فجر الإسلام ص١٧٥ .

(٣٢) عبد المنعم ماجد الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى .

(٣٣) اليوزبكي تاريخ أهل الذمة في العراق ص٣٨٣ .

(٣٤) اليوزبكي تاريخ أهل الذمة في العراق ص ٣٨٢ .

(٣٥) غوستاف لوبون حضارة العرب ص٤٣٣ — ٤٣٤ .

(٣٦) المقريزي كتاب النقود ص٣٢ .

(٣٧) المصدر السابق والصحيفة .

(٣٨) البلاذري فتوح البلدان ص٤٧٣ .

(٣٩) المصدر السابق والصحيفة .

(٤٠) المقريزي ص٣٣ .

(٤١) الماوردي الأحكام السلطانية ص ١٤٨ .

(٤٢) الخربوطلي تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ص ٤٢٤ .

(٤٣) البلاذري فتوح البلدان ص٤٧١ .

(٤٤) المقريزي كتاب النقود ص٣١ — ٣٣ .

(٤٥) البلاذري فتوح البلدان ص٤٧١ .

(٤) ابن الأثير الكامل جـ٤ ص١٧٤ بولاق ١٢٩٠هـ .

(٤٧) الريس الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ص ٢٢١ ، الأتليدي أعلام الناس ص ٢٧٤ .

(٤٨) E, Gibbon, The Decline and fall the Roman Eman Vol 5, p 388.

(٤٩) البلاذري فتوح ص٤٤٩ .

(٥٠) جرجي زيدان تاريخ التمدن الاسلامي جـ١ ص ٩٨ .

(٥١) البلاذرى فتوح البلدان ص ٤٧٢ .

(٥٢) أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ص ١٦٤ .

(٥٣) الماوردى الأحكام السلطانية ص١٤٨ .

(٥٤) سيد أمير على مختصر تاريخ العرب ص ١٦٥ .

(٥٥) ابن الأثير الكامل جـ٤ ص١٧٣ .

(٥٦) البلاذرى فتوح البلدان ص٤٧٢ — ٤٧٣ .

(٥٧) الدميرى حياة الحيوان جـ١ ص ٧٦

(٥٨) الجهشيارى الوزراء والكتاب ص ٣٨ .

(٥٩) الماوردى الأحكام السلطانية ص ١٩٢ .

(٦٠) المقريزى الخطط جـ١ ص٩٨ .

(٦١) أمير على مختصر تاريخ العرب ص١٦٦ .

(٦٢) الريس الخراج والنظم المالية ص٢٢٧ .

(٦٢) البلاذرى فتوح البلدان ص٢٠٩ ، الجهشيارى الوزراء ص ٤٠ .

(٦٤) البلاذرى فتوح ص ٢٠١ .

(٦٥) البلاذرى فتوح البلدان ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

(٦٦) المقريزى الخطط جـ١ ص٩٨ .

(٦٧) الجهشيارى الوزراء ص٦٧ .

(٦٨) أحمد أمين ضحى الاسلام جـ١ ص٢٨١ .

(٦٩) بارتولد تاريخ الحضارة الاسلامية .

(٧٠) هونكه شمس العرب تسطع ص ٣٧٨ .

(٧١) أحمد أمين ضحى الاسلام جـ١ ص ٢٧٠ .

(٧٢) ابن النديم الفهرست ص ٣٥٤ .

(٧٣) ابن أبى أصيبعة عيون الأنباء جـ١ ص١٦٣ .

(٧٤) أحمد أمين فجر الاسلام ص١٦٢ .

(٧٥) أحمد أمين فجر الاسلام ص١٥٩ .

(٧٦) انظر رفاعى عصر المأمون ص١٦٣ ، حاشية (١) .

(٧٧) أحمد أمين فجر الاسلام ص٢٦٣ .

(٧٨) الجاحظ البيان والتبيين جـ١ ص١٣٩ .

(٧٩) أحمد أمين ضحى الاسلام جـ١ ص ١٨١ .

(٨٠) ابن النديم الفهرست ص٢٢٤ وما بعدها .

(٨١) أحمد امين ضحى الإسلام جـ١ ص١٧١ .

(٨٢) شاكر مصطفى التعريب فى الإسلام ص٥٢ .

(٨٣) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على العرب ص٧٣ ، ٧٣ .

(٨٤) حاجى خليفة كشف الظنون جـ١ ص٦٧١ .

(٨٥) انظر . رفاعى عصر المأمون جـ١ ص٣٧٩ .

(٨٦) بروكلمان ص٤٠ .

(٨٧) بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ص٤٠ .

(٨٨) ابن القفطى أخبار الحكماء ص٢٤٩ ، ابن أبى أصيبعة جـ١ ص١٧٥ ، خليفة كشف الظنون جـ١ ص ٦٨٠ .

(٨٩) ابن النديم الفهرست ص ٢٤٧ .

(٩٠) المصدر السابق ص ١٠٥ .

(٩١) المجسطى : ومعناه الترتيب الكبير فى علم الفلك وكان المرجع المهم فى الفلك عند المسلمين وعند الأوربيين فى القرون الوسطى (مواد على تاريخ العرب قبل الإسلام جـ١ ص٦٨٠) .

(٩٢) ابن النديم الفهرست ص٣٣٩ .

(٩٣) بروكلمان ص٣٩ .

(٩٤) محمد فوزى القتيل التربية عند العرب مظاهرها واتجاهاتها ص١٩ الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ .

(٩٥) شاكر مصطفى التعريب فى الاسلام ص ٤٧ — ٤٨ .

(٩٦) رفاعى عصر المأمون ص ٣٦٧ ، ص٣٧٢ .

(٩٧) عبد المنعم ماجد تاريخ الحضارة الاسلامية ص١٤٧ ، ص١٥٠ .

(٩٨) اليوزبكى تاريخ أهل الذمة فى العراق ص٣٨٢ .

(٩٩) ابن الطقطقى الفخرى فى الآداب السلطانية ص٢٣٥ .

(١٠٠) انظر ابن النديم الفهرست ص ٣٤٠ .

(١٠١) رفاعى عصر المأمون جـ١ ص ٣٧٨ .

(١٠٢) شاكر مصطفى التعريب فى الاسلام ص ٥٤ .

(١٠٣) انظر أحمد أمين ضحى الاسلام جـ١ ص ١٧٤ .

(١٠٤) اليوزبكى تاريخ أهل الذمة ص٤٠٠ .

امرأة مصرية، تتزعم مظاهرة

فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى

بقلم
دكتور عبد المنعم ماجد
أستاذ التاريخ الإسلامى
ورئيس قسم التاريخ
بآداب عين شمس

كان النيل دائماً شغل مصر الشاغل؛ على مدى الزمن؛ ولم تكن تستطيع أبداً أن تتجاهل فيضانه ؛ بل كانت تنتظره بفروغ صبر إلى أن يوافى فى كل عام ؛ وترتفع مياهه إلى منسوبها الكافى ؛ لكى تسقى أرض مصر ، وبالتالى تستقبل البلاد الخير ؛ عندئذ يحتفل المصريون احتفالا كبيراً « بوفاء »[1] النيل .

وقد اتخذ هذا الاحتفال مظاهر متعددة ؛ فقديماً اعتبر النيل إلها كبيراً، وقيل إن المصريين كانوا يعمدون إلى دمية أو جارية بكر ، من أجمل فتيات مصر، ليلقوها فى النيل[2]، بعد أن يلبسوها أفضل الحلل والثياب؛ كقربان لهذا الإله ؛ حتى يفيض بخيره على البلاد . فلما جاء العرب ، كانوا يكتفون فى احتفالهم، بإلقاء بطاقة فى النيل، كُتبت فيها بعض الصيغ الدينية، واستمر ذلك إلى أن جاء الفاطميون ؛ فأصبح الخليفة يركب بهيئة المواكب الرسمية العظيمة، وسط ابتهاج الشعب ومرحه ؛ ليعطر بيديه المقياس فى الروضة ؛

وهو ما كان يعبر عنـــه بموكب : تخليق المقياس[٣] ، أى دهانه بالطيب « بالخلوق » .

ومع ذلك ؛ فإن النيل كثيراً ما كان يقصر(٤) عن ارتفاعه العادى ؛ مما يترتب عليه أن لا تجد مصر المياه اللازمة لسقى أرضها؛ فتشرق الأراضى أو لا تزرع. وقد يزيد الأمور استفحالا ؛ سوء تدبير الحكام وغفلتهم(٥)، عن علاج الأحوال ، مما يؤدى إلى وقوع المجاعات .

فيذكر المؤرخ المقريزى فى كتابه : « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ، الذى يتناول تاريخ المجاعات فى مصر : أن مجيء الفاطميين إلى مصر ، كان سببه فى الواقع الضنك من المجاعات ؛ نتيجة لتقصير النيل ، بحيث أن المصريين كاتبوا المعز لدين الله الفاطمى(٦) ؛ ليحضر إلى مصر؛ لكى ينقذهم منه . فلما وصل ، اتخذ إجراءات سريعة ؛ لتخفيف حدة المجاعات ، منها حمل الغلات معه من المغرب ؛ كما منع[٧] النداء عن إرتفاع النيل قبل الوفاء؛ لما يحدثه ذلك من بلبلة وقلق ؛ بمجرد الإحساس بأن النيل قد لا يصل إلى مستواه فى المقياس ، وما يترتب على ذلك من الإلتجاء إلى التخزين ، وارتفاع الأسعار ، وإنعدام الأقوات .

كذلك كان الحاكم بأمر الله الفاطمى ، هو الآخر تواقاً إلى أن يقطع دابر المجاعات من مصر ؛ حينما سمع أن عالماً فى العراق ، أسمه أبو على ابن الهيثم(٨) ، نبغ فى الهندسة ، وأنه قال: لو كنت فى مصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع ، فى كل حالة من حالاته ، من زيادة ونقص . فأرسل الحاكم إليه جملة من مال ، وحثه على المجيء إلى مصر ، فلما وصلها ، خرج الحاكم بنفسه للقائه، وأمر بانزاله وأكرمه ، وسيّره مع جماعة من الصناع فى طول الإقليم المصرى ، حتى وصل أسوان . ولكن ابن الهيثم، لم يستطع أن يقوم بشيء — بسبب طبيعة أرض أسوان الجرانيتية — واعتذر عن

عجزه ؛ فأبقاه الحاكم عزيزاً مكرماً . فلعل هذا الذى كان يقوله ابن الهيثم عن نيل مصر ؛ هو أول تفكير لإقامة خزان أو سد عالٍ فى أسوان ؛ لحجز المياه وقت زيادة الفيضان أو نقصانه !!

وكانت الدولة تقدّر أن إبعاد شبح المجاعة عن مصر؛ لايتأتى إلا بتخزين الحبوب . فخصصت فى ميزانيتها كل عام ، مائة ألف دينار (خمسين ألف جنيه) : لشراء محصول القمح من الزراع ؛ فكانت تجمعه فى البيادر ، أى الأمكنة التى يكوم فيها ، ثم ينقل إلى الخزائن السلطانية ؛ فكان هذا الإحتياطى ، فى وقت الحاجة ، يوزع على الطحانين والخبازين . كذلك ، كان للدولة متاجر تملكها لبيع الغلال ، ودكاكين لبيع الخبز ؛ بقصد تثبيت سعرهما ، أو ترخيصهما ؛ كما أنهـــا كانت تعمل على تثبيت أسعار المواد الغذائية الأخرى؛ باقامة سعر لكل شيء ؛ حتى لايتلاعب التجار بالأسعار.

ولكن النيل عاد إلى تقصيره سنوات متتالية ، فى عهـــد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى(٩) ، وزاد من استفحال الأحوال ، إضطراب أمور الدولة فى عهده ، بتغيير الوزراء ، حتى بلغ عددهم أربعين وزيراً فى تسع سنوات ، وسها عن تخزين الإحتياطى من القمح ؛ إلا ما يحتاجه القصر ومطبخ الخليفة وحواشيه لا غير ، وخزنت بدله مواد أخرى، مثل الصابون والخشب ، بقصد الإتجار فيها ؛ لزيادة الفائدة . وقد سعى الخليفة إلى علاج نقص الغلال ، بالدخول فى مفاوضات مع مملكة الروم ، مع عداوتها لخلافته ؛ فأرسل إليهم القاضى أبا عبد الله القضاعى ؛ بقصد استيراد أربعمائة ألف أردب من القمح ؛ ولكن الروم رفضت ؛ مما جعل البلاد لا تجد ما تحتاجه من غلال .

وحدث نتيجة لذلك مجاعة شديدة، عرفت باسم: الشدة المستنصرية(١٠)، استمرت من ٤٥٧/١٠٦٥ إلى ٤٦٤/١٠٧١ ، وُصفت بأنه لم يحدث مثلها منذ

أيام يوسف الصديق . وزاد من خطورتها أنه صاحبها انتشــار الأوبئة والأمراض ، ولاسيما الجدري ؛ حتى مات منه كثيرون ، وقيل إنه في بسببه ثلث أهل مصر . فأقفرت الأسواق ، وكان لا يرى بها أحد ، كما نزلت الجند للأرض لزرعها ؛ لعدم وجود الفلاحين ، ونقص عدد القرى من ٣٨٣٤ إلى ٢٠٦٢[11] .

فتعذر وجود الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، فكان رغيف العيش وحده ، يباع بـ ١٥ ديناراً[12] (٧½ جنيه) ، وأردب القمح بـ ١٠٠ دينار (٥٠ جنيهاً) . وقد اضطر الميسورون من الناس ، إلى بيع كل ما عندهم ؛ لقاء كسرة من الخبز ؛ حتى أن حارة سُميت بحارة الطبق ؛ إذ بيعت فيها عشرون داراً لقاء طبق من الأكل[13] . وباع الخليفة نفسه ، كل ما في قصره ؛ بعد أن كانت خزائنه مكدسة بالأموال والتحف ، وكان يقنع بأكل رغيفين في اليوم ؛ وأن أفراد أسرته نزحوا إلى المناطق المجاورة ، وتشتتوا في البلاد . وقيل إن رجلا ذهب إلى الحمام ؛ فطلب صاحب الحمام من الرجل أن يخدمه سعد الدولة أو فخر الدولة أو عز الدولة[14] ؛ حيث أنهم كانوا يسعون إلى الحصول على ما يمسك رمقهم .

وقد اضطر الناس إلى أكل الميتة من الكلاب والقطط ، والبحث عن شرائها ؛ حتى بيع الكلب بـ ٥ دنانير (٢½ جنيه)[15] ، والقط بـ ٣ دنانير (١½ جنيه) . وقيل — للمبالغة أو حقيقة — إنه من شدة الجوع ؛ كان طائفة من الناس ، يجلسون على السقائف ، وبأيديهم حبال فيها كلاليب — خطافات — فإذا مر بهم أحد من الناس ، ألقوا عليه تلك الحبال ، ونشلوه بتلك الكلاليب ، في أسرع وقت ؛ فإذا صار عندهم ذبحوه في الحال ، وأكلوه بعظامه[16] ، أو شرحوا

لحمه وأكلوه، وعُرف الزقاق الذى يجلسون فيه بزقاق القتل ، ولكن الدولة تعقبتهم ، وعملت على شنقهم .

فى هذه الظروف الصعبة، قامت امرأة مصرية[١٧]، يبدو أنها كانت على شىء من الثراء ، إذ وُصفت بأنها من « أرباب البيوتات » ، كانت قد باعت عقداً لها ، يساوى ألف دينار ؛ لتحصل على قليل من الدقيق . ولكن هذا الدقيق نهبه الناس ، وهى فى الطريق ، واضطرت هى أن تأخذ منه مايعجن قرصة ؛ فأخذت هذه القرصة ، ووقفت عند قصر الخليفة ، فى مكان مرتفع ، ورفعتها فى يدها ، بحيث يراها الناس ، ونادت بأعلى صوتها ساخرة : ياأهل القاهرة، أدعوا لمولانا المستنصر ، الذى أسعد الله الناس بأيامه ، وأعاد عليهم بركات حسن نظره ؛ حتى تقوّمت علىّ هذه القرصة بألف دينار .

فلما سمع المستنصر بذلك ، امتعض له أشد الامتعاض ؛ وإن دفعه أن يفعل شيئاً . فدعا بتجار القمح والخبازين والطحانين فى مجلس عظيم ، وهددهم بقطع الرقاب ، إذا لم يظهر المخزون من الغلال ، فظهرت الغلال فى الأسواق . كذلك شاء حسن حظه ، أن تدارك الله الخلق ؛ وعاد فيض النيل إلى الحد المرموق ، وتوقفت الأوبئة من ذاتها . بل إن أهل الأندلس المسلمين[١٨] ، أرسلوا إلى المصريين سفناً عاوءة بالطعام والغلال ، لمساعدتهم فى محنتهم ؛ فأعاد المصريون بدورهم هذه السفن محملة بالذخائر الحربية ؛ كى يستطيع الأندلسيون الاستعانة بها فى كفاحهم ضد الأسبان .

وبعد ، فإن التاريخ سوف يذكر لمصر فى العصر الحديث أن السد العالى فى أسوان ، كان تحقيقاً لحلم سابق ، وأنه لم يتم إلا بعد أن حشد له شعب مصر كل موارده وطاقاته ، وتمكن من أن يبقر بطن الجبل الجرانيتى ؛ ليبعد عنه شبح المجاعة نهائيا ، سواء ارتفع النيل أو قصر ، وهى المجاعات التى لاحقت مصر منذ تاريخها القديم .

الحواشى

(١) صبح الأعشى ، ٣ ص٥١٦ س٥ .

(٢) الخطط ، ١ص ٥٨ س ١٦ — ٢٠ .

(٣) يتفصيل : نفسه ، ١ ص٤٧٦ — ٤٧٧ ؛ صبح الأعشى ، ٣ ص٥١٦ — ٥١٨ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص١٠٤ وما بعدها .

(٤) إغاثة الأمة ، ص١١ .

(٥) نفسه ، ص٤ س٣ .

(٦) اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٦ — ١٤٧ ؛ انظر ، ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين ، ص ٣٦٢ .

(٧) الخطط ، ١ ص٩٧ — ٩٨ .

(٨) ابن العبرى ، ص ٣١٦ وما بعدها ؛ انظر . ماجد ، الحاكم بأمر الله ، ص ٦٤ — ٦٥ .

(٩) ابن ميسر ، ص٦ — ٧ ؛ إغاثة ، ص١٨ — ٢٠ ؛ انظر . ماجد ، المستنصر بالله ، ص١٥٥ — ١٥٦ .

(١٠) إغاثة ، ص ٢٤ وما بعدها .

(١١) الكنائس والأديره ، ص ١٠ وما يليها ؛ الخطط ، ١ ص ١١٧ س ١٩ — ٢٠ .

(١٢) ابن اياس ، ١ ص ٦٠ .

(١٣) كنز الدرر ، ٦ ورقة ٢١٥ .

(١٤) النجوم ، ٥ ص١٦ س ٦ — ٩ .

(١٥) ابن اياس ، ١ ص ٦٠ .

(١٦) إغاثة ، ص ٢٤ ؛ الخطط ، ٢ ص١٤١ .

(١٧) إغاثة ، ص٢٥ — ٢٦ .

(١٨) الحلل الموشية ، ص٧٢ ؛ انظر . مختار العبادى ، الصقالبة ، مجلة معهد مدريد ، ١٩٥٣ ، ص ٢٦ حاشية (٤) .

صلاح الدين واليهود

للدكتور عطية القوصي
المدرس بكلية الآداب جامعة القاهرة
(فرع الخرطوم)

شهد المؤرخون المسلمون وغير المسلمين للسلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب بالتسامح الديني وعدم التعصب مع غير المسلمين . ويُرجع البعض هذا التسامح إلى أنه جزء من السياسة الحكيمة التي وضعها السلطان لإصلاح حال اقتصاد مصر وقت أن تولى حكمها ، وذلك بالاستفادة من جهود جميع العناصر العاملة في الدولة بغض النظر عن أديانها لمواجهة المصاعب المالية التي نجمت عن اضطراب الأحوال في مصر في أواخر عهد الفاطميين[1] . وسواء كان هذا الرأي صحيحاً أم مجانباً للصواب فإنه من الثابت أن صلاح الدين كان يتحرى العدالة ويطبق تعاليم الشرع في جميع معاملاته ويتوخى رضاء الله في تعامله مع رعايا دولته سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين[2] .

ولم تقتصر عدالة صلاح الدين على المسيحيين ولكنها شملت أيضاً اليهود الذين كانوا في أسوأ حال حين تولى السلطان حكم مصر والشام . ولقد تنفس اليهود الصعداء على يد هذا الحاكم المسلم الذي سمح لهم بالعودة إلى القدس وفلسطين وبحرية العمل والعبـــادة في أرض هذه البلاد المقدسة . وكان الصليبيون قد طردوا اليهود من فلسطين وحرموا عليهم دخول القدس غداة نجاحهم في حملتهم الصليبية الأولى وفرضوا عليهم هذا الحظر الذي سبق أن

فرضه عليهم أباطرة الرومان تيتوس وهادريان[٣] . وفقد اليهود بذلك امتياز الحياة فى المدينة المقدسة وحرية التنقل والمعيشة فى مدن فلسطين وهو الامتياز الذى حصلوا عليه من المسلمين غداة الفتح الإسلامى لبلاد الشام[٤] .

وتحكى لنا المصادر العربية والأوربية عن المعاملة القاسية التى عامل بها الصليبيون سكان فلسطين عامة وبيت المقدس خاصة مسلمين ومسيحيين ويهود. فحين استولى «جودفروا دى بلوين» قائد الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس (١٥ يوليو ١٠٩٩) أقام فيها حمام دم لأهل الملل الثلاثة ، وانطلق رجاله فى شوارع المدينة يقتلون كل من يصادفهم من أهلها من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز . واستمرت المذبحة طوال يوم الفتح وطوال الليل[٥] . وبالنسبة لليهود فلقد أحرق الصليبيون عليهم معبدهم الذى اجتمعوا فيه فمات منهم عدد كبير وأُسر من فر من النار وسيقوا ليباعوا فى أسواق النخاسة ، ورُوى أن ثلاثين يهودياً بيعوا بدينار واحد[٦] . وبرر «دى بلوين» قتله وتحريقه لليهود بأنه ينتقم منهم لقتلهم المسيح[٧] .

ولقد عانى اليهود من الاضطهاد الصليبى فى كل مدن فلسطين ، وشملهم القتل والأسر فى يافا وفى حبرون (الخليل) وحيفا وجبل الكرمل وقيسارية[٨] . ونتيجة لهذه المذابح الصليبية هرب من تبقى من اليهود من مدن فلسطين ناجياً بحياته إلى أماكن أكثر أماناً حتى كادت مدن فلسطين أن تخلو تماماً من اليهود ، وذكر الرحالة اليهودى «بنيامين التطيلى» الذى زار فلسطين فى سنة ١١٧٠م أنه رأى مدن فلسطين خالية من اليهود أو تكاد . فذكر أنه لم ير فى يافا سوى يهودياً واحداً وفى بيت المقدس أربعة يهود يعملون بالصباغة[٩] . وإن كان قد ذكر فى موضع آخر من كتاب رحلته أنه شاهد مائتى يهودى عند برج داود فى أطراف القدس يشتغلون

بالصياغة[١٠] . وفى مدينة الرملة ثلاثة يهود فقط . وروى أنه مر على بعض مدن فلسطين فلم يشاهد بها يهودياً واحداً[١١] . وظل شتات اليهود وتحريم سكناهم مدن فلسطين وخاصة القدس قائماً حتى فتح صلاح الدين لهذه المدينة. فبعد أن فتح صلاح الدين القدس (يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ /٢ أكتوبر ١١٨٧ م) سمح لليهود بالعودة إليها ، وأظهر من التسامح والعفو مع أهل المدينة ماجعل المؤرخين يذكرونه بالثناء والتقدير[١٢] . ولقد أمن سكان المدينة جميعهم على أرواحهم ووزع جنوده فى شوارع المدينة وأحيائها ليحفظوا الأمن والنظام بها ويحفظوا أرواح سكانها ، فلم يقع حادث واحد من حوادث السرقة والنهب التى تلازم الفتح عادة[١٣] . ولم يشأ صلاح الدين أن يفعل مع المسيحيين واليهود مثلما فعل الصليبيون الأول من ضروب التوحش والإبادة التى وقعت على سكان القدس[١٤] . فلقد كانت رحمته وعطفه على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين فى الحملة الصليبية الأولى[١٥] .

وحين شعر اليهود بسماحة أخلاق هذا الفاتح العظيم وعدم تعصبه الدينى أخذوا فى العودة من مخابئهم إلى أرض فلسطين والقدس ابتداءاً من سنة ١١٩٠م. وكتب الشاعر الأديب اليهودى «يهودا الحريزى» الذى زار مدينة القدس بعد ربع قرن من عودتها إلى يد صلاح الدين (حوالى سنة ١٢١٦م) عن ذلك الأمر يقول :

« ... ولكن لماذا لم يسمح لليهود بالبقاء فى فلسطين حين كانت فى قبضة الصليبيين المسيحيين؟ ... قيل أن السبب فى ذلك «أننا المتسببون فى قتل إلههم». وأنذروا لذلك بأنهم سوف يأكلوننا أحياءاً إذا تمكنوا منا . لكن الله أرسل الملك العادل صلاح الدين وزوده بالحكمة والشجاعة فسار بجيش من مصر وحاصر القدس وأسقط الله بعونه المدينة فى يده . وعندئذ أرسل السلطان منادياً ينادى فى أرجاء البلاد بأن يعود كل سليل من سلالة إبراهيم إلى القدس من العراق ومصر ومن كل الأماكن التى التجأوا إليها ...[١٦] .

ولقد شهد على عدالة وتسامح صلاح الدين وحسن معاملته لليهود غداة فتحه بيت المقدس أكبر أعداء المسلمين زعيمهم « دافيد بن جوريون » ، فلقد أورد فى كتابه ما نصه[17] .

« لقد أصدر صلاح الدين نداءاً غداة فتحه للقدس يحث فيه اليهود صغاراً وكباراً وخاصة الهاربين من حكم الصليبيين أن يعودوا إلى بيت المقدس . وفى خلال سنوات قليلة من حكم هذا السلطان العادل أعيد المجتمع اليهودى فى القدس وتجمع اليهود من كل صوب وحدب عائدين إلى المدينة المقدسة . ولقد عاد مع هؤلاء العائدين عدد من كبار علماء اليهود وربانيتهم منهم ثلاثمائة من فرنسا وانجلترا وأسبانيا وسكنوا مدينة القدس . ولقد ذكر مؤرخ يهودى أن الملك العادل أخا صلاح الدين استقبل فى سنة ١٢١١ هؤلاء العلماء اليهود الثلثمائة استقبالا طيباً وسمح لهم ببناء مدارس ودور عبادة يهودية . ويأتى على رأس هؤلاء الربانية الرابيين الفرنسيين شمشون بن إبراهيم الشنازى ويوناثان الونلى . ولقد استمرت هجرة العلماء اليهود الغربيين إلى بيت المقدس وفلسطين طوال عهد صلاح الدين وعهد أسرته من بعده » .

وبناءاً على هذه العودة سمح السلطان صلاح الدين لليهود فى مصر والشام بحرية العمل كما سمح لهم بحرية العبادة . وبذلك عاود التجار اليهود نشاطهم التجارى القديم وساهموا بنصيب وافر فى التجارة الداخلية وفى تجارة المرور بين الشرق والغرب . ولم يضع السلطان الأيوبى أية قيود على اشتغالهم فى التجارة ومساهمتهم فى عودة الرواج الاقتصادى للبلاد[18] . فساوى بينهم وبين بقية التجار غير المسلمين فى دفع المكوس . وكان يؤخذ منهم العشر فى ميناء الإسكندرية ودمياط على البضائع التى كانوا يجلبونها من بلاد أوربا إلى مصر مرة كل عام[19] . ثم تقرر أن يؤخذ منهم ومن سائر التجار الأجانب الخمس — وهو ضعف العشر — عن كل ما يصل لهم مرة كل عام[20] . واستمر أخذ الخمس من تجار اليهود ومن غيرهم من التجار الأجانب طوال

عهد صلاح الدين[٢١] وهنالك وثيقة من وثائق الجنيزة - لم تنشر بعد - وهى عبارة عن رسالة وردت من الاسكندرية إلى الفسطاط يمتدح فيها صاحبها التاجر اليهودى السلطان صلاح الدين لإنقاصه المكوس عن اليهود[٢٢] .

وكان اليهود يدفعون الجزية السنوية المقررة عليهم شأنهم فى ذلك شأن غير المسلمين[٢٣] . وكان تجار اليهود الذين يعملون فى تجارة الشرق يدفعون إلى جانب المكوس المفروضة على بضائعهم ما عليهم من الجزية السنوية حتى أثناء تغيبهم فى رحلات تجارة الشرق[٢٤] . وقد جاء فى وثائق الجنيزة أن هذه الجزية كانت تسمى فى عهد الأيوبيين (جعلية) وأنها كانت تؤديها جماعات التجار اليهود حتى أثناء تواجدهم فى الهند وبلاد الشرق الأدنى . وشاهد على ذلك أن تاجراً يهودياً من تجار الهند تغيب فى الهند تسع سنوات ثم مات هناك فدفع عنه أخوته فى مصر جعلية السنين التسعة . وهنالك خطاب من خطابات الجنيزة أرسله أخ من الاسكندرية لأخيه الذى يتاجر فى الهند يطلب منه أن يرسل ما عليه من جعلية . وعند وصول الأخ تاجر الهند إلى الاسكندرية سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م - بعد غياب أربع سنوات - أرسل إلى صديق له فى الفسطاط يطلب منه أن يخبر المحصل بغرق سفينته ورجائه أن يرفع عنه جعلية السنوات الأربع . وقال له فى خطابه ما نصه : « أوعده بنصف دينار أو دينار له وذكره بأنى يوسف صاحب المخزن الواقع تحت الكنيسة المعلقة »[٢٥] .

ونتيجة العمل فى تجارة الشرق وبفضل راية التسامح التى رفعها السلطان صلاح الدين كون بعض تجار اليهود ثروات طيبة وأحرزوا مكانة هامة فى المجتمع المصرى وفى البلاط السلطانى . ولقد قرب صلاح الدين أطباء اليهود إليه وجعلهم أطباءه الخصوصيين بفضل نبوغهم فى علم الطب والمداواة . ورقى السلطان أحدهم إلى منصب القاضى (الناجد) ورفع مكانته وارتفعت

مكانة اليهود معه فى مصر[٢٦] ، فى ذات الوقت الذى ارتفعت فيـــه مكانة اليهود فى العراق[٢٧] وحصل كبيرهم على لقب رأس الجالوت[٢٨] .

ومن الأطباء اليهود الذين خدموا البلاط السلطانى فى عهد صلاح الدين وفى عهد أسرته من بعده نجد أسماءاً لامعة تحدث عنها المؤرخ الطبيب ابن أبى أصيبعة المعاصر لدولة الأيوبيين فى كتابه « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء »[٢٩] .

من هؤلاء : * « الطبيب يوسف بن أبى ســـعيد بن خلف السامرى » المعروف بشمس الحكماء . وكان فى خدمة السلطان صلاح الدين وتوفى بدمشق سنة ٦٢٤ هـ[٣٠] .

* الطبيب أبو المعالى تمام بن هبة الله بن تمام » وكان طبيباً يهودياً غزير العلم وافر المعرفة مشهوراً فى الدولة موصوفاً بالفضل مشكوراً بالمعالجة . وكان مقيماً بفسطاط مصر وأسلم جماعة من أولاده . كان فى خدمة السلطان صلاح الدين وكان ذا حظوة فى أيامه . وقدم بعد ذلك لأخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب وله من الكتب : تفاليق ومجربات فى الطب »[٣١] .

* « الطبيب الشيخ الموفق شمس الرياســة أبو العشائر هبة الله بن زين بن جميع الإسرائيلى » . وكان من الأطباء المشهورين والعلماء المذكورين ، متفنناً فى العلوم جيد المعرفة بها ، كثير الإجتهاد فى صناعة الطب . ولد ونشأ بفسطاط مصر وخدم السلطان صلاح الدين ، وكان رفيع المنزلة عنده عالى القدر نافذ الأمر يعتمد عليه فى صناعة الطب . وكان لإبن جميع مجلس عام للذين يشتغلون عليه بصناعة الطب وكانت له فيه كتب كثيرة[٣٢] .

* « الطبيب أبو البيـان بن المدور الملقب بالسديد » . خدم السلطان

صلاح الدين وكان يعتمد على معالجته . ولقد عمر هذا الطبيب حتى أصابه الضعف والوهن بسبب كبر سنه . فأطلق له السلطان فى كل شهر أربعة وعشرين ديناراً مصرية تصل إليه فى بيته دون أن يكلف بخدمة . وبقى على تلك الحال نحو عشرين سنة . وعاش أبو البيان ثلاثا وثمانين عاماً ، وخدم بعد صلاح الدين الملك العادل أبا بكر بن أيوب وتوفى سنة ٥٨٠ هـ بالقاهرة(٣٣) .

« الطبيب الموفق بن شوعة » . خدم السلطان صلاح الدين وعلت منزلته عنده وتوفى بالقاهرة سنة ٥٧٩ هـ(٣٤) .

ويأتى على رأس هؤلاء الأطباء الطبيب العالم الفيلسوف «موسى بن ميمون» الملقب بالرئيس الذى يقول عنه ابن أبى أصيبعة أنه كان أوحد زمانه فى صناعة الطب وفى أعمالها ، متفنناً فى العلوم وله معرفة جيدة بالفلسفة . وكان السلطان الناصر صلاح الدين يرى له وكذلك ولده الملك الأفضل على ، وكان له من الكتب : « اختصار الكتب الستة عشر لجالينوس » . « مقالة فى البواسير وعلاجها » . « مقالة فى تدبير الصحة » صنفها للملك الأفضل على بن الملك الناصر صلاح الدين . « مقالة فى السموم والتحرز من الأدوية القتالة » . « كتاب شرح العقاد » و « كتاب كبير على شرح اليهود »(٣٥) .

وإذا كانت شخصية موسى بن ميمون الطبية قد أحرزت مكانة هامة فى المجتمع المصرى فى عهد صلاح الدين فإن هذه الشخصية كان لها دور عظيم فى حياة كل اليهود منذ عهده حتى الآن . ذلك لأن هذا الرجل يعتبر المؤسس الحقيقى للديانة اليهودية وواضع أسس هذه العقيدة ومثبت أركان الإيمان بها . ولقد رفعه اليهود إلى مرتبة النبوة وأطلقوا عليه النبى موسى الثانى(٣٦) . ولذلك فإن اليهود الآن يدينون للسلطان المسلم صلاح الدين بإرساء قواعد

دينهم بفضل روح التسامح الديني التي ظللت عهده والتي أعطت المناخ المناسب لنبوغ علامة اليهود موسى بن ميمون الذي كانت له الحظوة والمكانة في بلاط السلطان .

وكان موسى بن ميمون قد التجأ إلى مصر في عهد صلاح الدين بعد هروبه مع أسرته من المغرب (٣٧) ، واحترف مهنة الطب فيها . ولم تمض سنوات قليلة على استقراره بها حتى ذاع صيته وأصبح له السيادة فيها (٣٨) . واختير الطبيب الأول لوزير صلاح الدين « القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني » الذي أوصله إلى البلاط السلطاني وغمره بامتيازات عديدة (٣٩) . وكان موسى قد حصل على نفس المكانة عند « ريتشارد قلب الأسد » في عسقلان وعرض عليه ريتشارد أن يبقى معه وأن يكون طبيبه الخاص . لكن موسى لم يكن يأمن غدر الصليبيين وفضل العيش تحت راية حكم صلاح الدين الذي كافأه مقابل ذلك واعطاه لقب (رأس الأمة) تشريفاً له وتعظيماً (٤٠) ، وأصبح موسى بن ميمون أعظم شخصية يهودية في زمانه حين تولى وظيفة (الناجد) — رئيس القضاة اليهود (٤١) . وصارت تصـــله رسائل اليهود من كل العالم تسأله الفتوى وتطلب منه الحل لمشاكلها الدينية .

ولقد أتاحت الزعامة التي أحرزها موسى بن ميمون على المجتمع اليهودي الفرصة له لإعادة تنظيم العقيدة اليهودية وإعادة ترتيب التلمود واستخلاص الأحكام الشرعية والفتاوى منه وتخليصها مما يتخللها من استطرادات وحكايات وأساطير (٤٢) واستطاع وسط زحمة العمل أن يؤلف كتبه الدينية التي كانت سر شهرته وعظمته بين يهود العالم . ولقد أراد في هذه الكتابات أن يوفق بين التوراة والتلمود وأن يشرح الحقائق الرئيسية للديانة اليهودية في العقيدة والتشريع . وأراد أن يبسط للناس التعاليم اليهودية بعد أن استعصى فهمها على اليهود بسبب كثرة التضارب في كتبهم المقدسة (٤٣) .

وكتب موسى بن ميمون ، بعد وصوله مصر بثلاث سنوات (١١٦٨م) أهم أعماله وهى « المشنا المبسطة » ، وكانت أول محاولة لوضع مشنا مبسطة للعامة . وفى سنة ١١٨٠ م أخرج عمله الثانى الكبير وهو « مشنا توراة » (إعادة الشريعة) والذى عُرف بالتوراة الثانية عند اليهود ، ويعد من أبرز الكتب الأدبية فى العالم . ولقد قسمه إلى أربع عشرة جزءاً أوضح فيها التعاليم اليهودية ببساطة وصاغ فيها كل أحكام التلمود والمشنا والتوراة بأسلوب عبرى سهل واضح دقيق[٤٤] .

كذلك أخرج كتابه الفلسفى « دلالة الحائرين »[٤٥] الذى مزج فيه بين التعاليم اليهودية وفلسفة أرسطو . ولقد تأثر موسى بن ميمون فى كتاباته بنتائج علم التوحيد وعلوم الكلام عند أئمة المسلمين وبفلسفة الأشاعرة[٤٦] . وحاول ابن ميمون فى كتاباته أن يقرب بين طائفتى الربانية والقرائين اليهوديتين اللتين كانت لهما مجتمعاتهما فى القاهرة والاسكندرية ودمشق وأماكن أخرى[٤٧] .

وكما تفانى موسى بن ميمون فى خدمة ديانته وبذل كل الجهد لتوضيح العقيدة اليهودية للمواطن اليهودى العادى ، فلقد تفانى فى خدمة الحاكم المسلم الذى أعطى له حرية الحركة والتفكير على أرض مصر . فلقد عاش موسى بن ميمون حياته فى عمل متواصل دون كلل أو ملل . ولقد تحدث عن ذلك الرحالة «عبد اللطيف البغدادى» الذى زار مصر حوالى سنة ١١٩٩ م وذكر ذيوع صيت ابن ميمون وشهرة ابنه ابراهيم[٤٨] . وفى خطاب أرسله ابن ميمون إلى أحد أصدقائه أعطانا صورة لبرنامج عمله اليومى فكتب يقول :

« إنى أعيش فى الفسطاط بالقرب من قصر السلطان المتواجد بالقاهرة والذى لا يبعد عن مقر إقامتى كثيراً . وإنى أتواجد فى كل صباح فى حضرة السلطان حيث أقوم بمعالجة قواد السلطان وأتباعه . وأظل هناك ولا أعود

إلى الفسطاط قبل الظهر بأى حال من الأحوال . وعند عودتى للفسطاط أجد فى انتظارى كثيراً من الناس مسلمين ويهود واقفين أمام دارى . فأنزل من على حمارى وأغتسل وأعتذر للناس عن تأخرى وأطلب منهم الانتظار قليلا حتى أتناول لقيمات قليلة . ثم أعود لمعالجة المرضى وأكتب لهم العلاج . ويظل الناس من حولى فى ذهاب ورواح حتى المساء وأظل فى خدمتهم حتى الثانية صباحاً ، أما يوم السبت فأقوم بالخدمة الدينية حيث يزورنى كبار رجالنا اليهود الذين أعطيهم إرشاداتى لباقى الأسبوع »(٤٩) .

وتوفى موسى بن ميمون سنة ٦٠٥ هـ/١٢٠٤ م فى السبعين من عمره دون مرض ولكن بسبب الإرهاق الشديد والعمل المتواصل فبكاه اليهود والمسلمون وأقاموا الحداد على وفاته ثلاثة أيام(٥٠) . وحمل جثمانه إلى فلسطين ودفن فى طبرية تنفيذاً لوصيته(٥١) ، وأصبح قبره محجاً لليهود(٥٢) .

ولقد خلف موسى فى منصبه الدينى ووظيفة الطب إبنه ابراهيم(٥٣) وعمل ابراهيم فى خدمة الملك العادل ثم الملك الكامل وظل يتردد على البيمارستان الناصرى بالقاهرة ويعالج المرضى فيه(٥٤) . واحتفظ ابراهيم بالمكانة التى كانت لأبيه فى البلاط السلطانى . كما احتفظت أسرة موسى بن ميمون وسائر جماعات اليهود بالمكانة التى أحرزوها فى مصر وذلك بفضل سياسة التسامح الدينى التى وضعها السلطان صلاح الدين وسارت عليها أسرته من بعده .

الحواشى

(١) Ehrenkreutz : Contributions to the knowledge of the Fiscal administration of Egypt in the Middle Ages, [BSOASU, V. XVI, Part 3, London 1954, p. 514].

(٢) Goitein : Jews and Arabs, their contacts through the Ages, New York 1955; p. 72.

(٣) فى سنة ٧٠ م هدم الامبراطور الرومانى تيتوس هيكل اليهود وقام بقتل وطرد اليهود من فلسطين والقدس . كذلك تكرر الأمر مع اليهود فى سنة ١٣٥ م حين فشلت الثورة التى قاموا بها فى فلسطين ضد الرومان فى عهد الامبراطور هادريان فى الفترة ما بين ١٣٢ — ١٣٥م وهى الثورة التى عرفت باسم ثورة باركوكبا (ابن النجوم) وكانت آخر ثوراتهم فى فلسطين . وبعد أن أخمد القائد يوليوس سيفروس قائد هادريان هذه الثورة قام بهدم معبد اليهود وأقام مكانه معبداً وتمثالا للاله جيوبيتر كابيتولينوس . كما قام هادريان بتغيير إسم مدينة القدس الى ايليا كابيتولينا . كذلك غير كل الأسماء العبرية فى المدينة إلى أسماء رومانية . وأصدر هادريان قراراً يحرم على اليهود دخول مدينة القدس والعيش فيها وجعل الموت عقوبة من يقدم منهم على ذلك . وظلت القدس وسائر مدن فلسطين محرمة على اليهود حتى الفتح الإسلامى للشام .

[Eva Goldmann : A History of the Jewish Peopel, London 1967, p. 92]

(٤) ظل حظر دخول القدس على اليهود قائماً حتى استيلاء جيوش الخليفة عمر ابن الخطاب على القدس سنة ٦٣٧ م . وكان زعماء المسيحيين فى المدينة قد اشترطوا على الخليفة شروطاً يسلموه بعدها المدينة منها شرط منع اليهود من دخول المدينة . لكن الخليفة المسلم قبل كل الشروط ماعدا هذا الشرط معتذراً بأن القرآن حدد لأهل الكتاب ما لهم وما عليهم وليس فيه شىء يسمح بهذا . وبذلك أصبح لليهود الحق فى العودة والعيش فى المدينة المقدسة . ولم يجرؤ اليهود طوال أيام الخلفاء الراشدين وأوائل الأمويين على الاستيطان بالقدس ثم سمح لهم بعد ذلك منذ أيام الخليفة عبد الملك بن مروان .

وحين أصبحت الشام فى يد الفاطميين واستولوا على القدس ازدهرت بها الطائفة اليهودية لعطفهم على أهل الكتاب وبخاصة اليهود (حسن ظاظا : القدس مدينة الله أم مدينة داود ، الاسكندرية ١٩٧٠ ، ص ٣٠، ٣١) .

(٥) ستيفن رونسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٤٠٤ .

(٦) —David Ben-Gurion : The Jews in their land, London 1966, p. 214.

(٧) –Simon Dubnov : History of the Jews, V. IV, London 1968, p. 672.

(٨) –Ben-Gurion : Op Cit , p. 214.

(٩) —Ben-Gurion : Op. Cit., p. 215.

(١٠) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية ، جـ ١ ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٦٤ .

(١١) زار الرحالة اليهودى الأسبانى بنيامين التطيلى بلاد العالم الإسلامى فى الفترة ما بين ١١٧٠ — ١١٧٣م . فزار سوريا وفلسطين والعراق ووصل إلى بغداد . ونقل كل شىء سمعه أو رآه عن الأحداث السياسية آنذاك فى كل بلد زاره وخاصة فيما يتعلق بحياة اليهود فى هذه البلاد . كذلك قام هذا الرحالة برحلة أخرى إلى مصر بعد رحلته الأولى بحوالى ثلاثين عاماً وتحدث فيها عن أحوال اليهود فى مصر .

(Simon Dubnov : Op. Cit., IV, pp. 797-813)

(١٢) أبلغ ثناء لصلاح الدين فى هذه المناسبة ما أورده المؤرخ لين بول حين قال :

« إذا كان فتح بيت المقدس والمعاملة الطيبة التى أبداها صلاح الدين لسكانها هى الحسنة الوحيدة التى فعلها لكفاه بذلك أن يكون أعظم الفاتحين وأرقهم قلباً فى عصره بل وربما فى كل العصور » .

(Stanley Lane-Pool : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, Beirut 1964, p. 234).

(١٣) عارف العارف : تاريخ القدس ، القاهرة ١٩٥١ ، ص٧٨، ٧٩ .

(١٤) جوستاف ليبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٣٢٩ .

(١٥) رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ٢ ، ص٧٠٣ .

— أورد المؤرخ الرحالة عبد اللطيف البغدادى أنه كان حاضراً وفاة السلطان صلاح الدين وأنه لمس حزن كل الناس على اختلاف مللها لوفاة هذا الحاكم العظيم وقال ما نصه :

(لما مات صلاح الدين ما رأيت ملكا حزن الناس بموته سواه لأنه كان محبوباً يحبه البار والفاجر والمسلم والكافر — الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ز) .

(١٦) —Simon Dubnov : History of the Jews, IV, p 816.

(١٧) —The Jews in their land. London 1966, pp 217—218.

—Ashtor : Saladin and the Jews, [Hebrew Union Col ege (١٨) Annual, V. 27 (1956), p. 326]

(١٩) المقريزي : الخطط ، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ ، جـ٢ ، ص١٢٠ .

(٢٠) القلقشندي : صبح الأعشى ، القاهرة ١٩١٥ ، جـ٣ ، ص٤٥٩ .

(٢١) قال ابن مماتي (قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص٣٢٦) .

« وربما بلغ قيمة ما يستخرج مما قيمته مائة دينار ما يناهز خمسة وثلاثين ديناراً وربما انحط عن العشرين ديناراً ويطلق على كليهما خمس . ومن الروم من يستأدى منه العشر إلا أنه لما كان الخمس أكثر كانت النسبة إليه أشهر » .

—Goitein : The Cairo Geniza as a source for the History (٢٢) of the Muslim Civilisation, [Studia Islamica, III, Paris 1955, p. 85].

—Goitein : Jews and Arabs, p. 72.

(٢٣) كانت الجزية تفرض على أهل الذمة فى مصر منذ اللحظة الأولى للفتح العربى لها . وقد وضع الخليفة عمر بن الخطاب نظاماً ثابتاً موحداً للجزية اتبعه العمال فى سائر الأمصار ، فقسم الجزية ثلاثة أقسام وفقاً للحالة الذى الاجتماعية . فكان يؤخذ من الذكر الموسر أربعة دنانير وسدس فى كل سنة وعلى المتوسط ديناران وقيراطان وعلى الفقير دينار وثلث وأضيف إلى جزية كل شخص درهمان وربع عن رسم الشاد والمباشرين ، وكتب عمر إلى عماله بأن لا يوضع عليهم أكثر من ذلك وأن يخفف عمن عجز عن الدفع . وقد كانت العادة جارية باستخراج الجزية فى أول المحرم من كل سنة ثم صارت تستخرج فى أيام من ذى الحجة . (القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص٤٥٧) .

(٢٤) كان اليهودى المكلف بالدفع يدفع جاليته فى مسقط رأسه ويأخذ بذلك شهادة تفيد بدفعه تعرف بالبراءة .

[Goitein : The Coiro Géniza, SI, III, Paris 1955, p. 86].

—Goitein : Evidence on the Muslim Poll tax from non- (٢٥) muslim sources, [JESHO, V. V1, Part I, 1963, pp. 282— 283·

—Simon Dubnov : History of the Jews, V. IV, p. 816. (٢٦)

(٢٧) أثر انقسام الإسلام إلى خلافة ببغداد وأخرى بالقاهرة بقيام دولة الفاطميين فى مصر على تنظيم المجتمع اليهودى فى العالم الاسلامى فتزعم يهود العراق رأس الجالوت بينما ترأس يهود مصر رئيس آخر يلقب سرهساريم (أمير الأمراء) وكان يعين أحبار اليهود فى الشام ومصر أى فى حدود دولة الفاطميين .

ولا بد أن يكون الفاطميون قد تكفلوا لإيجاد هذه الطائفة الخاصة من الأمراء (ناجد — أمير) بالقاهرة رغبة منهم فى معارضة كل ما هو بغدادى ، وقد تكلم الرحالة بنيامين التطيلى عن هذه الوظيفة أثناء رحلته .

(آدم متز : الحضارة الاسلامية) جـ١ ، ص ٦٣) .

(٢٨) رأس الجالوت هو رئيس اليهود ولقد عرفه الخوارزمي بقوله عنه أنه « هو رئيس اليهود وهم الجالية أعنى الذين جلوا عن أوطانهم ببيت المقدس ويكون رأس الجالوت من ولد داود عليه السلام وتزعم عامتهم أن لا يرأس حتى يكون طويل الباع تبلغ أنامل يديه ركبتيه إذا مدها ».

(الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، القاهرة ١٣٤٢هـ ، ص ٢٤) .

(٢٩) هو موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة السعدي الخزرجي ، ولد في دمشق سنة ٦٠٠هـ ، وكان والده أمهر الكحالين (أطباء العيون) في دمشق . عاش في القاهرة الأيوبية والتحق في المارستان الناصري الذي أنشأه صلاح الدين في القاهرة واشتهر بحسن مداواته لأمراض العيون واستلفت نبوغه الجالس على كرسي الملك فألحقه بخدمة الدولة . توفى في صرخد إحدى مدن جبال حوران سنة ٦٧٨هـ .

(مقدمة كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا ، بيروت ١٩٦٥) .

(٣٠) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، ص٧٢١ .

(٣١) نفس المصدر السابق ، ص٥٨٢ .

(٣٢) أورد ابن أبي أصيبعة (ص ٥٧٩) أن من كتبه في الطب : كتاب الارشاد لمصالح الأنفس والأجساد وهو أربع مقالات . وكتب التصريح بالمكنون في تنقيح القانون ورسالة في طبع الاسكندرية وحال هوائها ومياهها ونحو ذلك من أحوالها وأحوال أهلها . ومقالة في الليمون وشرابه ومنافعه . ومقالة في الراوند ومنافعه . ومقالة في علاج القولنج .

(٣٣) ابن أبي أصيبعة : نفس المصدر ، ص٥٧٩ ، ٥٨٠ .

(٣٤) نفس المصدر السابق ، ص٥٨١ .

(٣٥) عيون الأنباء ، ص ٥٨٢ ، ٥٨٣ .

(٣٦) —Poul Borchsenius : The Three Rings, The History of the Spanish Jews, London 1954, p 116.

(٣٧) ولد موسى بن ميمون في قرطبة بالأندلس سنة ١١٣٥ (٣٠ مارس) ومات في القاهرة في ١٣ ديسمبر ١٢٠٤ ودفن في طبرية . عرف في العربية باسم أبو عمران موسى بن ميمون بن عبد الله .

وكان والده قاضياً ومعلماً تعلم موسى منه التعاليم الدينية . وحين كان موسى يبلغ من العمر ثلاث عشرة عاماً سقطت قرطبة في يد الموحدين . واقبد خير الأمير عبد المنعم الموحدى (١١٣٠ — ١١٦٣) اليهود والمسيحيين بين الاسلام أو ترك البلاد . وكان على ميمون وأسرته أن يختاروا أحد الأمرين فاختاروا الرحيل عن الأندلس . وفي سنة ١١٦٠ استقروا في فاس لكن الأسرة هجرت فاس بعد استقرار دام خمس سنوات بها وركبت البحر مبحرة إلى فلسطين فوصلت عكا ثم بيت المقدس . وبسبب الاضطهاد الصليبي الذي كان يسود فلسطين ارتحلت الأسرة إلى الاسكندرية وأخيراً استقرت في الفسطاط .

ومات والده بعد استقراره فى مصر بشهورٍ (١١٦٦م)؛ فقام أخوه الأكبر داود برعايته والعائلة . لكن داود غرق وبضاعته فى البحر مع مركب كان يتاجر عليها فاضطر موسى لذلك أن يعمل ليكسب قوته فاحترف مهنة الطب وكان قد اكتسب معرفة هائلة بشئون الحياة وفى شتى العلوم أثناء تجواله وخاصة فى علم الطب .

(The Jewish Encyclopedia, V. IX, London 1916, p. 73.)

(٣٨) يقول ابن أبى أصيبعة (ص ٥٨٢) أن الرئيس موسى كان قد أسلم فى المغرب وحفظ القرآن واشتغل بالفقه ثم لما توجه إلى الديار المصرية وأقام بفسطاط مصر ارتد . وأيده القفطى فى ذلك (القفطى : تاريخ الحكماء ، ليبزج ١٩٠٣ ، ص٣١٨) .

(٣٩) —The Jewish Encyclopedia, IX, p. 74.

(٤٠) —Simon Dubnov: Op. Cit., p. 819.

(٤١) كان موسى بن ميمون أيضاً وكيلا لتجار اليهود فى تجارة الشرق وكان يطلق عليه لقب أمير بلاد اليمن .

Goitein: Letters and Documents on the India Trade in Medieval Times, [Islamic Culture, London 1963, vol 37, no. I. p. 188].

(٤٢) حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى ، أطواره ومذاهبه ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١٠٤ .

(٤٣) —Poul; Op. Cit., p. 125.

(٤٤) —Poul: Op. Cit, p. 133.

(٤٥) القفطى : أخبار الحكماء ، ص ٧٩ .

(٤٦) حسن ظاظا : الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص١٥٨—١٦٣ .

(٤٧) —Simon Dubnov: Op. Cit, p. 819.

(٤٨) نقل المؤرخ الطبيب ابن أبى أصيبعة عن الرحالة عبد اللطيف البغدادى فى ترجمته لحياته على لسانه مانصه : أنه سافر إلى مصر فى أواخر أيام السلطان صلاح الدين وأن البغدادى قال ضمن من قابلهم من الأفاضل الرئيس موسى بن ميمون الذى قال عنه ما نصه :

« وجاءنى موسى فوجدته فاضلا فى الغاية قد غلب عليه حب الرياسة وخدم أرباب الدنيا وعمل كتاباً فى الطب جمعه من الستة عشر لجالينوس ومن خمسة كتب أخرى وعمل كتاباً لليهود سماه كتاب الدلالة » .

[عبد اللطيف البغدادى : الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر ، القاهرة ١٩٤٣ ، الترجمة الخاصة بالمؤلف والملحقة بالكتاب عن المؤرخ ابن أبى أصيبعة ، صفحات هـ،و] .

(٤٩) —Simon Dubnov: Op. Cit., p. 820.

(٥٠) —Poul. Op. Cit., p. 134.

(٥١) القفطى : أخبار الحكماء ، ص ٣١٩

(٥٢) —Jewish Encyclopedia, IX, p. 80.

(٥٣) —Goitein : Jews and Arabs, p. 182.

(٥٤) كان إبراهيم معاصراً للطبيب المؤرخ ابن أبى أصيبعة ، فلقد أشار ابن أبى أصيبعة فى كتابه (ص ٥٨٣) أنه التقى فى سنة ٦٣٠ أو ٦٣٢ هـ بإبراهيم فى بيمارستان القاهرة وأنه وجده شيخاً طويلا نحيف الجسم حسن العشرة لطيف الكلام متميز فى الطب وذكر أنه توفى بمصر فى الثلاثينات من سنة ستمائة .

دراسات فى عالم البحر المتوسط
فى العصور الوسطى

للدكتور صابر دياب

آداب القاهرة بالخرطوم

مدخل :

البحر المتوسط وعالمه يمثل منطقة القلب بالنسبة للعالم ، ولذلك كان هذا البحر وعالمه منطقة احتكاك حضارى بكل ماتعنيه هذه الكلمة من معانى .

قامت بين شعوب هذا البحر العلاقات تارة ، واستعرت بينهم الحروب أخرى .. وتصارعت الدول والامبراطوريات على السيادة على أجواء هذا النطاق ليتحقق لها التحكم فى العالم كله .. كان ذلك قديماً ووسيطاً وحديثاً .. وتبلورت بين دول وحكومات وشعوب العالم حقيقة أن من يريد السيطرة على العالم شرقاً وغرباً فعليه أن يخضع البحر المتوسط لسلطانه أو يجعل له فيه نفوذاً : سياسيا أو اقتصادياً او عسكرياً أو ثقافيا ، أو نفوذاً يشمل هذه النواحى جميعها إن أمكن .

وكان من الطبيعى إذن أن يحدث احتكاك أو صراع ، ويقوم نوع من المد والجذر بين شعوب العالم الإسلامى وبين الشعوب الأخرى المطلة على شطآن هذا البحر . وقد مر هذا الاحتكاك بأدوار شتى تراوحت بين السلم

والحرب . وكان يشكل كل طور من هذه الأطوار حاجة وأحوال الدول التى لها مصلحة ما قد تتماشى أو تتصادم مع مصلحة العالم الإسلامى .

وقد أردت بدراستى هذه عن عالم البحر المتوسط أن ألقى بصيصاً من ضوء على بعض النواحى التى قد تعين على تفهم طبيعة الحياة والعلاقات السائدة فى عالم البحر المتوسط فى العصور الوسطى . ورأيت أن أبدأ هذه الدراسة على هيئة سلسلة أبحاث تتناول موضوعات يربط بينها جميعها أنها تناقش شيئاً ما فى عالم البحر المتوسط .

والله أسأل أن يوفقنى فيما عزمت عليه .

١ — بعض مظاهر الوحدة فى عالم

البحر المتوسط فى العصور الوسطى

تمهيد :

تحطمت الوحدة الرومانية لعالم البحر المتوسط فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، بدخول المسلمين كقوة مؤثرة وذات ثقـــل سياسى واقتصادى وعسكرى فى عالم هذا البحر . غير أن هذه الوحدة الرومانية مالبثت أن عادت إليه فى القرن الحادى عشر الميلادى[١] . فقبل عصر الحروب الصليبية (فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر الميلاديين) ، قام كل من البنادقة والبيزيون والجنويون ، ليس فقط بإزاحة خطر الغارات الإسلامية والنفوذ الإسلامى عن الساحل الجنوبى والأوسط لإيطاليا (منطقة قلورية Calabria) والجزر القريبة منه ، بل أيضاً بحملات هجومية على السواحل الإفريقية المطلة على البحر المتوسط ، وحصلوا قسراً من كثير من حكام المسلمين وقتذاك على امتيازات ومعاهدات اقتصادية لهم[٢] . وبعد ذلك

بوقت قصير ، قام حكام شمال أفريقيا وأسبانيا المسلمين بتشجيع التجار المسيحيين - الأوربيين عامة والإيطاليين خاصة - على إحضار بضائعهم إلى أسواق بلادهم الإسلامية ، والعبور بها من خلال تلك البلدان . هذا عن الحوضين الغربى والأوسط للبحر المتوسط . أما عن الحوض الشرقى لهذا البحر ، فقد كانت التجارة فيه رائجة ، بسبب نشاط كل من البارونات (Barons) - أى الأمراء والنبلاء - المسيحيين والتجارة والتجار خلال الحروب الصليبية ، مما نتج عنه تنشيطها . وفى ظل هذه الظروف عاد الانتعاش للتجارة وأصبحت ممتدة على طول شواطىء حوض البحر المتوسط وفى كل أنحائه[3] .

* * *

إن التشابه العجيب بين الحياة فى مدينة كروما ، وبين الحياة فى المدن الإسلامية فى حوض البحر المتوسط ، تلك المدن التى احتفظت بطابع العصور الوسطى أمر مثير للدهشة حقاً ، وينهض دليلا قويا من دلائل الوحدة فى عالم هذا البحر فى تلك العصور الوسيطة ، خاصة وأنه استمر فى بعض النواحى لفترات أو مدد طويلة[4] .

وقد كشفت دراسات مؤرخ مثل كاود كاهن « Claud, Cahen »[5] حول تطور المدن الإسلامية ، والغربية الأوربية عن أنه كان هناك اعتقاد شائع ، بأن المدن الأوربيـة تعتبر امتداداً للمدن اليونانيـة والرومانية ، فى الوقت الذى لم تكن المدن الإسلامية المنظمة والمكتفية ذاتيا قد وجدت بعد . لكن يجب الاعتراف أيضا بأن المدن الغربية لم تكن فى أواخر أيام الحضارة الرومانية ، تمتلك استقلالاً كاملا ، بينما نجد ، المدن الإسلامية الأولى تنظيمات محلية مختلفة ونشيطة ومعترفا بها من جانب السلطات الإسلامية[6] .

وإذا كان قد حدث اختلاف أساسى بين الشرق والغرب حوالى القرن الثانى عشر الميلادى ، بظهور قوى جديدة ومميزة لعبت دورها فى تغيير وجه الحضارة الغربية ، فى الوقت الذى كان الجنود والموالى (أو العبيد) يستولون على السلطة فى معظم الدول الإسلامية ، فإن الوحدة التى سادت عالم البحر المتوسط عام ١٠٥٠ م ، كانت لاتزال وحدة حقيقية(٧) .

ومن الملاحظ أنه على الرغم من أن الساحل الشمالى الغربى من عالم البحر المتوسط ، — بما فيه أسبانيا — ، مثله فى ذلك مثل الساحل الأفريقى الآسيوى ، قد انقسم إلى دول عديدة مستقلة ومنفصلة سياسيا عن بعضها البعض ، وعلى الرغم من الحروب المستمرة التى نشبت بين هذه الدول المختلفة ، فإن الناس والبضائع والأفكار لم تكف لحظة عن الانتقال بحرية وأمن من مكان إلى آخر(٨) .

وعلى الجانب الإسلامى يمكننا إثبات هذه الحقيقة اعتماداً على مصادر عديدة : كتاريخ المؤرخين والباحثين ، وبعض كتب الرحلات الممتازة والمكتوبة فى ذلك الوقت نفسه ، والوثائق التى يمكن الرجوع إليها ضمن مجموعة الجينزا Cairo Geniza التى تتضمن تسجيلات مفصلة عن الحياة كما كانت فى تلك الفترة وبصفة خاصة حياة الفئات المتوسطة والدنيا فى المجتمع والتى لم تتأثر بعمليات الاختصار والتهذيب التى تتطلبها الكتابة الأدبية(٩) والجينزا هى مجموعة الوثائق التى وجدت أو توجد فى معابد اليهود ، وهى تتناول بالدراسة بعض مظاهر الحياة السياسية والإجتماعية والاقتصادية فى مصر أو غيرها من البلدان الإسلامية التى بها معابد يهودية ، فى عصر الفاطميين والأيوبيين بالذات ، وهى تساعد كثيراً على الخروج بنتائج طيبة بالنسبة لتاريخ مصر فى عصر الفاطميين والدولة الأيوبية . وكلمة جينزا عبرية أطلقت وقتذاك على مكان دفن الأشياء المتعلقة برهبان وعامة اليهود ، وهى

تقابل كلمة « جنازة » فى العربية . وكان من معتقدات اليهود فى العصور الوسطى أن كل ورقة كتبت بالعربية لا يجب أن تمزق أو تحرق ، بل تحفظ لأن العبرية ، فى تقديرهم ، — لغة الله ولها صفة القداسة ، ولذلك فكل ما يكتب بها أو كل ما يكتب عليه بها له صفة القداسة بالخلود[١٠] .

وبادىء ذى بدء ، لابد من التأكيد على حقيقة هامة وهى : أن كاتبوا الرسالات — (الرسائل Letters) — ومسجلوا الوثائق Deeds المحفوظة أو الموثقون ، والجينزا ، كل هؤلاء كان معظمهم من اليهود ، وذلك على الرغم من أن حوالى ثمانين فى المائة من هذه الرسائل والوثائق والجينزا مكتب بالعربية وليس بالعبرية . كما يرد باستمرار ذكر المسلمين والمسيحيين فى هذه الوثائق ، مما يوضح أن اليهود لم يقوموا بدور يذكر يزيد عما كان للجماعات الأخرى .

وأيا كان الأمر ، فإن هذا القدر الكبير من حرية الاتصال الذى تمتع به الناس — والذى تنطق به بصورة واضحة مجموعة الجينزا — لم يكن من الممكن توافره ، ما لم تساعد عليه وتشجعه السلطات الرسمية ، والجو السياسى العام السائد آنذاك فى الدول وبين الشعوب المحيطة بحوض البحر المتوسط[١١] .

وأكبر شاهد على حرية الحركة هـــذه ، ما نجده فى الآلاف من القصاصات والرسائل المتبادلة بين الأفراد ، فهذه وتلك لم يرد فيها أية إشارة توحى بعدم وجود هذه الحرية . فقد يشير الشخص إلى زيارة له قام بها إلى مدينة ما مثل بالرمو « Panarmus, Palerm » ، أو جنوة « Genoa » ، أو مرسيليا « Marsellia » أو إلى أى مكان آخر فى أسبانيا ، أو شمال أفريقيا ، أو مصر ، أو إلى السواحل السورية ، أو حتى إلى أماكن فى الدولة البيزنطية

مثل ثغر تساليا أو تسالونيك « Thessalia » ويعرف أيضاً باسم أطاليا « Attalia »،(١٢) أو طيبة .

وربما يكتب الشخص خطاباً عن رحلته بالعربية ويرسله من سيلوقيا « Selucia » إلى القاهرة ، يذكر فيه مروره – خلال رحلته – على غزة ورودس وخيوس « Chios » والقسطنطينية « Constantioneple » ، دون أن يشير إلى أية صعوبات اعترضته بسبب الحدود السياسية . وقد ينتقل بحرية كل صيف بين مدن وموانئ مصر والشام الفاطمية ، وبين موانئ المغرب وبنى زيرى فى تونس (أفريقية)(١٣) ، حتى فى أوقات التوتر الشديد بين الدولتين .

وقد يسافر التاجر مستغلاً الطريق المباشر بين الاسكندرية وأشبيلية أو المرية « Almeria » فى أسبانيا . وفى كل هذه الحالات لم يكن السفر يقتضى من المسافر ألا حمل معه البراءة ، والتى تعنى أن صاحبها قد سدد ضرائبه(١٤) ولم يكن بإمكان التاجر المسافر التنقل بدون هذه « البراءة » ، ولو حتى فى داخل مصر ذاتها . وتذكر لنا الوثائق التاريخية ، وخاصة مجموعة الجينزا ، أناساً كانوا يحملون هذه البراءة أونسوها فى البيت ، أوأناس استقلوا مركباً نيلياً متنقلين من قرية إلى قرية دون أن يحملوا « وصل الجالية » ، وهذا وذاك دليل على أهمية هذه البراءة (وصل الجالية) فى ضمان التحرك والسفر بالبضائع داخل وخارج أقطار عالم البحر المتوسط وقتذاك .

وهناك حادث يقف شاهداً على مدى أهمية هذه « البراءة » . وهى أنه عندما زار الشاعر اليهودى جوده هاليفى « Judah - HaLevi » القاهرة فى طريقه إلى الأراضى المقدسة بفلسطين للحج ، اضطر أصدقاؤه فى الاسكندرية إلى تدبير أمر شهادة الضرائب (البراءة) الخاصة به مع السلطات الإسلامية الفاطمية . وذلك ما تدركه جيداً من خطاب على جانب كبير من الأهمية

أرسل إليه من الاسكندرية ، حيث كانت أشعاره تجمع وتدون هناك حينئذ(١٥) .

غير أنه من الإنصاف القول بأن الحرص من جانب السلطات الإسلامية فى مصر والشام وقتذاك - (أواخر عصر الدولة الفاطمية) - التأكيد على التجار الأجانب بضرورة حمل البراءة ، لم يكن ينظر إليه على أنه قيد على حرية الحركة والإنتقال ، ولا يمكن لباحث منصف أن ينظر إليه كذلك .

وفى أوائل العصر الأيوبى - (خلال حكم صلاح الدين يوسف ابن أيوب مؤسس الدولة الأيوبية فى مصر) - وبسبب الصراع الذى كانت رحاه تدور على أرض الشام بين المسلمين والصليبيين (الفرنجة كما يسميهم المؤرخون المسلمون ، كان من الطبيعى بل من الواجب أن يصبح هناك نوع من الحذر فى السماح للرعايا الأجانب بأن يجوسوا خلال الديار الإسلامية لأى سبب كان ، وذلك لظروف الحرب المشتعلة أوارها حينذاك بين بلاد الإســـلام والجيوش الصليبية . يدلنا على ذلك ، ما أورده « جواتيين Goitein »(١٦) ، من أن رجلا أرسل خطاباً من الاسكندرية إلى عدن يذكر فيه : « إن ناظر الميناء لم يسمح له بالسفر ، لأنه وجده (أى الرجل المسافر) مثيراً للشكوك ، لمجرد أنه حضر على مركب أفرنجى . ومن ناحية أخرى نرى رحالة وجغرافيا أسبانيا مسلماً معروفاً هو « ابن جبير » ، أمكنه السفر أواخر سنة ١١٧٣م، من عكا « Acre » إلى صقلية ، ومن صقلية إلى أسبانيا ، على ظهر سفن مسيحية . مما يوحى بأن الرجل الذى منع من السفر من ميناء الاسكندرية ، لم يمنع لمجرد أنه حضر على ظهر مركب أفرنجى كما يزعم . فربما يكون السبب أقوى من هذا وهو ما لم يذكره جواتيين فى الفقرة التى نقلها من خطاب الرجل ، ويقول أنه لم يذكره .

وعلى أى الحالات ، ومهما يكن من أمر ، لحتى لو كان الرجل قد مشع لهذا السبب الذى أبداه هو ، أى بسبب حضوره على ظهر (متن) سفينة افرنجية ، فليس فى ذلك حرج يضير السلطات الإسلامية فى مصر وقتذاك ، وذلك بسبب حالة الحرب والمواجهة التى كان يعيشها العالم الإسلامى عامة ، ومصر والشام بصفة خاصة ، ضد الصليبيين (الإفرنج) منذ أواخر القرن الخامس الهجرى (أواخر الحادى عشر الميلادى) أضف إلى هذا أنه كان من الشائع والمقبول وقتذاك — أواخر القرن الثانى عشر الميلادى — أن يسافر اليهود الذين يعيشون فى بلاد إسلامية على ظهر سفن غير إسلامية ، سواء من بيزنطة أو جنوة أو نورمانديا أو تيرانا . وكان من المعتاد أن يكتب رجل من أسبانيا إلى زوجته فى القاهرة خطاباً يقول فيه : « أنا أنوى الحضور على جيتانى » — (أى على مركب إيطالية من جايتا « Gaeta ») — تماماً كما يكتب المرء فى الأيام الحالية فى برقية أو خطاب : « سوف أسافر هذا الصيف على ظهر سفينة (أو متن طائرة) هولندية(١٧) أو بريطانية أو مصرية » مثلا .

لكن الأمر الذى لا شك فيه حقاً أن القرصنة والحروب البحرية التى سادت حوض البحر المتوسط — من جانب جماعات من المسلمين والمسيحيين على السواء — كانت من العوامل التى حدت من حرية الإنتقال والحركة فى عالم البحر المتوسط . ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة القليلة منها هذه الملاحظة العجيبة التى أرسلها تاجر من الاسكندرية إلى القاهرة . إذ كتبها بعد ظهر يوم جمعة قائلا : « انى الآن انتهيت من أخذ حمام » ، وهو مايعنى بالطبع أن شيئاً لم يحدث فى ذلك الوقت يكون من شأنه تعكير صفو الأمن . وهناك ملاحظة أبدأها رجل أسبانى تقول : « لقد وصلت اتوى من المرية « Almeria » بأسبانيا . أن صديقك رجل الأعمال فى فزان « Fez » ومراكش أرسل إلى قضيباً من الذهب — بالتأكيد هو من السودان — ليشترى لك بقيمته

حريراً أسبانياً . وأنا أعتقد ، على كل حال ، أن هذه ليست فكرة طيبة أو جيدة ، وبالتالى فإنى أبعث لك بقضيب الذهب كما هو على حاله . ومن ناحية أخرى فإن صديقاً آخر لصديقك رجل الأعمال هـــذا دفع لى كمية كبيرة من العنبر (Ambergris)(١٨) ، وهو ما أبعثه لك . وأرجوك أن تبعث لى بالتالى عدد (٥) (خمس) قارورات من المسك (Musks) فى حدود نفس القيمة . وأرجو منك أن تبيع العنبر بمجرد وصول هذا الخطاب إليك ويشترى بقيمته المسك ، لكن أرسلها حالا »(١٩) .

كذلك ورد فى خطاب توصية كتبه شخص يدعى شلومو بن جودة (Slomon b Joda) رئيس الأكاديمية اليهودية فى أورشليم « القدس » (Jerusalem) يقول : « حامل هـــذا الخطاب يهودى من خراسان ، وقد امتدحه أصدقائى فى أشبيليه ، وهو الآن فى طريقه إلى القاهرة ، رجاء العناية به » . على أننا لا نستطيع معرفة كيف حضر هذا اليهودى من شمال شرقى إيران (خراسان) إلى أسبانيا . فلربما يكون قد جاء إلى أورشليم من الطريق الشمالى ماراً بصقلية وصور وعكا . واستطاع « شلومو بن جوده » الزعيم الروحى لليهودية الغربية ، عن طريق مؤسسات الحج اليهودية إلى أورشليم — أن يكون قريباً وينمى علاقاته الشخصية بعدد كبير من الناس من عالم البحر المتوسط . وعلى كل حال ، فإن الطريقة العملية التى قدم بها هذا المسافر الخراسانى تبين لنا إلى أى مدى أصبح عالم هذا البحر المتوسط صغيراً وقتذاك(٢٠) .

وهناك ظاهرة أخرى تدلنا على الوحدة التى سادت عالم البحر المتوسط فى العصور الوسطى ، هذه الظاهرة هى تكرار حالات الزواج بين أشخاص من بلاد مختلفة . والأدلة فى هـــذا الجانب كثيرة ومتوافرة فى مجموعات الجينزا ، وهـذه الظاهرة لم تقتصر على الأسر أو العائلات الكبيرة ذات

الشأن فى أسبانيا وتونس ومصر مثلا . بل نجدها أيضاً فى الأوساط الدنيا ، من الذين كانوا يقومون بخدمة سادتهم فى البلاد المختلفة . ففى رسالة مرسلة من مدينة صور « Tyre » — على الساحل اللبنانى — تبعث فتاة إلى رجل فى القاهرة بتوكيل ، ليختار لها زوجاً ولإتمام إجراءات الزواج باسمها كولىّ لها . ولم يقتصر ذلك على الدول الإسلامية فقط ، بل هناك خطاب آخر — ينوه عنه جواتيين بأنه مكتوب بعبرية جميلة بعثته سيدة مصرية يهودية تعيش فى القاهرة ، حيث لا يزال يعيش أخواها — يوضح أن هذه السيدة اليهودية المصرية متزوجة من أوربي وأن إبنتها تحمل إسماً يونانياً هو « زوى » ZOE[٢١] .

على أن أهم مظاهر هـــذا العصر الوسيط الرئيسية ، التى كشفت عنها الوثائق المحفوظة ضمن مجموعة الجينزا ، كان هو عدم تأثر الوحدة الدينية والجماعات الدينية فى استقلالها ، بالحدود السياسية . وكانت الجماعات اليهودية تقوم بجمع الأموال والتبرعات بواسطة المنظمات اليهودية المنتشرة فى أنحاء مصر والشام إبان العصر الفاطمى — للانفاق منها على الأكاديميتين اليهوديتين الكبيرتين فى بغداد العباسية . كذلك كانت أموال التبرعات تجمع سنوياً فى الغرب السنى الإسلامى : فى أسبانيا ، وشمال أفريقيا ، للانفاق على الأكاديمية اليهودية بالقدس ، التى كانت تحت نطاق السيادة الفاطمية الشيعية الحاكمة على مصر والشام وقتذاك .

أضف إلى هذا أن الهبات والهدايا كانت ترسل من الأقطار المسيحية إلى مدينتى بغداد والقدس . من ذلك ما كان يرد من اليهود فى مدن مثل : لوكا (Lucca) بشمال إيطاليا ، وناربون ومونتلبيه بفرنسا ، وميتز (Mainz) بألمانيا . وكل هـذه المجموعات اليهودية كانت ترفع أسئلتها المتعلقة بأمور العقيدة والمذهب ، وحتى النواحى المدنية ، إلى أصحاب الرأى من الفقهاء

عندهم، وكانوا يمدونهم بإجابات متعددة تصعب على الحصر . وهذه الإجابات الفقهية هى فى الواقع أقرب ما تكون إلى « الفتاوى » أو « الرأى القانونى » عند المسلمين ، وكانوا يحترمونها ويلتزمون بتنفيذها على أصحابها حتى فى بلدانهم النائية عن مركز الخلافة أو الحكومة المركزية[٢٢] .

كذلك كان القضاة اليهود لا يتم تعيينهم — سواء فى مصر ، أو تونس أو المغرب عامة — إلا بعد موافقة رؤساء الأكاديمية اليهودية فى كل من القدس Jerusalem وبغداد « Baghdad » . ومن المؤكد أنه كانت هناك علاقات مشابهة بين الدول المسيحية وبنى زيرى فى تونس . وهذا وذاك أسهم — بلا شك — فى توطيد وتدعيم حرية الانتقال والحركة ، كما أسهم كذلك فى توحيد عالم البحر المتوسط . وكان من الطبيعى أن ينتج عن هذا نوع من العلاقات والحضارة المزدهرة ذات السمة التجارية بصفة خاصة حول البحر المتوسط . وهذا النوع من العلاقات والحضارة ، الذى كان التجار يمثلون فيه العنصر الأساسى والهام ، تطلب مزيداً من حرية الحركة وسهولة الانتقال أو الاتصال .

ومما لا شك فيه أن البلدان المحيطة بالبحر المتوسط — سواء إسلامية أو مسيحية — كانت لديها عناصر وتقاليد حضارية مشتركة . غير أن هناك حقيقة هامة لا جدال حولها ، هى أن وحدة عالم البحر المتوسط ، بدأت فى التفتت والتحلل ، بمجرد أن تعرضت الدول الإسلامية ، المطلة على هذا البحر بصفة خاصة ، للغزو الأجنبى : سواء القادم من أواسط آسيا وبلاد القوقاز فيما يعرف « بالغزو المغولى » — وهى مناطق ليس بينها وبين عالم البحر المتوسط رباط أو تقاليد مشتركة ، أو ذلك الغزو الاستعمارى القادم من الغرب الأوربى المسيحى ممثلا فى الحملات الصليبية التى دهمت العالم الإسلامى فى مصر والشام منذ أواخر القرن الحادى عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادين[٢٣] .

الرحلات البحرية والبرية في عالم البحر المتوسط :

إن وحدة عالم البحر المتوسط فى منتصف العصور الوسطى ، تمت من خلال وبفضل تلك الرحلات البحرية الممتدة والطويلة ، التى حملتها أمواج المد والجزر فى البحر . ويوجد فى مجموعة الجينزا الكثير من المعلومات فى هذا الصدد . فهى تحوى وصفاً لنحو ستة عشر نوعاً من السفن التجارية والحربية ، وتفاصيل عن أكثر من مائة مركب ، وعشرة قوارب صغيرة قامت بمثل ماقامت به ست وثلاثون سفينة فى نقل البضائع التى كانت تصل أنواعها إلى نحو مائة وخمسين نوعا ، حملتها السفن والمراكب والقوارب المختلفة . وأمدتنا بمعلومات وغيرة كذلك من ملكية السفن ، وكيفية إدارتها وقيادتها ، وفصول وأوقات إبحارها وعودها ، وكيفية إعداد المسافرين ، والطرق التىسلكتها ، وماتبودل منرسائل ، وكل مايتعلق بحركة المراكب ورسوها ، وعطبها أو تعطلها ، وعمليات القرصنة البحرية ، وماتستتبعه هذه الأعمال من عمليات فداء الأسرى بالمال ، وموضوعات أخرى كثيرة من هذا القبيل ناقشتها مجموعة الجينزا المذكورة(٢٤) .

وعلى أى الأحوال ، فمن الراجح أن يكون ماحدث من ازدهار شهدته الأقطار الإسلامية فى الشمال الأفريقى — وهى مطلة على البحر المتوسط — إنما يرجع الفضل فيه بالدرجة الأولى ، إلى الأوضاع العالمية السائدة فى حوض البحر المتوسط آنذاك . فى معظم دول أوربا الغربية وبخاصة أسبانيا وغالة (أو غاليا وهى فرنسا حاليا) وإيطاليا . كان البؤس والظلام والشقاء السائد فى العصور الوسطى فى هذه الأقطار الأوربية ، يفسح المجال بانتظام لانتعاش فكرى واقتصادى لمدن البحر المتوسط الإسلامية مثل تونس فى أفريقية والإسكندرية ودمياط وتنيس فى مصر ، وصور وصيدا وعكا وبيروت وطرابلس فى سواحل الشام ، وسبتة والمرية فى الأندلس الإسلامية . وكانت منتجات الشرق هامة وأساسية لهذا الانتعاش(٢٥) .

ومن ناحية أخرى ، فإن السفن الكبيرة التى كانت تنقل بانتظام نحو ٥٠٠ من المسافرين مع بضائعهم من أسبانيا إلى الشرق — وهو ما توضحه وثائق الجينزا الخاصـــة بالقرن الحادى عشر — لم يكن استعمالها شائعا وقتذاك . ولذلك صار على مدينة وميناء تونس ، وموانى جزيرة صقليـة ، ومدن إيطاليا الساحلية ، أن تقوم بعمل مراكز التوزيع فى حوض البحر المتوسط . وإذا كان هناك ثمة ازدهار أحرزته دولة إسلامية كالفاطمية فى المغرب ويرجع جانب من الفضل فيه إلى كفاءة إدارييها وحكامها ، فإن الجانب الآخر والهام من هذا الفضل الكبير فى ذلك النمو والإزدهار يرجع إلى التجار الذين كانوا يمثلون العمود الفقرى لإقتصاد هذه البلاد(٢٦) .

ولنعرض الآن لمناقشة حركة التجارة ومشكلاتها فى العصور الوسطى براً وبحراً ونهراً فى عالم البحر المتوسط فقط . وهو ما تتيحه لنا تقارير الجينزا .

أولا : إن كل ما كان يمكن عمله آنذاك ، هو أن يسافر الناس عن طريق البحر وليس البر . ولنضرب مثلا على ذلك : فى عام ١١٤٠م تقريباً سافر شخص يهودى إيطالى ، من رجال الأعمال ، من طرابلس الغرب وليبيا ، إلى قابس « Gabes » بالقرب من تونس . وقد نصحه صديق له بأن يسافر على ظهر سفينة كبيرة كانت مبحرة — وقت سفره — إلى أشبيليه فى أسبانيا وكانت تقطع الرحلة — إذا ساعدتها الريح — فى ثمانية أيام ، دون أن ترسو على بر طوال هذه المدة . وحينذاك كان عليه أن ينتقل فى قارب كبير إلى مدينة المهدية (٢٧) ، ميناء تونس الرئيسى ، محاولا الوصول إلى جهته المقصودة من المهدية ، وهذا بالطبع طريق غير عادى . غير أن الأحوال السياسية وقتذاك لم تكن مطمئنة ولهذا فان ذلك الرجل سافر فى النهاية عن طريق البر . وعلى العموم أن نسبة الوثائق أو المراجع المتوافرة

عن السفريات البرية بالنسبة إلى تلك التى عن الرحلات البحرية ، لا تعدو أن تكون بنسبة ١ : ٥»[٢٨] . وهذه النسبة جديرة بالصحة لسببين :

(ا) التفاوت الكبير بين عدد أوراق الجينزا التى وصلت عن النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى ، وهى قد خلطت بين الرحلة البحرية التجارية. وبين الهجوم على شمال أفريقيا بواسطة قبائل بنى هلال وبنى سليم. وفى الحقيقة فان إشارات الجينزا إلى رحلة القافلة تكررت فى النصف الأول من هذا القرن ، أكثر من أى فترة لاحقة . وحتى هذا الوقت ، فمن المعتقد أن نسبة الرحلات البرية إلى البحرية كانت بنسبة واحد إلى عشرين(١ : ٢٠)

(ب) أن أغلب خطابات الجينزا كتبها يهود واليهود لا يسافرون أيام السبت والأجازات . وإنما كان سفر اليهودى دائما فى قافلة ، تزيد مدتها عن ستة أيام ، وهو إما أن يتخلف عنها ، أو يتعجل ليلحق بمقدمتها ليتمكن من الاحتفال بيوم راحته (يوم السبت) . وكلا الحالين ورد ذكره فى التقارير التى احتوتها مجموعة الجينزا . وهذه القافلة التجارية كانت تتطلب ، بالطبع حراسة أو خفارة خاصة ، وهذا أمر مكلف وخطير فى الحالين معا . فاذا كان المسافر — اليهودى — غنيا، أو بصفة خاصة صاحب نفوذ أو سطوة، فانه يستطيع أن يقنع القافلة كلها بالتوقف يوم الراحة الاسبوعية لليهود (أى يوم السبت) ، وهذا أيضاً أثبتته الجينزا . ومما يجدر ذكره أن هذه الحالات استمرت سائدة دون تغيير حتى القرن التاسع عشر الميلادى .

فقد ذكر المستشرق الذائع الصيت أ. س . يهودا[٢٩] A.S.Yahuda — فى مجموعة مقالاته — أن جده (لوالده) حين هاجر من بغداد إلى القدس (أورشليم) سنة ١٨٥٢ م ، اشترط على القافلة التى سيسافر معها أن تجعل يوم السبت يوم راحة لها ، وهو فى سبيل ذلك تكبد مبالغ كبيرة . وبسبب هذه الظروف فان التفويضات ، التى أودعها اليهود لأصدقائهم من رجال

الأعمال المسلمين ، أو الحجاج القاصدين إلى مكة ، وردت فى خطابات ، جاء فى بعضها : « إذا كانت هناك قافلة ، وكان بها مسلمون موثوق فيهم ، أرجو أن ترسلوا البضائع معهم . . . » . وعلى أى حال ، فان تلك الإشارات لم تكن عامة أو شائعة . وكقاعدة عامة ، فان الناس سافروا بالبحر ، حتى فى المسافات القصيرة مثل تلك التى بين عكا والرملة – طريق يافا – وفلسطين أو بين صور وطرابلس الشام(٣٠) .

وعلى الرغم من أن الأحوال اختلفت كثيرا ، أحيانا ، حتى خلال أيام العام الواحد ، فانه يبدو – على الرغم من أن ذلك ليس مؤكدا بعد – أن متاعب السفر ، والنفقات ، وانعدام الأمن والطمأنينة ، كانت أكثر فى السفر عبر البر عنه عبر البحر ، هـــذا ، مع أن هناك أسبابا أخرى لذلك التفاوت بين وسيلتى السفر والعبور وقتذاك(٣١) .

ثانيا : أن سفر القافلة أو إبحارها كان يتم بطريقة غاية فى النظام والتنسيق. ففى الشتاء ، وحين تكون حالة البحر لا تسمح بالملاحة البحرية ، كانت هناك ثلاث قوافل تعبر من سجلماسة – ميناء مراكش الصحراوى الكبير وتسير عبر القيروان ، وطرابلس ، وبرقة إلى مصر . وفى الصيف، كذلك ، فان القافلة التجارية لا تستخدم الطريق البحرى فى رحلتها. لأن السفن عادة ما تبحر فى قوافل ابتداء من فصل الربيع ، وتظل فى رحلاتها إلى أن تعود عند حلول عيد الصليب Festiavl Cross الذى يحل فى ٢٧/٢٦ سبتمبر . والقوافل البحرية الأخرى تقلع فى الشهر القبطى « بؤونة » ، الذى يبدأ فى ٧ يونيو من كل عام . أما الفترة ما بين نهاية مايو وبداية يونيو، فان القوافل التجارية البحرية التى بالخارج ، تكون فى حاجة إلى فترة تتراوح بين شهرين وثلاث شهور لتقطع المسافة ما بين مصر وتونس ، فى مهمة تجارية، إلى المحطات الوسيطة خلال الطريق . ففى أحد الخطابات ، توجد إشارة الى مدينة القيروان ، تبين بوضوح وصول القافلة لها بعد مضى عشرين يوماً .

وهذه المدة أو المسافة الطويلة ، التى كانت تستغرقها القوافل كانت تعرف باسم الموسم « Mausim » ، وهى نفس الكلمة المستخدمة فى رحلات المحيط الهندى التجارية، وتعرف بها رياح مسماه بالموسمية. وهذه الفصول أو المواسم وعلاقتها بالرحلات البحرية فى حاجة إلى توضيح ودراسة أكبر .

ثالثا : كان عامل السرية هاما جداً فى إعداد وتجهيز الرحلة البحرية التجارية أو الرحلة البرية التجارية أيضا ، وعلى الرغم من هذا فان أيا من المؤرخين أو الجغرافيين المسلمين لم يتعرض بالدراسة لهـذا العامل الهـام أو يوضح سبب اللجوء إليه . وعلى كل حال ، فلقد سافرت الناس والبضائع عبر البحر ، بينما كان البريد يتم إرساله عبر البحر . والحق ، أن المصادر الأوربية تكلمت كثيرا عن نظام البريد فى عالم البحر المتوسط ، بصفة عامة، والدول الإسلامية بصفة خاصة . وقد ظلت الخدمة البريدية Postal-Service مستمرة وتحت إشراف ولمصلحة الحكومة الاسلامية،مثلما كان عليه الحال فى الصين والامبراطورية البيزنطية إبان العصور الوسطى .

وعلى أى حال ، فإن هذا الجانب الهـام ـ البريد ـ خصص أساسا لخدمة الحكومة وأعمالها الرسمية المتعلقة بالاشراف على الإدارة والولايات. وفى مجموعة الجينزا ـ وكما عرفنا كثيرا عن عمليات تجارية جرت ، فان ثمـة خدمات بريدية خاصة ، كانت لا تقل أهمية بالنسبة للشعب عن البريد الحكومى المصلحى . وقد قام بهذا العمل البريدى عمال أو سعاة سمى الواحد منهم باسم « الفيج »[٢٢] (أو العداء) ، فى كل شمال أفريقيا ، بينما عرف باسم « الكتبى » ـ أى حامل الكتب أو المكاتيب أو الخطابات ـ فى غرب آسيا . وهذه الخدمة البريدية عموما ، كانت تدخل فى نطاق مسئولية واهتمام الحكومة الأساسى . وقد ظل هذا النظام الأخير محتفظا بعديد من المحطات للراحة ، وتغيير الحيوانات فيها واستبدالها بغيرها مستريحة قوية

غير منهكة أو ضعيفة ، ثم يكمل المشوار بها شخص آخر يتولى أمر المراسلات والطرود الوافدة إليه من نقطة البدء حتى نهاية الرحلة أو المطاف .

أما عن الخدمات البريدية الخاصة بالأهلين (الخدمات البريدية الأهلية غير حكومية) ، فكان يقوم بها « سعاة خصوصيون » لهذا النوع من الخدمة . وكان الساعى منهم ينقل البريد من القيروان « Kairouan » على طول الطريق إلى القاهرة ، ومنها إلى المرية[٢٣] باسبانيا الاسلامية ، وكان ساحل شمال أفريقيا المطل على البحر المتوسط مساراً للبريد أيضا إلى الاسكندرية بمصر . وهذه الخدمة البريدية الخاصة لم تكن مكلفة أو باهظة النفقات نسبيا . إذ كان الخطاب المرسل من « المرية » « Almeria » إلى الاسكندرية ، يتكلف درهما ونصف درهم فضى ، فى الوقت الذى كان فيه الخطاب العاجل المرسل من بيت المقدس (أورشليم) إلى الرملة يتكلف نصف درهم . وربما كانت الخطابات المرسلة من مدينة إلى مدينة أخرى بالبر ، تشير إلى بضائع أو أصدقاء من رجال الأعمال توجهوا فى نفس وقت ارسال الخطاب بطريق البحر فى قارب أو مركب[٢٤] .

رابعا : لم يكن هناك ثمة فرق واضح فى العصور الوسطى بالنسبة للمراكب الصغيرة نسبيا فى إبحارها أو سيرها ، سواء فى البحر أو النهر . ولذلك فلا غرابة أن نجد مجموعة الجينزا تورد اشارات لقوارب أتت من البحر ، وأكملت طريقها فى المياه الداخلية (النهرية) ، والعكس بالعكس . فمن ذلك ما نقرأه عن مراكب لقاضى مسلم غنى من مدينة صور ببلاد الشام (فى لبنان حاليا) ، ذهبت من دمياط — بالفرع الشرقى للنيل — إلى القاهرة المعزية ، ومن هناك اتجهت نحو الفرع الغربى للنيل فالاسكندرية ، ثم تونس .

وعلى أى حال ، فقد كان من المعتاد وقتذاك أن يترك المسافرون

والودائع ، المراكب الصغيرة فى موانى البحر المتوسط ، ويكملوا طريقهم عبر الأراضى الداخلية بوسائل أخرى ، وبصفة رئيسية عن طريق النيل . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى استمرار التغييرات التى حدثت من جراء النار الهائلة ، التى اندلعت من قاع النيل وقتئذ ، مما جعل الملاحة فيه ، نتيجة لهذه النار ، محفوفة بالخطر .

وبالتالى فان نوعا خاصا من المهارة ، كان لابد من توافره لبحـــارة وربابنة المراكب النيلية ، وهو ما لم يكن متوافرا لدى بحارة وربابنه المراكب السائرة فى البحر المتوسط . وهناك عديد من النماذج للسفن التى استخدمت فى النيل مثل العشارى Ushari — وهو قارب نيلى — والجـرم Jarm — وهو قارب أو صـــندل للشحن Barge — ، والسميرية Sumayria [٢٥] — وهو نوع من المراكب العراقية — ، وقارب طويل مربع يسمى الخيطى Khiti — من الخيطية Khitiya — وقد نوهت عنها مصادر عدة ، تكلمت عن تاريخ العراق فى صـــدر الاسلام ، ولم تذكر شيئا عنها فى مصر فى الفترة التى نناقشها فى بحثنا (أى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين)[٣٦].

خامسا : فيما يتعلق بالملاحة فى أعالى البحار ، كانت السفن تبحر — فى العادة — فى قوافل بحرية مسلحة « Armament Caravans » ، لتتحول وقت الخطر إلى سفن حربية تزود عن نفسها عادية الأعادى وتؤدبهم . ولذلك ، فقد كان من المعقول أن يتوقف إبحار أغلب — إن لم يكن كل — التجار أو عدم إبحارهم ، على وجود أو عدم وجود محاربين يصحبونهم فى رحلاتهم التجارية ليتولوا مهمة الدفاع والحماية عنهم ولهم . وكان من المعتاد أن تصاحب السفينة الكبيرة سفن صغيرة خاصة بأحد الأقارب أو الأصدقاء للمسافرين فى القافلة .

وبديهى أنه حين كانت القافلة تبحر فى أحوال جوية سيئة ، فان المركب الصغيرة أو القارب كانت فرصته فى البقاء والنجاة أو السلامة أكثر مما كان للمركب الكبير، ولا سيما حين كانت السفينة الكبيرة تفقد أشرعتها ودفتها، وهو ما كان يحدث فعلا ولأكثر من مرة . فلقد ورد فى أحد الخطابات المكتوبة بواسطة يهودى باللغة العربية ، أن مركب الخدمة(٣٧) تمكن من التقاط من بقوا أحياء من السفينة الرئيسية (الأم) . غير أننا لم نجد فى أوراق الجينزا أى إشارة إلى ما يمكن أن نسميه بقوارب النجاة ، التى ربما تكون قد حملت على ظهر السفينة الكبيرة ، وهو على ما نعتقد ما لم يكن معروفا أو مستخدما حينذاك .

سادسا : أما عن الأنواع الخاصة للمراكب الوارد ذكرها فى مجموعة الجينزا . فيدخل أغلبها تحت النوع المعروف باسم القنبر « Qunbar » . وهذه الكلمة (القنبر) لم نعثر عليها بعد فى القاموس العربى ، ولم تذكرها كتب الأدب أو التاريخ الاسلامى . وعلى أى الأحوال ، فان الامبراطور البيزنطى ليو الحكيم (٨٨٦—٩١٢م) ، ذكر — فى كتابه الذى وضعه عن فن الحرب — أن كلمة القنبر تقابلها فى اليونانية « Konbarion » ، وهى مأخوذة عن المسلمين ، وان ابنة الامبراطور « قسطنطين السابع » ، وصفها بأنها سفينة كبيرة . كذلك فان البنادقة استخدموا هذا النوع من المراكب فى القرن العاشر الميلادى ، وعرفوه باسم جومباريا « Gombaria » . وعلى كل حال ، فقد كان البيزنطيون والبنادقة يشيرون بكلمة «القنبر» ويقصدون بها رجل الحرب ، وهى ما عرفتها مجموعة الجينزا — على وجه التأكيد فى القرن الأخير بأنها سفينة تستخدم فى نقل الأحمال الثقيلة والمسافرين(٣٨) .

سابعا : وفضلا عن أن السفن التى تبحر ، والقراقر(٣٩) ، والأغربة(٤٠) ، كانت تدفع أو تسير ، بصفة أساسية ، بواسطة مجاذيف ، وكانت تستخدم

فى السفر والارتحال . فإن « القرقور » كانت له مزايا تكتيكية وملاحية تفوق ما كان للسفن الأخرى . إذ كان خفيف الحركة ، قادراً على المناورة بسهولة ، والهرب من هجمات القراصنة المزعجة ، كما كان بالطبع — لصغر حجمه — أقل تعرضاً لتغييرات الريح والأنواء المفاجئة . على أن الإشارات التى تدل على استخدام القراقر كسفن تجارية ، لازالت باهتة أو نادرة نسبياً فيما وصلنا من كتابات . ويبدو أن استمرار (ملازمة) السفر فى عرض البحر ، أو حتى بجانب السواحل (المساحلة) ، كان يعتمد أساساً على الرياح[41] . يدلنا على ذلك ماورد فى خطاب مرسل من الإسكندرية ، يشكو فيه مرسله من عدم وصول أى سفينة خلال مدة تزيد على ٣٣ يوماً ، فيما عدا قارب أسبانى كبير . لأن الرياح لم تهب لا من الشرق ولا من الغرب أضف إلى ذلك ، أن السفينة تركتهم منذ ٢٣ يوماً ، وحتى « عيد الصليب » (Festival Gross) دون أن تعود .

كذلك لم يكن أمد الرحلة فى العودة محدداً بوقت معين ، حتى يمكنهم إنجاز الأعمال التجارية وغيرها خلاله . على أن الأمر الغريب حقاً ، هو أن المصالح الاقتصادية التى كانت للمدن الإيطالية فى بلاد المسلمين ، لم يترتب عليها حقاً بناء سفن من نوع القراقر لتستخدم فى السفريات (الرحلات) التجارية بين شواطىء البحر المتوسط[42] .

ثامناً : هناك نوع آخر من السفن التى استخدمت فى البحر المتوسط ، يعرف باسم « الخنزيرا » — وليس المقصود ذلك الاسم الذى يطلق على نوع من الحيوانات أو نوع من السمك يعرفه السوريون — والخنزيرا اسم غريب حقاً يطلق على نوع من السفن ، لكن وجه الغرابة سرعان مايزول إذا سمعنا عن « الغراب » كاسم من أسماء نوع معين أيضا من السفن .

وعلى كل حال ، فيبدو أن هذا النوع من السفن — الخنزيرا — قريب

الشبه بالمركب المعروف باسم « دوامة » (Duwama) ، وقد استخدمت المراكب من نوع الخزيرا فى الطريق بين صقليه ، وتونس ، بطرابلس الغرب ومصر ، كما أن هناك رواية تقول أن مراكب الخزيرا التونسية استخدمت فى رحلة نيلية. فضلا عن أن كلمة أو لفظة « جنزيرا » (Janzira) ورد ذكرها فى معاهدة عقدت فى ١٩ أكتوبر ١١٨١م بين مدينتى بيزا « Piza » ولوكا « Iucca » الايطاليتين .

كذلك أطلقت كلمة شخطورة « Shakhturra » ، على نوع من القوارب الساحلية (التى تسير بقرب الساحل وليس فى عرض البحر) ، وتردد إسمها كثيرا فى مجموعة الجنيزا . ففى سنة ١١٣٠م نسمع أن قارباً ما قام برحلة من الاسكندرية (فى مصر) إلى المرية (فى أسبانيا) وأنه قطع هذه الرحلة فى مدة ٦٥ يوما ، وأنه كان أسرع من قاربين أسبانيين أبحرا معه من الاسكندرية وقد ورد ذكر الشخطورات (Shakhturs) بصفة خاصة فى الرحلات التى كانت تتم بين تونس وطرابلس والغرب ومصر .

أما كلمة « الحجم » (Hajm) ، فهى تسمية عادية لطاسة (قارورة أو قصعة) شرب كبيرة ، وقد أطلقت على نوع من السفن التى استخدمت فى السفن بين صقلية ومصر ، وهى سفينة دائرية الشكل ، تشبه القارورة أو قصعة الشرب .

أما النوع الآخر الذى استخدم على نفس الطريق (مصر — صقلية) فيسمى القربة « Qarraba » — بمعنى صندوق أو صدر — ، وهذه ربما يقابلها عند الروم السفينة المعروفة باسم « Dromon » ، وهى سفينة ذات حواف حادة ، وكانت تسير فى هذا الطريق بكفاءة عالية(٤٣) .

ولقد أشار اليهود خلال خطاباتهم المكتوبة بالعبرية ، إلى الأشرعة والمجاديف وهذا يعنى أن سفنهم كانت تعتمد أساسا على حالة الرياح . ولكن

لم يرد لسفنهم وصف محدد ، مثل تلك المراكب التي ورد ذكرها في مجموعة الجينزا ، أو تلك المعروفة باسم « الطرائد » — جمع طريدة[٤٤] « Tarida » — وهي نوع متوسط الحجم بين السفن الكبيرة والقراقر الصغيرة .

تاسعا : أن مجموعة الجينزا تتكلم في مناسبات عدة عن السفن والحرب البحرية . وهنا — أيضا — أود أن أبدى ملاحظة أو توضيحا ، ذلك أن هناك نوع من التوافق في المصادر الأدبية حول التسمية ، والتكتيك الحربي للسفينة المسماه أسطول « Ustul » ، وتشغيلها مع القراقر المسماه القطائع « Qatai » ويقابلها حرفيا « قطع » . وقد وردت كلمة « أسطول » عند الروم واليونانيين بهذه الهيئة « Fleet (Stolos) » ، ولكنها أطلقت عند العرب وقتذاك على السفن الحربية الثقيلة ، من طراز « القطائع » .

وعلى أى حال ، فنحن لم نقرأ عن رحيل المسافرين والبحارة الجسور في المصادر العربية ، على عكس الجينزا ، التي ذكرت ذلك أكثر من مرة(٤٥).

وقد استخدمت كلمة قطائع « Qatai » أو « Aqta » كذلك التعبير عن المراكب المستخدمة في السفريات الشاقة المكؤودة ، التي كانت تقوم بها المراكب من القاهرة في اتجاه مضاد للتيار (تيار مياه نهر النيل) حتى قوص « Qus » في أعالى مصر ، ومن هناك تعود المركب بعد أن تمكث يومين فقط . كذلك الأمر ، فان كلمة « غراب » التي صادفناها كتسمية للقرقر ، استخدمت لتسمية السفن التجارية ، كما امتد استخدامها ليشمل نوعا من السفن الحربية . وقد ذكرت « الشيني »[٤٦] — كما يروى ابن مماتى[٤٧] وكما وردت في الجينزا على أنها سفينة حربية ، ثم اتسع مدلول اللفظ حتى صار يطلق على القراصنة فصاروا يعرفون باسم « أصحاب الشوانى »[٤٨] .

والواقع أن وحدة عالم البحر المتوسط في العصور الوسطى ، ما كان ممكنا لها أن تحدث لولا التبادل وتزايد حركة النقل البحرى التجارى في هذا

البحر المتسع . إذ وردت بالجينزا اشارات تدلنا على أن النظام السائد فى ملكية السفن فى العالم الاسلامى إبان العصور الوسطى فى البحر المتوسط ، كان يشبه النظام السائد فى مدينة جنوة « Genoa » الإيطالية ، أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، عندما أدى تراكم الثروات فى أيدى الأسرات الغنية ، وتزايد نفـــوذ هذه الأسرات ، إلى تحلل نظام الملكية المشتركة للسفن . ويحتاج هذا التناقض بين وسائل التجارة البحرية ، وبين ملكية السفن فى العصور الوسطى إلى تعليق .

وهناك مشكلة أخرى بخصوص ملكية السفن ، وهى غياب الاشارة إلى ملاك مسيحيين محليين للسفن فى العالم الاسلامى . فليس هناك بالطبع ، ذكر للسفن المسيحية الأوربية كسفن مرسيليا ، وجنوا ، وبيزا ، وجايتا ، وجزيرة صقلية الزمندية (منذ أواخر القرن الخامس الهجرى) وهو مالا يظهر فى الجينزا إلا فى القرن الثانى عشر الميلادى . ومن بين المسيحيين الذين يحملون أسماء عربية ، لا يرد سوى ذكر لاسمين اثنين باعتبارهما من ملاك السفن ، واسم أو اثنين لملاك آخرين قد يكونون من أصل مسيحى .

وصفوة القول ، أن حوالى أربعمائة سنة من الحروب البحرية بين دول الاسلام وبيزنطة ، فيما يبدو ، أثرت تأثيرا سيئا على الملاحة للدول المسيحية المحلية ، فى عالم البحر المتوسط إبان العصور الوسطى .

* * *

مصادر البحث

(أ) مراجع عربية :

١ – ابن مماتي : قوانين الدواوين .

٢ – القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ١٤ جزءا × ١٤ مجلدا .

٣ – حسين مؤنس : المسلمون في عالم البحر المتوسط (مقال بالمجلة التاريخية سنة ١٩٥١م) .

٤ – حسين مؤنس (مترجم) : الامبراطورية البيزنطية (تأليف نورمان بينز) .

٥ – أرشيبالد ، لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ٥٠٠ – ١٥٠٠م .

٦ – سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية .

٧ – صابر دياب : سياسة الدول الاسلامية في حوض البحر المتوسط .

(ب) المصادر الأجنبية :

1. Lionel, Casson : The Ancient Mariners (N.Y), 1959.

2. Aly, Fahmy : Muslim Sea—Power in the Eastern Mediterranean . .

3. Aly, Fahmy : Muslim Naval Organisation Eastern Mediterranean . .

4. Goitein, S.D. : Studies on Islamic History and Instit.

5. Goitein, S.D. : Medit. Society.

6. Kruger, H., C., : Genoese Trade with the Northern West of Africa in 12th. Century (Speculum, Vol. 8, 1933, pp. 377—388)

7. Kruger, H., C., : The Wares of Exchange (Speculum, Vol. 12, 1937, pp. 57—71).

8. Nadvi ———— : Arab Navigation (Islamic Culture Review).

الحواشى

(١) Kruger : The Wares of Exchange. SPECULUM, 12, 1973, p. 57.

(٢) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط .

(٣) Kruger : Op, Cit., p. 57-59,

(٤) Goitein, S.D. : Studies of Islamic ...... p. 296.

(٥) كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ص١٨٩ — ١٩٤ .

(٦) Cahen Claud : "Mouvements Populaires et Autenemisme Urbain dans L, Asie Musul ; ame meyen age". Arabica & Revued' Etudes Arabes. Temes V; VI (1958—1959), T, VI, p. 260 Quetes Gemiza Decuments,

مأخوذة من وثائق الجينزا التى توضح أن ذلك كان حول ١٠٥٠ م ، وأن مدينة «الحدث» كانت راسخة البنيان بالنسبة لمدينة صغيرة مثل «القدس» .

(٧) Goitien : Ibid, p, 296—297,

(٨) Goitien : Ibid, p, 297,

(٩) Goitien : Ibid, p. 297—298,

(١٠) Goitein : The Decuments of the Cairo Geniza as a Source for Islamic Social History (Stndia Islamica, Paris, Vol, 3, 1955, PP, 75—91 & JGAS, 80, 1960, pp. 91—100,

وراجع أيضاً :

عطية القوصى : وثائق الجينزا وأهميتها فى دراسة تاريخ مصر الاسلامية (مقال منشور بمجلة جامعة القاهرة فرع الخرطوم العدد ٥ ، ١٩٧٤ ص١٨٥ — ١٩٣ .

(١١) Goitien : Studies on Islamic History & Instit,, p. 297.

(١٢) راجع : صابر دياب : سياسة الدولة الاسلامية (الباب الأول الفصل الثانى) .

(١٣) سميت أفريقية بهذا الاسم « تونس » فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى . ومن قبل كانت مدينة تونس وما حولها تسمى باسم « أفريقية » . وهذه كلمة معربة عن أفريقيا (أفريقا Africa) ، ذلك الاسم الذى كان الرومان القدامى يطلقونه على ذات المنطقة .

وكان لتونس أهمية كبيرة فى حركة النقل التجارى والحربى فى وقت كانت فيه وسائل النقل بطيئة . فهى تقع فى منتصف الطريق بين مصر ومراكش ، ولهذا كانت مركزاً لحركة القوافل بين شمال غربى أفريقيا ، والبلاد الواقعة جنوب الصحراء ، وبين مصر وجيرانها الشرقيين والجنوبيين .

كذلك كان قرب تونس لجزيرة صقلية — وهى الجزء الموصل لأوربا — مما ساهم فى جعل تونس مركزاً للتجارة بين الشرق والغرب ، خاصة وأنه لم تكن توجد بعد السفن التى يمكنها قطع المسافة الطويلة بين أسبانيا وفرنسا ، وإلى مصر وسوريا مباشرة .

وبعد فتح الفاطميين لمصر والشام (منتصف القرن الرابع الهجرى ، تفوق أيضاً وضع تونس ، التى كانت قد غدت — قبيل تحرك الفاطميين إلى مصر — قاعدة ومركزاً لدولة إسلامية تقع على البحر المتوسط . راجع : ابن أبى دينار : المؤنس فى تاريخ أفريقية وتونس ، ياقوت : معجم البلدان (ماده تونس) وصابر دياب : سياسة الدول الاسلامية فى حوض البحر المتوسط ص٩٥ — ٩٩ . راجع :

Goitein : Studies on Islamic . . . , p. 303

(١٤) Kruger : Genoese Trade with the Northen Africa and The Wares of Exchange.

(١٥) Goitein : Studies on Islomic History and Instit., 297—298.

(١٦) Goitein : Studies on Islamic History and Instit., 298 - 299.

(١٧) Goitein : St dies on Islamic History, p. 298—299,

(١٨) العنبر : هو تلك المادة الرخوة أو الدهنة التى تفرزها الحيتان ، وكانت ولاتزال تستخدم فى مصانع العطور . والنوع المقصود هنا من الحيتان هو النوع الضارب لونه إلى الصفرة ، وهو موجود فى المحيط الأطلسى . راجع :

Goitein : Studies on Islamic . . . , p. 339.

(١٩) Goitein : Studies on Islamic . . . , p. 299.

(٢٠) Goitein : Studies on Islamic . . . , p. 300.

(٢١) Goitein : Studies on Islamic . . . , p. 300.

(٢٢) Op., Cit., p. 300.

(٢٣) Goitein : Ibid, p. 308—310 & Kruger : Grmoise Trade & Wares of Exch.

وأرشيبالد : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط .
(٥٠٠ — ١٥٠٠م)

(٢٤) Goitein :Op., Cit., p. 308.

(٢٥) Goitein : Ibid, p. 308—310.

(٢٦) أرشيبالد : القوى البحرية ص .

Goitein : Ibid, p. 308—310.

(٢٧) المهدية : مدينة ببلاد المغرب بناها « عبيد الله المهدى » أول خليفة فاطمى بالمغرب (٢٩٦ — ٣٢٢هـ) . وأراد من بنائها أن تكون حاضرة لدولته الشيعية المذهب التى قامت هناك . وهى تبعد نحو ستين ميلا (٢٠ فرسخاً) جنوبى القيروان .

وكان من أهداف بنائها — إلى جانب كونها عاصمة للدولة الفاطمية — أن تكون قاعدة عسكرية بحرية هجومية ودفاعية فى آن واحد ، لتنطلق منها أساطيل دولة الفواطم ومن السواحل الأفريقية غازية فى البحر بلاد الكفر وأعداء الفاطميين معاً .

ونحن إذا نظرنا إلى شكل « المهدية » لوجدناها عبارة عن جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند ، ولا يسهل على العدو أن يبغتها بهجوم ، وقد نحت مرسى ميناءها فى الصخور ، وكان يتسع لنحو ثلاثين مركباً ترسو أو تقلع فى آن واحد . وكان بها دار لصناعة السفن تتسع لنحو مائة سفينة .

وقد بدىء فى بناء المهدية ومرافقها سنة ٢٩٧ هـ وانتهى من بنائها سنة ٣٠٥ هـ (٩١٧م) ، وانتقل إليها حكام الفاطميون سنة ٣٠٨هـ من عاصمتهم الأولى « رقادة » . ولم يكتف المهدى الفاطمى بالمهدية ، وإنما رأى إقامة ربض (ضاحية) لها فبنى زويلة — نسبة لإحدى قبائل البربر — فسميت للهدية وزويلة باسم « المهديتين » نسبة لبانيهما عبيد الله المهدى .

واستمرت المهدية عاصمة للفاطميين بالمغرب ، إلى أن أقيمت عاصمة جديدة لهم تليها فى الأهمية هى «المنصورية» ، التى أنشئت سنة ٣٣٦هـ فى خلافة المنصور الفاطمى (٣٣٤ — ٣٤١هـ) .

غير أن المهدية ظلت محتفظة بمكانتها كميناء حربى وتجارى وكعاصمة دينية للفاطميين ، ثم كرسى تجارى وقاعدة عسكرية بعد ذلك زمناً طويلا .

راجع : الأصطخرى: مسالك الممالك ص٣٦ — ٣٨ والبكرى : وصف أفريقيا ص٣٠ وابن الأثير ، الكامل جـ٨ ص ٣٣ والبكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص٨٤ — ٨٥ والمقريزى : خطط ٣٠٧/٣ و ٣١٣ — ٣١٥ (ط. بولاق) ، والأنطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٧٦٢ (٦٤) منشور فى مجلة :

Pat. Or. Tome 13, Fasc. V.

وراجع أيضاً : صابر دياب : سياسة الدول الاسلامية ص ٩٥ - ٩٨ .

(٢٨) Goitein : Stunies on Islamic . . . , P. 310.

(٢٩) توفى أ. س. يهودا فى عام ١٩٥١ فى مدينة نيوهافن بولاية كونيكتيكت بالولايات المتحدة الأمريكية . راجع :

Goitein : Op. Cit, p. 302.

(٣٠) Goitein : Ibid, p. 303—305.

(٣١) Op., Cit.; p. 302.

(٣٢) الفيج : جمعها فيوج وهى كلمة فارسية أصلا . راجع :
Goitein : Ibid, p. 303.

(٣٣) مدينة المرية (Almeria) من المدن الاسلامية الهامة التى أسسها المسلمون فى الأندلس . وكانت من أعظم قواعد الأسطول الاسلامى للأندلس الأموية ، وإبان عصر الطوائف . كذلك كانت مركزاً تجارياً على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة للتجارة البحرية مع أقطار عالم البحر المتوسط. هذا فضلا عن كونها مركزاً صناعياً هاماً للمنسوجات الحريرية الأندلسية فى العصر الاسلامى .

وقد لعبت المرية دوراً سياسيا وحربيا هاما فى عهد ملوك الطوائف ، وهذا الدور لا يقل أهمية عن مثيله الذى لعبته مدينة أشبيليه (Seville) فى عصر الموحدين ، أو قرطبة فى عصر الخلافة الأموية على الأندلس . وكانت المرية منفذاً وحيداً لمملكة غرناطة (Granada) بعد تقلص ملك المسلمين فى الأندلس ، وأصبح هذا النفوذ مقتصراً على مملكة غرناطة فقط ، إذ كانت تصلها الامدادات والمؤن من بلاد المغرب فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وعليها كانت تعتمد مملكة غرناطة اعتماداً كليا فى وصول المجاهدين المغاربة ، لذلك كان سقوط مدينة « المرية » فى يد القشتاليين سنة ١٤٩٠م نذيراً بسقوط غرناطة ، آخر معاقل الإسلام فى الأندلس ، وهو ما تم فعلا ١٤٩٢ م .

راجع : دائرة المعارف الاسلامية (مادة المرية) + البكرى : معجم ما استعجم (المرية) + السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ص ٧ .

(٣٤) Goitein : Ibid, p. 303.

(٣٥) راجع فيما يتعلق بهذا النوع من السفن مقال S.M.Stern عنوانه :
The Petitions of the Fatimide Period
منشور فى مجلة Oriens ، ١٩٦٢ م ، ص ١٧٥ — ١٧٦

(٣٦) هناك نوع من السفن استخدم فى أمواه البحر المتوسط ، كما عرفته البحرية الإسلامية فى كل من مصر والشام ، وبلاد المغرب ، وأسبانيا الاسلامية وهذا النوع يسمى الشيطى (وجمعها : شياطى) وهى سفينة تستخدم للاستطلاع وكشف أحوال العدو والوقوف على قوته . راجع صابر دياب : سياسة الدول الاسلامية ص ١٨٩ والهوامش .

(٣٧) مركب الخدمة : قارب متوسط الحجم ليس صغيرا ولا كبيرا ولكن بين بين . راجع ابن مماتي : قوانين الدواوين ، عبارة ، سفن الأسطول الاسلامي ،

(٣٨) راجع Goitein : Studies on Islamic History, P·303-305

(٣٩) القراقر : سفن لحمل البضائع . راجع صابر دياب : سياسة الدول الاسلامية ص ١٨٩

(٤٠) الأغربة : (جمع غراب) وهى سفن لحمل البضائع تسير بالقلاع والمجاذيف .

(٤١) راجع نفس المراجع السابق . Goitein : Ibid, P .305

(٤٢) Lionel Casson : The Ancient Mariners (N. Y.), 1959, P. 243 & Ibid, P. 305-303

(٤٣) Lionel Casson : Ibid, P. 243 & Goitein : Cp. Cit., P. 306.

(٤٤) الطريدة : جمعها طرائد وهى سفن لها أبواب تفتح وتغلق لحمل الخيول وقت الحرب . راجع : صابر دياب : سياسة الدول الإسلامية ص ١٨٩ والحواشي ، سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية . Goitein : op. Cir. P. 306-307

(٤٥) يقول جواتيين "Goitein" « علمت من اتصالى بالدكتور ليونيل ساسون أن القرابط التكتيكي للمراكب الكبيرة، استمد مما كان شائعاً استخدامه فى الأسطولين اليونانى والرومانى » . راجع جواتيين فى كتابه :
Studies on Islamic History and Institutions
ص ٣٠٧ ، حاشية (١) :

(٤٦) الشيني : جمعها شواني . وهى سفن حربية ذات أبراج : صابر دياب : سياسة الدول الاسلامية ص ١٨٩

(٤٧) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٢٤٠

(٤٨) Goitein : Ibid , P. 307-308

دعوة إلى إحياء تراثنا العلمى

للدكتور جلال شوقى
الأستاذ بكلية الهندسة جامعة القاهرة

تمهيد :

إن القوانين العلمية المختلفة التى توصل إليها علماء من الشرق والغرب ، تلك القوانين التى تقوم عليها علومنا الحديثة ، لتبدو لنا ونحن على مشارف الربع الأخير من القرن العشرين - لبساطتها ومنطقيتها - وكأنها لاتستوجب كل هذا التقدير والإجلال للعلماء الذين توصلوا إليها ، والواقع أنه لايدفعنا إلى هذا الإحساس غير المنصف سوى اعتيادنا لهذه القوانين إلى الحد الذى تبدو لنا فيه سهلة مألوفة واضحة ، لدرجة ننسى معها كيفية وأهمية التوصل إليها ، كما أنه يتراءى لنا أيضا أن التجارب التى قام بها بعض العلماء تتميز بقدر كبير من البساطة إلى الحد الذى يراود فكرنا الاعتقاد بأنه فى مقدور الشخص العادى أن يتوصل إليها لو لم يسبقه هؤلاء العلماء إلى إجرائها ، ولنسق أمثلة واضحة للتدليل على قولنا هذا ، فنشير إلى أن حقيقة كروية الأرض — التى تبدو لنا اليوم أمرا بديهيا لايختلف فيه اثنان — قد أخذت من فكر البشر وجهدهم قرونا عديدة حتى أمكن إثباتها وإثبات دورانها فى فلك معين حول الشمس. ثمة مثال آخر هو السهولة التى تتم بها اليوم العمليات الحسابية ، وقد لايعلم الكثيرون أن التوصل إلى فكرة منازل الأرقام من الآحاد والعشرات والمئات إلى آخر هذه المنازل لم يتم إلا فى صدر الحضارة

العربية ، أى أن الإنسان قد عاش آلاف السنين يتبع طرقا عقيمة ومطولة فى حساباته قبل أن يهتدى إلى فكرة منازل الأرقام ، والإنسان العادى يؤدى العمليات الحسابية اليوم فى سهولة ويسر دون أن يعى الطريق الطويل الشاق الذى قطعه الإنسان ليصل إلى هذه الفكرة التى تبدو لنا اليوم فى غاية البداهة .

إن التقدير السليم المنصف ، والتفهم الصحيح للجهود الخلاقة المتواصلة التى قام بها الإنسان عبر تاريخه الحضارى الطويل، وسعيه الدءوب إلى العلم والمعرفة لا يتسنى الوصول إليه دون الدراسة العميقة والتحليل الدقيق لظروف العصور التى تمت فيه تلك الجهود والمحاولات ، ومن ثم فإنه يتعين على مثل هذه الدراسة أن تتعرض بالبحث لحالة الفكر والمجتمع التى لازمت هذه الجهود ، وأن تتعرف على مدى الاحتياجات والإمكانيات التى أدت لى الاكتشافات والإنجازات التى توصل إليها الإنسان ، ذلك المخلوق ذو الحضارة المجيدة .

إن العلم بنموه المتواصل يؤثر ولاشك تأثيرا متزايدا على الإنسان من حيث مقومات حياته وفكره وفلسفته ومعتقداته ، ومن هنا فإن الفهم الحقيق الواعى للعلم - وهو الخلية الحية الدائبة النمو والتطور والاكتمال - يقتضى منا دراسة عميقة لتطوره عبر الأزمان .

إن اقتفاء الاتجاهات التى أثر ويؤثر فيها العلم على حياة البشر وسعادتهم يمكننا - مع دراسة واعية لامتداد هذه الاتجاهات - من الوقوف على الأثر المحتمل للعلم على مستقبل البشر .

دراسة تاريخ العلوم ودواعيها :

بالعلم - وهو أثمن ما لدينا من ألوان المعرفة - توصل الإنسان إلى الإنجازات العظيمة التى أحرزها فى طريق إخضاع الطبيعة وتطويعها

لخدمته ، ولم يكن الطريق إلى هذه الإنجازات طريقاً سهلا ميسوراً ، بل على العكس تماماً من ذلك كان طريقاً شاقاً طويلا تكتنفه المصاعب والعقبات، تكاتفت على تمهيده أجيال بعد أجيال ، وإن من حق الأجيال السابقة علينا — وهى التى ندين لها بحضارتنا وتقدمنا — أن نعرف معالم الطريق الذى فيه سارت ، وذلك لأسباب واعتبارات متعددة ، منها أن نعى مابذلته أجيال السلف من فكر ومن جهد لإسعاد البشرية ، وأن نقف على تطور الفكر العلمى واتجاهاته خلال مختلف العصور والحضارات ، وأن نتناول بالدراسة والفحص والتحليل ما وصلت إليه مدارك الإنسانية حتى العصر الذى نعيش فيه .

وثمة أسباب أخرى تدفعنا إلى الاهتمام بدراسة تاريخ العلوم ، نذكر منها توسيع أفق المشتغلين بالعلوم ومداركهم من حيث تطور الأفكار والانجازات العلمية ، وتأهيلهم للتفوق والامتياز بالوقوف على الصعاب التى واجهت العلماء السابقين ، ودراسة الأخطاء التى وقعوا فيها للإفادة من تلك المحاولات والتجارب الرائدة، وبذلك يكتسب دارسوا تاريخ العلوم مقدرة عالية فى معالجة البحوث واستنباط أساليب جديدة لإجرائها ، والوصول إلى نتائج علمية هامة، ومن ثم كانت الحكمة القائلة :

« إن الإحاطة بعلم لا تكتمل دون الإلمام بتاريخه » .

إن دراسة تاريخ العلم — وهى فى حد ذاتها دراسة شيقة وطريفة — لا بد وأن تكون عاملا قوياً على تنمية الميل إلى البحث العلمى والاستزادة من ألوان المعرفة ، كما وأنها تضيف الكثير إلى الثروة العلمية للإنسان .

مظاهر الاهتمام المعاصر بتاريخ العلوم :

إن من أهم سمات الحقب الأخيرة ذلك الاهتمام الواعى الأصيل

بدراسة تاريخ العلوم ، ولا غرو فهذه الدراسة هى الأساس الذى يقوم عليه بناء التقدم العلمى .

ولقد قام كثير من الدول المتقدمة بإنشاء الأكاديميات ومراكز البحوث والمعاهد المتخصصة فى دراسة تاريخ العلوم ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الأكاديمية الدولية لتاريخ العلوم بباريس ، والأكاديمية البولندية للعلوم وتاريخ العلوم والتكنولوجيا ، ومعهد تاريخ العلوم بجامعة وسكنسن بأمريكا ، ومعهد أبحاث تاريخ التكنولوجيا بفينا بالنمسا ، ومعهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية ومقره القاهرة ، ومعهد تاريخ وفلسفة العلم بمركز همدرد بكراتشى بباكستان ، ولعل أحدثها مركز التراث العلمى العربى بجامعة حلب بسوريا .

كذلك أقيمت وخصصت متاحف لعرض الآثار والمنجزات العلمية للبشر ، منها متحف العلوم بلندن ، ومتحف تاريخ العلم بأكسفورد ، والمتحف الفنى للصناعات والحرف بفينا ، ومتحف شتوتجارت بألمانيا الغربية .

ولقد قامت هيئات وجمعيات علمية ركزت نشاطها فى هذا النوع من الدراسات منها «جمعية نيوكمن» فى انجلترا ، و «الجمعية المصرية لتاريخ العلوم» التى تأسست فى القاهرة عام ١٩٤٩ .

شهد القرن الحالى نشاطاً متزايداً فى دراسة تاريخ العلوم ، حيث نشر العديد من المؤلفات القيمة ، وبدأ ظهور الدوريات والمجلات المتخصصة فى هذه الدراسة ، فصدر العدد الأول من المجلة الشهيرة «إيزيس» فى مدينة بلتيمور بأمريكا عام ١٩١٣ ، وتوالى صدور المجلات فى مختلف بلدان العالم ، فصدرت مجلة «أبحاث فى تاريخ التكنولوجيا» فى فينا بالنمسا منذ عام ١٩٣٠ ، ومجلة «حوليات العلم» فى لندن منذ عام ١٩٣٦ ، ومجلة «تاريخ العلم الطبيعى

والطب» فى كوبنهاجن بالدانمارك منذ عام ١٩٤٢ ، ومجلة «السجلات الدولية لتاريخ العلوم» فى باريس منذ عام ١٩٤٧ ، ومجلة «سنتورس» فى كوبنهاجن منذ عام ١٩٥٠ ، ومجلة «سجلات تاريخ العلوم» فى هايدلبرج بألمانيا الغربية منذ عام ١٩٦٠ ، هذا كله قليل من كثير ، يدل جميعه على الأهمية المتزايدة التى بلغتها دراسة تاريخ العلوم فى الدول المتقدمة ، وهذا الاهتمام له ولاشك دوافعه القوية ودواعيه الأصيلة .

لقد تعدى الاهتمام بدراسة تاريخ العلوم حدود الأبحاث والدراسات العليا ، وأصبحت هذه الدراسة تمثل جانباً من الدراسة الجامعية المؤدية إلى الدرجة الجامعية الأولى . ولا غرو فقد ثبت لدى ذوى الخبرة فى التعليم العالى أن دراسة تاريخ العلوم هى دراسة لازمة وضرورية فى كل فرع من فروع المعرفة ، وكما سبق أن أشرنا فان التمكن من العلم يستلزم دراسة جادة ومفصلة لتطور الأفكار والمنجزات العلمية عبر التاريخ الحضارى الطويل ، ومع بروز أهمية هذه الدراسات وتضمينها لبرامج الدراسة الجامعية ، كان لابد من إنشاء أقسام متخصصة يرأسها أساتذة ذوكراسى فى تاريخ العلم، نذكر منها على سبيل المثال أقسام تاريخ العلوم فى جامعتى أكسفورد وكامبردج ، والكلية الملكية بلندن، كذا جامعتى أمستردام وليدن فى هولندا، وجامعات باريس بفرنسا ووسكنسن وبرنستون بالولايات المتحدة الأمريكية .

مسئولية كتابة تاريخ العلوم :

أما وقد بينا أهمية دراسة تاريخ العلوم ودوافعها والفوائد التى تجنى من ورائها ، وعددنا الخطوات التى اتخذتها الدول المتقدمة لتوفير مقومات هذه الدراسة من إنشاء مراكز البحث والمعاهد العليـــا ومتاحف العلوم والتكنولوجيا ، وقيام الهيئات والجمعيات العلمية المتخصصة فى هذه الدراسة، وتوالى صدور المؤلفات والمجلات المختصة بتاريخ العلوم ، فلنتساءل على

على من تقع مسئولية القيام بهذه الدراسات ؟ هل تقع هذه المسئولية على عاتق المؤرخين السياسيين والاجتماعيين ، أم أن هذه المسئولية هى من صميم أعباء رجال العلم .

من الأمور المسلم بها أن أولى الناس بدراسة تاريخ العلوم هم المشتغلون بالعلوم أنفسهم ، إذ أنه من الطبيعى لمؤرخ العلوم أن يكون ملماً إلماماً طيباً بالدقائق العلمية والفنية للموضوع الذى يتعرض له بالدراسة ، وهذا أمر يسهل تحقيقه فى المشتغلين بالعلم .

إن كتاب التاريخ العام لا يطلب منهم — بحكم تخصصهم فى الجوانب السياسية والاجتماعية — أن يكون لديهم عامة الكفاية والإمكانيات التى تعينهم على الكشف عن دقائق تاريخ العلوم ، وتحديد فضل السبق إلى قانون أو ظاهرة أو حقيقة علمية ، إذ أن دراسة تاريخ العلوم تتطلب بطبيعتها الإلمام الجيد بالعلوم نفسها ، ومن هنا كان رجال العلم هم المسئولون — فى المقام الأول — عن دراسة تاريخ العلوم ، كما وأنه يقع على عاتق رجال العلم بيان آثار تطور العلوم على المجتمع حتى يفيد عامة المؤرخين من هذه الدراسات المتخصصة .

لم تكن هذه الحقيقة وهذه المسئولية لتغرب عن بال رجال العلم ، بل على العكس من ذلك ، فقد أولوا دراسة تاريخ علومهم اهتماماً كبيراً ، وتوالى ظهور نتائج هذه الدراسات فى بحوث ومؤلفات عديدة قام بكتابتها جميعها علماء فى كافة فروع العلم والتكنولوجيا من الرياضيات والفيزياء والكيمياء والنبات وعلم الحياة والطب والصيدلة والفلك والهندسة وغيرها .

ونقدم فيما يلى نماذج من كتابات العلماء فى تاريخ العلوم المختلفة وذلك من قبيل التمثيل والاستدلال فحسب :

١ — كتاب «تطور الرياضيات» للأستاذ بل أستاذ الرياضيات بمعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا .

(Prof E.T. Bell ; " The Dpvelopment of Mathematics" , New York, 1946).

٢ — كتاب «عظماء رجال العلم» للأستاذ فيليب لينارد أستاذ الفيزياء السابق بجامعة هايدلبرج بألمانيا الغربية .

(Prof. Philipp Lenard : " Great Men of Science" , London, 1950) .

٣ — كتاب «تاريخ مقاومة المواد» للأستاذ تيموشنكو الأستاذ الشهير بجامعة ستانفورد بالولايات المتحدة الأمريكية .

(Prof. S,P. Timoshenko : "History of Strength of Materials". New York, 1953).

٤ — كتاب « تاريخ العلم والتكنولوجيا » للأستاذ فوربس والأستاذ ديكستر هويس ، أستاذى تاريخ العلم بجامعتى أمستردام وليدن بهولندا على التوالى :

(Prof. R,J. Forbes and Prof. E.J. Dijksterhuis . "A History of Science and Technology", Penguin Books Ltd., 1963).

وجدير بالذكر أن هذين الأستاذين القائمين فعلا بتدريس تاريخ العلوم بجامعات هولندا قد سبق لهما التخرج فى كليات علمية ، إذ تخصص الأول فى الهندسة الكيميائية ، والثانى فى الفيزياء والرياضيات ، ولهما دراسات ومؤلفات قيمة فى تاريخ العلوم .

٥ — كتاب «الطب العربى» للدكتور إدوارد ج. براون، طبعة بغداد، عام ١٩٦٤ ، وطبعة القاهرة عام ١٩٦٦ .

هذه بعض أمثلة من مؤلفات عديدة كتبها علماء متخصصون فى تاريخ العلم فى فروعه المختلفة ، أوردناها للتدليـــل على مسئولية العلماء عن كتابة تاريخ العلوم كل فى مجال تخصصه . واضطلاعهم بهذه المسئولية .

التراث العلمى العربى والحضارة المعاصرة :

مرت على أوربا — مع تدهور الامبراطورية الرومانية — عشرة قرون من الزمان ، تعرف القرون الخمسة الأولى منها (٥٠٠ – ١٠٠٠م) بالعصور المظلمة، التى كانت أسوء فتراتها فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وفيها أخذت كل من حضارة الإغريق وحضارة الرومان فى الاندثار ، فى وقت كانت فيه الحضارة العربية تسمى إلى عصرها الذهبى . إن الحضارة الأوربية الحديثة التى شهدت مولدها الفترة الممتدة من حوالى القرن الثانى عشر إلى القرن الخامس عشر قد قامت — دون منازع — على أكتاف الحضارة العربية ، وإن التاريخ المنصف لتطور العلوم لا بد وأن يتوقف طويلا عند منجزات الحضارة العربية وأثرها البالغ على الحضارة المعاصرة، إذ لو لم تكن هناك حضارة عربية لضاع تماماً تراث الإغريق وكثير من تراث الفرس والهنود والسريان ، ولتأخر مولد الحضارة المعاصرة عدة مئات من السنين .

لقد كان لحضارة العرب التى امتدت زهاء ثمانية قرون (٧٠٠ — ١٥٠٠م) - من بلاد الهند شرقاً إلى بلاد المغرب وأسبانيا غرباً — أثر بالغ فى حفظ ونقل تراث الإغريق ، ولو اقتصر فضل العرب على ذلك لكان فضلا عظيما فى حد ذاته ، فما بال فضل العرب فيما استحدثوه وطوروه وأضافوه من ألوان المعرفة ، وعن العرب أخذت أوربا علوم الحساب والجبر والفلك والطب والصيدلة والفيزياء والكيمياء والنبات وغيرها من العلوم الحديثة ، وقد مرت الحضارة العربية بعصرها الذهبى فى القرنين العاشر

والحادى عشر الميلاديين فى الوقت الذى كانت فيه أوربا ترزح فى حال الجهل والظلام .

إن حركة الترجمة لأمهات الكتب الإغريقية إلى اللغة العربية ، تلك الحركة التى أولاها الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣م) اهتماماً بالغاً ، كانت عاملا رئيسياً فى حفظ تراث الإغريق ودراسته واستيعابه ، ولا غرو فالخليفة المأمون هو الذى أسس « بيت الحكمة » ببغداد وجمع فيها علماء أفاضل للقيام بهذه المهمة ، وهى بداية منطقية تماماً تنبه لها الخليفة المأمون ، إذ أن الحكيم هو الذى يبدأ بدراسة أعمال من تقدمه ويستوعبها ويحللها قبل أن يضيف إليها من فكره وجهده .

لقد كانت حركة الترجمة ونقل علوم الأولين حافزاً عظيما على إقبال العرب على العلوم والفلسفة والاهتمام بها والإضافة إليها ، فلا عجب أن تظهر — فى موطن الحضارة العربية الممتد من الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً — عبقريات عربية كثيرة نذكر منها على سبيل الإشارة والتنبيه محمداً ابن موسى الخوارزمى (ت ٨٥٠م) ، ومؤلفاته فى الحساب والجبر والمقابلة غنية عن التعريف ، وأبا بكر محمد بن زكريا الرازى (٨٦٤ — ٩٣٢ م) وقد برع فى الكيمياء والطب ، وأبا الريحان البيرونى (٩٧٣ - ١٠٥١م) ذلك العالم الموسوعى الذى كاد أن يضيف إلى كافة فروع المعرفة على عصره ، والحسن بن الهيثم (٩٦٥ — ١٠٣٩م) رائد علم البصريات ، والشيخ الرئيس الحسين بن عبد الله بن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧م) الذى اشتهر فى الشرق والغرب بنبوغه فى الطب والفلسفة .

إن البحوث الأصيلة التى قدمها علماء العرب إلى العالم هى فى الواقع من أهم أسس الحضارة المعاصرة ، ولقد ترجمت علوم العرب أول ما ترجمت إلى اللغة اللاتينية وعن هذه الترجمة انتقل العلم العربى إلى أوربا ، ومن الكتب

الشهيرة التي ظهرت لها ترجمات لاتينية «كتاب الحاوى» في الطب لأبي بكر الرازي، «وكتاب الزيج» - ويحتوي على جـــداول فلكية - لمحمد ابن موسى الخوارزمي، وقد ظهرت ترجمته اللاتينية عام ١١٢٦ م، كذلك نشر «كتاب الجبر والمقابلة» للخوارزمي أيضاً مترجماً إلى اللاتينية عام ١١٤٥م، وصدرت الترجمة اللاتينية لكتاب «القانون في الطب» لابن سينا عام ١٤٧٣م، وظلت هذه الترجمة المرجع الأول في الطب في جامعات أوربا حتى منتصف القرن السابع عشر، كذلك نشر «كتاب المناظر» للحسن بن الهيثم باللغة اللاتينية عام ١٥٧٣م، وقد ظهر بعنوان «الذخيرة في علم الأوبطيق للهازن»، ولفظ «الهازن» هو الإسم المحرف للحسن بن الهيثم، ومن كتاب «المناظر» تعلمت أوربا علم الضوء.

ولقد دخلت بعض أسماء الأعلام العرب في اللغات الغربية، فنجد - على سبيل المثال - كلمة Algorithm في اللغة الإنجليزية، وهي ولا شك تحريف لاسم الخوارزمي، كما أن الأعداد كانت تسمى باللاتينية Algorismus وبالأسبانية Guarismo، وكل هذه الألفاظ مشتقة من اسم الخوارزمي علامة الحساب والجبر، ولقد تعلمت أوربا طريقة الترقيم العربية - وما أدخلته على العمليات الحسابية من تيسير وتبسيط - من كتاب الحساب الذي ألفه ليوناردو وبيزانو ونشره في إيطاليا عام ١٢٠٢م، وبهذا الكتاب انتقل الحساب العربي إلى أوربا وانتقل معه اسم الخوارزمي الذي دخل معاجم اللغات الغربية.

تركت الحضارة العربية آثارها الواضحة على الحضـــارة الحديثة، بل وغزت الكلمات العربية اللغات الغربية حيث نجد مئات الألفاظ العربية في لغات الغرب، نشير هنا إلى بعض منها من قبيل التدليل العابر، فكلمة «الجبر» التي استعملها العلماء العرب بمعنى عملية جبر الكميات السالبة إلى كميات موجبة، قد شقت طريقها إلى معاجم العالم للدلالة على هذا العلم الذي أرسى قواعده

العلامة الخوارزمى ، كذلك الحال فى كلمة « صفر » ، حيث نجدها قد تحورت إلى كلمة "Cifra" ، "Zephirum" فى اللغة اللاتينية ، وإلى كلمتى "Cioher" و "Ziro" فى اللغة الإنجليزية ، وظهرت كلمة « الصفر » العربية على صورة "Cifra" و "Zepiro" فى اللغة الإيطالية . ولما أدخل جوردانس نيمورار يوس الحساب العربى إلى ألمانيا حوالى عام ١٢٢٠م ظهرت كلمة الصفر فى الألمانية فى لفظ "Gifra" ، ثم تطورت إلى اللفظ المعاصر "Ziffer" ، كذلك فإن الألفاظ الفرنسية "Cifra" و "Chiffre" و "Zéro" تنبع من الكلمة العربية «صفر» وتعنى خلاء ، وتعبير صفر اليدين غنى عن الشرح .

إن المشتغلين بعلم الفلك يعرفون تمام العلم أن ألفاظ عديدة من مسميات النجوم والكواكب تنحدر من أصل عربى ، كما أن كثيراً من الألفاظ الخاصة بالنباتات والأعشاب الطبية وعناصر الكيمياء والمسميات الطبيعية وغيرها من ألفاظ الحضارة كلها مشتقة من كلمات عربية .

وليس هنا مجال الإفاضة فى التدليـــل على فضل العرب على الحضارة الحديثة ، إذ أن هذا يستغرق سنوات عديدة من البحث والدرس وتلزمه عدة مجلدات ضخمة لتسجيل إنجازات الحضارة العربية ، وإنما قصدنا هنا مجرد الإشارة إلى أن علوم العرب هى بلا شك أهم دعائم الحضارة المعاصرة ، وأن تاريخ العلوم لا بد وأن يتوقف طويلا عند الحضارة العربية ليقوم منجزاتها تقويماً منصفاً .

ولقد ساعدت على وصول علوم العرب إلى أوربا عوامل كثيرة منها حركة التجارة بين الشرق والغرب ، والحروب الصليبية (القرن الثانى عشر للميلاد) ، ورحلات المثقفين من أوربا إلى بلاد الامبراطورية الاسلامية للوقوف على علوم العرب وثقافتهم ، كما ساعد على ذلك أيضاً تبادل الحدود بين العرب والأوربيين لا سيما فى أسبانيا .

إن مذكرات كثير من علماء الغـــرب تتضمن إشارات واضحة إلى المؤلفات والمصنفات العربية التي اطلعوا عليها أو كانوا يقتنونها في مكتباتهم الخاصة ، فإن ليوناردو دافينشي (١٤٥٢ — ١٥١٩م) — مثلا — قد ذكر في أحد المجلدات[1] التي خلفها وراءه قائمة بأسمـاء الكتب التي كان يقتنيها قبل مغادرته لميلانو ، وقد جاء فيها اسم كتاب في الصحة للعالم العربي أبي بكر محمد بن زكريا الرازي مترجماً إلى اللاتينية ، كذلك وصلت إلى ليوناردو أيضاً بحوث الحسن بن الهيثم في الضوء منقولة في كتاب العالم البولوني فيتلو الذي وضعه حوالي عام ١٢٦٠م ، وقد اطلع ليوناردو على هذا الكتاب في مكتبة بافيا عام ١٤٩٠ م ، وتدل مذكرات ليوناردو مرة أخرى على اطلاعه على بعض مؤلفات الشيخ الرئيس الحسين بن عبد الله بن سينا ، ورسائل فيلسوف العرب يعقوب بن اسحق الكندي (ت ٨٧٣م) ، ثمة مثال آخر هو ما قرره الباحث أنطونيو فافرو من وجود نسخة من ترجمة ريزنر Risner اللاتينية لكتاب « المناظر » لابن الهيثم في المكتبة الخاصة بالعالم الايطالي جاليليو جاليلي (١٥٦٤ — ١٦٤٢م) ، وبالتالي فإن جاليليو كان على بينة من أعمال الحسن بن الهيثم في الضوء والميكانيكا[2] .

إن أثر علماء العرب على الغرب كان جد عظيم ، وإن هذا التأثير البالغ للعلم العربي على الحضارة المعاصرة لن تتحدد معالمه قبل أن تدرس آلاف المخطوطات العربية التي تزخر بها خزانات الكتب العامة والخاصة في كافة أنحاء العالم ، وهـــذه الدراسة تقتضي تضافر الجهود داخل الوطن العربي وخارجه .

مصادر التراث العربي :

ضمت خزائن الكتب إبان الحضارة العربية دور المخطوطات التي

حوت أعلى ما وصلت إليه معارف البشر فى ذلك الوقت ، وقد كانت مكتبات المشرق والمغرب العربيين تغص بملايين المخطوطات ، نذكر منها على سبيل المثال مكتبة «بيت الحكمة» ببغداد ، ومكتبات النجف الأشرف ، ومكتبات الشام : سيف الدولة بحلب ، وأبى الفداء بحماه ، والظاهرة بدمشق ، ومكتبتا دار الحكمة والجامع الأزهر الشريف بالقاهرة ، ومكتبات بنى عمار بطرابلس ، والجامع الأعظم بالقيروان ، وجامع القرويين بفاس ، والجامع الكبير بمكناس ، ومكتبة الزهراء بقرطبة .

ولقد تعرضت الامبراطورية العربية لمحن وتقلبات وغزوات وغارات بلغت ذروتها على أيدى التتار بقيادة هولاكو الذى أمر بإحراق كنوز الكتب العربية فى بغداد . إنه لمن المؤسف حقاً أن يتلف أو يضيع جانب كبير من التراث العربى ، وما نجا منه وجد طريقه إلى خارج الوطن العربى ، حيث نقلت – فى عصر العثمانيين – أثمن المخطوطات العربية إلى بلاد الغرب فى وقت انحدرت فيه الحضارة العربية وازدهرت فيه الحضارة الأوربية ، فنقل الباحثون عن كنوز الشرق الشىء الكثير من المخطوطات العربية إلى مكتبات الغرب فى غفلة من ورثة الحضارة العربية .

وبإزدخار مكتبات أوربا بأمهات الكتب العربية وتزايد الاهتمام بها ، بدأت حركة الاستشراق فى القرن الماضى ، وتوالى ظهور دراسات المستشرقين من أمثال سوتر ، وسخاو ، وبروكلمان ، وفيدمان ، ومتز ، وكارلو نللينو ، وبول كراوس ، وليتمان ، وألدوميلى وفؤاد سزكين ، وديتريش ، وهونكه وغيرهم ، فلا عجب – والحال كذلك من تواجد المخطوطات والمهتمين بدراستها – أن نقرأ عن تراثنا العربى أول ما نقرأ فى كتب المستشرقين ودورياتهم المتخصصة فى تاريخ العلوم .

هذا ويقدر عدد المخطوطات العربية المنتشرة فى كافة أنحاء العالم بحوالى مليون مخطوطة عدا النسخ المكررة منها ، وفى الوقت الذى صدرت عن بعض خزائن الكتب العامة فهارس تضم بيانات كاملة ودقيقة عما تحويه من مخطوطات ، فإن الكثير من خزائن الكتب الأخرى لا تتوفر عنه مثل هذه الفهارس ، وما من شك فى أن النقاب لم يكشف بعد عن آلاف المخطوطات العربية القيمة ، كما وأن تحقيق ودراسة مانعرف عن وجوده من المخطوطات لازال فى أول الطريق ، ولقد صدرت خلال السنوات العشر الأخيرة كتب تبين معالم الطريق إلى مصادر التراث العربى فى مكتبات العالم شرقيه وغربيه منها سلسلة مجلدات « تاريخ التراث العربى » للمستشرق التركى الأصل فؤاد سزكين(٣) وتصدرها دار بريل للنشر بليدن منذ عام ١٩٦٧ ، كذا كتاب « المخطوطات العربية فى العالم » لهويسمان(٤) وقد صدر عن نفس الدار عام ١٩٦٧

قومية التراث العربى :

إن تراث الأمة يقع منها موقع القلب من الجسد ، فبدون القلب لا تكون حياة ، وحياة الأمة فى نشاطها الحضارى ، وتراثها جزء من هذا النشاط المستمر والجهد المتواصل عبر تاريخ الأمة الطويل .

أن من حق الأجداد علينا أن نعرف ونعى الدور المجيد الذى قامت به الحضارة العربية فى إرساء دعائم الحضارة الحديثة ، وإنه لمن الضرورى حقاً أن نقدم للأجيال الصاعدة صورة واضحة ودقيقة للانجازات العربية ; ولا غرو فهى نسب الأمة العربية وحسبها .

ليست القومية العربية قضية سياسية فحسب ، إنما هى قضية تاريخ مشترك ولغة مشتركة وتراث مشترك وقيم مشتركة ، ليست القومية العربية مجرد تحرك

سياسى لجمع الشمل وتوحيد الصف وتحقيق الهدف ، وإنما القومية العربية أعمق من هذا المفهوم وأشمل ، وإن القومية العربية تعبير عن أمة واحدة وإن تعددت أمصارها ، وتباينت نظمها الاجتماعية والاقتصادية ، تعبير عن تكوين واحد وإن اختلفت بعض مظاهره ، وإن صورة هذا التكوين يجب أن تكون واضحة كل الوضوح ، يرسمهـــا تراث الأمة عبر تاريخ طويل وجهد شاق .

لا يكفى أن نرفع شعار القومية العربية من فوق المنابر ، وإنما يجب أن ننفذ إلى جذور القومية العربية ، وأن نكشف عن أعماقها وأغوارها ، إن الكشف عن الأسس الحضارية للقومية العربية لا يقل أهمية عن النشاط السياسى للتجمع العربى ، وإن إحياء التراث العربى يثبت دعائم القومية العربية ، ويجلوا مفهومها ، ويبعث على الاعتزاز بماضيها ، والثقة فى حاضرها ، والتفاؤل فى مستقبلها .

العناية بالتراث العلمى العربى :

قد يكون التراث العلمى العربى من أروع جوانب تراثنا الحضارى ، ومع ذلك فإن نصيبه من الاهتمام كان ولازال يسيراً . صحيح أن بعض المستشرقين الفضلاء من أمثال سوتر وسخاو وفيدمان ونللينو وميلى وديتريش وهونكة وأولمان قد قدموا دراسات قيمة ومنصفة فى تراثنا العلمى ، إلا أنه لابد من الاعتراف بأن مسئولية إحياء التراث العربى تقع فى المقام الأول على عاتق أصحاب التراث أنفسهم ، ومازلنا بعد فى بداية الطريق .

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى بعض ما أنجزه علماء العرب فى مجال تحقيق ودراسة المخطوطات العلمية العربية(*) ، فنذكر بكل تقدير فضل الأستاذ مصطفى نظيف فى أبحاثه عن الحسن بن الهيثم وتحقيقه وشرحه لكتابه « المناظر » حيث أصدر مؤلفه القيم « الحسن ابن الهيثم : بحوثه وكشوفه

البصرية » في جزئين عام ١٩٤٢ ، كذلك نذكر جهد الدكتور مصطفى مشرفة والدكتور محمد مرسي أحمد في تحقيق كتاب « الجبر والمقابلة » لمحمد بن موسى الخوارزمي عن المخطوطة الوحيدة المحفوظة في مكتبة بودليان بأكسفورد ، وتحقيقات الدكتور أحمد عيسى بك في علمي الطب والنبات عند العرب في كتبه : « آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب » و « معجم الأطباء » و « تاريخ البيمارستانات » و « تاريخ النبات عند العرب » ، كما نشيد بالكتاب الذي وضعه الأستاذ قدري حافظ طوقان بعنوان « تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك » ويضم بين دفتيه سجلا لعلماء العرب في هذا المجال ، وبيانا بأهم منجزاتهم فيه ، كذا « كتاب الفلاحة » لابن بصال الذي أخرجه معهد مولاي الحسن بتطوان ، وكتب الدكتور أحمد شوكت الشطي في تاريخ الطب وتشمل « تاريخ الطب » و « تاريخ الطب في الإسلام » و « الطب عند العرب » و « تاريخ الطب عند العرب في القرون الأخيرة في سوريا » و « تاريخ العلوم الطبيعية في الحضارة الإسلامية والمجتمع العربي » ، ونود الإشارة أيضا إلى كتابات الدكتور إمام ابراهيم أحمد في جهود العرب في الفلك ، ومنها كتابه « تاريخ الفلك عند العرب » و « المقالة الثالثة من القانون المسعودي للبيروني » ، وهناك مجموعة من الكتب التي تتناول دراسة وتحقيق جهد العرب في الرياضيات ، منها كتاب « الباهر في الجبر — للسموأل المغربي » ، تحقيق وتحليل الأستاذ ابن صلاح أحمد ورشدي راشد ، وكتاب « البديع في الحساب - الكرجي » تحقيق الأستاذ عادل أنبوبا ، كذا تحقيقات الدكتور أحمد سليم سعيدان وتضم « كتاب المنازل السبعة وتاريخ علم الحساب العربي - لأبي الوفاء البوزجاني » وكتاب « الفصول في الحساب الهندي - للاقليدسي » ، وهناك أيضا تحقيق الدكتور عبد الحليم منتصر للجزء الخاص بالطبيعيات والمعادن والنبات من كتاب الشفاء لابن سينا ، وتحقيقات الأستاذ أحمد سعيد الدمرداش في بعض أعمال أبي الريحاني البيروني ، وجمشيد الكاشي ، ومحمود الفلكي ، وكتاب الدكتور جلال شوقي « تراث العرب في الميكانيكا » ،

وكتاب « تلخيص أعمال الحساب لابن البناء المراكشى » تحقيق الدكتور محمد سويسى .

كل هذه بعض أمثلة قصد بها التدليل على الجهود الصادقة والمخلصة التى يضطلع بها بعض علماء العرب ، بيدأنها محاولات فردية نابعة عن إيمان عميق بالتراث العلمى العربى ، وتقدير واع لأهمية إحيائه حتى تتضح معالم المنجزات العلمية العربية ، ويتبوأ التراث العربى مكانه الصحيح فى تاريخ العلوم .

لقد تعالت ولازالت تتعالى أصوات مؤمنة بتراثنا العلمى ، تدعو وتلح فى الدعاء إلى مزيد من الاهتمام به ، أما آن الأوان بعد أن ننظر إلى هذا التراث على أنه من أهم دعائم القومية العربية ، فنقيم معاهد ومراكز متخصصة فى تحقيقه ودراسته على المستوى القومى ، أما حان وقت العمل المثمر الجاد فى دعم أسس القومية العربية ، وهل تصح قومية دون تراث ؟ ، دعوة نقدمها لكل الشعوب والدول العربية المؤمنة بتراثها ، الساعية حقاً إلى الذود عن قوميتها ، المتطلعة إلى مستقبل مشرق بعيد الأمجاد الرائعة إلى أصحاب التراث العربى العظيم .

إن تاريخ العلوم لن يستقيم أو يكمل دون التقويم المنصف لمنجزات الحضارة العربية ، حقيقة أوضح من أن يلزمها برهان ، أو يقام عليها دليل ، حقيقة يعرفها العدو قبل الصديق ، يقدرها كل من يؤمن بحضارة الإنسان ، ذلك المخلوق الذى شرفه الله بخلقه على صورته . ونفخ فيه من روحه ، وعلمه مالم يعلم .

الحواشى

(١) Codex Atlanticus, 210 R., 225 V., 225 R. P.
وهذا المجلد محفوظ فى مكتبة امبروزيانا بميلانو .
راجع كتاب « عبقرية ليوناردو دافينشى فى الهندسة » تأليف الدكتور جلال شوقى ، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ، عام ١٩٦٤ .

(٢) كتاب « تراث العرب فى الميكانيكا » للدكتور جلال شوقى ، عالم الكتب بالقاهرة عام ١٩٧٣ ، صفحة ٥٤

(٣) F. Sezgin : "Geschichte des arabischen Schrifttums,"
E. J. Brill, Leiden, 1967 -

(٤) A. J.W. Huisman: "Les manuscrits arabes dans le monde,"
E. J. Brill, Leiden, 1967 -

(٥) من المفيد الرجوع إلى كتاب « نشاط العرب العلمى فى مائة سنة » — جامعة بيروت الأميركية ، منشورات كلية العلوم والآداب ، بيروت سنة ١٩٦٣

الغزو الهلالى للمغرب

أسبابه ونتائجه

للدكتور حسن على حسن
مدرس التاريخ الإسلامى
كلية دار العلوم
جامعة القاهرة

واجه المغرب الأدنى فى القرن الخامس الهجرى حركة غزو مسلح ، هذه الحركة حملت فى طياتها الكثير من ألوان الدمار والخراب ، وقد عرفت هذه الحركة فى التاريخ الإسلامى باسم الهجرة الهلالية ، أما القاعدة التى انطلقت منها جموع الهلاليين فهى مصر فى عهد المستنصر بالله الذى تولى الحكم بمصر فى ١٥ شعبان سنة ٤٢٧هـ(١) .

وكان هذا الغزو ذا طابع خاص ، إذ أنه لم يأخذ شكل جيش منظم ، يأتمر لقيادة موحدة ، تسيروفق خطة مرسومة ، وإنما جموع مخربة خرجت لتحقيق أهداف لها تتخلص فى السلب والنهب ، وفى نفس الوقت أرادت السلطة الحاكمة فى مصر تحقيق أهداف معينة لها وهو التخلص من حكم بنى زيرى فى القيروان ، فضلا عن التخلص من هذه الجموع ذاتها إذ أنها كانت مصدر إزعاج وقلق للحكم الفاطمى فى مصر .

وقد نجح الغزو الهلالى فى تحقيق هذه الأهداف ، وربما أصبح هذا النجاح محدودا لو أنه اقتصر على مجرد إسقاط دولة بنى زيرى — وهو أمر

خطير — إلا أن هذا الغزو أخذ أبعاداً متعددة شملت العلاقة بين بنى زيرى قبل سقوطها وبين الدولة العباسية ، كما شمل أيضا العلاقة بين كل من الدولة العباسية والبيزنطية والفاطمية ، يضاف إلى ذلك تلك النتائج الخطيرة التى ترتبت على وجود الهلاليين على أرض المغرب وتأثيرهم فى مجريات الأمور طيلة ثلاثة قرون مما يعطى أبعادا جديدة للغزو الهلالى للمغرب .

وفى دراستى هذه سوف أحاول أن أسير مع هذه الحركة منذ أن كانت قبائل متفرقة بموطنها الأصلى فى شبه جزيرة العرب ، إلى أن استقر بها المقام فى أقاليم المغرب المختلفة ، وما صحب ذلك من تطورات وأحداث تكشف طبيعة هذا الغزو والنتائج التى ترتبت عليه .

تشكل حلف الهلاليين من مجموعة من القبائل أشهرها بنو هلال بن عامر ابن صعصعة بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان[٢] ، وبنو سليم وهم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان[٣] وبنو جشم ابن معاوية بن بكر[٤] وغيرها من القبائل التى انضمت إليها بحكم الجوار وبحكم المصالح المشتركة . وقد أطلق على هذا الحلف اسم الهلاليين وربما كان مرجع ذلك إلى وجود الزعامة — فى هذه الفترة — فى بنى هلال باعتبارها أقوى القبائل ، وربما كان ذلك لسهولة دوران الاسم على الألسنة[٥] .

أما موطن هذه القبائل ، فكان مجـــاله منطقة الحجاز ونجد ، وذلك باختلاف المرعى وأسباب الحياة ، فبنو سليم مواطنهم كما يقول المقريزى : « فى عالية نجد بالقرب من خيبر ومنها حرة بنى سليم وحرة النار بين وادى القرى[٦] » ، أما بنو هلال ففى جبل غزوان عند الطائف[٧] بينما كانت مساكن بنو جشم بالسروات وهى تلال تفصل بين تهامة ونجد متصلة من البحرين إلى الشام[٨] ، إلا أن هذه المواضع لم تكن وطنا ثابتا لهذه القبائل ، إذ أن ظروفهم الاقتصادية والسياسية كانت تدفعها للتجوال والحركة على أطراف

العراق والشام ، إلا أننا يمكننا القول بأن مواطنهم الأصلية هي الحجاز استنادا إلى ما ذكره البكري في معجمه حين قال « الحجاز اثنتا عشر دار : المدينة وخيبر وفدك وذي المروة ودار بلي ودار أشجع ودار مزينة ودار جهينة ودار بعض بني بكر بن معاوية ودار بعض هوزان وجل سليم وجل هلال[٩] » .

والباحث في تاريخ هذه الجموع وما اتصفت به من شدة وبأس وميل للعدوان يدرك الآثار المترتبة على هذه الصفات ، فهم في هذه البيئة الجبلية يتصفون بقوة الشكيمة مع بسطة في الجسم وصلابة في العود مع ميل إلى العدوان نتيجة لظروفهم الاقتصادية الصعبة[١٠] .

وقد أدرك هذه الصفات خلفاء الدولة العباسية فأبو جعفر المنصور يوصي ابنه المهدي بقوله « وإياك أن تستعين برجل من بني سليم وأظنك ستفعل[١١] » .

وهي نظرة ثاقبة خبيرة بأحوال القبائل ، إذ أننا نجد هذه القبائل تشكل قلقا للحكومة المركزية في بغداد ، وذلك بإغاراتها المتكررة على قوافل التجار ، والحجاج المتجهين إلى مكة مما جعل الخلافة تجرد الحملات للحد من خطورة هؤلاء الأعراب .

وقد ذكر الطبري وابن الأثير في أحداث سنة ٢٣٠هـ « وجه الواثق بغا الكبير إلى الأعراب الذين أغاروا بنواحي المدينة ، وكان سبب ذلك أن بني سليم كانت تفسد حول المدينة بالشر ، ويأخذون مهما أرادوا من الأسواق بالحجاز بأي سعر أرادوا ، وزاد الأمر بهم إلى أن وقعوا بناس من بني كنانة وباهلة في جمادى الآخرة من سنة ثلاثين ومائتين ، فوجه محمد بن صالح عامل المدينة إليهم حماد بن جرير الطبري وكان مسلحة لأهل المدينة

فى مائتى فارس وأضاف إليهم جنداً غيرهم ، وتبعهم متطوعة ، فسار إليهم حماد ، فلقيهم بالرويثة فاقتتلوا قتالا شديداً ، فانهزمت سودان المدينة بالناس وثبت حماد وأصحابه وقريش والأنصار ، وقاتلوا قتالا عظيما ، فقتل حماد وعامة أصحابه وعدد صالح من قريش والأنصار ، وأخـــذ بنو سليم الكراع والسلاح والثياب فطمعوا ونهبوا القرى والمناهل ما بين مكة والمدينة ، وانقطع الطريق ، فوجه إليهم الواثق بغا الكبير أبا موسى فى جمع من الجند فقدم المدينة فى شعبان فلقيهم ببعض مياه الحرة من وراء السوارقية قريتهم التى يأوون إليها ، وبها حصون فقتل بغا منهم نحوا من خمسين رجلا وأسر مثلهم وإنهزم الباقون ، وأقام بغا بالسوارقية ، ودعاهم إلى الأمان على حكم الواثق ، فأتوه متفرقين فجمعهم وترك من يعرف بالفساد وهم زهاء ألف رجل وخلى سبيل الباقين وعاد بالأسرى إلى المدينة فى ذى القعدة سنة ثلاثين فحبسهم ثم سار إلى مكة ، فلما قضى حجه سار إلى ذات عرق بعد إنقضاء الموسم وعرض على بنى هلال مثل الذى عرض على بنى سليم فأقبلوا وأخذوا من المفسدين نحوا من ثلاثمائة رجل وأطلق الباقين ورجع إلى المدينة فحبسهم[١٢] » .

من النص السابق نستنتج كيف أن بنى سليم شكلوا خطرا على أقوات أهل المدينة . فضلا عن قتلهم لبعض أفراد من بنى كنانة وباهلة ، وموقف الخلافة العباسية من هذا الفساد ، ثم هزيمة الكتيبة المسلحة التى خرجت لمجابهة تلك القبائل المتمردة ومقتل قائد الكتيبة ، مما جعل الخلافة توجه أحد قادتها الكبار وهو بغا الكبير الذى دخل فى معركة طاحنة ضد قبائل بنى سليم أسفرت عن هزيمتهم ، وأسر عدد كبير منهم ، ولم تتم هذه المهمة العسكرية إلا باخضاع بنى هلال والقاء القبض على مثيرى الفتن منهم .

ولم تكن فريضة الحج وما تحمله من معانى التقديس والتقدير ، مانعا لهؤلاء الأعراب من الغدر والفتك بالأبرياء المتجهين لأداء فريضة الحج ،

فنراهم فى سنة ٣٥٥ هـ يهاجمون قوافل الحجاج القادمة من مصر والشام يقول ابن الأثير « وفى هذه السنة — ٣٥٥ هـ — خرجت بنو سليم على الحجاج السائرين من مصر والشام ، وكانوا عالماً كثيراً ومعهم من الأموال ما لاحد عليه لأن كثيراً من الناس من أهل الثغور والشام هربوا من خوفهم من الروم بأموالهم وأهليهم ، وقصدوا مكة ليسيروا منها إلى العراق ، فأخذوا ومات من الناس فى البرية مالا يحصى ولم يسلم إلا القليل »(١٣) .

وقد تكرر عدوانهم على الحجاج حتى أن الحج انقطع سنة ٣٦٣ هـ(١٤) وقد واجهت الخلافة العباسية هذه الاعتداءات المتكررة بالحملات والبعوث التى كانت تحد من هجماتهم وخطورتهم(١٥) .

وقد وجد هؤلاء الأعراب فرصة سانحة فى تحقيق أطماعهم وذلك بالانضمام لحركة القرامطة بالبحرين، فمن طريق هذه الحركة وماتحمله من دعاوى براقة ، تستطيع هذه القبائل تحقيق أغراضها فى السلب والنهب وجمع المال بشتى الوسائل ، ومن ناحية أخرى فقد رحب زعماء القرامطة بهذه القوة الجديدة فى تحقيق أهداف الحركة ومراميها ومن ثم وجدنا تعاوناً صادقاً بين عرب بنى هلال والقرامطة(١٦) .

حتى إذا قامت الدولة الفاطمية فى مصر ، وجدنا المعز ومن بعده ابنه العزيز يدخل فى صراع مسلح ضد القرامطة وأشياعهم من عرب بنى هلال وينجح العزيز بالله الخليفة الفاطمى فى صد هجماتهم وإجبارهم على العودة إلى مواطنهم الأولى فى البحرين .

وهناك رواية تشير إلى أن من نتائج هذا الصراع نقل قبائل بنى سليم من ميادين القتال الممتدة بين مصر والشام ، وأن العزيز بالله أتى بهم إلى مصر حيث استقروا بالجانب الشرقى من صعيد مصر(١٧) .

وهذه الدعوى من جانب بعض المؤرخين تحتاج إلى مناقشة إذ أن هجرة قبائل بني سليم وهي تشكل جزءاً كبيراً من الحلف الهلالي ، وفدت إلى مصر منذ وقت مبكر على التاريخ الذي يحدده بعض المؤرخين بعصر العزيز بالله ففي عهد والي مصر الوليد بن رفاعة الفهمي سنة ١٠٩ هـ ، نرى عبيد الله بن الحبحاب يتوجه إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ليستأذنه في نقل الكثير من الأسر القيسية ومنها بنو سليم إلى مصر[١٨] يقول المقريزي « ويقال أن عبيد الله بن الحبحاب لما ولاه هشام بن عبد الملك مصر قال ما أرى لقيس فيها حظاً إلا لناس من جديلة وهم فهم وعدوان ، فكتب إلى هشام أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحي من قيس ونعشهم ورفع من ذكرهم ، وإني قدمت مصر ولم أر لهم حظاً إلا أبياتاً من فهم وفيها كور ليس فيها أحد وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ولا يكسر ذلك خراجاً وهي بلبيس فان رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحي من قيس فليفعل ، فكتب إليه هشام أنت وذاك ، فبعث إلى البادية فقدم عليه مائة أهل بيت من بني نصر ومائة أهل بيت من بني سليم فأنزلهم بلبيس »[١٩] .

وهكذا صار لقبائل بني سليم موطناً جديداً في مصر ، وكان لخصوبة مصر وكثرة خيراتها فضلا عن التسهيلات والأموال التي قدمت لقبائل قيس ومنها بنو سليم دافع كبير على قدوم كثير من بيوت بني سليم إلى مصر واتخاذها وطناً جديداً ، يقول المقريزي « وأمرهم أي عبيد الله بن الحبحاب بالزرع ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم فاشتروا إبلا فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم وكان الرجل يصيب في الشهر عشرة دنانير وأكثر ثم أمرهم باشتراء الخيول فجعل الرجل يشتري المهر فلا يمكث إلا شهراً حتى يركب وليس عليهم مؤونة في علف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم ، فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحملوا إليهم فوصل إليهم خمسمائة أهل بيت فصار ببلبيس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس ، حتى إذا كان زمن مروان بن محمد وولي

الحوثرة بن سهيل الباهلي مصر مالت إليه قيس فأت مروان وبها ثلاثة آلاف بيت ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم »[٢٠] .

وهكذا كان دافع العصبية من جانب عبيد الله ومن جاء بعده عاملا قوياً على هجرة قبائل قيس ومعها قبائل سليم حيث سبل الحياة ميسرة ، وهذا دعم استقرار هذه القبائل فى مصر .

يضاف إلى ذلك عامل آخر فى خروج قبائل سليم من البحرين ماذكره القلقشندى فى قلائد الجمان « وكان أعظم قبائل البحرين بنو عقيل هؤلاء ، وبنو تغلب وبنو سليم ، وكان أظهرهم فى الكثرة والعز بنو تغلب ، ثم اجتمع بنو عقيل وبنو تغلب على سليم وأخرجوهم من البحرين فسارت سليم إلى مصر »[٢١] ، فالصراع القبلى الذى حدث بين قبائل سليم وغيرها من القبائل المقيمة فى المنطقة ، وانهزام قبائل سليم ، أجبر بنى سليم على الهجرة إلى مكان آخر ، وبطبيعة الحال كانت مصر هى مقصدهم حيث أبناء قبيلتهم ، وهناك يجدون فى كنفهم العز والمنعة .

أما فكرة نقل العزيز بالله عرب بنى هلال إلى مصر ، فلقد حاول العزيز بالله استمالة زعيم القرامطة ومن معه إليه بالرغم من هزيمة القرامطة إلا أنه لم يفلح فى ذلك ، ومن ثم اكتفى بإرسال قدر من المال على شكل هدية اتقاء لخطرهم ودفعاً لضررهم يقول ابن الأثير « وأما الحسن القرمطى فانه وصل منهزما إلى طبرية فأدركه رسول العزيز يدعوه إلى العود إليه ليحسن إليه ، ويفعل معه أكثر مما فعل مع الفتكين فلم يرجع ، فأرسل إليه العزيز عشرين ألف دينار ، وجعلها له كل سنة ، فكان يرسل إليه ، وعاد إلى الاحساء »[٢٢] .

ومما سبق يمكن القول أن انتقال بنو سليم إلى مصر لم يبدأ فى عهد العزيز بالله الفاطمى (٣٦٥ هـ ٣٨٦ هـ) وإنما تم فى وقت مبكر ابتداء من سنة

١٠٩ هـ في عهـــد الخليفة هشام بن عبد الملك ، ثم توالى مجيء الأمر من بنى سليم وانضم إليهم من أبناء عمومتهم بنوهلال وغيرهم . ووجدوا فى أرض مصر مرتعاً خصباً ومعاشاً طيباً فاستقروا بها وزادت أعـــدادهم بمرور الأيام .

فاذا ماتركنا جانب العلاقات بين مصر والعرب الهلالية ، وانتقلنا إلى الجانب الآخر وأعنى به العلاقة بين مصر وإفريقية خلال الحكم الفاطمى لوجدنا تبعية إقليم إفريقية لمصر منذ اللحظات الأولى التى انتقل فيها المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر فى سنة ٣٦٢ هـ بعد أن تم فتحها على يد قائده جوهر الصقلى من قبل .

وقد حاول الفاطميون قبل أن يتركوا إفريقية أن يولوا عليها حلفاء مخلصين لدعوتهم وحكمهم وقد وقع اختيارهم على قبيلة صنهاجة ذات العدد الوفير وكنوع من المكافأة على خدماتهم الجليلة التى قدموها للدولة ، أعطى المعز المغرب لصنهاجة لأنها لم تكن مجرد قبيلة وإنما كانت شعباً عظيما يتألف من بطون بلغت السبعين ، حيث كانت كتامة فرعا منها وهى قوة هائلة تملك المغرب حتى أواسطه وتنقسم قسمين عظيمين أحدهما قريب من الساحل والآخر يسيطر على جنوب المغرب حتى السودان . . . يضاف إلى ذلك أن صنهاجة أظهرت إخلاصاً أيام نشأة دولة الفاطميين فى المغرب ، إذ كان معظمها من الحضر أو مايعرف من البرانس فى عداء ضد البتر من قبيلة زناتة أنصار الأمويين بالأندلس أعداء الفاطميين ، وقد وقع اختيار المعز على أبى الفتوح يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى الذى أظهر إخلاصه فى الساعات المخيفة وقت ثورة يزيد بن مخلد كما أثبت ولائه فى حملاته فى المغـــرب مع جوهر »[٢٢] .

وقد وقع الاختيار على أبى الفتوح يوسف بن بلكين بن زيرى الذى تولى

السلطة فى إفريقية سنة ٣٦٢هـ [٢٤] ، وبالرغم من ثقة المعز فى واليه الجديد على إفريقية ، إلا أنه قيد حركته وحد من اختصاصاته خشية استقلاله بأفريقية وخاصة أن الظروف مهيئة لهذا الاستقلال من بعد بين القاهرة والقيروان فضلا عن كراهية سكان إفريقية لمذهب الشيعة ، ولذا وجدنا الخليفة الفاطمى يوليه ولاية الحرب فقط ، أما القضاء والخراج فكانا يتبعان مباشرة للخليفة الفاطمى ، كذلك جعل إقليمى طرابلس وبرقة ولايتين مستقلتين عن حكم بنى زيرى ويتبعان الخلافة الفاطمية فى مصر [٢٥] .

إلا أن هذه الإجراءات من جانب الخلافة الفاطمية لم تمنع المنصور ابن يوسف بن بلكين الذى تولى الحكم سنة ٣٧٣هـ أن يصرح على الملأ بين الوفود التى أقبلت لتهنئته بتوليه مقاليد الأمور ، معلناً أن وصوله إلى مقعد الحكم إنما هو بفضل قوته وقوة آبائه وأجداده ، وليس للفاطميين فضل فى ذلك يقول ابن الأثير « وأتاه أهل القيروان وسائر البـــلاد يعزونه بأبيه ويهنئونه بالولاية ، فأحسن إلى الناس وقال لهم : إن أبى يوسف وجدى زيرى كانا يأخذان الناس بالسيف وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان ، ولست ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ، يعنى أن الخليفة بمصر لا يقدر على عزله بكتاب »[٢٦] ولا شك أن مثل هذه التصريحات كانت تصل إلى مسامع الخليفة الفاطمى فى القاهرة .

وقد حاول الخليفة العزيز بالله أن يؤلب بعض قبائل البربر على حكم بنى زيرى وقد تمثل ذلك فى ثورة أبى الفهم الخراسانى واستعانته بقبائل كتامة إلا أن أبا الفتوح المنصور استطاع القضاء على الثورة وتأديب قبائل كتامة[٢٧] .

أما الخليفة الحاكم بالله الفاطمى الذى تولى فى ٢٩ رمضان سنة ٣٨٦[٢٨]

فقد حاول أن يفتح صفحة جديدة من العلاقات الودية بين القاهرة وحكام القيروان ، فنراه عقب توليـــه الخلافة يرسل سجلين إلى أبي مناد باديس ابن يوسف ويلقبه في أحدهما بنصير دولة الحاكم يقول المقريزي « وفيها — سنة ٣٨٧ هـ — كتب الحاكم بأمر الله مع الشريف الداعي على بن عبد الله سجلين لأبي مناد باديس بن يوسف بن زيرى أحدهما بولايته المغرب وتلقيبه نصير دولة الحاكم والثاني بوفاة العزيز بالله وخلافة الحاكم وأخذه العهد على بني مناد ، فأنزل وأكرم وأخذ العهد على جميع قبائل صنهاجة وعمومهم بالبيعة للحاكم في جمادى الآخرة ثم عاد ، فقدم إلى القاهرة يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادى الآخرة بعد أن وصله نصير الدولة بمال جليل وثياب وخيول »[٢٩] .

ولم يمض على هذا السجل سوى ثلاث سنوات حتى وجدنا الحاكم الخليفة الفاطمي يأذن لواليه على برقة وهو يانس الصقلي باستلام طرابلس من واليها الذي خان سيده باديس بن يوسف ولجأ إلى الحاكم في مصر سنة ٣٩٠ هـ[٣٠] ، ولا شك أن هذا عمل عدائي من جانب السلطة الحاكمة في مصر ، ولم يقف باديس مكتوف اليدين بل بادر وأرسل قواته التي استطاعت أن تسترد المدينة وتهزم جيش يانس وتقتله[٣١] .

وقد دخلت العلاقة الزيرية الفاطمية مرحلة جديدة حين تولى المعز ابن باديس السلطة خلفاً لوالده في ذي القعدة سنة ٤٠٦ هـ[٣٢] ، وقد أشار ابن عذارى إلى كيفية مبايعته بقوله « كانت ولايته بالمهدية في يوم السبت المذكور سنة ٤٠٦ هـ وسنه ثماني سنين وأربعة أشهر وولايته بالمهدية وبيعته بها لتسع بقين من ذي الحجة ، ذلك لما وصل الخبر بوفاة أبيه والسيدة أم ملال بالمهدية ، خرج إليها منصور بن رشيق وقاضي القيروان والمنصـــورية وشيوخها ، ومن كان بها من الصنهاجيين ، فعزوها في أخيها ، وخرج المعز

بالبنود والطبول ، فنزل إليه الناس يهنونه جميعاً ويبايعوه وهنوه، وعزوه ، وابتهلوا بالدعاء له وعاد إلى قصره ، ودخل الناس يهنئون السيدة بولايته ، فصرف أهل القيروان والمنصورية وبقى المعز بالمهدية يركب فى كل يوم ، ويعود إلى قبة السلام »(٣٣) .

ومن النص السابق نلمح صغر سن المعز إذ أنه صبى صغير لم يتجاوز الثماني سنوات ، وظهور والدته على مسرح الأحداث وتهنئة الرعية لها بولاية ابنها ، ولا شك أن صغر سن المعز وقلة تجاربه وخبرته بشئون الحكم أو كما يقول ابن خلدون « وكان لعهد ولايته غلاماً يفعة ابن ثمان سنين فلم يكن مجرباً للأمور ولا بصيراً بالسياسة »(٣٤) .

لا شك أن هذه الصفات كانت عاملا هاماً فى وقوعه تحت تأثير مربيه المالكى المذهب الذى دأب على تلقين الغلام الصغير تعاليم المذهب المالكى فى سرية تامة وبعيداً عن أعين رجال المذهب الشيعى ، وقد أشار إلى ذلك صراحة ابن عذارى بقوله « ربى فى حجر وزيره أبى الحسن بن أبى الرجال وكان ورعاً زاهداً ، وكانت أفريقية كلها والقيروان على مذهب الشيعة وعلى خلاف السنة والجماعة من وقت تملك عبيد الله المهدى لها ، فحرض ابن أبى الرجال المعز بن باديس وأدبه ودله على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة والشيعة لا يعلمون ذلك ولا أهل القيروان »(٣٥) ، فإذا ماوضعنا فى الاعتبار مراحل العلاقة الزيرية الفاطمية قبل تولى المعز بن باديس وكثرة المؤامرات التى دبرها الفاطميون ضد الدولة الزيرية ، فضلا عن ميل الكثير من عامة الرعية للمذهب المالكى وكتمانه ذلك خوفاً من بطش رجال الحكم ، لوجدنا أن الظروف مهيأة لاتخاذ موقف جديد تجاه الشيعة فى إفريقية .

ولم يكن هذا الموقف سوى مذبحة دموية قام بها العامة ضد الشيعة فى مختلف مدن الدولة الزيرية وراح ضحيتها الكثير من أبناء الشعب المعتنقين

المذهب الشيعي وكان ذلك في عام ٤٠٧ هـ(٣٦)، وبالنظر إلى الأسباب المباشرة لهذه المذبحة نجد اختلافاً بين المؤرخين، فابن عذاري يعلل ذلك بدفاع أهل السنة عن المعز بن باديس حين أظهر ميله للشيخين أبي بكر وعمر واضطرارهم لمحاربة الشيعة والفتك بهم «فخرج المعز في بعض الأعياد إلى المصلى في زينته وحشوده وهو غلام، فكبا به فرسه، فقال عنه ذلك أبو بكر وعمر، فسمعته الشيعة التي كانت في عسكره فبادروا إليه ليقتلوه فجاءه عبيده ورجاله ومن كان يكتم السنة من أهل القيروان ووضع السيف في الشيعة فقتل منهم ما ينيف على الثلاثة آلاف فسمي ذلك الموضع بركة الدم»(٣٧)، بينما نرى ابن الأثير يضيف إلى العامل السابق عاملاً آخر هو رغبة عامل القيروان في إحداث فتنة بين أفراد الشعب انتقاماً من المعز بن باديس وإظهاره بمظهر المتخاذل عن نصرة المذهب الشيعي وأتباعه أمام الخلفاء الفاطميين أصحاب الحكم الشرعي للبلاد، ودافعه في ذلك ما بلغه من رغبة المعز بن باديس في عزله من منصبه «في هذه السنة — سنة ٤٠٧هـ — في المحرم قتلت الشيعة بجميع بلاد أفريقية وكان سبب ذلك أن المعز بن باديس ركب ومشى في القيروان والناس يسلمون عليه ويدعون له، فاجتاز بجماعة فسأل عنهم فقيل هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر، فقال: رضي الله عن أبي بكر وعمر، فانصرفت العامة من فورها إلى درب المقلى من القيروان وهو مكان تجتمع به الشيعة فقتلوا منهم، وكان ذلك شهوة العسكر وأتباعهم طمعاً في النهب، وانبسطت أيدي العامة في الشيعة وأغراهم عامل القيروان وحرضهم وسبب ذلك أنه قد أصلح أمور البلد، فبلغه أن المعز باديس يريد عزله فأراد فساده، فقتل من الشيعة خلق كثير، وأحرقوا بالنار ونهبت ديارهم وقتلوا في جميع أفريقية»(٣٨)، ويذهب ابن أبي دينار في تعليل ذلك إلى إظهار الشيعة لأفكارهم وآرائهم التي لا تتفق مع آراء أهل السنة مما دفع العامة إلى الفتك بهم يقول ابن أبي دينار «ولما استقر — أي المعز بن باديس — بصبرة خرجت طائفة من القيروان وقتلوا جماعة من الشيعة لأنهم كانوا

يتجاهرون بمذهبهم الخبيث فقتلت نساءهم وأولادهم وكانت فتنة بالقيروان من أجل النهب والقتل ، ولجأت طائفة منهم بالجامع فى المهدية فقتلوا فيه وكان لا يرى بالقيروان أحد منهم فى الطريق إلا ضرب ضربا عنيفا وربما قتل وأحرق »[39] .

وباستعراض الدوافع المختلفة وراء هذه الحادثة يمكننا أن نقول أن كراهية الغالبية العظمى من الشعب المتمسكين بالمذهب المالكى لأفراد الشيعة وهم قلة بالقياس لغالبية الرعية ، وأن هذه الغالبية لم تكن لتستطيع إعلان سخطها أمام حكام الدولة الزيرية التابعين للخلفاء الفاطميين ، فلما تولى المعز ابن باديس وهو صغير السن وخضوعه لمؤدبه المالكى ، وإظهار المعز ميله للمذهب السنى عرضا ، كل هذا أطلق العنان لتلك الجموع الساخطة للانتقام فإذا أضفنا إلى ذلك اندساس كثير من الجند بين جموع الشعب رغبة فى السلب والنهب وتراخى عامل القيروان عن اتخاذ موقف ضد هذه الجموع الثائرة ، كل هذا أدى إلى تلك المذبحة .

وما لبثت أخبارها أن انتشرت فى المدن الأخرى وخرج الناس يقتلون هنا وهناك ، وقد بلغ تعطش العامة إلى الدم أنهم كانوا يفتكون ببعض الناس دون التثبت من شيعيتهم يقول الصفاقسى «وتعدت العامة ذلك إلى جماعة من أهل السنة ظنا أنهم من غيرهم فلقد حكى أن العامة جاءت متعلقة برجل اتهموه برأيهم فمروا به على شيخ من العامة فسألهم عن تعلقهم به فقالوا نسير به إلى الشيخ أبى على بن خلدون فينظر ما يأمرنا به ، فقال لهم الشيخ العامى اقتلوه الآن فان كان رافضيا أصبتم وإن كان سنيا عجلتم بروحه إلى الجنة»[40] .

ويبدو أن المعز بن باديس خشى مغبة ترك العامة فى ثورتها العارمة تدمر وتقتل فضلا عن استغاثة الكثير من الأسر الشيعية به لحمايتها من القتل ، ومن ناحية أخرى فمازال المعز بن باديس من الناحية الرسمية تابعا للخلافة

الفاطمية فى مصر ، ومنصبه يحتم عليه حماية المذهب الشيعى ، لذا نراه يحاول وضع حد لهذه المذبحة وذلك بقتل زعيم أهل السنة لعل ذلك يكون رادعا وصدا لهذه الجموع المتعطشة للدماء يقول الصفاقسى « فرهب المعز منهم ورأى كسر شوكتهم ، فدبر قتل زعيم أهل السنة وشيخ هذه الدعوة يعنى حسن ابن خلدون ، فلما كان يوم الخميس ثانى عشر شوال من السنة المذكورة أتى عامل القيروان مع الشرطة وخيل ورجال إلى مسجد الشيخ أبى على حسن ابن خلدون البلوى بعد صلاة العصر ... فدخلوا المسجد على الشيخ وهو فى مسجده ومعه جماعة من الناس فقتلوا أبا محمد الشرياني الفقيه ... ظانين أنه أبو على فلما عرفوا مالوا على أبى على بسكاكينهم وجردوا جماعة ممن كان بالمسجد فحمل أبو على إلى داره وقد وقع فيه ثلاث جراحات إحداها فى صدغه أخذت إلى قفاه واثنتان فى جانبه الأيسر أنفذتا مقاتله وتوفى فى داره بعد العشاء »[1] فهذا التصرف وضع حدا للفوضى التى عمت البلاد ، ومن ناحية أخرى لم تكن الظروف مهيأة بعد لقطع العلاقات رسميا بينه وبين الخلافة الفاطمية فى مصر ، ومن ثم كان عليه التظاهر بحماية الشيعة وذلك بالقصاص من كبير أهل السنة والمتزعم لحركة الاضطهاد .

ويبدو أن الظروف الداخلية التى واجهها المعز بن باديس كانت مانعا له من إعلان انفصاله الرسمى عن طاعة الفاطميين ، وبعبارة أخرى كانت الأوضاع الداخلية سببا فى تأجيل إعلان انفصاله الرسمى .

وهذه الأوضاع تتمثل فى بقايا الشيعة بالبلاد والتى كانت تمثل خطرا قائما باعتبارهم جواسيس للخلفاء الفاطميين ، ويبدو أنهم كانوا يشكلون قوة عسكرية حتى أنهم استطاعوا فى سنة ٤٢٣ هـ الاستيلاء على منطقة نفطة يقول ابن الاثير « وفيها — أى سنة ٤٢٣ هـ اجتمع ناس كثير من الشيعة بأفريقية وساروا إلى أعمال نفطة ، فاستولوا على بلد منها وسكنوه ، فجرد إليهم المعز

عسكرا فدخلوا البلاد وحاربوا الشيعة وقتلوهم أجمعين »[42] ومما سبق نستنتج أن المذبحة الدامية التي حلت بالشيعة لم تحل دون استردادهم لقوتهم فضلا عن استيلائهم على منطقة من مناطق الدولة .

والوضع الثاني يتمثل في حروب زناتة ضد صنهاجة أي ضد السلطة الحاكمة مما سبب اضطرابا وقلقا في أوضاع الدولة . وقد تكررت هذه الاعتداءات مما جعلت السلطة الحاكمة مضطرة لمواجهتها وتعقبها والقضاء عليها ومن ذلك ما حدث في سنة ٤١٥ هـ يقول بن الأثير « في هذه السنة خرج بإفريقية جمع كثير من زناتة فقطعوا الطريق، وأفسدوا بقسطيلية ونفزاوة وأغاروا وغنموا واشتدت شوكتهم وكثر جمعهم، فسير إليهم المعز ابن باديس جيشا جريدة ، وأمرهم أن يجدوا السير ويسبقوا أخبارهم ففعلوا ذلك وكتموا أخبارهم وطووا المراحل حتى أدركوهم وهم آمنون من الطلب فوضعوا فيهم السيف فقتل منهم خلق كثير »[43] وتكرر نفس العدوان من زناتة في أعوام ٤٢٠ هـ ، ٤٢٧ هـ ، ٤٢٨ هـ [44] .

والوضع الثالث يتمثل في خطر الروم وأسطولهم في البحر المتوسط والذي كان يهدد أملاك بني زيري مما جعل بني زيري يوجهون اهتمامهم لحماية ممتلكاتهم وذلك ببناء السفن وتزويدها بمختلف آلات القتال لمواجهة هذه الأخطار وقد تمثل ذلك في عدوان الروم على جزيرة قلورية وامتلاكها يقول ابن الأثير « في هذه السنة — سنة ٤١٦هـ — خرج الروم إلى جزيرة صقلية في جمع كثير وملكوا ما كان للمسلمين في جزيرة قلورية وهي مجاورة لجزيرة صقلية ، وشرعوا في بناء المساكن ينتظرون وصول مراكبهم وجموعهم مع ابن أخت الملك ؛ فبلغ ذلك المعز بن باديس ، فجهز أسطولا كبيراً أربعمائة قطعة وحشد فيها وجمع خلقا كثيراً وتطوع جمع كثير بالجهاد ... »[45] إلا أن هذا الأسطول لم يحقق نجاحا إذ أنه تحطم قبل أن يصل إلى هدفه بسبب رياح شديدة وعواصف مدمرة .

أما الوضع الرابع فيتمثل في خوف المعز بن باديس من قوة الخلافة الفاطمية ، وربما حاولت ارسال جيوش من قبلها للقضاء على سلطته إذا ما حاول خلع الطاعة رسميا وظروفه الداخلية غير مستقرة ولا تساعده على القتال في أكثر من جبهة ، لذا نراه يبقي أسماءهم . منقوشة على العملة ، وعلى البنود وهو سلوك مناقض لميله الشخصي مادفع أحد العلماء للاستفسار منه عن هذا التضارب فأجابه معتذرا بخوفه على الحجاج المغاربة المارين بأرض مصر وخشية الاعتداء عليهم من جانب الفاطميين إذا ما هو حاول إزالة أسمائهم من العملة والبنود يقول الصفاقسي » ولم يبق المعز من آثار بني عبيد الا أسماءهم على السكة والبنود ، فسأله أبو عمران الفاسي على ذلك فاعتذر بالخوف على الحجاج لبيت الله الحرام والمسافرين ، يعني لو أزال ذلك من السكة لأدى إلى اضرار بني عبيد ملوك مصر بالحجاج الواردين عليهم من المغرب والمسافرين إما بقتل وأخذ مال أو منع الطريق أو غير ذلك «(٤٦) .

هذه الأوضاع المجتمعة عملت على تأجيل اعلان الانفصال الرسمي عن الخلافة الفاطمية في مصر .

ومن ناحية أخرى ما موقف الخلافة الفاطمية من هذه الأحداث والتغييرات التي حلت بإفريقية والتي تصاعدت حتى انتهت إلى هذه المذبحة التي راح ضحيتها الآلاف من أتباع الدعوة الشيعية ؟ ؟

أعتقد أن موقف المعز بن باديس وعدم خلعه طاعة الفاطميين رسميا لعب دورا كبيرا في موقف الفاطميين ، وبعبارة أخرى رضي الفاطميون من المعز بن باديس بإبقاء أسمائهم على العملة والبنود ، ولم يحاولوا بشكل رسمي محاربة الزيريين ، وربما كانت الأزمات الاقتصادية التي كانت تحل بمصر من الحين إلى الحين مانعا قويا في تجهيز القوات العسكرية لإرجاع الأوضاع في إفريقية إلى ما كانت عليه ، وربما كان من قبيل المصادفة أن

تقع المذبحة فى مدن الدولة الزيرية ضد الشيعة سنة ٤٠٧ هـ ويعقبها فى عام ٤٠٨ هـ أزمة اقتصادية بمصر إذ زاد النيل زيادة كبيرة مما أدى إلى غرق كثير من الضياع حتى أن الماء دخل القاهرة مما اضطر معه السكان إلى الفرار منه(٤٧) ولاشك أن مثل هذه الأزمات الملية تلعب دورها فى شغل السلطة الحاكمة ، كذلك كانت هناك أزمة اقتصادية فى عامى سنة ٤١٤ هـ ، سنة ٤١٥ هـ ناتجة عن نقص مياه النيل مما أسفر عنه قلة الأقوات وارتفاع فى الأسعار وقد وصفها المقريزى بقوله « ومنع الناس من ذبح الأبقار لقلتها وعزت الأقوات وقلت البهائم حتى بيع الرأس البقر بخمسين ديناراً وكثر الخوف ، فى ظواهر البلد واضطرب الناس ، وتحدث زعماء الدولة بمصادرة التجار ، فاختلف بعضهم على بعض وكثر ضجيج العسكر من الفقر والحاجة فلم يجابوا وتحاسد الزعماء(٤٨) » ولاشك أن هذه الأزمات المتكررة كانت مانعاً من التفكير فى تجهيز حملة ومايصحب ذلك من نفقات وأموال ، يضاف إلى ذلك انشغال الخلفاء الفاطميين منذ مجيئهم إلى مصر بأحداث المشرق ومواجهة الخلافة العباسية والأوضاع المتقلبة فى الشام مما جعل هذه المنطقة هى الشغل الشاغل للخلفاء الفاطميين .

ومن ثم وجدنا العلاقة بين الفاطميين والزيريين تأخذ طابعها المعتاد من تبادل الهدايا والرسائل(٤٩) يقول المقريزى « وفى سنة عشر وأربعمائة سير الحاكم بأمر الله أبا القاسم بن البزيد إلى شرف الدولة الحاكمية أبى تميم المعز ابن نصير الدولة أبى مناد باديس ومعه سيف مكلل بنفيس الجوهر وخلعة من لباس ، فقدم المنصورية لست بقين من صفر سنة إحدى عشرة وتلقاه شرف الدولة ونزل إليه فقرأ عليه سجلا عظيما فكانت أيام فرح ، ثم ورد بعده محمد بن عبد العزيز بن أبى كدينة بسجل آخر ومعه خمسة عشر علماً منسوجة بالذهب فخلع على أبى القاسم ومحمد وحملا وطيف بهما فى القيروان والأعلام المذكورة بين أيديهما(٥٠) » .

وقد تمادى الحاكم فى استرضاء ابن باديس ورعيته فعين فقيهين مالكيين لتدريس المذهب المالكى وهو يخالف مذهب الدولة الرسمى يقول أبو المحاسن « ولما أرسل إليه ابن باديس ينكر عليه أفعاله ، أراد استمالته فأظهر التفقه وحمل فى كمه الدفاتر وطلب إليه فقيهين وأمرهما بتدريس مذهب مالك فى الجامع »(٥١) ويبدو أن الخلافة الفاطمية أدركت أن هذا التصرف لم يجد صدى طيباً لدى ابن باديس فضلا عن أنه ضد مذهب الدولة ومعتقداتها الشيعية لذا نرى الحاكم يأمر بقتلهما(٥٢).

وقد اقتفى الظاهر الفاطمى سياسة والده الحاكم فى مصانعة ابن باديس أو بعبارة ابن خلدون « أغضى عنه الظاهر »(٥٣) وسارت العلاقات فى مسارها التقليدى من تبادل للهدايا والرسائل(٥٤) يقول ابن عذارى « وفى هذه السنة — سنة ٤١٤ هـ — وصل محمد بن عبد العزيز من قبل الظاهر أمير مصر بتشريف عظيم لشرف الدولة ، فقرئت به سجلات ماوصل قبلها مثلها أجل حالا ولا أعلى مقالا ، وزاده لقبا إلى لقبه فسماه شرف الدولة وعضدها وبشره بمولودين ولداً له : أبو الطاهر وعبد الله أبو محمد وبعث إليه بعد ذلك ثلاثة أفراس من خيل ركوبه بسروج حلية وخلعة نفيسة من نفيس ثيابه ، ومنجوقين منسوجين بالذهب على قصب فضة ، مادخل أفريقية مثلها قط وعشرين بنداً مذهبة مفضضة ، فلقيها شرف الدولة وعضدها أجل لقاء وأعطاها حقها من الإكرام والاعتناء ، وقرئت السجلات بين يديه ، ثم قرئت بجامع القيروان وأمر بنسخها وأنفذت إلى الآفاق ، فكان لها من السرور مالا يوصف ، وبعد ذلك فى هذه السنة ، وصله سجل آخر بزيادة لقب آخر تشريفاً لشرف الدولة وأمر أن يكاتب « من الأمير شرف الدولة وعضدها» ويخاطب مثل ذلك ، فلقيه أحسن لقاء وخلع علية رجاله ، وجرت المكاتبة من ذلك الوقت بهذا التشريف الجليل »(٥٥) .

إلا أن هذه العلاقات التقليدية بين المعز بن باديس وخلفاء الفاطميين لم

تمنع من اتخاذ خطوة أكثر جرأة فى سبيل الاستقلال التام عن الفاطميين، وخاصة إذا كان هناك سلوك عملى من جانب الرعية فى نبذ المذهب الشيعى والتمسك بالمذهب المالكى، وقد تمثل ذلك السلوك فى مقاطعة أهل القيروان صلاة الجمعة بالمساجد باعتبارها تمثل المذهب الرسمى للدولة وهو المذهب الشيعى، يقول ابن عذارى « لما رحل بنو عبيد إلى مصر لم تزل ملوك صنهاجة يخطبون لهم بأفريقية ويذكرون أسماءهم على المنابر وتمادى الأمر على ذلك حتى قطع أهل القيروان صلاة الجمعة فراراً من دعوتهم وتبديعاً لإقامتها بأسمائهم، فكان بعضهم إذا بلغ المسجد قال سراً: اللهم أشهد، اللهم اشهد ثم ينصرف فيصلى ظهراً أربعاً إلى أن تناهى الحال حتى لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحد فتعطلت الجمعة دهراً »(٥٦).

هذا المسلك العملى من أهل القيروان وغيرها من مدن إفريقية دفع المعز ابن باديس للتفكير عملياً فى اتخاذ خطوة أكثر ارتباطاً بالسلطة السنية المتمثلة فى الخلافة العباسية ببغداد تقرباً لرعيته وتحقيقاً لميوله السنية.

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ إقامة الدعوة العباسية على منابر القيروان وغيرها من مدن الدولة الزيرية، فبعضهم يذكر أن إقامة الخطبة للدولة العباسية تم فى سنة ٤٢٢ هـ(٥٧) وبعضهم أرخ ذلك بعام سنة ٤٣٥هـ(٥٨) بينما أشار ابن خلدون إلى أن ذلك تم فى سنة ٤٣٧ هـ(٥٩). ويبدو أن هذا الاختلاف يرجع إلى خلط بعض المؤرخين بين حادثتين منفردتين الأولى الاتصال بالخلافة العباسية وإقامة الخطبة لها وأعتقد أن هذا تم فى سنة ٤٢٥هـ استناداً لما رواه بعض المؤرخين والحادث الثانى هو لعن الفاطميين واستبدال العملة وهو كل مايتعلق بالخلافة الفاطمية وهذا بدأ فى سنة ٤٤٠ هـ(٦٠).

وسياسة التدرج هذه هى التى سار عليها المعز بن باديس منذ أن تولى الحكم، فلقد أوقع بالشيعة فى مذبحة كبيرة سنة ٤٠٧هـ ثم بدأ يتعقب الشيعة

فى كل مكان ، ولم يخلع طاعة الفاطميين مرة واحدة متعللا بخوفه على الحجاج المغاربة من بطش الفاطميين بينما كان يراسل سراً الخلافة العباسية(٦١) وأثمرت هذه الاتصالات فى عام سنة ٤٣٥ هـ ، الخطبة للخليفة العباسى دون التعرض للخلفاء الفاطميين بالسب أو اللعن .

وحتى يستكمل مظاهر الارتباط الرسمى بينه وبين الخلافة العباسية وجه رسولا من قبله إلى بغداد ليأتيه بالعهد واللواء ، ورحبت الخلافة العباسية بهذه الخطوة الجديدة باعتبارها موجهة أساساً لأعدائها الفاطميين فى مصر فضلا عن استرجاع الخلافة العباسية بعض مظاهر السيادة الإسمية على مناطق انفصلت منذ فترة بعيدة ، وأرسل العهد واللواء مع مبعوث الخلافة العباسية وهو غالب الشيرازى إلا أن الحظ لم يحالفه فوقع فى قبضة الروم أصدقاء الفاطميين فى مصر ، ولم تنجح المحاولات التى بذلت فى الإفراج عن المبعوث العباسى ، وأرسل إلى القاهرة حيث أحرق العهد واللواء ، وطيف به فى شوارع القاهرة يقول المقريزى « وجهزت الخلع على يد رسول يقول له أبو غالب الشيرزى ومعه العهد واللواء الأسود فى بيلاد الروم ليعدى منها إلى أفريقية ، فقبض عليه صاحب الروم وبلغ ذلك المعز بن باديس فأرسل إلى قسطنطين ملك الروم فى أمره فلم يجبه رعاية لحق المستنصر ... واتفق قدوم رسول المستنصر إليه بهدية عظيمة فبعث معه رسول القائم بما على يده، فدخل إلى القاهرة على جمل وأحرق العهد واللواء والهدية فى حفرة بين القصرين »(٦٢) .

ولاشك أن ماحدث برسول الدولة العباسية لبنى زيرى فى إفريقية ، ونجاح الفاطميين فى التنكيل به أغضب ولاة الأمر فى كل من بغـــداد والقيروان ، ومن ثم وجدنا الخلافة العباسية تعلن سلاح التشكيك فى نسب الفاطميين وتعقد المجالس والمؤتمرات للطعن فى نسبهم ونفى نسبتهم إلى إلى الإمام على بن أبى طالب وقد أشار ابن الأثير إلى أن هذا التشهير حدث

فى سنة ٤٠٢ هـ « فى هذه السنة كتب ببغداد محضر يتضمن القدح فى نسب العلويين خلفاء مصر »(٦٣) إلا أن المقريزى يذكر ذلك فى تاريخ متأخر بين سنتى سنة ٤٤٣ هـ ، سنة ٤٤٤ هـ ويذكر صراحة أن ذلك حدث من الخلافة العباسية رداً على ماصنعته برسولها إلى بنى زيرى فى القيروان يقول المقريزى « فيها — سنة ٤٤٤ هـ — كتبت بغداد محاضر تتضمن القدح فى نسب الخلفاء المصريين ونفيهم من الالتحاق بعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، وجمع سائر أعيان الفقهاء ببغداد وأشرافها وقضاتها وعروا نسبهم فى الديصانية من المجوس ، وسيرت المحاضر إلى البلاد وشنع عليهم تشنيع كبير وسبب ذلك الغضب ماعمل مع الرسول المرسل من المعز بن باديس ، فإنه لما شهر بالقاهرة على جمل مقلوب ، وكتاب العقد فى عنقه والهدية بين يديه ، ثم أحرقت الخلع والتقليد »(٦٤) ولايمنع تكرار حادث التشهير إذ أن فيه متنفساً للعباسيين وهجوماً شديداً على الفاطميين خلفاء مصر .

أما بنو زيرى فى القيروان فقد اتخذوا موقفاً حاداً وذلك بلعن الفاطميين على المنابر والدعاء للعباسيين ، يقول ابن عذارى « وأمر المعز بلعنهم فى الخطب وامنهم ، كان عيد الأضحى ، أمر الخطيب أن يسب بنى عبيد فقال : اللهم والعن الفسقة الكبار المارقين الفجار أعداء الدين وأنصار الشيطان المخالفين لأمرك والمناقضين لعهدك ، المتبعين غير سبيلك ، المبدلين لكتابك ، اللهم والعنهم لعناً وبيلا وأخزهم خزياً عريضاً طويلاً ، اللهم وأن سيدنا أبا تميم المعز بن باديس المنصور القائم لدينك والناصر لسنة نبيك والرافع للواء أوليائك يقول مصدقاً لكتابك وتابعاً لأمرك ، مدافعاً لمن غير الدين ، وسلك غير سبيل الراشدين المؤمنين « ياأيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون » هكذا ذكر باسقاط ، قل « وآخرها : قال الأمير أبو تميم المعز بن باديس أن يسبهم على منبر القيروان بأشنع من هذا السب فلما كان فى الجمعة الآخرى أبلغ ذلك بما فيه شفاء لنفوس المؤمنين(٦٥) .

ولا شك أن لعن الفاطميين على منابر إفريقية يعد بمثابة قطع للعلاقات بين بنى زيرى والفاطميين ، وإعلان صريح بكراهية بنى زيرى للفاطميين.

واتبع المعز بن باديس لعنهم على المنابر بسلسلة من الإجراءات لدعم استقلاله وارتباطه بالخلافة العباسية وفى نفس الوقت إزالة كل ما يتعلق بالمذهب الشيعى ، فبدأ بهدم دار الاسماعيلية باعتبارها مركزاً لنشر الدعوة الفاطمية بالبلاد(٦٦) ، ثم أمر بتغيير ملابس رجال الدولة وصبغها باللون الأسود رمز الارتباط بالعباسيين ، يقول ابن عذارى « أمر المعز بن باديس بإحضار جماعة من الصباغين وأخرج لهم ثياباً بيضاً من فندق الكتان وأمرهم أن يصبغوها سوداً فصبغوها بأحلك السواد ، وجمع الخياطين فقطعوها أثواباً ثم جمع الفقهاء والقضاة إلى قصره وخطيبى القيروان وجمع المؤذنين وكساهم ذلك السواد ، ونزلوا بأجمعهم ، وركب السلطان بعدهم حتى وصل إلى جامع القيروان ، ثم صعد الخطيب المنبر ، وخطب فيها خطبة أتى فيها على جميع الأمر ، بأجزل لفظ وأحسن معنى ثم دعا لأبى جعفر عبد الله القائم بأمر الله العباسى ودعا السلطان المعز بن باديس ولولده أبى الطاهر تميم ولى عهده من بعده ثم أخزى بنى عبيد الشيعة ولعنهم »(٦٧) ، وفى نفس الوقت غير البنود والأعلام وجعلها سوداء اللون .

أما العملة وكانت مظهراً من مظاهر ارتباطه الوثيق بالفاطميين ، فأمر بتغييرها وإزالة أسماء بنى عبيد ونقش عليها : ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين وفى الوجه الثانى : لا إله إلا الله محمد رسول الله(٦٨) وأمر بسبك جميع النقود وتحويلها إلى العملة الجديدة وهدد بالعقاب الشديد كل من وجدت لديه عملة منقوش عليها أسماء الفاطميين(٦٩) .

وقد دعم موقف بنى زيرى فى القيروان مساندة إخوانهم فى برقة وكانوا

يتبعون مباشرة لحكم الخلافة الفاطمية فى القاهرة ، إذ أعان أميرها جبارة ابن مختار العربى تأييده لموقف المعز بن باديس وخلعوا طاعة الفاطميين ولعنوهم على منابرهم ، يقول ابن عذارى « وصلت إلى القيروان مكاتبة من الأمير جبارة بن مختار العربى من برقة بالسمع والطاعة للمعز بن باديس وأخبر أنه وأهل برقة قد أحرقوا المنابر التى كان يدعى عليها للعبيدية وأحرقوا راياتهم وتبرءوا منهم ولعنوهم على منابرهم ودعوا للقائم بأمر الله العباسى »[٧٠] ، ولا شك أن هذا الموقف دعم للدولة الزيرية وفى نفس الوقت تهديد مباشر للدولة الفاطمية وحدودها الغربية .

وقد حاولت الخلافة الفاطمية من جانبها إرجاع العلاقات إلى ما كانت عليه تارة بالترغيب وتارة بالتهديد[٧١] ، إلا أنها فشلت فى ذلك ، وساعد على تطور الأحداث ظهور شخصية اليازورى الوزير الفاطمى على مسرح الأحداث ، تلك الشخصية التى استطاعت أن تصل إلى منصب الوزارة ، وأن يقبض بيده على مقاليد الأمور ، إذ كان وزيراً وقاضياً للقضاة ومقدماً على الدعاة ، وهذا ما لم يحدث لأحد من قبله كما يقول ابن ظافر[٧٢] .

تولى اليازورى الوزارة سنة ٤٤٢هـ[٧٣] وذلك بعد محاولات ذكية فى التقرب من أم المستنصر حتى وثقت به واستطاع أن يصل إلى هذا المنصب وأن تطلق عليه الكثير من الألقاب ، يقول المقريزى « ولقب بالوزير الأجل المكين ، سيد الوزراء ، تاج الأصفياء ، قاضى القضاة ، وداعى الدعاة ، علم المجد ، خالصة أمير المؤمنين ، وقد بلغ من مكانته وعظم نفوذه أن طلب منه الخليفة المستنصر الفاطمى أن ينقش إسمه معه على السكة فكان يكتب عليها :

ضربت فى دولة آل الهدى   من آل طه وآل ياسين

مستنصر بالله جل إسمه وعبده الناصر للدين[٧٥]

هذه المكانة والمنزلة الرفيعة فى البلاط الفاطمى جعلت اليازورى لا يقبل اللهجة التى خاطبه بها المعز بن باديس ، ويبدو أنه برغم العداء الشديد بين الزيريين فى القيروان وبين الفاطميين فى مصر ، إلا أنه كانت هناك مكاتبات تحدث بين الطرفين ومن ثم وجدنا المعز بن باديس يحاول التقليل من شأن الوزير الفاطمى حين كتب إليه واصفاً إياه « بصنيعته » بدلا من أن يصفه « بعبده »[٧٦] كما جرت العادة بذلك ، وقد أحدث هذا الخطاب أثراً سيئاً فى نفس الوزير مما دفعه إلى مقابلة أبى القاسم بن الأخوة ممثل ابن باديس بالقاهرة وحمله رسالة عتاب ولوم يقول المقريزى « فاستدعى الوزير أبا القاسم بن الأخوة وكيل بن باديس بمصر وعتب صاحبه عنده وقال : أظن معزاً ينقصنى عمن تقدمنى إذا لم أكن من أهل صناعة الكتابة ، وإن لم أكن أوفى منهم فما أنا دونهم ، ومن رفعه السلطان ارتفع وإن كان خاملا ، ومن وضعه اتضع وإن كان جليلا نبيلا ، فاكتب إليه بما يرجعه إلى الصواب »[٧٧] ، هذا العتاب من جانب اليازورى لم يجد استجابة لدى المعز ابن باديس بل إن عيـــون اليازورى فى بلاط ابن باديس نقلت ما قاله ابن باديس فى رده على الرسالة : ما الذى يريد منى هذا الفلاح ، لا كنت عبده ولا كان ، هذا لا يكون أبداً وما كتبت إليه فكثير[٧٨] ، وقد حاول اليازورى من جانبه استخدام سلاح التهديد والاغتيال حتى يمنع المعز من الاستمرار فى استهزائه وسخريته وعداوته ، يقول المقريزى « فدس إليه الوزير من تلطف فى أخذ سكين دواته فلما وصلت إليه أحضر ابن الأخوة وقال له : كنت أظن بصاحبك أن الذى حمله على ما كان منه ثورة الشبيبة وقلة خبره بما تقضى به الأقدار ، وإنه إذا نبه تنبه ، فإذا الجهل مستول عليه ، وظنه أن بعد المسافة بيننا وبينه يمنع من الانتصاف منه والوصول إليه بما يكره ، وقد تلطفنا فى أخذ سكين دواته وها هى ذى فأنفذها إليه

وأعلمه ، أنا كما تلطفنا فى أخذها أنا نتلطف فى ذبحه بها ، ودفعها إليه فكتب ابن الأخوة بذلك ، فازداد شراً وبطراً فدس عليه من أخذ نعله ، وكان يمشى فى الأحذية السندية فلما وصلت إليه أحضر ابن الأخوة وقال له: أكتب إلى هذا البربرى الأحمق وقل إن عقلت وأحسنت أدبك ، وإلا جعلنا تأديبك بهذه تجرى على عادته فى القول القبيح »(٧٩) .

ومن هذا النص نستنتج إخفاق اليازورى فى منع المعز بن باديس من الاستمرار فى عدائه له فضلا عن السخرية منه والاستهزاء به ، ومن ثم بدأ يفكر فى اتخاذ خطوة أكثر حسما وقعاً ، وخاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أن الخليفة الفاطمى لم يتخذ إجراء حاسما ضد ابن باديس وما قام به من عداء سافر ضد الشيعة والمذهب الشيعى فى أفريقية ولعنه للخلفاء الفاطميين على منابر مدن الدولة الزيرية فضلا عن تقربه الظاهر للخلافة العباسية ، كل هذه العوامل مجتمعة دفعت الوزير الفاطمى إلى اتخاذ إجراء جديد .

ولم يكن هذا الاجراء سوى تشجيع القبائل الهلالية على التوجه إلى القيروان وإطلاق العنان لها فى التدمير والتخريب وامتلاك كل ما يقع تحت سيطرتها . وهو بذلك يحقق عدة أهداف فى الناحية الشخصية سوف يحقق انتقامه من المعز بن باديس ودولته حين يواجه هذه الجموع الكبيرة والمعروفة بوحشيتها وقسوتها والأثر المدمر الذى سوف تتركه هذه الجموع فى المغرب الأدنى ، ومن الناحية الرسمية فهو انتقام للدولة الفاطمية من المعز بن باديس تابع الأمس والعدو الآن . ومن ناحية أخرى فإن هذا الاجراء لن يكلف الدولة ما تكلفه الجيوش عادة عند خروجها للغزو فضلا عن التخلص من هذه القبائل الهلالية ذاتها إذ أنها كانت تشكل مصدر إزعاج وقلق للسلطة الحاكمة فى القاهرة .

وقد أشار اليازورى بهذه الفكرة على الخليفة المستنصر الذى استحسنها،

ومن ثم بدأ التنفيذ وأخذ اليازورى يعاونه أحد أمراء الدولة وهو الوزير مكين الدولة أبا على الحسن بن على بن ملهم ابن دينار العقيلى فى الإصلاح بين قبائل زغبة ورياح وغيرها من القبائل ، وحملت الأموال إلى مشايخ القبائل وفرضوا لكل عربى منهم ديناراً وبعيراً(٨٠) ، وكان الأمر صريحا لهؤلاء الأعراب بامتلاك كل ما يستولون عليه يقول ابن خلدون « وقال لهم : قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجى الآبق فلا تفتقرون»(٨١) وفى نفس الوقت بعث برسالة إلى المعز بن باديس تحمل فى طياتها نذر الخطر والشر يقول فيها : فقد أنفذنا إليكم خيولا فحولا ، وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقضى الله أمرا كان مفعولا(٨٢) .

ويبدو أن هذا التصرف من جانب الخلافة الفاطمية تجاه العرب الهلالية صادف ترحيبا وقبولا حسنا إذ انطلقوا لتحقيق أطماعهم ومآربهم فى هذه المنطقة ، وكان النجاح الذى حققوه دافعا لإخوانهم فى مصر على إعلان رغبتهم فى الانضمام إلى إخوانهم وأبناء عمومتهم من الأعراب المشاركة فى المكاسب الجديدة ، ومن ثم وجـــدنا الخلافة الفاطمية تحاول تعويض ما أنفقته من قبل على تلك الجموع وذلك بفرض رسوم على كل من يرغب فى العبور والاتجاه غربا إلى إفريقية يقول ابن أبى دينار « فلما وصلوا إلى أفريقية عاثوا فيها كيف شاءوا ، وملئت أيديهم من النهب فتسامعت بنو عمهم بذلك فطلبوا من الخليفة اللحاق بمن تقدمهم من ذلك إلا أن يعطوه شيئا من أموالهم فأخذ منهم أضعاف ما أعطاه لبنى عمهم »(٨٣) .

سارعت القبائل العربية متجهة نحو غايتها فى السلب والنهب ووصلت مدينة برقة ولم تجد كبير عناء فى الاستيلاء عليها إذ أن كثيرا من سكانها من قبائل زناتة قد هلكوا فى حروبهم ضـــد المعز ، ومن ثم صارت برقة وما حولها لقمة سائغة للعرب الهلالية(٨٤) ، وبدأت القبائل تتقاسم المناطق

الشرقية بينما استأثرت بعض قبائل بنى هلال بالمناطق الغربية، واتجهت جموع دياب وعرف وزغب وبقية بطون هلال إلى إفريقية يدمرون كل شيء كمدن إجدابية وسرت وغيرها من المدن والقرى(٨٥) .

وفى محاولة من جانب المعز بن باديس لصد ذلك الزحف الكبير حاول استمالة أحد زعماء قبائل رياح وهو مؤنس بن يحيى الرياحى الذى أقبل على لقاء المعز فوجد منه التكريم والترحيب كما أنه زوجه ابنته رغبة فى توطيد العلاقة بينهما ، وتشير بعض الروايات إلى أن المعز بن باديس عرض على مؤنس أن يمده بإخوانه من أبناء القبائل العربية لاستخدامهم كجند له بدلا من جند صنهاجة لعدم ثقته بهم ، لكن هذا العرض لم يجد استجابة لدى مؤنس الرياحى وبين له أن ذلك ضد طبيعة هؤلاء العرب إذ أنهم ميالون للفوضى وعدم التقيد بأوامر ونظام معين(٨٦) .

وهذه الرواية تحمل فى طياتها بذور الشك إذ كيف يستعين المعز ابن باديس بأعدائه الذين انطلقوا من مصر للقضاء على دولته ؟! وكيف يأمن لهم بعد أن بلغه ما فعله هؤلاء الأعراب بالمناطق التى حلوا بها ؟! ليس هناك تفسير لصحة هذه الروايات إلا محاولة يائسة من جانب المعز بن باديس فى احتواء هذه الجموع والهيمنة عليها ومن ثم إخضاعها لسيطرته ونفوذه

ويبدو أن هذه الجموع بعد أن استولت على برقة وطرابلس بدأت تخطط لتحركاتها المقبلة وكان الهدف الذى يسمون إليه فى هذه المرحلة هو الاستيلاء على القيروان وقد ظهرت خطتهم واضحة فى ذلك الحوار الذى دار بين مؤنس المرداسى وبين رؤسائهم والتى أوردها ابن الأثير بقوله «وكانت عرب زغبة قد ملكت مدينة طرابلس سنة ست وأربعين وأربعمائة فتتابعت رياح والاثبج وبنو عدى إلى إفريقية ، وقطعوا السبيل وعاثوا فى الأرض وأرادوا الوصول إلى القيروان فقال مؤنس بن يحيى المرداسى: ليس المبادرة

عندي رأي ، فقالوا : كيف تحب أن تصنع ؟ فأخذ بساطاً فبسطه ثم قال لهم : من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشي عليه؟ قالوا : لا نقدر على ذلك، قال : فهكذا القيروان ، خذوا شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى إلا القيروان فخذوها حينئذ . فقالوا : إنك لشيخ العرب وأيدها وأنت المقدم علينا ولسنا نقطع أمراً دونك »(٨٧) وهكذا أوضح مؤنس الخطة المثلى في الاستيلاء على القيروان وذلك بتخريب ما حولها وبذلك يسهل الاستيلاء عليها .

ويبدو أن المعز بن باديس لم يدرك منذ اللحظة الأولى مدى خطورة هذه الجموع والأضرار التي ستحدثها في المنطقة واكتفى بتكريم أمراء العرب والتودد إليهم(٨٨) ولم يتخذ للأمر عدته . ومن ثم سار العرب الهلالية في تنفيذ مخططاتهم من قطع للطرق وتدمير للقرى والمدن وإشاعة الفوضى والخراب في كل مكان يحلون به حتى ضج الناس بالشكوى وعلت صرخاتهم ونزل بهم من البلاء مالم يروه من قبل(٨٩) .

وإزاء هذا الخطر وجدنا المعز يجهز قواته من زناتة وصنهاجة وعبيده وأتباعه حتى بلغ تعداد جنده ثلاثين ألف مقاتل ، وكان اللقاء بينه وبين جموع العرب الهلالية ، وبرغم قلة جند العرب الهلالية والذي لم يتجاوز ثلاثة آلاف فارس(٩٠) ، إلا أن الهزيمة حلت بالمعز وجنوده وقتل الكثير من جنوده . وكانت الهزيمة نتيجة طبيعية لجيش يحمل بين جوانبه عوامل الانكسار ، فقبائل زناتة لم تنس أحقادها بالأمس وما فعله المعز بمضاربها وأفرادها ، أما قبائل صنهاجة فقد فر أفرادها من أرض المعركة لإحراج المعز الذي اعتمد على العبيد واستند إليهم في حكمه ، ولإشعاره بمدى أهمية قبائل صنهاجة بالنسبة لحكمه(٩١) يضاف إلى ذلك انضمام العرب بجيش المعز إلى إخوانهم العرب الهلالية بحكم العصبية والنسب(٩٢) ولم يثبت معه في أرض المعركة إلا العبيد وحرسه الخاص أولئك الذين دافعوا دفاعاً مجيداً عن المعز وأنقذوه من القتل واستطاع الدخول إلى القيروان بعد أن ترك

معسكره وغنم العرب الهلالية مغانم كثيرة يشير إليها ابن عذارى بقوله « ودخل العرب معسكر المعز السلطاني ، فحازوه وفيه من الذهب والفضة والأمتعة والأسباب والأثاث والخف والكراع ما لا يعلم عدده إلا الله ، وكان فيه من الأخبية وغيرها ما يتجاوز عشرة آلاف ومن الجمال نحو خمسة عشر ألفاً . ومن البغال مالا يحصيه قول فما خلص لأحد من الجند عقال فما فوقه »(٩٣) .

هذه الهزيمة الشنعاء التي حلت بمعسكر المعز بن باديس لم تمنعه من تكرار محاولة صد الأعراب وطردهم من بلاده ، إلا أن الحظ خانه ولم يحقق نصراً ، ومن ثم لجأ إلى سلاح آخر وهو مهادنتهم والتقرب إليهم ، لذا وجدناه يسمح لهؤلاء الأعراب الذين اتخذوا من أرباض القيروان مرتعا خصبا لهم ، سمح لهم بدخول المدينة للشراء والبيع ، وهذه الخطوة الطيبة من جانب المعز بن باديس لم تثمر النتيجة المرجوة منها إذ دخل العرب الهلالية مدينة القيروان ، وأساءوا إلى سكان المدينة مما أحدث شغبا واضطرابا بالمدينة(٩٤) .

وفي محاولة يائسة من جانب المعز في حماية القيروان ، أدار عليها سوراً سنة ٤٤٦ هـ وفي نفس الوقت أمر السكان من الأطفال والنساء والشيوخ بالانتقال منها إلى المهدية — المدينة الحصينة — حتى يجدوا في ظلها الأمن والحماية(٩٥) ، إلا أن هذه المحاولات اليائسة لم تمنع القيروان من مصيرها المحتوم ، إذ أن العرب كانت تقاتل بوحشية ولم ترحم طفلا ولا إمرأة وقد أعطانا ابن عذارى وصفا بشعا للأعمال التي ارتكبها العرب في ضواحي القيروان بقول « قال ابن شرف : أخبرني من أثق به ، قال : خرجت من القيروان وسرت ليلا ، فكنت أكمن النهار ، فلم أمر بقرية إلا وقد سحقت وأكلت ، أهلها عراة أمام حيطانها من رجل وامرأة وطفل يبكي ، جميعهم جوعا وبرداً ، وانقطع السير عن القيروان وتعطلت الأسواق وأمسك العرب

جميع من أسروه ، فلم يطلقوا أحداً إلا بالفداء مثل أسرى الروم ، وأما الضعفاء والمساكين فأمسكوهم لخدمتهم »(٩٦) .

وبانتقال المعز بن باديس إلى المهدية ومعه جنوده وحرسه أصبحت القيروان تحت رحمة العرب الهلاليين الذين واصلوا الإغارة على ضواحي القيروان وأبوابها لعلهم ينفذون إليها ، وأما من بقى داخل المدينة فكان يدافع عن أبوابها دفاع المستميت ، دفعا للمصير المحتوم .

وقد أعطانا ابن عذارى تصويراً دقيقا للحالة السيئة التى وصل إليها المدافعون عن القيروان من قلة فى السلاح والعتاد يقابلها فى الجانب الآخر وفرة فى السلاح والعتاد ، فضلا عن رغبات جامحة فى السلب والنهب يقول ابن عذارى « وذلك أن العرب دفعت إلى هذا الباب (باب تونس) فخرج إليهم العامة ، منهم بسلاح ومنهم من بيده عصا لا يدفع بها أضعف الكلاب ، فحملت عليهم فرسان العرب وتمكنت منهم سيوفهم ورماحهم فتساقطوا على وجوههم وجنوبهم وسطحوهم من حد أفران الآجر إلى هذا الباب ، ولم يبق منهم إلا من حصنه أجله ، ولم يتركوا على حى ولا ميت خرقة تواريه ، وخرج أهل القتلى عند انصراف العرب ، فرفعوا قتلاهم ، فقامت النوائح والنوادب بكل جهة ومكان من أزقة القيروان ، تتصدع لمنظرها وسماعها الجبال ، وبقى خلق من الغرباء فى المقتلة وجرح من الناس خلق كثير ، ورأى الناس ما أذهلهم من قبيح تلك الجراحات فتفتتت الأكباد وذابت القلوب والأجساد ، لبنيات قد سودن وجوههن وحلقن رؤوسهن على آبائهن واخوانهم فكان هذا يوم مصائب وأنكاد ونوائب ، ولم ير الناس مثله فى سائر الأمصار فيما مضى من الأعصار »(٩٧) .

وظلت المدينة تعانى من الهجمات المتكررة حتى سقطت فى سنة ٤٤٩ هـ ودخلها الأعراب يعملون فيها سيوفهم ورماحهم ، ويخربون بيوتها ويهدمون مبانيها ويستولون على كل ما يقع تحت أيديهم(٩٨) .

وهكذا سقطت مدينة القيروان ، تلك المدينة العريقة التى اختطها عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ لتكون القاعدة والمنطلق لنشر الإسلام ، واستطاعت المدينة فى فترة وجيزة أن تلعب دورها الحضارى فى نشر الإسلام وإرساء قواعد الحضارة العربية، وقصدها العلماء من كل مكان ، وأضاءت بين جنباتها مشاعل العلم والمعرفة طيلة أربعة قرون .

ومن ناحية أخرى فقد رحبت الخلافة الفاطمية فى القاهرة بتلك النتائج الطيبة التى حققها العرب الهلاليون بإفريقية ، وكانت المراسلات لا تنقطع بين الهلاليين فى إفريقية وبين الخلافة الفاطمية ، يخبرونهم بما يحرزوه من نصر ، والخسائر والهزائم التى حلت بابن باديس(٩٩) ، يضاف إلى ذلك أن بعض ذخائر وتحف ابن باديس وصلت إلى القاهرة ، واجتمع الناس لمشاهدتها كرمز لانتصار الخلافة الفاطمية على أعدائها وعلى من تحدثه نفسه بمعاداتها والخروج عليها ، يقول المقريزى « فخربت القيروان حينئذ إلى اليوم . . ووصل كثير مما نهب من قصور بنى باديس من الأسلحة والعدد والآلات والخيام وغيرها إلى القاهرة ، فكان ليوم دخولها إلى القاهرة أمر عظيم من اجتماع الناس ، واعتبار أهل البصائر بتقلب الأحوال »(١٠٠) .

ولم يمكث المعز بن باديس بعد سقوط القيروان والكثير من مدن دولته ، إذ توفى سنة ٤٥٣ هـ بالمهدية بعد أن بذل الكثير فى سبيل الحفاظ على دولته .

وباستعراض ما أحدثه الغزو الهلالى بالمنطقة ، نجد أن هذا الغزو ترك بصمات واضحة على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ويمكننا أن نجملها فيما يلى :

أولا : الناحية السياسية :

أن المغرب الأدنى الذى كانت تجمعه وحـــدة واحدة ويخضع لحكم الزيريين ، مزقه العرب الهلاليون إلى إقطاعات ومناطق تتحكم فيها القبائل الغازية بعد أن اقتسمت المناطق فيما بينها ، وهذا يعنى انهيار الحكم الزيرى للمنطقة ، وبالرغم من المقاومة الشديدة التى أبداها المعز بن باديس ، إلا أنه سقط نهائياً تحت ضربات الهلاليين .

وأصبح العرب يشكلون قوة عسكرية لها خطرها ، تسعى وراء مصالحها وأهدافها ، ومن ثم وجدنا القبائل العربية تتحالف مع أكثر من جهة تحقيقاً لأطماعها ، فوجدناهم يقاتلون فى صف تميم بن المعز بن باديس الذى خلف والده فى حكم ماتبقى من الدولة الزيرية ، ووجدناهم يحاربون ضد أحد الخارجين على تميم وهو حمو بن مليك وهذا بدوره استعان بالعرب الهلالية ضد تميم ابن المعز ، يقول ابن الأثير « فى هذه السنة — سنة ٤٥٥ هـ — خالف حمو ابن مليك ، صاحب مدينة صفاقس بأفريقية ، على الأمير تميم بن المعز بن باديس ، فجمع أصحابه واستعان بالعرب وسار إلى المهدية فسمع تميم الخبر ، فسار إليه بعساكر ومعه أيضاً طائفة من العرب من زغبة ورياح ، ووصل حمو إلى سلقطة ، والتقى الفريقان بها ، وكانت بينهما حرب شديدة فانهزم حمو ومن معه ، وأخذتهم السيوف ، فقتل أكثر حماته وأصحابه ونجا بنفسه وتفرقت رجاله ، وعاد تميم مظفراً منصورا »(١٠١) .

وهكذا حاربت القبائل الهلالية بعضها البعض ، واعتقد أن مصالحها المادية هى التى كانت تحرك خطواتها .

وامتد تأثيرهم السياسى حتى وصل إلى المغرب الأوسط ، ووجدنا أمراء بنى حماد يدفعون خطرهم وأذاهم بإعطائهم نصف غلات البلاد وهو مقدار كبير ، وهذا يعنى أنهم كانوا يقتسمون ثروات البلاد ، يقول المراكشى

« وسار هؤلاء العرب حتى نزلوا على المنصور بن المنتصر ، فصالحهم على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد من تمرها وبرها وغير ذلك ، فأقاموا على ذلك باقي أيامه ، وأيام ابنه الملقب بالعزيز ، وأيام يحيى »(١٠٢) ولاشك أن هذا الموقف من جانب بني حماد يعني عدم قدرتهم على صـــد هذه القبائل والوقوف ضدها .

حتى إذا قامت الدولة الموحدية بالمغرب الأقصى سنة ٥٤١ هـ ، وجدنا عبد المؤمن بن علي ، خليفة الموحدين يخوض الكثير من المعارك ضد العرب الهلاليين في المغربين الأدنى والأوسط باعتبارهم يشكلون خطراً على ممتلكات دولة الموحدين التي امتدت حتى طرابلس شرقاً . وكانت أولى هزائمهم أمامه حين توجه إلى المغرب الأوسط ، وبعد استيلائه على بجاية سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م . دخل في معركة مع العرب انتهت بهزيمتهم ونقل نسائهم وأبنائهم إلى مراكش(١٠٣) .

وكان الصدام الثاني حين توجه إلى أفريقية وبعد استيلائه على المهدية دخل في معركة مع العرب انتهت بهزيمتهم سنة ٥٥٥ هـ ، ومن ثم نقل مجموعة كبيرة من النساء والأولاد إلى العاصمة وعاملهم معاملة حسنة ، عادفعت كثيراً من العرب الفارين إلى اللحاق بأسرهم بالعاصمة(١٠٤) ويبدو أن أعداد العرب التي رجع بها الخليفة عبد المؤمن كانت كبيرة ، حتى أن ابن صاحب الصلاة عبر عن ذلك بقوله « وقد استاق — أي الخليفة عبد المؤمن — في أتباعه من العرب من رياح وبني جشم وبني عدى من بني هلال وقبائلهم ما يضيق بهم الفضاء على عدد الذباب وعدد الحصى »(١٠٥) وفي رواية أخرى أنه نقل من كل قبيلة ألفاً بعيالاتهم وأبنائهم(١٠٦) .

وتبدو أهمية هذه الخطوة من جانب الخليفة عبد المؤمن بن علي في إخضاع العرب الهلاليين وتهجيرهم إلى المغرب الأقصى ، أنه اتخذهم كوسيلة ضغط

على قبائل البربر فى تعيين ابنه محمداً ولياً للعهد ، فالخليفة عبد المؤمن لم تكن تسنده عصبية قبلية فى حكمه لتلك الامبراطورية الواسعة ، لذا وجدناه بعد أن وقع الاختيار عليه يستدعى قبيلة كومية التى ينتمى إليها للمجىء إلى العاصمة مراكش ليستعين بهم ويعتمد عليهم . وفى نفس الوقت وجد عبد المؤمن فى عنصر العرب الهلالية قوة مؤثرة يمكنه الاستعانة بها فى تحقيق أهدافه والتأثير فى الموحدين لتعيين ابنه محمداً ولياً للعهد .

وقد سبق هذه الخطوة محاولات الخليفة عقد صلة مودة بين ابنه محمد المرشح لولاية العهد وبين زعماء القبائل العربيـــة ، حين قام محمد بإرسال الخطابات إليهم يخبرهم فيها أن من أسر من أبنائهم ونسائهم تحت الرعاية والصون ، حتى إذا تثبت زعماء العرب من ذلك شعروا بالمودة والتقدير لابن الخليفة(١٠٧) يقول النويرى « وأمر عبدالمؤمن ابنه محمد بمكاتبة العرب ويعلمهم أن نساءهم وأولادهم تحت الاحتياط والحفظ والصيانة وأمرهم أن يحضروا لتسليمهم إليهم ، فلما وصل كتابه إليهم سارعوا إلى المسير إلى مراكش فأعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم وأحسن إليهم ووصلهم بالأموال الجزيلة فأسر قلوبهم بذلك »(١٠٨) .

ثم اتبع ذلك بأن دس لزعماء العرب من يأمرهم بمطالبة الخليفة بتوليـة ابنه محمداً ولياً للعهد ، ومحاولة الخليفة الامتناع إكراماً لأبى حفص عمر ، ولكنه رضخ فى النهاية وخاصة بعد أن خلع أبو حفص نفســـه من ولاية العهد(١٠٩) ، حتى إذا تم تولية ابنـه محمداً وذلك بفضل مطالبة العرب ومساندتهم ، أرسل الخليفة رسائله إلى أنحاء دولته يعلن فيها الخطوات التى تمت ومبايعة ابنه بولاية العهد وقد جاء فيها ، وكانت هذه العشائر العربيـــة الهلالية والقبائل الشرقية والصنهاجية ومن معها من حاضرة وبادية من أهل

إقليمها وذوى ألبابها وحلومها يشيرون إلى ذلك على اقتراحهم ، ويعلمون أنه غاية اقتراحهم ومادة نفوسهم وأرواحهم ، ولم تزل مخاطباتهم فى ذلك تتردد حيناً بعد حين ورغباتهم تتأكد بما كان عندهم فيه من ثلج ويقين ، فلما اتفق بحمد الله وصولهم فى هذه الوفادة ... صرحوا لأول لقائهم بما أضمروه وأبدوا سرهم المكنون وأظهروه وأعلموا أن محمداً وفقه الله هو الذى ارتضوه لحل حبئهم وتخيروه ورغبوا فى تقديمه على بلادهم وإنفاذه معهم على قصده فى توليتهم ومرادهم »(١١٠) .

وقد ترتب على ذلك الإجراء أن صارت خلافة الموحدين محصورة فى أبناء عبد المؤمن يتوارثونها فيما بينهم وكان ذلك بمساندة العرب الهلالية وتعضيدهم .

واستمر خلفاء الموحدين يوجهون جهدهم ونشاطهم العسكرى لإخضاع العرب الهلالية ونقلهم إلى المغرب الأقصى للاقامة فى العاصمة وبذلك يتيسر مراقبتهم ، ففى سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م تم ترحيل جماعة من عرب رياح إلى مراكش وذلك بعد انهزامهم أمام الموحدين فى قفصه(١١١) .

حتى إذا أقبلت سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م اندلعت نار الثورة بإفريقية وخاصة فى مدينة قفصة ، وتزعم الثورة بنو غانية ، وانضمت إليهم القبائل من جشم ورياح والأثبج مما اضطر معه الخليفة المنصور الموحدى إلى تجريد حملة كبيرة وخرج على رأسها وأخضع القبائل الثائرة ، ونقل الكثير من العرب إلى المغرب الأقصى سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م(١٢٢) .

فلما تولى الناصر الموحدى ، صرف جزءاً كبيراً من طاقته وجهده فى فترة زمنية استغرقت ست سنوات منذ سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م إلى سنة

٦٠٢هـ / ١٢٠٥م فى سبيل القضاء على بنى غانية فى إفريقية ومن انضم إليهم من قبائل بنى هلال وقد نجح فى ذلك(١١٣) .

وهكذا شغل الموحدون بالمعارك ضد العرب الهلالية منذ أن تولى عبد المؤمن الخلافة حتى الناصر ، وترجع أهمية هذا النشاط العسكرى فى إقبال كثير من القبائل الهلالية للإقامة بالمغرب الأقصى ومشاركتها فى الأحداث السياسية والعسكرية بالمنطقة .

ومن ناحية أخرى فقد وجدناهم ينخرطون فى سلك الجندية ويشاركون جنود الموحدين حملاتهم المتكررة فى الأندلس وذلك لصد هجمات الفرنج ، فالخليفة يوسف بن عبد المؤمن استدعاهم وحثهم على المشاركة فى المعركة المرتقبة سنة ٥٦٦هـ وقد لبوا نداء الخليفة(١١٤) كذلك اشترط العرب على أنفسهم فى سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م الاشتراك فى الحملة الكبرى التى أعدها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بمائة وثلاثين ألف فارس وراجل(١١٥) .

وحضر وفد كبير منهم فى سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م من عرب سليم ورياح ووجوه أنجادهم للانضمام إلى جنود الخليفة المنصور الموحدى(١١٦).

حتى إذا كثرت العرب الهلالية بالمغرب الأقصى ، وأصاب الضعف والتخاذل ولاة الأمر من الموحدين ، تدخل العرب فى شئون الدولة وذلك منذ وفاة المستنصر سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٢م وقاموا بعزل وتولية بعض ملوك الموحدين ، وكان بنو جابر والخلط أكثرهم كيداً للملوك(١١٧) .

ثانياً : الناحية الاقتصادية :

أما تأثير العرب الهلالية فى أقاليم المغرب المختلفة ، فمنذ أن وطئت أقدامهم أرض المغرب الأدنى ، لاحظنا الآثار المدمرة التى حلت بالمنطقة نتيجة لتخريب المدن وحرق المزارع فى هجمات متلاحقة أتلفت التقدم العمرانى الذى كانت تنعم به إفريقية(١١٨) ، يقول ابن خلدون « واضطرب أمر أفريقية وخرب عمرانها وفسدت سابلتها »(١١٩) .

وظلوا فترة يعيشون على السلب والنهب والإغارة على القرى والمدن حتى أخضع الموحدون معظم أقاليم المغرب المختلفة ، وأخضعوا هذه القبائل ، ونقلوا الكثير من أفرادهم إلى المغرب الأقصى ، بدأوا يجنحون إلى الاستقرار واشتغلوا بالرعى وهى المهنة التى نشأوا عليها والتى تتفق مع طبيعتهم البدوية، وبمرور الزمن اتجهوا إلى فلاحة الأرض وزراعتها ، وأثمر ذلك أن أخصب الأراضى الزراعية على المحيط الأطلسى هى الآن بأيدى أعقابهم(١٢٠).

ونتيجة استقرارهم واشتغالهم بالرعى والزراعة ، فرضت عليهم التزامات تجاه الدولة ، ومن هذه الالتزامات دفع الضرائب باعتبارهم كغيرهم من المواطنين مع المساهمة بعدد من أبنائهم فى الحملات العسكرية التى يقوم بها ولاة الأمر(١٢١) ، يقول ابن خلدون « وكان – أى بعض القبائل العربية – موطنهم بسيط تامسنا، وكانت للسلطان عليهم عسكرة وجباية »(١٢٢) .

ومن ناحية أخرى فإنهم كانوا يتمتعون بما يتمتع به غيرهم من جند الموحدين نتيجة انضمامهم لجيش الموحدين ، فقد أقطعهم ولاة الأمر بعض الأراضى(١٢٣) ، وذلك حتى يهيئوا لهم فرصة الاستقرار وعدم التحرك بالفتنة ، كما كان الخلفاء ينفقون عليهم النفقات الواسعة(١٢٤) بالإضافة إلى ذلك كانت توزع عليهم الأموال فى الحملات العسكرية المختلفة ، فحين أمر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بتمييز الجند سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م أمر للعرب

ورؤسائهم بالأموال والكساء والسلاح يقول ابن صاحب الصلاة «وأمر — أى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — للعرب ببركتهم فخرج للفارس الكامل منهم خمسة وعشرون ديناراً ولغير الكامل خمسة عشر ديناراً والرجل سبعة دنانير، وأخرج لأشياخ العرب لكل شيخ منهم خمسون ديناراً، ولكل رئيس منهم على قبيلة مائة دينار، وكسا جميعهم بالقباطى والقدص والغفاير والعمائم وأعطاهم السيوف المحلاة والدروع السابغات والبيض والقنا من الرماح الطوال وأمر لهم بثلاثة آلاف فرس قسموها على قبائلهم وأتباعهم ورجالهم»(١٢٥)، ويلاحظ من أقوال ابن صاحب الصلاة فى هذه المناسبة أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قد فضل جند العرب على جند الموحدين فى العطاء، فبينما أعطى للفارس الكامل من الموحدين عشرة دنانير، أعطى نظيره من العرب خمسة وعشرين ديناراً، ولغير الكامل من الموحدين ثمانية دنانير، أعطى نظيره سبعة دنانير، وهذا يشير إلى حرص الموحدين على استمالة العرب وكسب ودهم.

ثالثاً : النواحى الاجتماعية :

من الآثار البارزة التى أحدثها الغزو الهلالى للمغرب، إقامتهم بالمنطقة واختلاطهم بسكان البلاد، وترتب على ذلك أن تعرب قسم من سكان البلاد نتيجة للتزاوج وصلات القرابة التى تمت على مر الأيام وامتزاج السلالتين بالدماء العربية(١٢٦) فإذا ما أخذنا الرواية التى تقدر عدد العرب الداخلين إلى الشمال الأفريقى بما يقرب من ربع مليون عربى(١٢٧) وأن هذا العدد أقام بالبلاد لتبين لنا مدى الأثر الجنسى على السكان الأصليين للبلاد، وقد بلغ المد العربى حداً أن وصلت قبائلهم إلى سواحل المحيط الأطلسى وامتزجت بقبائل المصامدة وصنهاجة جنوباً، ونتج عن ذلك أن بعض القبائل العربية تعربت كلية كقبيلة دكالة(١٢٨).

وقد ساعد على هذا الاختلاط والامتزاج التشابه بين حياة العرب الهلالية

وبعض قبائل البربر وخاصة التي تمتهن الرعي منها بالإضافة إلى اتفاقهم في الصفات الخلقية كالشجاعة وعزة النفس وإباء الضيم وحفظ العهد وحسن الجوار وغير ذلك من الصفات(١٢٩) .

يضاف إلى التعريب الجنسي ، أيضاً التعريب اللغوي نتيجة للاختلاط والمعايشة اليومية ، ومن ثم تعلم البربر سكان البلاد الأصليين لغة الوافدين وهي اللغة العربية ، وانتشرت في أجزاء كثيرة من البلاد . وبذلك ساعد العرب على نشر الثقافة العربية بالمنطقة بعد أن تعلم كثير من أهل البلاد اللغة العربية على يد هؤلاء الأعراب(١٣٠) .

وهكذا استطاع العرب الهلاليون أن يلعبوا دوراً خطيراً في أقاليم المغرب منذ أن وطئت أقدامهم أرض المغرب في النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، وظلوا منذ هذه الفترة يؤثرون في تاريخ المنطقة ، وظهرت بصماتهم واضحة في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

الحواشى

(١) زامباور : معجم الأنساب جـ ١ ص ١٤٥

(٢) المقريزى : البيان والاعراب ص ٢٨ ، القلقشندى : قلائد الجمان ص ١١٧ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٦٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ١ص٣٤١

(٣) القلقشندى : قلائد الجمان ص ١٢٣ ونفس المؤلف : صبح الأعشى ص٣٤٥

(٤) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٦٣

(٥) المقريزى : البيان والاعراب ص ١٢٦ ، د . عبد الحميد يونس : الهلالية فى التاريخ ص ٦٢

(٦) المقريزى : البيان والاعراب ص ٦٨

(٧) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٣ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٦٣

(٨) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١ ص ٣٤٣

(٩) البكرى : معجم ما استعجم جـ ١ ص ١٠

(١٠) عبد الحميد يونس : الهلالية فى التاريخ ص ٢١

(١١) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ١٩

(١٢) الطبرى : تاريخ الطبرى جـ٩ ص ١٢٩، ابن الأثير : الكامل جـ٧ ص ١٢،١٣

(١٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٥٧٤

(١٤) نفس المرجع السابق جـ ٨ ص ٦٤٧

(١٥) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٣ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٦

(١٦) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات

(١٧) نفس المرجعين ، ونفس الصفحات ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٦٤

(١٨) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٦ ، الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ٢ ص ١١٥

(١٩) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٠

(٢٠) نفس المرجع السابق .

(٢١) القلقشندى : قلائد الجمان ص ١١٩

(٢٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٦٦١

(٢٣) د . عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ص ٢٤١ ، ص ٢٤٢

(٢٤) زامباور : معجم الأنساب جـ ١ ص ١٠٩

(٢٥) د . عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ص ٢٤٢، د. أحمد مختار: سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ص ٢١٠

(٢٦) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٣٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص٢٤٠

(٢٧) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٤٣ ، ص ٢٤٤ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير جـ ٢ ص ٦٥٣

(٢٨) زامباور : معجم الأنساب جـ ١ ص ١٤٤

(٢٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٦

(٣٠) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ١٥٤

(٣١) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣٢) ابن الأثير : الكامل جـ٩ ص ٢٥٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٥ ص١٢٤ ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٦٧ ، زامباور : معجم الانساب جـ ١ ص ١٠٩

(٣٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٦٧

(٣٤) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٣

(٣٥) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٧٣ ، ص ٢٧٤

(٣٦) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٢٩٤ ، ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٦٨ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٣ ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ٨٢ ، الصفاقسى : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٤٠

(٣٧) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٧٤

(٣٨) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٢٩٤ ، ص ٢٩٥

(٣٩) ابن أبى دينار : المؤنس ص ٨٢

(٤٠) الصفاقسى : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٤٠

(٤١) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٤٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٤٢٧

(٤٣) نفس المرجع السابق جـ ٩ ص ٣٤٠

(٤٤) نفس المرجع السابق جـ ٩ ص ٣٧٧ ، ص ٤٥٠ ، ص ٤٥٦

(٤٥) نفس المرجع السابق جـ ٩ ص ٣٤٨ ، ص ٣٤٩

(٤٦) الصفاقسى : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٤١

(٤٧) د. راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٨٤

(٤٨) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٥٤
(٤٩) ابن عذارى : البيان جـ١ ص ٢٦٩ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ١١٥
(٥٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ١١٥
(٥١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص ١٧٨
(٥٢) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٥٣) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٣
(٥٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص ٢٧١ ، ص ٢٧٢ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ١٣٢
(٥٥) ابن عذارى : البيان جـ١ ص ٢٧١ ، ص ٢٧٢
(٥٦) ابن عذارى : البيان جـ١ ص ٢٧٧
(٥٧) أبو بكر الدوادارى : كنز الدرر جـ١ ص ٣٣١
(٥٨) ابن الأثير : جـ٩ ص ٥٢١ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ١٩٠ ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ٨٣ ، الصفاقسى : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٣٩ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢
(٥٩) ابن خلدون : العبر جـ٦ ص ١٤
(٦٠) د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ص ٢٥٩ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٦٦٠
(٦١) هبة الله الشيرازى : السيرة المؤيدية ص ٥٦
(٦٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢١٤
(٦٣) ابن الأثير : الكامل جـ٩ ص ٢٣٦
(٦٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢٢٣
(٦٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص ٢٧٧ ، ص ٢٧٨
(٦٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢١٦
(٦٧) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٨٠
(٦٨) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص ٢٧٨
(٦٩) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ٢٧٩
(٧٠) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص ٢٨٨
(٧١) الصفاقسى: نزهة الأنظار جـ١ ص ١٣٩ ، ص ١٤٠ ، النويرى : نهاية الأرب جـ٢٢ مجلد ١ ص ٦٢ مخطوط .
(٧٢) ابن ظافر : أخبار الدولة المنقطعة ص ٧٨
(٧٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ٢٠٢ ، ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص ٧٨ ، أبو بكر الدواداري : كنز الدرر جـ٦ ص ٣٦٠
(٧٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢١٢
(٧٥) السيوطي : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٢

(٧٦) ابن الأثير : الكامل جـ٩ ص ٥٦٦ ، ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص٦٩
المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٢

(٧٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٢

(٧٨) نفس المرجع السابق ص ٢١٢ ، ٢١٣ ، ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص ٧٠

(٧٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٣

(٨٠) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٦٦ ، ابن ظافر : أخبار الدول ص ٧٠ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٦ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ١ ص ٦٢ ، ٦٣ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٨٨ ، ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى جـ١ ص ٥٣١

(٨١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٠٤

(٨٢) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة ؟ ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٦٦ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٦

(٨٣) ابن أبى دينار : المؤنس ص ٨٤

(٨٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٦٧ ، ابن خلدون : العبر جـ ٢ ص ١٤ ، ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٨٨.

(٨٥) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٤ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٧.

(٨٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٨٨ ، ص ٢٨٩ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٤ ، ص ١٥

(٨٧) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٦٧

(٨٨) نفس المرجع السابق ص ٥٦٧ ، ابن خلدون : العبر جـ٤ ص ٦٢ ، ٦٣

(٨٩) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات ، ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى جـ١ ص ٥٣٩ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢١٧ ، أبى الفداء : المختصر جـ٢ ص ١٧٠

(٩٠) ابن الأثير : الكامل جـ٩ ص ٥٦٨ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٦٣

(٩١) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٦٨

(٩٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٥

(٩٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص ٢٩٠

(٩٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٦٩

(٩٥) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٦٣

(٩٦) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٩١

(٩٧) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٢

(٩٨) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٦٩ ، ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٩٤ ، أبو الفداء : المختصر جـ ٢ ص ١٧١ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٥ ، د . الحبيب الجنحانى : القيروان عبر عصورها ص ١٠٧

(٩٩) السجلات المستنصرية ص ٤٣ وما بعدها .
(١٠٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٢١٥
(١٠١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٩
(١٠٢) المراكشى : المعجب ص ١٢٤ ، ص ٢٢٥
(١٠٣) الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٤
(١٠٤) البيذق : أخبار المهدى ص ١٢٠ ، ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٤٤ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، د . السيد عبد العزيز : المغرب الكبير ص ٧٩٤

Nevill Barbour : Morrocco, p. 78.

(١٠٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ١٤٤٠
(١٠٦) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٦ ص ١٦١ ت الفيلالى ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ١١٢
(١٠٧) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ١٨٦
(١٠٨) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣
(١٠٩) نفس المرجع السابق ، الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٢٤
(١١٠) مجموع رسائل موحدية ص ٥٧ ، ص ٥٨
(١١١) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ١ ص ١٢٠
(١١٢) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٥٧ ت الفيلالى ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٠ ، ص ٢١ ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ١١٤
(١١٣) ابن عذارى : البيان جـ ٤ ص ١٩٤ طبعة تطوان
(١١٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص٣٦٨ ، ص ٤١١ ، ص ٤١٧ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٣٩
(١١٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٦٠ تطوان .
(١١٦) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ١٥١ ، ص ١٥٢ تطوان .
(١١٧) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٠٦
(١١٨) الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ١٢٠
(١١٩) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص١٦
(١٢٠) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٨٣
(١٢١) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٧٠

Julien : Histoire de L'Afrique du Nord, 112.

(١٢٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٣١
(١٢٣) نفس المرجع السابق جـ ٦ ص ٤١ ، د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٩٤

(١٢٤) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ؛ ابن عذارى : البيان جـ ٤ ص ١٥٢ تطوان .

(١٢٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٧

(١٢٦) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ ١ ص ٣١ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٠٧ ، د . عبد الحميد يونس : الهلالية فى التاريخ ص ٧٤ ، ٧٥ المنوفى : العلوم والآداب ص ١٦ ، ص ١٧

J. Spencer : A History of Islam in West Africa, p. 19.

(١٢٧) J. P. Fage : An Introduction to the History of West Africa, p. 13.

(١٢٨) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٠٧

(١٢٩) الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ١٢٥

(١٣٠) عبد العزيز بنعبد الله : مظاهر الحضارة المغربية جـ ١ ص ٦٥ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٤٩ ، رابح بونار : المغرب العربى ص ٢٨٣

المصـــادر

١ — ابن أبي دينار القيرواني :

المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس ط٢ عام ١٩٦٧م .

٢ — ابن أبي زرع : أبو الحسن علي بن عبد الله (٧٢٦هـ) .

الأنيس المطرب بروض القرطاس جزءان تحقيق محمد الهاشمي الفيلالي الرباط عام ١٩٣٦م .

٣ — ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠ هـ) .

الكامل في التاريخ ١٣ جزء — بيروت عام ١٩٦٥م .

٤ — البراوي : د . راشد .

حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين عام ١٩٤٨ النهضة المصرية .

٥ — بروفنسال : ليفي :

مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية عام ١٩٤١ رباط الفتح .

٦ — البكري : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ) .

معجم ما استعجم — ت مصطفى السقا — القاهرة عام ١٩٤٥م .

٧ — بنعبد الله : عبد العزيز :

مظاهر الحضارة المغربية جزءان عام ١٩٥٧ الدار البيضاء ، تاريخ المغرب — جزءان — الدار البيضاء .

٨ — بونار : رابح :

المغرب العربي : تاريخه وثقافته عام ١٩٦٨ الجزائر .

٩ – البيذق : أبو بكر الصنهاجي (القرن السادس الهجرى) :
أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحـــدين – نشر ليفى
بروفنسال سنة ١٩٢٨م باريس .

١٠ – ابن تغرى بردى : أبو المحاسن يوسف :
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة – وزارة الثقافة .

١١ – الجنحانى : د . الحبيب :
القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية فى المغرب العربى
تونس عام ١٩٦٨ م .

١٢ – حركات : إبراهيم :
المغرب عبر التاريخ ط١ عام ١٩٦٥ الدار البيضاء .

١٣ – ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ) .
العبر وديوان المبتدأ .

١٤ – الدوادارى : أبو بكر بن عبد الله بن أيبك :
كنز الدرر وجامع الغرر – الجزء السادس بعـ صـــلاح المنجد
١٩٦١ القاهرة .

١٥ – زامباور :
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ترجمة د .
زكى محمد حسن ، د . حسن أحمد محمود .

١٦ – السلاوى : أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (١٣١٥هـ) .
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى – تحقيق جعفر الناصرى
ومحمد الناصرى الدار البيضاء .

١٧ – د. السيد عبد العزيز سالم :
المغرب الكبير : العصر الإسلامي – القومية عام ١٩٦٦ .

١٨ – السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن :
حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ت محمد أبو الفضل إبراهيم ١٩٦٨ م .

١٩ – الشيرازي : هبة الله بن موسى بن داود (ت ٤٧٠ هـ) .
سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ت محمد كامل حسين دار الكاتب ١٩٤٩ م .

٢٠ – ابن صاحب الصلاة : عبد الملك (نهاية القرن السادس الهجري) .
تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين – السفر الثاني ت عبد الهادي التازي – بيروت ط ١ سنة ١٩٦٤ م .

٢١ – الصفاقسي : محمود بن سعيد مقديش :
نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار تونس عام ١٣٢١ هـ .

٢٢ – الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ) .
تاريخ الرسل والملوك ت محمد أبو الفضل إبراهيم ط٢ دار المعارف .

٢٣ – ابن ظافر : جمال الدين علي بن ظافر :
أخبار الدول المنقطعة تحقيق أندرية فريه عام ١٩٧٢ م .

٢٤ – العبادي : د. أحمد مختار :
سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس مجلة معهد الدراسات الإسلامية مدريد مجلد ٥ عام ١٩٥٧م .

٢٥ ـ ابن عذاری : المراكشی (كان حياً ٧١٢ هـ) .
البيان المغرب فی أخبار الأندلس والمغرب طبعة بيروت عام ١٩٤٨
وطبعة تطوان ١٩٥٦ م .

٢٦ ـ أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل (٧٣٢ هـ) .
المختصر فی أخبار البشر .

٢٧ ـ القلقشندی : أبو العباس أحمد بن علی (٨٢١ هـ) .
صبح الأعشی وزارة الثقافة عام ١٩٦٣ م .
قلائد الجمان فی التعريف بقبائل الزمان ت ابراهيم الأبياری ١٩٦٢م .

٢٨ ـ الكندی : أبو عمر محمد بن يوسف (ت عام ٣٥٠ هـ) .
الولاة والقضاة ـ بيروت عام ١٩٠٨

٢٩ ـ ماجد : د . عبد المنعم .
السجلات المستنصرية تقديم وتحقيق دار الفكر عام ١٩٥٤ م .
ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فی مصر عام ١٩٦٨ دار المعارف .

٣٠ ـ المراكشی : عبد الواحد (النصف الأول من القرن السابع الهجری)
المعجب فی تلخيص أخبار المغرب القاهرة ١٩٤٩

٣١ ـ المقريزی : تقی الدين أحمد بن علی (ت ٨٤٥ هـ) .
المواعظ والاعتبار جزءان .
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا ـ الجزء الثانی ت الدكتور محمد
حلمی محمد أحمد ـ المجلس الأعلی .
البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ت د . عبد المجيد
عابدين ط ١ عام ١٩٦١ عالم الكتب .

٢٢ - المنونى : محمد .
العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين تطوان عام ١٩٥٠

٢٣ - الميلى : مبارك محمد .
تاريخ الجزائر فى القديم والحديث - الجزائرى عام ١٣٥٠ هـ .

٢٤ - النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .
نهاية الأرب فى فنون الأدب - مخطوط دار الكتب .

٢٥ - ابن الوردى : زين الدين عمر بن الوردى .
تتمة المختصر فى أخبار البشر ت أحمد رفعت البدراوى بيروت ١٩٧٠م

٢٦ - يونس : د . عبد الحميد .
الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى عام ١٩٦٠ - جامعة القاهرة .

المراجع الأجنبية

37. J. D, Fage : An Introduction to the history of West Africa, Cambridge, 1965.

38. J. Spancer, A history of Islam in West Africa, London 1963.

39. Julien, Ch-André : Histoire de L'Afrique du Nord, Paris 69.

40 Nevill Barbour : A Survey of North West Africa, London 62.

تاريخ البحث فى تاريخ أفريقيا

للدكتور فوزى مكاوى
مدرس التاريخ القديم — بمعهد البحوث والدراسات
الأفريقية — جامعة القاهرة

أطلق الأوربيون على أفريقيا العديد من الصفات إبان فترة إستعمارهم لها، فتارة هى القارة السوداء وأخرى هى القارة المظلمة ، ورغم أن الأوربيين كثيرا مادخلوا صراعات مريرة فيما بينهم من أجل السيطرة على القارة إلا أنهم بلا إستثناء إتفقوا على إنكار كل صلة لافريقيا بالحضارة قبلهم «فالأفريقيون فى مجموعهم - كما قال كوبلاند — بلا تاريخ ، فقد عاشوا لقرون عديدة غارقون فى بحر من الهمجية »[1] .

قام الأوربيون بجهود مكثفة لتثبيت هذه المعانى فى عقول الأفريقيين فهم بلا تاريخ وهم مدينون بكل مظهر حضارى لأوربا ، وفى هذا المعنى يقول السيد فيليب متشيل حاكم كينيا « كان الأفريقيون وثنيون يعبدون الأسلاف ويعيشون فى دائرة من السحر والكهانة ، أما عقولهم فقد ملأتها الخرافة ، وهم فى عام ١٨٩٠م أكثر بدائية مما كانت عليه بريطانيا قبل العصر الرومانى ... »[2].

كان موقف الاستعمار الأوربى بتجاهله الكامل لتاريخ أفريقيا يخدم مصالحه فإن قطع الأفريقى عن أصله يجعله أسلس قيادا ؛ ولذلك لم يدرس

الأفريقي أي شيء عن تاريخ القارة ولم يقل له الأوربيون أن أقدم الحضارات في العالم قامت على جزء منها في مصر وأن هناك حضارات قديمة متتابعة قامت في السودان وإثيوبيا وبلاد المغرب ؛ وأخفى الاستعمار حقائق قيام الممالك والإمارات المتطورة في مناطق عديدة من أفريقيا إبان العصور الوسطى ؛ بل رفض الاستعمار الاعتراف بأن ما واجهه من مقاومة عند إستعماره للبلاد الأفريقية كان دليل وجود القوى المنظمة في القارة قبل إستعماره لها. وأرغم التلاميذ الأفريقيون على دراسة تاريخ إنجلترا أو فرنسا أو غيرهما من الدول المستعمرة للقارة[٣] .

إستمرت هذه النظرة غير العادلة للأفريقيين وتاريخهم حتى وقت قريب. ورغم أن بعض الأوربيين أحسوا رياح التغيير تهب على أفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية فسارعوا إلى الدعوة لدراسة تاريخ أفريقيا[٤]، إلا أن صوتهم لم يكن أعلى الأصوات إذ ترددت في نفس الوقت في محافل كثيرة نفس الدعاوى القديمة القائلة بأن أفريقيا بلا تاريخ فينسب إلى أستاذ التاريخ في جامعة اكسفورد في عام ١٩٦٣م قوله « بأنه ليس هناك شيء يسمى بالتاريخ الأفريقي فيما عدا عدد من التحركات غير المثمرة لقبائل همجية ...»[٥] .

* * *

إستمر التاريخ الأفريقي بغير دراسة حقيقية له في كل بلاد العالم تقريبا إلى أواخر الخمسينات من هذا القرن ؛ والجهود السابقة على هذا التاريخ لم تخرج في أغلبها عن دراسة إستعمار وتقسيم أفريقيا بين الدول الأوربية أو دراسة الأنظمة الأوربية لحكم المستعمرات الأفريقية. واجه الأفريقيون هذا الواقع غداة إستقلال دولهم ، وكان عليهم أن يتصدوا لمسئولية كتابة تاريخ بلادهم ، فالتاريخ دليل على أصالة وحيوية الشعوب وتأكيد للذات المستقلة للدولة ، والأفريقيون في حاجة إلى هذه الأصالة والذات المستقلة في كفاحهم المقبل من أجل بناء المستقبل .

بدأت الجهود الجديدة من أجل كتابة التاريخ الأفريقي يدعمها الأفريقيون، وشارك فيها منذ البداية بعض الأساتذة الأوربيين من المشهود لهم بالنزاهة كما دخل الحلبة أيضا قناصو الفرص الذين وجدوا فى تملق الافريقيين فرصة للكسب السريع ، على أن البداية الحقيقية لكتابة تاريخ أفريقيا إرتبطت بدخول الجيل الجديد من أبناء أفريقيا إلى ميدان البحث فى تاريخ بلادهم(٦).

طرق الباحثون كل باب فى سبيل العثور على مادة علمية تعينهم على إستجلاء غموض كثير من فترات تاريخ أفريقيا فسلكوا سبلا كثيرة أهمها :

(ا) دراسة تحليلية نقدية لما كتبه المستعمرون والرحالة والمبشرون عن أفريقيا لاستخراج ما سجلوه من حقائق من بين ما رصدوه من أكاذيب .

(ب) تجميع ودراسة وثائق الادارة الاستعمارية فى أوربا والمستعمرات السابقة ليس بحثا عن نظام الحكم المباشر أوغير المباشر الذى اتبعه الاستعمار مع إقليم بعينه ؛ ولكن بهدف كشف النقاب عن حياة المواطنين وأوجه نشاطهم .

(حـ) الإتجاه إلى الوثائق والمخطوطات العربية بحثا عن المزيد من المعلومات عن أفريقيا فى العصور الوسطى . ومن المعروف أن الحضارة العربية إتصلت وإندمجت بل وإنتشرت فى مناطق عديدة من أفريقيا فضلا عن الشمال الافريقى العربى . وقد فاضت هذه المخطوطات العربية بالكثير من المعلومات التى سجلها الرحالة والمؤرخون المسلمون وما من مخطوطة عربية فى أى علم من العلوم إلا وذكرت أفريقيا أو بعض بلادها، وأصبحت أسماء المسعودى والبيرونى وإبن حوقل والبكرى وإبن بطوطة وغيرهم أعلاما فى التاريخ الافريقى(٧) .

(ى) الإتجاه لتغطية النقص في المعلومات عن بعض البلاد أو بعض فترات تاريخها بجمع التاريخ من أفواه الشعب ؛ فالقصص الشعبي مهما دخله الخيال يبقى محتويا على بعض الحقائق وبالرغم من المحاذير الكثيرة التي تحيط بهذا النوع من المصادر إلا أن الدارسين للتاريخ الافريقي لم يجدوا له بديلا في بعض الأحيان. وبدأ تجميع الروايات الشعبية عن تاريخ القبائل والملوك وتسجيلها ثم دراستها دراسة مقارنة بالمتاح من المعلومات في المصادر الاخرى[8]. والطريف أن هذه الروايات الشعبية أفادت في تحديد موقع عاصمة مملكة غانا القديمة[9]. كما أن هذه الروايات إستطاعت أن تصحح كثيرا من الاخطاء التي سجلها المستعمرون عن الحركات الوطنية فى أفريقيا. وفي هذا المجال تجدر الإشارة إلى المشروع الذى أتمته جامعة دار السلام في عام ١٩٦٨ لجمع الروايات الشعبية المتصلة بثورة الماجي ماجي ضد الاستعمار الألماني عامي ١٩٠٥ - ١٩٠٦. قام بهذا المشروع فريق عمل من الاساتذة والطلاب إنتشروا في الاقاليم الجنوبية من تنزانيا (وهي المنطقة التي شهدت أهم أعمال المقاومة) وبعد أن أتموا جمع المادة تمت دراستها دراسة مقارنة ثم نشرتها الجامعة في كتاب يعد من أهم مصادر البحث في تاريخ هذه الثورة حاليا[1].

(هـ) إستعان الباحثون بعلم الآثار الذى أصبح الفارس الجديد في ميدان دراسة التاريخ الافريقي. وعلى عكس ما تعودنا فإن الجهد الاثرى لم يحصر نشاطه في نطاق التاريخ القديم فقط بل إن أعمال الحفر الاثرى إمتدت إلى كل فترات التاريخ الافريقي. وبدأت الارض الافريقية تكشف عن مكنونها وعثرت البعثات الاثرية على بقايا العديد من الحضارات. ورغم هذا فقد واجه الباحثون صعوبة بالغة في تحديد تاريخ هذه الحضارات نظرا لعدم وجود أدلة معروفة التاريخ معها تساعد على تحديد تاريخ عمرها، ومن ثم لجأوا إلى العلم الحديث وإستعانوا بالراديو كربون لتحديد عمر المواد

المواد العضوية التى عثر عليها . وهكذا أصبحنا - ربما لأول مرة أمام أدلة قاطعة فى التاريخ الافريقى . وساهمت الحفائر المتزايدة فى إثبات صحة أو كذب بعض ما لدينا من معلومات[11]، كما قدمت أيضا بعض المفاجآت منها مثلا العثور على بقايا حضارة نوك القديمة التى إزدهرت فى شرق نيجيريا خلال الالف الأول ق.م[12] كما أكدت أن الإنسان أصيل فى أفريقيا وأنه تطور من كائن شبيه بالإنسان إلى إنسان عاقل على أرضها . وأثبتت الحفائر أيضا أن الإنسان فى أفريقيا - فيما عدا الشمال الافريقى - قد إنتقل من إستخدام الآلات الحجرية إلى إستخدام معدن الحديد مباشرة[13] . وإن إستخدام هذا المعدن قد إنتشر من مصر إلى السودان وإنتشر من السودان إلى الغرب والجنوب فى أوقات مبكرة بما كان له أثر ضخم على الاحوال السياسية والسكانية فى أفريقيا[14] ، فاستخدام الآلات الحديدية ساعد على الانتقال من حياة الجمع والالتقاط إلى حياة الزراعة المستقرة ، وأصبح الانسان قادراً على أن ينتج ما يزيد عن حاجته ومن ثم أصبح هناك فائض فى الإنتاج أدى إلى تخفف البعض من أعباء العمل وإتجاههم إلى الفكر والفن ، كما أدى إلى تزايد السكان نتيجة لوفرة الغذاء . وقد كان لإستخدام الآلات الحديدية فى صناعة الاسلحة فى أفريقيا أثر كبير فى قيام الممالك ذات النظام المركزى .

لا يعنى ما ذكرت أن كل شىء على ما يرام وأن التاريخ الأفريقى أصبح كتاباً مفتوحا لمن يريد دراسته ولكن ما ذكرت يدل فقط على أن الباحثين قد وجدوا أخيراً الطريق الصحيح لدراسة تاريخ أفريقيا . والجهود المبذولة الآن لدراسة هذا التاريخ تصطدم من وقت لآخر بعقبات إلا أن الباحثين لا يكلون فى البحث عن الحلول المناسبة لكل عقبة . من بين هذه العقبات حاجز اللغة الذى يحد من مقدرة الباحثين على الاستفادة من أبحاث غيرهم كما يمنع الكثيرين من الإستفادة بالمصادر الأصلية المكتوبة بلغات لا يجيدونها

لقد فطن الباحثون لهذه المشكلة منذ عام ١٩٦١ فاتخذوا قراراً فى مؤتمر تاريخ أفريقيا الذى عقد فى لندن فى ذلك العام بدعوة الباحثين إلى ترجمة الوثائق والمخطوطات المكتوبة بلغات أقل إنتشاراً إلى اللغات الأوسع إنتشارا والمقصود بالمجموعة الأولى اللغات العربية والأسبانية والبرتغالية وكذلك اللغات الأفريقية وغيرها والمقصود بالمجموعة الثانية اللغتين الإنجليزية والفرنسية بصفة خاصة[١٥]، وقد أيدت المؤتمرات التالية هذه الدعوة بل ودعت أيضاً إلى نشر ملخص بلغة أخرى لكل مقالة تنشر فى دورية علمية مما يوسع دائرة الاستفادة منها[١٦]. عقبة أخرى تواجه الباحثين وهى تقسيم تاريخ أفريقيا إلى فترات زمنية أو ما اصطلح على تسميته بالعصور التاريخية. وفى الواقع إن محاولات الباحثين فى هذا المضمار لم تحقق حتى الآن النجاح المنشود. ومازلنا نقرأ الدراسات عن العصر التاريخى الواحد تحت عناوين متعددة[١٧].

والجهود المبذولة لدراسة تاريخ أفريقيا فى الوقت الحاضر تتلخص فيما يلى :

* قيام أغلب جامعات العالم بإنشاء معاهد متخصصة للدراسات الأفريقية وفى مقدمتها دراسة تاريخ القارة. ويقدر عدد هذه المعاهد فى الوقت الحاضر بأكثر من ألف معهد[١٨].

* تشرف الأمم المتحدة على بعض الجهود الرامية إلى دراسة تاريخ القارة منها كتابة عدد فى المجلدات عن تاريخ أفريقيا فى عصوره المختلفة ويشرف على هذا المشروع لجنة رئيسها إثيوبى ونائبه رئيس هيئة الآثار المصرية[١٩]. وتشرف الأمم المتحدة أيضا على مشروع لجمع المصادر المكتوبة باللغة العربية عن أفريقيا خصوصاً ما كتبه أبناء المناطق التى تقع جنوب الصحراء ويشرف على هذا المشروع أحد الأساتذة من غانا.

• تقوم الجامعات والهيئات العلمية بتمويل والاشراف على الدراسات الميدانية لجمع المادة التاريخية (مثل مشروع ثورة الماجى ماجى المشار إليه وقد مولته مؤسسة روكفلر الأمريكية) وكذلك القيام بالحفائر الأثرية فى الأجزاء المختلفة من أفريقيا وفى هذا تجدر الإشارة إلى الحفائر الكثيرة التى تمت فى إثيوبيا وتنزانيا وكينيا وروديسيا والسودان وغانا وموريتانيا وتشاد وغيرها[٢٠].

• تقوم الجامعات ودور النشر بإصدار الدراسات المتخصصة فى تاريخ أفريقيا سواء فى كتب — مثل مشروع جامعة كمبردج بإصدار سلسلة من المجلدات عن تاريخ أفريقيا[٢١] — أو فى مجلات علمية — والمجلات العلمية المهتمة بالتاريخ الأفريقى أكثر من أن تحصر فى الوقت الحاضر — هذا فضلا عن إصدار القوائم البيليوجرافية بالأعمال التى تنشر[٢٢].

* * *

تاريخ البحث فى تاريخ أفريقيا بمصر :

كانت مصر من الدول الرائدة فى ميدان دراسة التاريخ الأفريقى ولعل ذلك راجع لكونها جزء من أفريقيا كما أن اهتماماتها الأفريقية قديمة قدم الحضارة المصرية ذاتها.

وإذا أخذنا دراسة تاريخ أفريقيا بالمعنى الشامل للكلمة فاننا يجب أن نرجع بداية دراسة التاريخ الأفريقى فى مصر إلى بداية دراسة التاريخ المصرى فيها، على إعتبار أن مصر جزء من أفريقيا. ولكن هذا التعميم سوف يقودنا بلا شك إلى نتائج مضللة، ولعل الأنسب أن نحدد بأن المقصود هنا بالتاريخ الأفريقى هو تاريخ الدول الأفريقية الأخرى فيما عدا مصر. وفى ضوء الإيضاح السابق يتحدد النشاط المصرى فى دراسة تاريخ أفريقيا فى

تبذله كليات الآداب المصرية من تشجيع للباحثين على إختيار موضوعات أفريقية وإن كان هذا التشجيع يعتمد على إتجاهات الأساتذة أنفسهم ولكنه لا يمثل إتجاها أو عرفا جامعيا محدداً .

ولم يكن ذلك كل الجهد المصرى فى ميدان دراسة التاريخ الأفريقى بل أقامت مصر فى عام ١٩٤٧ م أول معهد فى القارة لدراسة جزء من أفريقيا ذلك هو معهد الدراسات السودانية . وفى عام ١٩٥٣ م تغير إسم المعهد إلى معهد الدراسات الأفريقية وإن ظل فى الحقيقة مهتما بالدراسات السودانية وشرق أفريقيا فقط ، وتغير إسم المعهد واهتماماته مرة ثالثة فى عام ١٩٧١م فأصبح معهدا للبحوث والدراسات الأفريقية وشملت الدراسة وموضوعات البحث فيه أقاليما أخرى غير السودان وشرق أفريقيا . ورغم التغيير الذى أحاط بالمعهد ووظيفته خلال السنوات الماضية إلا أن دراسة التاريخ الأفريقى ظلت جزءاً رئيسياً فيه طول هذه المدة . وخرج المعهد العشرات من الحاصلين على درجتى الماجستير والدكتوراة فى التاريخ الأفريقى انضم أغلبهم إلى ميدان البحث فى تاريخ أفريقيا بصوره المختلفة . وقد أصدر المعهد دورية علمية سنوية منذ عام ١٩٧١م تنشر المقالات المتخصصة فى التاريخ الأفريقى وغيره من الدراسات التى يضمها المعهد .

هذه الصورة قد تبدو مشرقة ولكنها فى الحقيقة ليست كذلك فالباحثون فى تاريخ أفريقيا بمصر يواجهون صعوبات تكاد تعزلهم عن تيار البحث العلمى فى العالم منها على سبيل المثال :

* ندرة إشتراك الأساتذة المصريين فى المؤتمرات العلمية المتخصصة فى دراسة تاريخ أفريقيا والأسباب لذلك مادية فى الدرجة الأولى ، وعدم إلتقاء الأساتذة المصريين وإشتراكهم مع علماء العالم فى إعادة صياغة التاريخ الأفريقى يجعلهم فى موقف المستقبل فقط لما يتم بحثه وإقراره من جانب الآخرين .

* فقر المكتبة الأفريقية الوحيدة فى مصر — وهى مكتبة هذا المعهد المتخصص — إلى الكتب والمراجع الحديثة وكذلك المخطوطات والوثائق والنشرات الرسمية ويكفى للتدليل على ذلك أن نعرف أن الكتب المطبوعة عن أفريقيا فى العالم تقدر بمئات الألوف بينما تضم هذه المكتبة حوالى أربعة آلاف كتاب فقط عدد كبير منها عن السودان. فضلا عن عدم وجود أجهزة التصوير والنقل المصرية التى تساعد الباحثين .

* قلة البحوث الميدانية التى يقوم بها الباحثون المصريون فى تاريخ أفريقيا ويكفى أن نذكر أن نسبة من رأوا مناطق دراساتهم أو جمعوا منها وثائق بحوثهم لا تزيد فى أحسن الأحوال عن ١ ٪ من مجموع الباحثين فى هذا الميدان . وهذا القصور يعود أيضاً لأسباب مادية تتعلق بالباحثين والجامعات فى آن واحد .

* لم تنظم أى هيئة علمية فى مصر حتى الآن مؤتمراً أو حلقة دراسية لبحث أى موضوع فى تاريخ أفريقيا رغم غزارة ما بمصر من وثائق أفريقية سواء وثائق الحكومة المصرية عن نشاطها فى أفريقيا منذ القرن التاسع عشر أو وثائق الجيش المصرى — وبعضها ذات أهمية بالغة — عن شرق أفريقيا والسودان(٢٣) ، فضلاً عن عشرات المئات من المخطوطات العربية عن أفريقيا أو التى تعرضت لأخبار أفريقيا .

ورغم هذه الصعوبات فهناك من الباحثين المصريين من أتموا رسائل وأبحاثا لها وزنها العلمى وإن وقف حاجز اللغة عائقا أمام إنتشارها .

ومستقبل دراسة تاريخ أفريقيا فى مصر يواجه الكثير من التحديات ، وأعتقد أن نقطة البداية فى إهتمام العالم بدراساتنا الأفريقية تبدأ باهتمامنا نحن بما بين أيدينا من وثائق ومخطوطات لا يعرف عنها العالم الكثير والعمل على نشرها على أوسع نطاق. هذا بالإضافة إلى تلافى أسباب القصور السابق

الإشارة اليها والتى تعوق مشاركتنا الفعالة فى ميدان البحث فى تاريخ أفريقيا ومن المؤكد أن نجاحنا فى تحقيق هذه الخطوات جدير بأن يساعد على قيام ما يمكن أن يسمى بالمدرسة المصرية فى التاريخ الأفريقى .

بعد أن قدمت مجملا للنشاط الدائر فى ميدان البحث فى تاريخ أفريقيا على مستوى العالم وكذلك فى مصر، من الضرورى أن أشير إلى حقيقة يتوقف الإنسان أمامها طويلا، ذلك أن سبقنا دولا كثيرة فى مجال الاهتمام بالتاريخ الأفريقى ولكنها جميعاً سبقتنا فى الوقت الحاضر بينما ظللنا نحن متوقفين عند نقطة البداية تقريبا وهذا يدفعنى إلى أن أنهى مقالى بدعوة كل الباحثين فى التاريخ الأفريقى فى مصر للتكاتف من أجل أن تعود لمصر مكانتها الرائدة فى هذا الميدان .

الحواشى

(١) R. Coupland, Kirk on the Zambezi (Oxford, 1928) p. 3

(٢) S.C. Ukpabi, Knowledge of the African Past, presence Afrioaine, Num. Special. (Paris, 1971) P. 297.

(٣) M. Shinnie, Ancient African Kingdoms (London, 1965) the preface.

(٤) بدأت الدعوة لدراسة تاريخ أفريقيا بنظرة جديدة لأول مرة فى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن ، وعقد لذلك الغرض ثلاث مؤتمرات فى أعوام ١٩٥٣ و ١٩٥٧ و ١٩٦١ على التوالى راجع تقارير هذه المؤتمرات :

R.A. Hamilton, History and Archaeology in Africa, report of a conference held in july 1953 (London, 1955).

D.H. Jones, History and Archaeology in Africa, second conference held in july 1957 (London, 1959).

R. Oliver, Third Conference on African History and Archaeology, held in July 1961, Journal of African History (Cambridge, 1962).

وقد تميزت هذه المؤتمرات بنظرة واقعية تجلت فى إعلان المؤتمر الثالث بأن المكان الطبيعى لمثل هذه المؤتمرات فى المستقبل يجب أن يكون على أرض القارة الأفريقية نفسها .

(٥) M.S.M. Kiwanuka, African pre-colonial History, a Challenge to the Historian's Craft, Journal of Eastern African research and Development (Nairobi, 1972) p 69.

(٦) منذ أن استقلت معظم بلدان القارة الأفريقية فى أوائل الستينات من هذا القرن توالى عقد المؤتمرات لدراسة كل جانب من جوانب الحياة والحضارة فى أفريقيا . وقد عقدت ثلاثة مؤتمرات للدراسات الأفريقية تحت عنوان International Congress of Africanists ، الأول برياسة Dr. K. O Diki فى أكرا سنة ١٩٦٢ والثانى برياسة Dr. A. Diop فى داكار سنة ١٩٦٧ وكان الثالث فى أديس أبابا وعقد فى سنة ١٩٧٣ برياسة Dr. Aklilu Habte . وبالاضافة إلى ذلك فقد عقدت مؤتمرات إقليمية للبحث فى تاريخ منطقة أو إقليم واحد من القارة مثل المؤتمر الذى عقد فى الخرطوم تحت عنوان (السودان فى إفريقيا) أو مؤتمر الدراسات الاثيوبية الذى عقد فى أديس أبابا سنة ١٩٦٥

(٧) هناك فترة من تاريخ أفريقيا — وهى الفترة التى تمتد من القرن السابع الميلادى حتى القرن الخامس عشر تقريبا — هذه الفترة لاتغطيها إلا المصادر العربية . وهناك جهود متزايدة سواء على مستوى فردى أو مستوى دولى لحصر وتجميع ودراسة ونشر هـــذه المخطوطات أو ما يتعلق منها بأفريقيا من هذه الجهود مجلدين باللغة الروسية عن المخطوطات العربية عن أفريقيا وقد أورد المؤلفان المخطوطة باللغة العربية ثم الترجمة الروسية :

V.V Matveev and L.E.C. Kubbel

Arabskie Istochnike from VII — X Vekov & from X — XII Vekov (Moskwa, 1960 – 1965)

(٨) فوزى مكاوى ، الروايات الشعبية كمصدر لكتابة تاريخ أفريقيا . (تحت الطبع)

(٩) S.C. Ukpabi, Op. Cit. pp. 298—299.

(١٠) University of Dar. Asslam,

Maji Maji Research Project (Dar-Assalam, 1968).

(١١) Gray, The Dating of the African History, in The African History in Middle Ages edited by R. Oliver (London, 1969).

(١٢) B.E. Fagg, The Nok Culture in Prehistory, Journal of the Historical Society of Nigeria (Ibadan, 1959) pp. 288—293.

(١٣) R. Oiver and B. Fagan., Africa in the Iron Age (London, 1975) P.I.

(١٤) فوزى مكاوى، مملكة مروى، رسالة ماجستير غير منشورة (القاهرة،١٩٧١) ص ٢٧٧

(١٥) راجع تقرير مؤتمر (تاريخ وآثار أفريقيا) الذى عقد بلندن سنة ١٩٦١ ص ١٩٢ وقد سبقت الأشارة إليه .

(١٦) تتبع هذا الأسلوب فى الوقت الحاضر العديد من الدوريات ومن حسن الحظ أن مجلة الدراسات الأفريقية التى تصدر عن معهد الدراسات الأفريقية بالقاهرة تتبع ذلك منذ صدورها سنة ١٩٧١ .

(١٧) هناك محاولات كثيرة لتقسيم تاريخ أفريقيا الى عصور . البعض يحاولون تقسيم تاريخ القارة الى العصور التاريخية المتعارف عليها بالنسبة للحضارة العالمية (التاريخ القديم — التاريخ الوسيط — التاريخ الحديث والمعاصر) ولكن أغلب الباحثين يرون أن تاريخ أفريقيا له طبيعة خاصة ويجب أن يقسم تبعا لظروف القارة نفسها ، ومع ذلك فهم يختلفون فيما بينهم فالبعض يقول بتقسيم تاريخ أفريقيا الى ثلاث فترات الأولى : تاريخ أفريقيا من أقدم العصور حتى قدوم الاستعمار . والثانية : تاريخ أفريقيا خلال فترة الاستعمار . والثالثة : تشمل تاريخ القارة من الحرب العالمية الثانية حتى الآن ..

أنظر :

Endre Sik, The History of Black Africa, Akademiai Kiado (Budapest, 1966).

وهناك باحثون آخرون يرون تقسيم أفريقيا إلى العصر الحجرى والعصر الحديدى ثم تاريخ الاستعمار والتحرير ، وهم بذلك يستخدمون تسميات أثرية ثم تسميات سياسية وهم يعتقدون بأن السبب فى هذه التسميات راجع إلى اختلاف عصر استخدام الحديد من مكان لآخر فى القارة رغم أنه أحدث نفس الآثار الحضارية عند استخدامه فى كل منطقة :

R. Oliver and B Fagan, Op. Cit.

ومن الواضح أن كل من التقسيمات الثلاثة عليها مآخذ ولا أعتقد أنها سوف تدوم طويلا ، وما زال الباب مفتوحاً للمحاولة من جديد حتى يستقر تاريخ أفريقيا فى عصور .

أنظر : فوزى مكاوى ، تقسيم تاريخ أفريقيا إلى عصور (تحت الطبع)

(١٨) International African Institute, International Guide to African studies Research (London, 1975).

حصرت هذه الدورية ٤٤٦ معهداً حتى عام ١٩٧١ رغم أنها لم تسجل كثير من المعاهد والجامعات المعروفة .

(١٩) أصدرت الجمعية الأفريقية بالقاهرة ملحقا لمجلتها عام ١٩٧٥ به خطة الدراسة لهذه المجلدات .

(٢٠) بلغ عدد البحوث النظرية والحفائر الأثرية والدراسات الميدانية عن أفريقيا ودولها والتى حصرتها مجلة الدليل الدولى لأبحاث الدراسات الأفريقية (السابق الإشارة إليها) ٦٦٤٠ بحثا منها ١١٤٦ بحثا تاريخيا تصنف كالآتى : ٤٣ بحثا عن القارة ككل و ٣٨٠ بحثا عن شرق أفريقيا و ١١٢ بحثا عن شمال أفريقيا و ١٦٦ بحثا عن جنوب أفريقيا و ٤٤٥ بحثا عن غرب أفريقيا . هذا الرقم رغم ضخامته لا يمثل الرقم الصحيح للأبحاث وإنما يمثل فقط ما استطاعت المجلة حصره ، والدليل على ذلك أنه لم يشتمل على بحث واحد للجامعات المصرية رغم كثرتها ، ولم يشمل سوى بحث لمصرى واحد هو الدكتور مصطفى مسعد الذى كان يعمل بالسودان .

(٢١) R. Oliver and J D. Fage, Cambridge History of Africa, Cambridge University press (Cambridge)

صدر الجزء الرابع من هذه المجلدات عام ١٩٧٤ وقد كتبه جرى Gray عن تاريخ أفريقيا الحديث .

(٢٢) من أشهر قوائم الكتب والمقالات عن أفريقيا :

International African Bibliography, 3 Bloomsbury place, London, WCI.

وهذه القائمة تقدم (٣٠٠٠) عملا جديداً عن أفريقيا كل عام .

(٤٢) بعض الدول فى شرق أفريقيا تعتز بما صنعته الأيدى المصرية أثناء الوجود المصرى هناك فى القرن التاسع عشر ، وأخص بالذكر الصومال التى أصدرت كتيباً بمناسبة انضمامها للجامعة العربية سنة ١٩٧٤ م أشارت فيه إلى الأثر العمرانى والحضارى الكبير الذى تركه المصريون هناك أثناء وجودهم لمدة ستة عشر عاماً ، وقد ذكر الكتيب على سبيل المثال أن نظام إمداد المنازل بالمياه فى بربرة مايزال حتى الآن كما أتمه المصريون خلال القرن التاسع عن أنظر :

The Ministry of Information and National Guidance, Somalia and the Arab League (Mogadishu, 1974) pp. 14 – 15.

دور الوحدات العسكرية السودانية

فى ثورة ١٩٢٤

للدكتور احمد ابراهيم دياب
جامعة أم درمان الإسلامية

أقدم هذه الدراسة عن « دور الوحدات السودانية فى ثورة ١٩٢٤ » وهذه الفترة لم تدرس لذاتها بالتفصيل ، بل أن كل الذين تعرضوا لدراستها ربطوها بغيرها من الأحداث ولم يهتم أحد بوضعها فى موضعها وإعطائها ذاتيتها وكينونتها وذلك عندى لخوفهم من كشف حقائق هذه الفترة المعاصرة.

وما من شك فى أن الذين يرغبون فى تسجيل التاريخ المعاصر ودراسته على حقيقته فى مجتمعنا السودانى يتعرضون لامتحان عسير فى الجبن والشجاعة وهما أمران أحلاهما مر، لأن الجبن بالمحاباة إهدار للذمة، والأمانة، والشجاعة ستجلب لصاحبها العداوة والكراهية والحقد فى مجتمعنا الذى يعيش على الشللية والاتجاهات ، ويفكر فى مصالحه الشخصية ، ويقدمها على المصلحة الوطنية . ومع ذلك فقد اخترت جانب الشجاعة المحضة فى هذه الدراسة معتمداً على الأسس التالية التى آليت على نفسى أن أسير عليها فى كل بحث أو دراسة أقدمها .

أولا : الفترة التى كانت هذه الدراسة جزءاً منها هى أدق فترات السودان المعاصر فى بنائه وطمس الحقائق التى صاحبت هذه الفترة وتزويرها وتعديلها

لمصلحة عهد من العهود أو وضع من الأوضاع ، تضليل أثر على مسيرة واستقرار السودان بعد الاستقلال .

ثانياً : العقلاء من الناس يقدرون الحقيقة ولاتهمهم الشخصيات مهما كان مركزها الاجتماعي أو وضعها العائلي أو المالي أو الطبقي الذي وصلت إليه في وقت من الأوقات وبطرقها الخاصة في عهد الاستعمار وبمساعدته ، ويجرون وراء البحث العلمي عنها . أما غير العقلاء في المجتمع أو الذين لا تهمهم مصلحة وطنهم فلا عبرة ولا أهمية لانعكاس الحقائق على نفوسهم لأنهم إما صاروا تبعاً لأفكار أو عقائد وهمية أو شخصيات رمزية اصطناعية .

ثالثاً : إن التاريخ المزيف مهما وجد من عناية وتأييد ورعاية لا يعيش إلا ريثما ينكشف وهو يدمر صاحبه حيا أو ميتا .

رابعاً : لم يمنعني حبي وتقديري لرجال كبار في المجتمع السوداني أن أسجل مواقفهم التي وقفوها في هذه الفترة وفقا لما تمخضت عنه الوثائق بعد تحليلها تحليلا علمياً موضوعياً .

وانطلاقا من هذه الأسس أقدم هذه الدراسة متحرياً بقدر المستطاع أن أكون محايداً ، أعطي كل ذي حق حقه، وان خالف مذهبه رأيي وفكرة وطنيتي، ولكني لم أستطع بحال من الأحوال أن أتغاضى عن كشف القناع عن وجه أعوان الاستعمار البريطاني وعن أساس المراهقين فكرياً وتجار الدين والمناصب لا لكراهيتي لهؤلاء أو أولئك ولا لما ألحقوه وما زالوا يلحقونه بالسودان من أذى وعنت وإرهاق وتضليل وجرياً وراء الحكم ، بل لجلاء الحقيقة التي تغاضى عنها السياسيون والباحثون والكتاب .

أما أحداث الدراسة فنقول :

اختلفت الروايات في التاريخ الذي تم فيه تكوين جمعية اللواء الأبيض

وذلك لأنها بدأت سرية أولا ثم كشفت الغطاء عن نفسها عندما أرسلت برقية إلى الحاكم العام فى ١٦ مايو ١٩٢٤ . وفى رأى المخابرات أن الجمعية قد تكونت فى أكتوبر ١٩٢٣ وكان أسمها « الشبيبة السودانية »[١] وتغير هذا الاسم إلى اللواء الأبيض فى مايو ١٩٢٤ عندما انعقد أو اجتماع حضره حسب قول تقرير المخابرات كل من الملازم أول على عبد اللطيف وصالح عبدالقادر وحسن شريف وعبيد حاج الامين وحسن صالح المطبجى وأسطى رمضان محمد وإسماعيل ومكى ابراهيم المشلى وموسى لاظ وحسن مدحت وعز الدين راسخ وعلى أحمد صالح والطيب بابكر وأحمد المنياوى وأحمد المليجى وتوفيق وهبى ويوزباشى عبد الحميد حافظ ويوزباشى أحمد الصاوى وملازم فؤاد حافظ[٢] . وفى هذا الاجتماع تم اختيار اسم اللواء الأبيض اسما للجمعية،ويتضح من الأسماء التى ذكرتها والتى تعتبر بمثابة لجنة مركزية أن للنخبة العسكرية دوراً واضحاً فى العمل داخل التنظيم السياسى ومن هنا يظهر لنا أن كل ما حدث بعد ذلك بين صفوف العسكريين وفى وحداتهم تجاوبا مع فكر اللواء الأبيض لم يكن شيئا عفوياً بل كان نابعا من الصلة بالتنظيم السياسى .

وقد ظهرت هذه الصلة أول ما ظهرت عندما تم تكوين وفد من اثنين من أعضاء اللـــواء الأبيض ليحملا عرائض الولاء لمصر لتكون سندا للمفاوض المصرى ضد العرائض التى جمعتها الإدارة البريطانية بمساعدة السادة أعضاء وفد ولاء الأعيان الذى سافر لانجلترا فى ١٩١٩ ، وكان على رأسهم السادة على الميرغنى والشريف يوسف الهندى وعبد الرحمن المهدى وقد كان وفد الجمعية مكونا من الملازم أول زين العابدين عبد التام رئيسا للوفد وممثلا للجناح العسكرى فى الجمعية وكان معه فى الوفد محمد المهدى الخليفة عبد الله ليمثل الجانب المدنى .

وتكوين الوفد من عسكرى ومدنى يوضح نشاط اللواء الأبيض فى

الجانبين كما أن فيه تمثيلا للجانب الاجتماعي والوحدة الوطنية وهو أن الجمعية لاتؤمن بالفوارق الاجتماعية ولا بالعنصرية والقبلية بل أنها حاربت العنصرية والقبلية والطائفية[3] التي ولدت وترعرت في أحضان الإدارة البريطانية وغذتها ورعتها السياسة الاستعمارية لتكون سلاحاً تضرب به وحدة الشعب السوداني وقتما تريد كما حاربت الجمعية القبلية في أبسط صورها بل أن الجمعية كانت بوتقة انصهرت فيها كل الفوارق الاجتماعية لتنصب في قالب الوحدة.

وفي ٢٣ يونيو ١٩٢٤ تم القبض على خمسة من أعضاء الجمعية بعد قيادتهم مظاهرة، وكان بينهم الملازم زين العابدين عبد التام وكانت المظاهرة تحديا لقرار مدير الخرطوم بمنع المظاهرات . وقد أرسل الضباط وضباط الصف المتقاعدين برقية إلى رئيس مجلس الوزراء المصري وضحوا فيها مشاركتهم للشعب واحتجاجهم ضد اعتقال المتظاهرين :[4]

« باسم الضباط والموظفين والشعب السوداني نحتج بشدة ضد اعتقال المتظاهرين الذين هتفوا بحياة مصر والسودان بعدما تم ضربهم بالسيوف وسجن خمسة منهم . أننا نؤكد لكم أن كل السودانيين غير مسئولين عن أي شيء ربما يحدث نتيجة لهذه السياسة » .

إمضاء ستة عشر ضابطا وصف ضابط بينهم اليوزباشي كبسون الجاك وعبد الله حسن وعبد الله نور وفرج أبو النجا .[5] وهذه البرقية تبين لنا المشاركة التامة بل التلاحم بين العسكريين حتى المتقاعدين منهم في الأحداث السياسية التي كانت تجري . ولم تقف المشاركة بارسال البرقيات والعمل في الميدان السياسي بل أنها تطورت مع تطور الأحداث وتصاعدها فكانت أول مظاهر تلاحم العسكريين مع ثورة اللواء الأبيض ودورهم فيها .

مظاهرة طلاب المدرسة الحربية :

لقد كان للتصاعد السياسي الذي خلقته اعتقالات أعضاء اللواء الأبيض

ومحاكمة على عبداللطيف ومحمد سر الختم المهندس بالري دافعاً لطلبة المدرسة الحربية لكي يتفاعلوا مع المجتمع الذي يعيشون فيه . وقد أثارت مظاهرة طلبة المدرسة الحربية الجزع بين صفوف رجال الإدارة البريطانية ، وقد سبق أن حذر مكتب المخابرات من خطر الثورة بين الوحدات السودانية بحاميات الجيش المصري . كما حذر السيد عبد الرحمن السلطات البريطانية، في تقرير رفعه للمخابرات « رقم ١٠٩٠٥/٣٧١ ص ١٢ تقرير ايورت عن القلاقل السياسية في السودان » في ٣١ يوليو ١٩٢٤ ، موضحا احتمال ثورة تقوم بها الوحدات السودانية العاملة في الجيش المصري[٦] . بينما وصفهم السيد على في خطاب له للحاكم العام بقوله « إن أصدقاء الحكومة المخلصين هم دافعي الضرائب أما أسوأ أعدائها فهم أولئك الذين يأخذون مرتبات من الحكومة مثل الموظفين والضباط السودانيين في الجيش المصري[٧] .

وهذا يوضح الخوف الذى استحوذ على الشخصيات الموالية للادارة البريطانية من نجاح الثورة خوفا على موقفها ومستقبلها الرهين بالوجود البريطاني .

لقد كان لتصريحات الزعماء الدينيين وأقوالهم ضد جمعية اللواء الأبيض دافعا لطلبة المدرسة الحربية لكي يتفاعلوا مع المجتمع الذى يعيشون فيه . فقد عادوا من أجازاتهم السنوية وانتظموا في الدراسة في آخر يوليو ويقول محمد عثمان عبدالبخيت أحد طلبة المدرسة في مذكراته «سرى النشاط السياسي إلى مجتمعنا بسبب بعض التصرفات وبدأنا نجتمع بعد الساعة التاسعة ليلا سراً في أحد عنابر الداخلية لنتداول الموقف وبدأ الحماس يسرى في صفوفنا وفي مساء الجمعة ١٩٢٤/٨/٨ ، وفي اجتماع حضرناه كلنا قررنا أن نخرج في الغد في مظاهرة نعبر فيها عن سخطنا واحتجاجنا على مظالم الانجليز في السودان ونؤيد فيها اتجاهنا نحو مصر »[٨] .

وقول محمد عثمان هذا يوضح لنا أسباب وهدف المظاهرة وهى :

أولا : الخروج فى مظاهرة للتعبير عن :

(أ) السخط على مظالم الانجليز فى السودان .

(ب) التظاهر للاحتجاج على تلك المظالم .

ثانياً : تأييد اتجاه وحدة وادى النيل وهو هدف اللواء الأبيض(٩) .

وفى صباح السبت ٩ أغسطس خرج الطلاب إلى ميدان المدرسة وكل واحد منهم يحمل بندقية وخمسين طلقة رصاص. وقبل الخروج من المدرسة قام الطلاب بتبليغ الضابط المسئول بقرارهم وفى الساعة السادسة خرج الطلاب من سور المدرسة بهيئة منظمة تحت قيادة بتجاويش الفرقة محمد فضل الله الشناوى(١٠) . وتوقفت المظاهرة عند سكنات عباس التى كانت بها أورطة مصرية وهتف المتظاهرون بحياة الملك فؤاد الأول ثلاث مرات ثم استأنفوا سيرهم إلى محطـــة سكة حديد الخرطوم حتى يتمكن مسافروا قطارات خط الأبيض وبور سودان وحلفا / مصر من نقل خبر المظاهرة إلى الجهات الثلاث ناهيك عن نقلها للصحف المصرية كما ينقل خبرها المودعون إلى ذويهم فى العاصمة . وكانت المحطة مليئة بالمسافرين والمودعين الذين انضم جزء منهم إلى المتظاهرين وساروا خلفهم يهتفون بحياة مصر والسودان(١١)

ومن محطة الخرطوم توجهت المظاهرة إلى منزل على عبد اللطيف — وكان بالقرب من المحطة خلف داخليات كلية الطب — وكان على مسجونا فى سجن كوبر ، فأدوا التحية العسكرية للبطل السجين وهتفوا بحياته وقد خرجت زوجته ومعها نساء الحى يحيين الطلاب بالزغاريد . وظلت جماهير الشعب تسير وراء المظاهرة بعضهم يتابعها فى إعجاب بالبطل وتأييد لهدفها

والبعض تابعها ليشبع هتافاً ويرتوى نداء ولينفس عن شعوره المكبوت وينشدون مع الطلاب أناشيد خليل فرح فنان الثورة وشاعرها :

نيلنا يا نيل الحياة   حياك حيـــاك الحيـا

ونشيد :

نحن ونحن الشرف الباذخ   دابى الكر شباب النيـــل

وتردد نشيد الشاعر عبيد عبد النور :

يا أم ضفاير قودى الرسن   واهتفى فليحيا الرسن[١٢]

وعند ميدان عباس - هيئة الأمم حالياً - اعترض المظاهرة اللواء مكاون باشا قائد الخرطوم وأمر الطلاب بالرجوع إلى ثكناتهم . وكان ردهم حازماً حاسماً مثل قرارهم فى الخروج « كل من يعترض سبيلنا سيلقى حتفه »[١٣] . فانسحب مكاون أمام إصرارهم . وتقدمت المظاهرة حتى وصلت مكان مبنى بنك السودان حالياً بالخرطوم وفى منتصف شارع الخديوى إسماعيل - الجامعة حالياً - كمنت لهم قوة مكونة من رجال البوليس والتمايشة المسلحين بالعصى الغليظة والذين استخدمتهم السلطات البريطانية لتفريق مظاهرات اللواء الأبيض ومعهم قمندان البوليس ومستر بيلى نائب مدير الخرطوم . فاتخذ الطلاب تشكيلا عسكريا استعداداً للمعركة لولا أن تدخل اللواء مكاون الذى تابع المظاهرات فأمر البوليس بالانصراف وأنقذ الموقف[١٤] .

اتجهت المظاهرة شرقاً بشارع الخديوى - الجامعة - حتى قصر الحاكم العام حيث وقفت ورددت الهتاف بحياة سجناء اللواء الأبيض وبحياة السودان ومصر وسعد زغلول وعلى عبد اللطيف وبسقوط الإنجليز . ولم يعترض طريقها أحد ولم يتعرض لها حرس القصر ، واستمرت فى سيرها

شرقا حتى عبرت كوبرى النيل الأزرق إلى السجن العمومى « كوبر » فأدت التحية العسكرية أمام السجناء السياسيين وهتفت بحياة على عبد اللطيف وحياة السودان ومصر (١٥) .

بعد أن أدت المظاهرة مهمتها بنجاح وأبرزت شعورها واحتجاجها رجع الطلاب إلى داخلياتهم بالمدرسة فوجدوا أن السلطات الإنجليزية قد جردت المخازن من السلاح والذخيرة أثناء غيابهم بل أن المدرسة قد أحيطت بقوة من الجيش الإنجليزى بعد أن دخل كل الطلاب فيها ووقف الجنود الانجليز فى حالة استعداد لاطلاق النار كما أمر قائدهم الطلبة بتسليم سلاحهم فرفض الطلاب بل استعدوا من جانبهم بأن قاموا باحتلال مواقع دفاعية فى داخل المدرسة وسطوح مبانيها (١٦) .

وفى تلك اللحظات الحرجة تدخل بعض الضباط السودانيين لتسوية الموقف ولتخفيف حدة المواجهة وتهدئة الثورة بإدخال أسلوب المفاوضة والمساومة وكان هؤلاء الضباط اليوزباشية عبد الله خليل وأحمد عقيل وبلال رزق وطلب الضباط من الطلاب أن يسلموا سلاحهم ، وهو نفس الأمر الذى أمر به الجيش الانجليزى من قبل ، وهنا اشترط الطلاب أن تنسحب القوة الانجليزية أولا مقابل إلقاء السلاح . وجرت مشاورات سريعة وافقت بعدها القيادة الانجليزية على سحب قواتها على أن تحل محلها فرقة مصرية وسلم الطلاب أسلحتهم لأركانحرب المدرسة (١٧) .

واستسلم الطلبة وفرضت حراسة صارمة ورقابة دقيقة حول المدرسة وأضيئت الأنوار الكاشفة ليلا ووجهت داخل المدرسة لرصد أى تحركات الطلاب أثناء الليل حتى لا يحدث شىء مفاجىء وغير متوقع منهم نحو السلطة أو يتصلوا بأى جهة خارج المدرسة . وبقى الطلاب ثلاثة أيام داخل أسوار المدرسة وهم ينشدون الأناشيد الوطنية والأغانى الثورية . وخافت إدارة

المخابرات من قيام اتصالات بين الطلبة والفرق السودانية التي لا يقر لها قرار(١٨)، فساقت الطلاب من المدرسة ووضعتهم في سجن عائم وهو عبارة عن باخرتين (الملك والشيخ) أوقفتا وسط النيل الأزرق أمام مباني كلية غردون بعيداً من أن يصلهم أحد أو يتصلوا بأحد وهناك واصل الطلاب هتافاتهم وأناشيدهم وظلوا ساجنين على البواخر إلى أن بدأت محاكمتهم العسكرية في ٢٧ أغسطس .

ويعزى تقرير مستر ايورت الذى كتب فى منتصف ١٩٢٥ إلى أن أسباب ودوافع مظاهرة طلبة المدرسة الحربية إنما هى شخصية بحته وهى أن أوامر عسكرية صدرت بترقية اثنى عشر طالباً من المدرسة الحربية فى القاهرة وترقية اثنين فقط من مدرسة الخرطوم ولذلك خرجوا احتجاجاً على عدم ترقيتهم(١٩) . ولنفى هذا الافتراض البعيد عن الحقيقة أود أن أعرض خطاباً أرسله الحاكم العام بالإنابة مستر ولسى إلى اللورد اللنبي معلقاً فيه على المظاهرة وذلك فى ٢١ أغسطس حيث قال « قبل حادثة مدرسة الخرطوم الحربية كان مظهرهم الخارجى ينم عن حسن النظام والرضا والطاعة ومن أكثر الأجهزة الحربية ولاء فى السودان . لكن استمرار رأى موحد للطلبة والسرية التى أحيكت بها المؤامرة حتى نفذت تظهر على أنها كانت نتيجة لدعاية ماهرة ذكية ضد البريطانيين ولربما نجحت إلى حد غير متوقع »(٢٠) .

وأرى أن المقصود بهذا الوصف دعاية ذكية ضد البريطانيين أعضاء اللواء الأبيض ومؤيدوها وقد اتهمت السلطات بعض المتقاعدين من الضباط والذين عرفوا بتأييدهم للواء الأبيض حيث قالت « يبدو أن الملازم أول معاش سليم الأمين وملازم أول متقاعد محمد شناوى وملازم أول موسى الله جابو كان لهم دور فى قيام التمرد لأن محمد شناوى هذا له ابن وهو البشجاويش فى المدرسة الحربية وقد جره والده فى المناقشات معه »(٢١) .

ومما يؤكد القول بأن المظاهرة نتاج طبيعي لفكر اللواء الأبيض قول المخابرات بأنه بين « المدة من سبتمبر ١٩٢٣ إلى يوليو ١٩٢٤ أثبت أن على عبد اللطيف استطاع أن يؤسس جمعية ذات نفوذ واسع . وقد استطاع نفوذ على عبد اللطيف أن يتسرب إلى المدرسة الحربية وقد سماه الطلبة « الأمل الأسود » وهو البطل الوطني وسار من وراءه الضباط السابقين والسودانيين »(٢٢) .

واهتمت السلطات بالمظاهرة اهتماماً كبيراً وذلك لأن عدداً من الطلاب من أسر سودانية ذات نفوذ ديني وقبلي وتجاري في أجزاء مختلفة من السودان اشترك فيها وإن أي عمل تجاه أبنائهم الطلاب سيؤثر على العلاقة بين الحكومة وهذه الفئة(٢٣) .

ويقول أحمد بكر مصطفى(٢٤) أن الذين أعدوا وخططوا للمظاهرة هم كل من محمد فضل الله الشناوي وإدريس عبد الحي ومحمد عبد العظيم خليفة وأحمد بكر مصطفى .

وفي نفس اليوم الذي حدثت فيه مظاهرة طلبة المدرسة الحربية ضد السلطات البريطانية قامت في عطبرة مظاهرات استمرت لمدة ثلاث أيام متواصلة ، كانت نتيجتها لأول مرة عدد من القتلى وتخريب شامل لورش السكة الحديد .

موقف الوحدات العسكرية بالأقاليم

لقد أثارت مظاهرة طلبة المدرسة الحربية الجزع بين صفوف رجال السلطة الانجليزية وقد سبق أن حذر مكتب المخابرات من خطر الثورة بين الوحدات السودانية بحاميات الجيش المصري وهم الذين وصفوا خطأ بأنهم الضباط السود المنحدرين من سلالة الرقيق »(٢٥) . وقد رددت هذه العبارة

من قبل المخابرات ونسى هؤلاء وأولئك أن الضباط السود من سلالة القبائل النيلية على الأخص الدينكا الذين هاجروا أسلافهم أو أخذهم محمد على بعد مد الادارة المصرية للسودان فى عشرينات القرن التاسع عشر ليؤسسوا جيش محمد على الحديث ولم يكونوا رقيقاً قط . وهذه نغمة أثارها الانجليز لتسير عليها سياسة فرق تسد التى تسميهم بالضباط السود وتسمى غيرهم بالعرب بل وتصفهم بأنهم العنصر الأكثر تأثراً — سياسياً هم الضباط السود المفصولين والذين فى المعاش ولقد عرفوا بخطورتهم وتهديدهم وهذه الطبقة تتكون من الضباط ذوى الشخصية القوية من أرباب المعاشات وأيضاً الضباط الذين فصلوا بعد تقديمهم لمحاكم عسكرية تأديبية بسبب مخالفات عسكرية وهم ينحدرون أصلا من سلالة الرقيق الذين أبرزتهم يد القدر فى كل التاريخ السياسى للسنوات الأخيرة(٢٦) .

لقد برز موقف الوحدات العسكرية فى الأقاليم فى أربعة أحداث هى :

١ - حادثة العلم فى واو :

بدأ الحادث فى يوم ٢٤ أغسطس حين رفعت السلطات العلم المصرى القديم ذى اللون الأحمر بدلا من العلم الأخضر الجديد على مبنى المديرية فى صباح ذلك اليوم وتورد المخابرات بأن مدير المديرية قد رفع العلم الأحمر القديم لأنه كان يرفع علما مصرياً أخضر اخاصاً بالجيش(٢٨) وليس بالمديرية وبما أنه عرف أن هنالك اختلافا بين علم الجيش وعلم المديرية ففضل أن يرفع العلم القديم الأحمر بدلا من الأخضر الذى يخص الجيش . وهذا بالطبع تبرير لما حصل وقد كان رد الفعل قوياً من ضباط الوحدات العسكرية التابعين للقوات المصرية ، فقد وجه أحد الضباط نظر مدير المديرية للتغيير الذى حدث فى العلم وسئل عن سبب تغييره وأن فى هذا إساءة لهم وقد رد مدير المديرية بما أوردته المخابرات سابقاً . واستاء كل الضباط ومأمور

المركز مما أدى إلى أن يرفعوا الاحتجاج كمجموعة لمدير المديرية ثم أرسلوا برقية احتجاج لوزير الحربية بواسطة القائد العام يحتجون على مافعله مدير المديرية موضحين ان عمله انما هو اهانة مقصودة للعلم المصرى. كما أن المدير عندما سئل لم يعط مبررات(٢٨). وبما أن الحادث طفيف إلا أن الضباط من أعضاء اللواء الأبيض قد أحسنوا استغلاله وعلى رأسهم الملازم أول زين العابدين عبد التام الذى نقل إلى واو للتخلص من أفكاره الثورية ولتعتبر له كنفى واعتبرت المخابرات أن الضباط المنتمين للواء الأبيض وراء حوادث الإثارة والعنف وأنه من الواضح أن لهؤلاء الضباط صلة بالخرطوم ومصر وأن هناك خطة موحدة لإثارة حوادث متعددة لتكون دليلا على أن الجنوب كالشمال يزأر تحت حكم الاستعمار البريطاني(٢٩).

واتهمت السلطات البريطانية بعض الضباط المصريين بالإضافة للسودانيين بأنهم وراء حادث العلم فقامت بمحاكمة اثنين منهم باعتبارهم من زعماء الحادث فى محكمة عسكرية قررت نقلهم للقاهرة.

وقد علق تقرير أيورت عن اشتراك الضباط السودانيين فى حادث واو بقوله إن طبيعة قسم يمين الطاعة الذى أداه الضباط لمصر وتطلعاتهم الوطنية التى اكتسبوها من اتصالهم بالطلاب وطبقة الخريجين هى من أهم الأسباب(٣٠).

٢ - مظاهرة ملكال العسكرية :

فى عيد الأضحى فى سبتمبر ١٩٢٤ أقيم احتفال عام بالعيد بمعسكر ١٢ جى أورطة سودانية ضم الموظفين والتجار والضباط والجنود فى ملكال وقام اليوزباشى المصرى نصر الدين بالقاء خطاب سياسى ندد فيه بالاستعمار وطالب بخروج الانجليز من البلاد وشجب محاولة الحصول على توقيعات من الموظفين والتجار لضم السودان للتاج البريطاني حاثا الانضمام لمصر.

للعمل يداً واحدة ضد العدو المشترك ليحيا وادى النيل حياة طيبة[31] .

وكانت نتيجة الخطبة أن أعتقل فوزى ووضع بالسجن وتلا اعتقاله ضغط شديد من جانب الانجليز وسوء معاملة جعلت الأورطة فى حالة تذمر أدت إلى أن يقوم الجنود بالتظاهر والثورة وقد جابوا الشوارع فى مظاهرات صاخبة ضد ما رأوا أنه إساءة عامة لقائدهم الأعلى الملك فؤاد وذلك من ضابط بريطانى فقاموا بصرف الذخيرة لأنفسهم وأقاموا حراسة على مخازن الذخيرة وسارت الأورطة فى هيئة طابور تعزف أمامه الموسيقى وترفع صورة الملك فؤاد هاتفة بحياته وحياة مصر والسودان وسقوط انجلترا[32] وانضم الموظفون المدنيون للمظاهرات مما أدى إلى أن يوجه الإنجليز اللوم لكل من الضباط السودانيين والمصريين بالحامية وموظفى الرى المصرى[33] .

وفى اليوم التالى قبض على خمسة من ضباط الصف من بينهم على رمضان جابر وسعد سعيد عبدالله وسليمان داود وعبدالله حبيب الله الذى كان يحمل صورة الملك . وبعد القبض عليهم أرسل انذار من مجهول إلى قائد الأورطة الانجليزية بتهديده بالقتل وجميع الانجليز كما جرت محاولة لحرق منزله واتهم بارسال خطابات التهديد وإثارة الجنود وصف الضباط للتظاهر عدد من الضباط السودانيين والمصريين الذين أمروا بالقيام للخرطوم وهم كل من الملازم ثانى عبد العزيز حيدر ، محمد شريف ، على البنا ، عزيز شريف ، ومحمود التومى الذى نقل إلى ١٠ جى أورطة بتلودى[34] .

وحكم على ضباط الصف الخمسة لمدة تتراوح بين سنتين وستة سجناً مع تخفيض رتبهم إلى درجة نفر ونقلوا للسجن الحربى بالخرطوم وبالرغم من ذلك طلب مدير المديرية ارسال نجدات سريعة له وأرسلت له فرقة انجليزية على باخرة خاصة خوفاً من قيام مظاهرات جديدة[35] .

٣ ـ أحداث تلودى :

كانت حادثتا واو وملكال نذيرا بالحوادث اللاحقة فى وسط الفرقة العسكرية .

كانت الأورطة العاشرة السودانية معسكرة فى تلودى عاصمة مديرية جبال النوبا وكان كل ضباط الأورطة مصريين ما عدا ستة منهم سودانيين وقائد الأورطة انجليزى ، ولما حدث اغتيال ستاك بمصر وما تبعه من انذار وأمر ابعاد الجيش المصرى من السودان ، جمع قندان الأورطة من جنود وضباط سودانيين ومصريين وبعد أن قرأ علينا قرار الحكومة الانجليزية والقاضى بابعاد القوات المصرية من السودان طلب من الجنود مغادرة الطابور إلى حيث يسكنون ورجع الضباط المصريون إلى المعين ولم يبق غير السودانيون وهم :

اليوزباشى خضر على ، والملازمين محمد جلال وعبد الحميد فرج الله ، سيف عبد الكريم ، محمد صديق ومحمود التومى »[٣٦] .

استاء الضباط السودانيون من هذا التصرف واتفقوا على الوقوف بجانب إخوانهم الضباط المصريين . واجتمع الضباط الستة باخوانهم المصريين داخل ثكناتهم واقسموا بأن لايخرجوا لطابور طرد منه الضباط المصريون وكان ذلك فى يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٢٣ . ويقول عبد الرازق ريحان « ان الضباط السودانيين قد اتصلوا بالقومندان الانجليزى وأبلغوه بأنهم لا يتخلون عن زملائهم الضباط المصريين وبما أنهم يدينون بالولاء لملك مصر فليس أمامهم إلا الرحيل إلى مصر مع أولئك الضباط . وطلب القومندان منهم تسليم مسدساتهم ليتسنى له الإستجابة لرغبتهم والسماح لهم بمرافقة الضباط المصريين فرددوا القومندان فاتصل بالمدير الانجليزى نورسكوت الذى وضعهم مع الضباط المصريين بالحبس الاجبارى فى الميس

وأنتدب سرية تتألف من ٤٤ جندى و ٢ صف ضابط ومع كل واحد منهم ٧٥ طلقة وأمر أولئك الجنود بعمل كردون على الميس»[٣٧] .

وفى اليوم التالى ٢٥ نوفمبر استطاع أحد الضباط السودانيين أن يرسل خطاباً لجاويش طالباً تخليصهم من الاعتقال فقام الجاويش بجمع ٤٠ جندياً وبعد أن أقسموا جميعاً على المصحف توجهوا إلى مكان اعتقال الضباط حيث استطاعوا أن يستبدلوا الحرس الموجود وبعدها إطلاق سراح الضباط وتسليمهم مسدساتهم وبذلك صارت الأورطة فى حالة ثورة كاملة بعد أن استولوا على مخازن الذخيرة واستقلت الأورطة بزمام الأمر فى المدينة بقيادة اليوزباشى خضر على والملازم ثان عبد الحميد فرج الله مما اضطر السلطات البريطانية إلى استقدام قوة الهجانة من الأبيض لتعين على استرداد الموقف كما قامت ٣٢ عربة مدرعة من الخرطوم تحمل فرقة من الجيش الانجليزى[٣٨] .

وبعد جهود سلمية عنيفة استسلم الثوار فى ٢٨ نوفمبر واعتقل الضباط الستة وأرسلوا للخرطوم واعتقلوا فى الطابية الانجليزية ثم حوكموا بعد ذلك . أما الأورطة فقد تم تسريحها بعد الحادث مباشرة .

٤ — مظاهرة الهجانة بالأبيض :

كان اليوزباشى محمد صالح جبريل قائداً لبلوك الهجانة بالأبيض عاصمة كردفان وقد تمكن من إثارة قوات الهجانة حيث طاف بهم المدينة جنوده بين زغاريد النساء وهتاف الرجال بحياة ملك مصر والسودان ، وحياة سعد زغلول ، فاعتقل وأرسل إلى سجن كوبر بالخرطوم بحرى ، إلى أن حوكم فيما بعد[٣٩] .

ملحمة ٢٧ نوفمبر

لم يكد الحديث فى المجتمع يهدأ بعض الشىء عن مظاهرة المدرسة

الحربية بالخرطوم حتى فوجئت العاصمة بصوت الرصاص يدوى من الجانب الشرقى منها وعرف أن عدداً من الضباط والجنود أرادوا أن يجتازوا كبرى النيل الأزرق فى طريقهم إلى الخرطوم بحرى بغرض الاتصال بالجيش المصرى الذى كان يتأهب لمغادرة السودان إثر الأزمة الانجليزية المصرية بعد اغتيال سيرلى ستاك حاكم عام السودان بمصر والإنذار البريطانى للحكومة المصرية بخروج الجيش المصرى من السودان .

كانت القوة السودانية المتجهة صوب الخرطوم بحرى تتكون من نحو ١٢٠ جندياً ولكنها قوة ممتازة مكونة من ضباط الصف المدربين تدريباً عالياً على استعمال الأسلحة ومن الكتيبة ١١ جى أورطة السودانية بقيادة عدد من الضباط هم عبد الفضيل ألماظ وحسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم وسليمان محمد وسيد فرج وعلى البنا[٤٠] . وتزودت القوة بكل الذخيرة الموجودة فى مدرسة ضرب النار فكان فى حوزتهم زيادة على بنادقهم أربعة مدافع مكسيم وعدد من صناديق الذخيرة ، وقام سيد فرج قبل أن تتحرك القوة بفك سراح جميع الجنود الذين كانوا فى السجن الحربى ، وكان عددهم نحو الستين وسلمهم حسن فضل المولى سلاح بدون ذخيرة وطلب منهم الحصول على ذخيرة والانضمام إلى عبدالفضيل ألماظ كقوة احتياطية[٤١] .

وفى نحو الساعة الرابعة مساء يوم ٢٧ نوفمبر خرجت هذه القوة فى قوة وصرامة واستقبلتها شوارع العاصمة بجماهير معجبة وهى تسير من ثكنات توفيق متجهة إلى كبرى النيل الأزرق عن طريق شارع الخديوى « الجامعة حالياً » مارة برئاسة الجيش المصرى « البوستة حالياً »[٤٢] . ويقول على البنا « وقد احتك بنا إنجليزى خرج من دكان حلاق وشق صفوفنا ومنعه سليمان محمد من المرور بين الصفوف وقد هدده بالمسدس فرضخ وانصرف وبعد قليل جاء اللواء مكاوى وسألنا هل تريدون ضرب الجيش الانجليزى؟

فقلنا له لا ، وإن غرضنا أن نذهب للخرطوم بحرى لكى ننضم لإخواننا المصريين باعتبارنا مقيدين بيمين الولاء والطاعة إلى مصر مع الجيش المصرى. فطلب أن يذهب الضباط ويبقى العساكر فرفضنا . وبعد ربع ساعة جاءنا هدلستون باشا نائب السردار ، وطلب منا أن نتفاوض معه فرفضنا وقلنا إننا لا نعرف هدلستون باشا بل نعرف رفعت بك فقط وإن المفاوضة مع رفعت بك فى بحرى »[٤٣] .

واستمروا فى سيرهم نحو الخرطوم بحرى وبالقرب من «وزارة الثروة الحيوانية حالياً» مبنى المجلس الطبى وقفت القوة السودانية عندما رأت أمامها الجيش الانجليزى يسد شارع الخديوى ، وقد احتل كلية غردون بقسميها الكليات والداخليات وأخذت تشكيلا حربياً لتتصدى للقوة السودانية وترغمها على الرجوع ، كما فتح كبرى النيل الأزرق — الموصل بين الخرطوم والخرطوم بحرى — ليستحيل عليهم الذهاب لبحرى أو وصول أى قوات من بحرى[٤٤] .

وبعد ذهاب هدلستون أطلقت القوة الانجليزية طلقات فى الهواء إرهاباً وتخويفاً ، فما كان من ضباط القوة السودانية إلا أن أمروا جنودهم أن يتحصنوا بالجداول على طرفى الشارع وصوبوا نيرانهم الحامية بسرعة خاطفة على الجنود البريطانيين فأبيد عدد من جنود الفرق الانجليزية المرابطة .

ويقول على البنا « ولا أبالغ إذا قلت إن أورطة بحالها قد أبيدت أى حوالى ٦٠٠ جندى من فرقة الاسكتلنديين» وتقول جريدة الرأى العام إن العدد الذى أبيد بلغ السبعمائة جندى ، ويقول تقرير المخابرات ، كانت ضحايانا كثيرة[٤٥] .

وظلت الملحمة دائرة بعنف ولم تبدأ حتى منتصف الليل ، ويقول البنا « إنه فى حوالى الساعة الحادية عشر مساء جرح عبدالفضيل ألماظ ، فأرسلته

المستشفى العسكرى « رئاسة وزارة الصحة حالياً » بجوار مكان المعركة ومعه حرس اثنين عساكر ولكن للأسف كان حيكمباشى المستشفى الانجليزى مجرداً من الإنسانية فبدلا من إسعافه قتله ، وكان حرس عبد الفضيل ألماظ جاويش من جبال النوبا اسمه أرتبيكو فجاء فى حالة حزن وأخبرنا بأنه قتل الضابط الانجليزى واثنين شوام انتقاماً لقتل ألماظ »[٤٦] ، وهذا القول يبرز شيئاً جديداً عن موت عبد الفضيل الذى أوردته كل الكتب والصحف التى تناولت الحديث عن ملحمة ٢٧ نوفمبر بأنه استشهد وهو يحمل مدفعه المكسيم إلى أن تحطم فيه جانب من مبنى المستشفى[٤٧] .

واستمرت الملحمة بين الفريقين حتى صحوة يوم الجمعة ٢٨ نوفمبر وقد نفدت الذخيرة من بعض الجنود السودانيين قرب منتصف الليل ، فأخذوا يتسللون ويختفون . وقد تمكن سيد فرح من عبور النهر إلى الخرطوم بحرى حيث اتصل بالجيش المصرى وسافر معه «أما سليمان محمد وحسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم وأنا ، فقد اجتمعنا بعد أن صارت القوة غير متكافئة وعرفنا العساكر ليدافع كل عن نفسه وذهبنا إلى أم درمان بمراكب السمك وللأسف انضم بعض الضباط الذين كانوا معنا للقوات البريطانية ووجهوا مدافعهم علينا من الخلف من رئاسة الجيش المصرى وقد عبر بعض هؤلاء عن هذه العملية بأنها شغل أولاد»[٤٨] .

ومنذ مساء ٢٨ نوفمبر شرعت السلطات فى إلقاء القبض على الضباط المشتركين والمتهمين ومن يعثر عليه من الجنود الذين تسللوا بعد نفاد ذخيرتهم ، وبمجىء مساء السبت ٢٩ نوفمبر كان قد تم اعتقال كل من سليمان محمد وثابت عبد الرحيم وعلى البنا ، أما حسن فضل المولى فقد سلم نفسه ، وهكذا انتهت ملحمة ٢٧ نوفمبر التى وصفها الشاعر السودانى حسين منصور بقوله :[٤٩] .

يا لها ليلة ويوماً عبوساً   تركا الشعب شاخصاً للسماء
يسأل الله رحمة ومصيرا   كاملا فى الحقوق حتى البقاء
عاش أهل الجنوب أخوة مصر   فى الضحايا وعاش كل فدائى

وقد شهد البريطانيون بموقف الذين اشتركوا فى ملحمة ٢٧ نوفمبر حيث وصفوهم بأنهم قاوموا مقاومة عنيفة وإن الأمور لم تعد إلى مجاريها إلا بعد أن استعان الجيش خلال أربع ساعات بمدافع قاذفة ... وبنادق سريعة الطلقات (٥٠).

إن ما حدث فى عصر الخميس ٢٧ نوفمبر ١٩٢٤ لم أجد تعليلا لأسبابه المباشرة حتى الآن . وما قيل من الأسباب هو فى الغالب ما استنبط من ظروف الأحداث وما أدى إليه الاستقراء العام . ومما قيل فى أسباب تلك الملحمة الدامية ، إن الحادث كان نتيجة مؤامرات ضد الانجليز دبرت فى مصر وهذا التمرد يظهر أنه نفذ بناء على أمر آخر من القائمقام أحمد بك رفعت من المدفعية وغيره من المصريين . وقد وعد الضباط الذين قاموا بتحريض رجالهم ضد الانجليز على أنه بعد إطلاقهم القذيفة الأولى فإن المدفعية المصرية ستشترك معهم بضربها للطابية والقصر وثكنات الجيش الانجليزى (٥١) .

هذا ما كان يتصوره أو يقدره الحكم الانجليزى فى السودان إنه السبب المباشر ويدحض هذا الزعم ما قاله أحد زعماء الملحمة « اجتمعنا نحن الضباط الستة الموجودين ، وقررنا باعتبارنا مقيدين بيمين الولاء والطاعة لملك مصر أن ننضم إلى القوات المصرية وننفذ تعليمات رفعت بك سواء بالبقاء فى السودان أو السفر إلى مصر مع الجيش بعد حضور مندوب الملك »(٥٢). وهذا القول يوضح أن الضباط السودانيين كانوا يريدون الانضمام لقيادة رفعت بك وفاء للقسم الذى أدوه بالولاء لملك مصر وهو قائدهم الأعلى وأنهم يريدون الهجرة لمصر لتأمين مستقبلهم فى الجيش المصرى . وهذا الرأى هو

الذى أراه يجرى فى مجرى الواقع ، ويؤيده قول أحد الذين قادوا واشتركوا فى الملحمة .

أما الوجه الآخر للمعادلة وهو مسألة وعد الجيش المصرى بالتدخل فى الوقت المناسب وبعد أن يشعل السودانيون الفتيل فينفى الإجابة بنعم إنه لم تتحرك أى كتيبة مصرية خاصة والقتال كان يدور قريباً من كوبرى النيل الازرق حيث كان الجيش المصرى يعسكر على البر الشرقى فى الخرطوم بحرى ، أو على بعد لا يزيد عن الميل ، وإن القتال استمر ليل الخميس وصباح الجمعة .

الحواشى

(١) F: O. 371/100537 page 17.

(٢) المرجع السابق ص ٢٥

(٣) intell. 11. 6/14/40 No. 359 Apprendinse.

(٤) عبد الكريم السيد : اللواء الأبيض ثورة ١٩٢٤

(٥) Intell. 11. 6/14/10 No. 359 page 12.

(٦) F. O. 371/10905 page 12.

(٧) المرجع السابق تقرير ا . يورت .

(٨) جريدة الرأى العام عدد ٣١ مارس ١٩٥٦ ذكريات محمد عثمان عبد البخيت .

(٩) المرجع السابق .

(١٠) F. O. 371/10905/page 35.

(١١) محمد عبد الرحيم : الصراع المسلح من أجل الوحدة ص ٢٣

(١٢) حسن نجيله ملامح من المجتمع السودانى ص ١٨٤

(١٣) الرأى العام : عد ٣١ مارس ١٩٥٦ م .

(١٤) محمد عبد الرحيم : الصراع المسلح ص ٢٤

(١٥) الرأى العام : عدد ٣١ مارس ١٩٥٦

(١٦) Intell No. 361/ Aug. 1924 page. 5.

(١٧) الرأى العام عدد ٣١ مارس ١٩٥٦

(١٨) Intell. No. 361/Aug. 1924. Apperdix s.

(١٩) F. O. 371. 10905. page. 24.

(٢٠) F. O. 371/10053/telegram from Sterryto Allenly.

(٢١) palace ; 4/9/47 p. 1153.

(٢٢) Intell No. 361 Aug. 1924.

(٢٣) Ibid. page. 5.

(٢٤) من طلبة المدرسة الحربية — أقواله الى لجنة تكريم ثوار ١٩٢٤

(٢٥) Bakhti. G. M. A. British Adminstrtionand sudanese Nationalism p. 96.

(٢٦) F. O. 371/10905. reperton Political Agitation.

(٢٧) F. O. 371/10905/page/13

(٢٨) intell : 6/14/46. No. 361/pagé 8.

(٢٩) F. O. 371/10905 page 14

(٣٠) F. O. 371/10905 page 14.

(٣١) من أقوال على رمضان جابر الجندى سابقا فى ١٢ أجى أورطة فى ملـكال حين أخذت أقواله عند تـكريم ثوار ١٩٢٤ محفوظة بدار الوثائق المركزية / الخرطوم .

(٣٢) palace : 4/9/42 pägé 8:5. 25/9/1925.

(٣٣) F. O. 371/10905 page 14.

(٣٤) المصدر السابق ص ١٤

(٣٥) المصدر السـابق ص ١٥

(٣٦) من حديث عبد الرازق ريحان الذى كان جندى برتبة امباشى فى تلودى سبتمبر ١٩٢٤ وشارك فى هذه الأحداث — أخذت أقواله عند تـكريم ثوار ١٩٢٤ . محفوظة بدار الوثائق المركزية بالخرطوم .

(٣٧) المرجع السابق .

(٣٨) F. O. 371/10905. pagę 16.

(٣٩) محمد عبد الرحيم : الصراع المسلح حول الوحدة ص ٥٨

(٤٠) على البنا : من حديثه فى مقابلة لى معه يوم ١/٧/١٩٢٤ بمنزله فى القاهرة .

(٤١) حسب الخريطة فى الملحقة .

(٤٢) Intell : 6/14/46 No. 364 nov 1924.

(٤٣) حسب الخريطة فى الملحقة .

(٤٤) من حديث مع على البنا .

(٤٥) جريدة الرأى العام عدد مارس ١٩٥٦

(٤٦) من حديث مع على البنا (لواء م) .

(٤٧) من حديث مع على البنا (لواء م) .

(٤٨) محمد عبد الرحيم : الصراع المسلح حول الوحدة ص ٨٥

(٤٩) من حديث مع على البنا (لواء م) .

(٥٠) قصيدة الشاعر السودانى/حسين منصور نشرها محمد عبدالرحيم فى كتابه الصراع المسلح حول الوحدة ص ٥٨

(٥١) F. O. 371/10905 page 12.

(٥٢) Intęll : 6/14/46 No. 364 rov 1924.

(٥٣) من حديث مع على البنا (لواء م) .

مصادر البحث

مراجع :

عبـــد الكريم : اللواء الأبيض ثورة ١٩٢٤ مذكراته ونشرته شعبة أبحاث السودان ١٩٧٠ .

محمد عبد الرحيم : الصراع المسلح على الوحدة فى السودان . القاهرة بدون تاريخ ، مخزون الباحث .

المتطلع (حامد القرضاوى) ضحايا مصر فى السودان وخفايا السياسة البريطانية ١٩٣٥

سليمان كشة : أسرار ووثائق تاريخية ، بدون تاريخ ، الخرطوم .

« « : محاكمات اللواء الأبيض « «

« « سوق الذكريات ، ١٩٦٣ الخرطوم .

محمد لبيب الشاهد وأحمد بك رفعت : مذكرتان عن أعمال الجيش المصرى فى السودان ومأساة خروجه منه — الاسكندرية ١٩٣٦

حسن نجيله : ملامح من المجتمع السودانى — بيروت ١٩٦٤

داؤد بركان : السودان المصرى ومطامع السياســـة البريطانية — مصر ١٩٢٤

مبارك با بكر الريح : ثورة ١٩٢٤ — الخرطوم .

(١) وثائق غير منشورة :

١ — أوراق وبحث الخاصة بجامعة درهام بانجلترا .

٢ — وثائق مركز المحفوظات العام — لندن . F.O.

٣ - وثائق من دار الوثائق المركزية بالخرطوم .

(أ) تقارير المخابرات .

(ب) مراسلات قصر الحاكم العام وتقاريره Palace.

(ج) وقائع مجلس الحاكم العام Genco.

(د) ملفات الأمن Security.

بدء انهيار

نظام الامتيازات الأجنبية فى مصر

دراسة لإعادة تشكيل مجلس بلدى الإسكندرية عام ١٩٣٥ م

للدكتور رأفت غنيمى الشيخ
مدرس التاريخ الحديث — كلية التربية — عين شمس

مقـــدمة :

لم تكن الامتيازات الأجنبية وليدة عصر الاحتلال البريطانى لمصر ، كما لم تكن وليدة عصر الخديوى إسماعيل وماتم فيه من انفتاح أوروبى وتنظيمات إدارية وإقليمية ، كما أنها لم تكن وليدة اتفاقية لندن عام ١٨٤٠م ، رغم أن هذه الاتفاقية قد فرضت نوعاً من الوصاية الدولية على مصر . ولكن هذه الامتيازات ترجع فى أصولها إلى الحكم العثمانى لمصر ، وهو الحكم الذى منح الدول الأوروبية امتيازات اقتصادية ودينية وتعليمية واجتماعية فى مصر وغيرها من ولايات الدولة العثمانية .

إذن تبدأ الامتيازات الأجنبية فى مصر أثناء الحكم العثمانى المملوكى ، وبصفة خاصة منذ القرن الثامن عشر ، وكان ذلك بداية التدخل الأجنبى الذى مارس نشاطه الاستغلالى تحت مظلة هذه الامتيازات ، بإنشاء البنوك والوكالات التجارية والمدارس والكنائس ، والادعاء برعاية المسيحيين

العرب[1] ، مما كان له أثره الكبير فى تحقيق الأطماع الاستعمارية الأوربية عند ضعف الدولة العثمانية .

ورغم أن معاهدة لندن لعام ١٨٤٠م، قد فرضت على مصر وصاية دولية أوروبية كما ذكرنا - إلا أن التدخل الأجنبي فى مصر وتدعيم الامتيازات الأجنبية بالبلاد، ظل ضعيفاً حتى أوائل عهد محمد سعيد باشا الذى ارتقى كرسى الباشوية عام ١٨٥٤م، ولم يتواجد مع الأوروبيين فى مصر حتى ذلك العام سوى ما احتاج إليه باشوات مصر من خبراء أجانب أو بعض التجار الانجليز والفرنسيين بصفة خاصة الذين سمح لهم بممارسة نشاطهم فى ظل حماية محدودة من قناصل بلادهم .

إلا أنه منذ أن تولى محمد سعيد باشوية مصر تدفق الأجانب عليها تدفقاً كبيراً وصفه القنصل الفرنسى بالقاهرة آنذاك بما لو كانت مصر كاليفورنيا جديدة . ومن الطبيعى أن تتدعم الامتيازات الأجنبية فى عهد محمد سعيد الذى فتح أبواب مصر على مصراعيها أمام الأجانب ، فنال دلسبس المهندس الفرنسى امتيازاً مجحفاً بمصر لشق قناة فى برزخ السويس ، وتوظف عدد كبير من الأوربيين فى دواوين الحكومة المصرية ، وسمح بفتح مدارس أجنبية كثيرة تقدم خدمات تعليمية للمصريين وغيرهم كل ذلك فى إطار حماية قنصلية مستندة إلى الامتيازات الممنوحة .

جاء إلى الحكم فى مصر إسماعيل باشا المفتون بأوربا منذ كان صبياً، حيث عاش فى فينا وباريس ، ودرس وتعلم هناك ضمن البعثة المصرية الخامسة ، وتكونت شخصيته هناك ، وكان اتجاهه وهو تحت تلك المؤثرات أن يجعل من مصر قطعة من أوربا وأن يجعل من نفسه عاهلا عظيما يجارى عواهل أوربا كما شاهدهم فى فينا وباريس[2] .

ونتيجة لتطلعات إسماعيل هذه زادت ديون مصر من ١١ مليون جنيه

فى عهد محمد سعيد باشا إلى ٩١ مليون جنيه عندما تشكل صندوق الدين عام ١٨٧٦ تسدد على ٦٥ سنة بفائدة ٧٪ . وكان إسماعيل قد بدأ منذ السنة الثانية من حكمه فى الاقتراض من المصارف الأوربية عامة والفرنسية خاصة ، واضطر لكى يدفع أرباح هذه الديون إلى مزيد من القروض القصيرة الأجل بفوائد عالية وصلت إلى ١٥٪ فى السنة .

وكان من الواضح منذ عام ١٨٧٠م أن هذه السياسة المضطربة ستؤدى قريباً إلى كارثة مالية ، فالدائنون الأوربيون الذين حماهم نظام الامتيازات الأجنبية فكروا فى الإفادة من ذلك لكى يحصلوا على مزايا اقتصادية ، كما فكرت الدول الأوربية فى استخدام النفوذ المالى الذى حصل عليه أبناؤها لأغراض سياسية[٣] .

ومما يؤكد ذلك أن الامتيازات الأجنبية التى منحت سابقاً للأجانب فى ممتلكات الامبراطورية العثمانية قد تزايدت بصورة كبيرة بحكم الاعتياد على التمتع بها ، حتى تمتع مواطنوا الدول صاحبة الامتيازات بالتحرر الكامل من الخضوع للقوانين الوطنية — المصرية — وكان التقاضى فى أمورهم يتم فقط أمام محاكمهم الخاصة[٤] .

ونظراً لاستفحال نظام الامتيازات الأجنبية فى مصر ، فقد حاول إسماعيل منذ عام ١٨٦٧م ، اتخاذ إجراءات الحد من مساوىء هذا النظام ، فأنشئت المحاكم المختلطة كإصـــلاح وصفه السير موريس أموس Sir Mourice Amos المستشار القضائى للحكومة المصرية فى ٢٠ مارس ١٩٢٥م، بأنه إذا كانت الكنيسة توضع فى المرتبة الأولى فإن المحاكم المختلطة تتلوها وتعتبر أكثر المؤسسات الدولية الناجحة فى التاريخ[٥] .

وإذا كان نظام المحاكم المختلطة قد وضع حداً للاغتصاب المالى عن طريق التعويضات الباهظة التى أرغمت مصر على دفعها تحت الضغط الدولى ، وإذا

كانت مصر قد نالت بمقتضى هذا النظام مركزاً ممتازاً فى تقدير الدول التى نزلت لمصر بمقتضى هذا الاتفاق عن مباشرة حق القضاء القنصلى الناشىء عن الامتيازات الأجنبية[6] فإن هذا النظام كان معقـــداً فى غيبة قانون وطنى مصرى[7]، مما ترتب عليه أن رأينا المحاكم المختلطة توازر الدائنين الأوربيين ضد الحكومة المصرية أثناء أزمتها المـالية .

وحيث أن المحاكم القنصلية كانت خير مكان مناسب للتقاضى فى الأحوال الشخصية للرعايا الأجانب فى مصر ، فإن المـادة رقم ٤ من القانون المدنى للمحاكم المختلطة قد أكدت على استمرار المحاكم القنصلية فى مباشرة تلك الاختصاصات (وهى مسائل الزواج والطلاق ، وحماية الممتلكات ... الخ) بعد تأسيس المحاكم المختلطة ، وبناء عليه فان المحاكم القنصلية الأمريكية ، سوف تستمر فى مباشرة التقاضى بين رعايا الولايات المتحدة الأمريكية فى الأحوال الشخصية ، وأنه مازالت المحاكم القنصلية الأمريكية فى مصر تمارس مسئولياتها هذه[8] .

أدت الامتيازات الأجنبية قبل الاحتلال البريطانى إلى التدخل الأوربى فى شئون مصر السياسية إلى جانب الشئون الاقتصادية حتى رأينا سيطرة الأجانب على صندوق الدين العمومى ووجود مراقبة ثنائية لشئون مصر الاقتصادية إلى جانب اشـــتراك وزراء أوربيين فى الحكومة المصرية ، وكانت قمة التدخل الأوربى فى مصر هو الكيد للخديوى إسماعيل عند السلطان العثمانى حتى أصدر الأخير فرمانا بعزل إسماعيل وتعيين ابنه محمد توفيق مكانه ، وذلك حين شاء إسماعيل متأخراً أن يقف فى وجه تغلغل النفوذ الأجنبى السياسى(٩) .

كان محمد توفيق شاباً ميالا إلى الوطنيين المصريين ، ولـكنه آثر مصانعة الانجليز والفرنسيين حتى لا يتعرض لما تعرض له والده ، فسلم قياده لأصحاب

الأمتيازات الأجنبية فى البلاد وعادى الحركة الوطنية حتى انتهى الأمر بالصدام بينه وبين الوطنيين فيما عرف بالثورة العرابية التى انتهت بحدوث الاحتلال البريطانى لمصر .

وكان عرابى باشا قد أرسل إلى السلطان العثمانى رسالة عام ١٨٨٢ م، قال فيها : إن مصر وقعت فى قبضة الأجانب ، فما لم يتدخل السلطان بنفوذه فانها ستلقى مصير تونس عن قريب، ولما كان السلطان يدرك أن مايقوله عرابى صحيح فقد شجعه ببعض الشىء(١٠) . وإذا كان السلطان قد غير من موقفه من عرابى بعد ذلك إلا أنه كان يدرك خطورة التدخل الأجنبى فى مصر .

الاحتلال البريطانى والامتيازات الأجنبية

يمثل الاحتلال البريطانى لمصر بداية لمرحلة جديدة فى الامتيازات الأجنبية ، إذ أن انجلترا لا تريد شريكا فى حكم مصر داخلياً كان أو خارجياً ، فاذا كانت السيادة العثمانية قد بقيت على مصر ، وينال السلطان العثمانى الجزية السنوية ، والخديوى خاضع له والمصريون رعاياه ، فان حقيقة الأمر أنه لم يكن السلطان ولا الخديوى يمارسان الحكم فى مصر ، بل كان الحكم فى يد بريطانيا العظمى(١١) .

وكان ممثل الحكومة البريطانية فى مصر يسعى إلى الاستئثار بالسلطة الفعلية فى البلاد دون أن يمس الأوضاع الشرعية أو التاريخية مثل : السيادة العثمانية أو الامتيازات الأجنبية ، على أنه استطاع أن يمحو الكثير من أدوات الرقابة الدولية على الإدارة المصرية ، وأن يكتسب تسليما فعلياً من جانب الدول الكبرى بمركز خاص لبلاده فى مصر(١٢) ، وتمثل هذا المركز فى تغلغل النفوذ البريطانى فى شئون الحكومة كافة من سياسية وحربية ومالية وتشريعية وإدارية(١٣) .

ومن الطبيعي أن ينتج عن ذلك أن تتولى السلطات البريطانية معالجة مسألة الامتيازات أم رغبتها في الانفراد بالسلطة في مصر، وأمام مطالب الحركة الوطنية المصرية بضرورة إلغاء هذه الامتيازات، في الوقت الذي تعلم فيه الجاليات الأجنبية تمام العلم أن قيام الحكومة المستقلة في مصر معناه حتما – ان عاجلا وان آجلا – زوال نظام الامتيازات العتيق، وبقاء الاحتلال يحول دون وقوع هذا الشر، وإن كان كرومر قد ظل يؤكد أن زوال الامتيازات سوف يصحبه إنشـــاء ضمانات للأجانب، كان يعطى الجاليات الأجنبية قدرا وصوتا في التشريع والقضاء يساوى أصحاب البلاد(١٤)

ومنذ عام ١٨٨٢م، وهو عام الاحتلال البريطاني لمصر، إلى عام ١٩٣٧م وهو عام انتهاء العمل بنظام الامتيازات الأجنبية في مصر، استمر المصريون يطالبون بانهاء نظام الامتيازات الأجنبية أثناء مطالبتهم بجلاء جيش الاحتلال وباستقلال مصر، وكانت هذه المطالب كلها ظهرت في الخطب الوطنية للزعماء المصريين وفي مفاوضاتهم مع الحكومة البريطانية.

ومن جهة أخرى اتخذت انجلترا موقفا دوليا لتضمن فرض الحماية البريطانية على مصر منذ اكتوبر ١٩١٤م، دون اعتراضات دولية، فأبلغت الحكومة البريطانية كلا من روسيا وفرنسا بعزمها هذا، وأكدت على لسان وزير خارجيتها سير ادوارد جراى Sir Edward Grey بأنه سيستمر العمل بالامتيازات إلى حين بحثها مع الدول، كما أن المحاكم المختلطة ستستمر تباشر نشاطها أيضا(١٥).

وفي ١٨ ديسمبر ١٩١٤م، أعلنت السلطات البريطانية وضع مصر تحت الحماية البريطانية، وقررت في اليوم التالي خلع الخديوى عباس حلمي الثاني وتعيين السلطان حسين كامل، الذى أبلغه القائم بأعمال المعتمد البريطاني بأنه قد سبق لحكومة جلالته – جلالة ملك بريطانيا – أنها صرحت

مراراً بأن المعاهدات الدولية المعروفة بالامتيازات الأجنبية المقيدة بها حكومة سموكم لم تعد ملائمة لتقدم البلاد ولكن رأى حكومة جلالته أن يؤجل النظر فى تعديل هذه المعاهدات إلى ما بعد انتهاء الحرب(١٦) .

وبينما كانت الحركة الوطنية المصرية تعمل من أجل الحصول على استقلال مصر بعد انتهاء الحرب ، فقد كان الانجليز يعملون على تنظيم الحماية بعد الحرب ، ونتيجة لتدبير السلطات البريطانية ، شكل مجلس الوزراء فى ٢٤ مارس ١٩١٧ م ، لجنة عرفت بلجنة الامتيازات الأجنبية على رأسها السير وليام برونيت Sir William Brunyate الذى كان يشغل منصب المستشار المالى بالنيابة ، وكان مستشاراً قانونياً لدار الحماية .

وكان الهدف من تشكيل هذه اللجنة هو وضع التعديلات التى يستدعى إدخالها فى القوانين والنظم القضائية والإدارية ، نظراً لما كان محتملا من زوال الامتيازات الأجنبية فى ظل الحماية البريطانية(١٧) . وقد وضع سير برونيت مشروعات قوانين تهدف إلى سيطرة إنجليزية على البلاد ، وإقناع الدول الأجنبية بالرضا بإلغاء امتيازاتهم حتى تنحصر السلطة كلها فى يد المعتمد البريطانى(١٨) .

وقد ووجه مشروع سير برونيت بمعارضة شديدة من جانب المصريين، وخاصة بما يتعلق بموضوع الامتيازات الأجنبية الذى وصفه حسين رشدى باشا ناظر النظار — رئيس الوزراء — فى مذكرة له قدمها إلى مجلس الوزراء ودار الحماية البريطانية فى نوفمبر ١٩١٨م : بأنه يعترف بأن الأجانب فى مصر يتمتعون ببعض امتيازات مستنبطة من معاهدات قديمة وعادات عتيقة يعتبر بقاؤها اليوم من الأمور المناقضة لروح العصر ، ولكن هذه الحال الخاصة لا يمكن الاستناد عليها لحرماننا اليوم من حقنا فى حكم

أنفسنا ، وتولى شئوننا بأنفسنا ، وهو الحق الذى كنا ولا نزال نتمتع به قانوناً إلى الآن[19] .

وعقب انتهاء الحرب العالمية الأولى واشتعال ثورة عام ١٩١٩ م ، ثم انطفاؤها حاولت الحكومة البريطانية — كنتيجة لثورة ١٩١٩ م — أن تظهر ميلا — غير حقيق — للاستجابة لبعض المطالب الوطنية المصرية ، فشكلت الحكومة البريطانية فى مايو عام ١٩١٩ م ،لجنة برئاسة ملنر Milner وزير المستعمرات هدفها : تحقيق أسباب الاضطرابات التى حدثت أخيراً فى القطر المصرى ، وتقديم تقرير عن الحالة الحاضرة فى تلك البلاد ، وعن شكل القانون النظامى الذى يعد تحت الحماية خير دستور لترقية أسباب السلام واليسر والرخاء فيها ، ولتوسيع نطاق الحكم الذاتى فيها توسيعاً دائم التقدم والترقى ، ولحماية المصالح الأجنبية[20] .

وكانت انجلترا قد حصلت من ألمانيا فى مؤتمر الصلح على تعهد بعدم تدخلها فى أية مفاوضات تجريها بريطانيا والدول الأخرى حول مصر ، وأن تنقل ألمانيا كافة ممتلكاتها فى مصر إلى الحكومة المصرية دون تعويض، وتنظيم وضع الدين العام المصرى ، ومعاملة الرعايا الألمان فى مصر[21] .

وكان معنى هذا أن لجنة ملنر إنما جاءت من بين ما جاءت من أجله لكى تنقل امتيازات الدول الأوربية فى مصر إلى الحكومة البريطانية ، وأن يعترف المصريون بهذا الانتقال فى وثيقة رسمية يرضون عنها لتضمن بقاء الوجود البريطانى المهيمن فى ظل استقلال ذاتى ضعيف .

وجاء فى المشروع الذى عرضه ملنر - وذكر أن الجانبين المصرى والبريطانى ارتاحا إليه أن قليلا أو كثيراً - فيما يختص بموضوع الامتيازات الأجنبية ، اعتراف بضرورة تعديل الامتيازات الأجنبية وجعلها أقل

ضروراً بمصالح البلاد ، على أن تمنح مصر الحكومة البريطانية الحقوق التى تلزم لصيانة مصالحها الخاصة ، ولتمكينها من تقديم الضمانات التى يجب أن تعطى للدول الأجنبية لتحقيق تخلى تلك الدول عن الحقوق المخولة لها بمقتضى الامتيازات(٢٢) . وذلك باتفاقات تعقد بين انجلترا والدول الأوربية صاحبة الامتيازات فى مصر ، وأن تضمن بقاء المدارس القائمة والمؤسسات الدينية والصحية ، وإنشاء مؤسسات جديدة ، وإبعاد العنصر الدولى من مجلس الصحة فى الاسكندرية(٢٣) .

ولكن هذا المشروع لم يقدر له التنفيذ لاعتراض المصريين على معظم بنوده التى أعطت لبريطانيا سلطات فى مصر تسلبها استقلالها الذى تطالب به ، ولكن فى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م كانت مسألة الامتيازات الأجنبية من بين التحفظات الأربعة التى رأت انجلترا الاحتفاظ بادارة دفتها إلى الوقت الذى يحين فيه إمكان عقد مفاوضات مصرية بريطانية مستقبلة بشأنها .

وظلت التحفظات الأربعة موضوع مفاوضات طويلة بين مصر وانجلترا من عام ١٩٢٤ م، إلى عقد معاهدة ١٩٣٦ م ، تولاها سعد زغلول مع المستر ماكدونالد فى شهرى سبتمبر وأكتوبر ١٩٢٤ م ، وانتهت بالفشل بسبب تمسك سعد بالمطالب القومية ومنها عدول الحكومة البريطانية عن دعواها حماية الأجانب والأقليات فى مصر(٢٤) .

وتناولت مفاوضات ثروت باشا مع السير تشمبرلين كذلك من يوليو ١٩٢٧ م، إلى مارس ١٩٢٨ م، موضوع الامتيازات الأجنبية ، حيث نصت المادة الثالثة من المشروع المصرى على أن تتعهد بريطانيا ببذل نفوذها لدى الدول صاحبة الامتيازات فى مصر للحصول على نظام بديل يكون أكثر ملاءمة لروح العصر ، وأن لا يسمح لانجلترا بالتدخل بواسطة ممثلها فى

مصر لحماية الأجانب من أية تشريعات ضـــدهم ، على أن تتعهد بريطانيا العظمى بألا تستعمل هذا الحق إلا فى الأحوال التى يجعل فيها القانون فى فى مسائل الضرائب تفريقاً غير عادل فى معاملة الأجانب ولغير مصلحتهم ، أو التى يتعارض فيها القانون مع مبادىء التشريع المشتركة بين الدول ذوات الامتيازات(٢٥).

هذا بينما نصت المادة الثامنة من المشروع البريطانى على أنه نظراً إلى المسئوليات الخاصة التى تقع على عاتق ملك بريطانيا فيما يتعلق بالمصالح الأجنبية فى مصر ، تتعهد الحكومة المصرية بأن توافيه فى كل وقت بوسائل التحقيق من أن حياة الأجانب وأموالهم تتمتع بحماية كاملة فى مصر ، وتبقى الحكومة المصرية فى إدارة البلاد عنصراً أجنبياً كافياً لضمان مثل تلك الحماية(٢٦) .

وإذا كان قد حدث تعديل فى المشروعين — المصرى والبريطانى — أدى إلى أن تتعدل المادة الثامنة السابقة إلى نص جاء فيه : أنه فى حالة حدوث مواقف خطرة تهدد حياة الأجانب وأموالهم ومصالحهم فى مصر يتشاور ملك مصر مع ملك انجلترا لاتخاذ الوسائل الكفيلة بالقضاء على هذه المواقف ، فان اعتراض معظم زعماء الشعب المصرى على إبقائه حبراً على ورق ، وإن كان سيصبح الأساس للمفاوضات التالية سواء تلك التى دارت بين محمد محمود باشا والمستر هندرسون فى يونيو ١٩٢٩م ، أو تلك التى دارت بين مصطفى النحاس باشا والمستر هندرسون عام ١٩٣٠ م ، أو تلك التى دارت بين مصطفى النحاس باشا والسير مايلز لامبسون بقصر الزعفران بالقاهرة فى عام ١٩٣٦م ، والتى انتهت بعقد اتفاقية الصداقة والتعاون بين مصر وانجلترا .

كان تمسك المصريين بأن يكون للحكومة المصرية حريتها بالنسبة لحماية الأجانب ولا تشاركها دولة أخرى ، وأن تعدل الامتيازات بما يتفق مع

لتطور الزمن والظروف وإلغاء الإدارة الأوروبية ، وأن تكون سيادة البلاد داخلية أو خارجية فى جملتها وتفصيلها مطلقة من كل قيد فتزول سلطة الضباط البريطانيين فى الجيش ولا يبقى المستشاران إلا بمقدار حاجة الحكومة المصرية إلى مشورتهما(٢٧) . كل ذلك كان محور المفاوضات بين الطرفين طوال تلك المدة التى أشرنا إليها .

وكانت الحكومة المصرية قد حاولت منذ عام ١٩٣٤م، اتخاذ إجراءات من شأنها التخفيف من قبضة الأجانب على شئون مصر وخاصة فى مجال القضاء ، فتقدمت الحكومة المصرية إلى الدول الأوروبية بمذكرة فى ١٢ أكتوبر تطالب فيها تأييداً لوجهة نظرها بأن يتولى قضاة مصريون وطنيون رئاسة جلسات المحاكم المختلطة، وبأن تكون اللغة العربية مستخدمة فى لوائح وقرارات تلك المحاكم .

وكانت مذكرة الحكومة المصرية هذه نتيجة لموقف اتخذه فى شهر فبراير من ذلك العام أحد القضاة المصريين الذى كان يجلس فى الدائرة الثالثة لمحكمة الاستئناف فى الاسكندرية عندما قدم نفسه كرئيس للجلسة على أساس أنه ليس هناك ما يمنع فى القانون الأساسى للمحاكم المختلطة من أن يتولى قضاة مصريون هذه الوظائف الرئاسية(٢٨) .

وجاء هذا الاجراء الجرىء من القاضى المصرى ضربة لنظام الامتيازات الأجنبية ، ولكن الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف انتقدت وعارضت هذا الاجراء بدعوى عدم وجود نص صريح يسمح للقضاة المصريين برئاسة الجلسات ، وإنه خلال ٥٨ سنة من عمل تلك المحاكم لم يترأس قاض مصرى أية دائرة من دوائر تلك المحاكم ، رغم أن الجمعية العمومية أعلنت بأن المستوى التعليمى للقضاة المصريين وذكاءهم وكفاءتهم قد ارتفعت منذ تأسيس المحاكم المختلطة حتى إنه يوجد الآن قضاة مصريون فى تلك المحاكم موازين فى المستوى للأجانب الذين يتولون رئاسة الدوائر القضائية .

وجاء رد الحكومة الأمريكية بعد أن طلبت استشارة قاض أمريكى فى مصر، معارضاً للطلبات المصرية، وأنه من غير المعقول أن يترأس قاض مصرى قضاة أجانب، وأنه خير للحكومة المصرية أن تقترح على الدول إجراء تغيير جذرى فى إجراءات هيئة المحاكم المختلطة، وفى هذا التغيير يمكن النص على جعل القضاة المصريين يترأسون الدوائر القضائية، وأما عن اللغة العربية، فإن الحكومة الأمريكية ستظل تعتبرها إحدى اللغات المستخدمة – وهى الانجليزية، والفرنسية – والإيطالية – دون تمييز، حتى يتم تغيير النظام كله(٢٩).

ولكن الحكومة الأمريكية ما لبثت أمام إصرار الحكومة المصرية على مطالبها أن وافقت على هذه المطالب فى ٣ يناير عام ١٩٣٦ م، بعد أن أبلغت الحكومة المصرية فى ٢٠ نوفمبر ١٩٣٥ م، فى رسالة برقم ٤٢٥ بأن الحكومة الفرنسية قد وافقت على مطالب الحكومة المصرية مقابل اختيار قاض أجنبى، ليترأس دائرة واحدة فقط، وأن القضاة المصريين يجب ألا يشغلوا سوى منصب رئيس الجلسة فى كل من المحاكم الثلاثة بالقاهرة والاسكندرية والمنصورة ومحكمة الاستئناف(٣٠).

وجاءت موافقة الحكومة الأمريكية الكاملة على المطالب المصرية فى رسالة من وزير الخارجية الأمريكية إلى الوزير الأمريكى المسئول فى مصر، بأنه بناء على مذكرة وزير الخارجية المصرية عزيز عزت المؤرخة فى ١٠ يوليو ١٩٣٥م، برقم ٣٢ / ١١ / ١ (٣٣ مسلسل) بطلب الموافقة على تغيير المادة رقم ٣ من النظام القضائى حتى تتيح ترأس قاض مصرى بعدم النص صراحة على جنسية الرئيس وأن يترك ذلك للهيئة القضائية، وأن الحكومة الأمريكية توافق على هـــذا التعديل فى المادة كما جاءت فى مذكرة وزير الخارجية المصرى(٣١).

ومما يدل على أهمية مسألة الامتيازات أنه بعد أن توصل الطرفان المتفاوضان المصرى والبريطانى إلى مشروع اتفاقية عام ١٩٣٦م ، علق محمد محمود باشا موافقته على المعاهدة «على كسبنا مسألة الامتيازات وحصولنا على ما نريده منها ، وها هو ذا قد وافق على المعاهدة مما يدل على أن مكسبنا فى هذه النقطة بالذات كان لا يستهان به(٣٢) .

وجاءت معاهدة ١٩٣٦م، مؤكدة للمطالب المصرية بالتخلص من سيطرة وتدخل الموظفين الانجليز فى شئون الجيش والبوليس المصرى ، ومن إدارة الأمن العام الأوروبية ، وأن مسئولية حماية أرواح وممتلكات الأجانب تقع على عاتق الحكومة المصرية وحدها دون سواها ، واعترفت بريطانيا بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة وأصبح المندوب السامى سفيراً(٣٣) .

كما أكدت المعاهدة على ضرورة إلغاء الامتيازات دون تأخير وإقامة نظام انتقالى لمدة معقولة تحدد ولا تطول بغير مبرر ، وفى أثناء تلك المدة تبقى المحاكم المختلطة وتباشر الاختصاصات المخولة الآن للمحاكم القنصلية فضلا عن اختصاصها القضائى الحالى ، وفى فترة الانتقال لا يكون للمحاكم المختلطة أى اختصاص تشريعى ولا أن تتعرض لمشروعية القوانين ، وتقتصر مهمتها على تطبيق القوانين المصرية التى تسن أو تعدل لتكون سارية على الجميع من مصريين وأجانب كما يكون لها اختصاص أوسع من اختصاصها الحالى فى المسائل الجنائية ، أما الاختصاص القنصلى فى مسائل الأحوال الشخصية فلا ينقل إليها إلا بموافقة الدول ذوات الشأن . وفى نهاية مدة الانتقال تكون الحكومة المصرية حرة فى الاستغناء عن المحاكم المختلطة ، ويحدد مدة فترة الانتقال المؤتمر الذى يعقـــد للنظر فى إلغاء نظام الامتيازات بأسره(٣٤). فاذا تعذر الاتفاق بين مصر والدول صاحبة الامتيازات احتفظت مصر بحقوقها كاملة إزاء نظام الامتيازات بما فيه المحاكم المختلطة .

وتنفيذا للمعاهدة دعت الحكومة المصرية إلى عقد مؤتمر دولى فى مونترو بسويسرا يحضره ممثلو حكومات الدول صاحبة الامتيازات فى مصر ، وقد عقد المؤتمر فى ١٢ أبريل وأصدر قراراته فى ٨ مايو ١٩٣٧ م ، وكان على رأس وفد مصر مصطفى النحاس باشا ، وحضره مندوبون عن حكومات : اتحاد جنوب أفريقيا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، واستراليا ، وبلجيكا ، وبريطانيا العظمى ، وأيرلندا الشمالية ، والدانمرك ، ومصر ، وأسبانيا وفرنسا ، واليونان ، والهند ، ودولة أيرلندا الحرة وإيطاليا ، والنرويج ، وزيلنده الجديدة ، وهولنده ، والبرتغال ، والسويد .

ويتضح من عدد الدول المدى الذى وصلت إليه الامتيازات الأجنبية فى الاساءة بالمصالح المصرية ، وكان أهم ما توصل إليه مؤتمر مونترو قبول جميع الدول إلغاء الامتيازات فى مصر إلغاء تاما، وأن يخضع جميع الأجانب للقوانين المصرية دون تمييز ، وأن تظل محكمة الاستئناف المختلطة وغيرها من المحاكم المختلطة الأقل درجة قائمة فى فترة انتقال تنتهى فى ١٤ أكتوبر ١٩٤٩ م . لا يجوز لهذه المحاكم ابتداء من ١٥ أكتوبر ١٩٣٧ م ، قبول أى دعوى مدنية أو تجارية أو جنائية أو متعلقة بالأحوال الشخصية ، ولكل دولة من الدول المتعاقدة ولها محاكم قنصلية فى مصر أن تحتفظ بها لتفصل فى الأحوال الشخصية لرعاياها ، وذلك إلى أن تنتهى فترة الانتقال فتلغى المحاكم القنصلية ، وتؤول اختصاصاتها واختصاصات المحاكم المختلطة إلى المحاكم الأهلية .

إعادة تشكيل مجلس بلدى الاسكندرية

كانت إعادة تشكيل مجلس بلدى مدينة الاسكندرية بموجب مرسوم بقانون رقم ١ لسنة ١٩٣٥م، سبباً فى إثارة اعتراضات بعض الدول الأجنبية نظراً لأن هذا القانون قد تمشي مع المطاليب الوطنية المصرية ، وإن كان شهد

موجه ضد المصالح الأجنبية المتدلة ، هذا إذا اعتبرنا أن الامتيازات الأجنبية كانت وضعاً شاذاً فى مصر لا بد من العمل على انهائها .

كانت اعتراضات الدول الأجنبية منصبة فى المقام الأول على خلو هذا القانون من الامتيازات التى نص عليها الأمر العالى الخديوى الصادر فى ٥ يناير ١٨٩٠م، الذى تم بمقتضاه تشكيل أول مجلس بلدى لمدينة الاسكندرية، ولتحديد تلك المواد التى أثارت اعتراضات الدول الأجنبية وعلى رأسها إيطاليا وبلجيكا ثم فرنسا فالولايات المتحدة الأمريكية ، نستعرض ما جاء فى المرسوم بقانون لعام ١٩٣٥(٣٥) مقارنا بما جاء فى الأمر العالى الخديوى لعام ١٨٩٠ م .

المادة الأولى

تعدل المواد رقم : ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ من الأمر العالى الصادر فى ٥ يناير سنة ١٨٩٠ م ، بتشكيل « قومسيون » بلدى بمدينة الاسكندرية على الوجه الآتى :

(مادة ٢) : يؤلف القومسيون البلدى من ثمانية وعشرين عضوا على الوجه الآتى :

عدد	
٦	أعضاء لهم الحق فى العضوية
٨	أعضاء تعينهم الحكومة
١٤	عضوا ينتخبون طبقا لأحكام هذا القانون .

ولا يقبل فى القومسيون البلدى أكثر من عضوين منتخبين من جنسية

واحدة من الأجانب، ومع ذلك يكون فى القومسيون من الأعضاء المنتخبين والمعينين أحد عشر عضوا من الأجانب .

وكانت هذه المادة فى الأمر العالى الخديوى لعام ١٨٩٠ م ، قد ذكرت نفس الأعداد من الأعضاء الذين لهم الحق فى العضوية ، والأعضاء الذين تعينهم الحكومة، ولكنها فصلت فى عدد الأعضاء المنتخبين على النحو التالى:

عدد

٦ ينتخبون بمعرفة دائرة الانتخاب المشكلة بمقتضى المواد من ٤ إلى ١١ من أمرنا هذا .

٣ ينتخبون بمعرفة تجار الصادرات .

٣ ينتخبون بمعرفة تجار الواردات .

٢ ينتخبون بمعرفة أرباب العقارات الكائنة بمدينة الاسكندرية وضواحيها .

ولا يقبل فى القومسيون البلدى أكثر من ثلاثة أعضاء منتخبين من جنسية واحدة من الأهالى أو الاجانب(٣٦) .

وواضح من نص هذه المادة أنها فى قانون عام ١٩٣٥ م قد ضيقت عدد الأعضاء المنتخبين بعضوين على الأكثر من جنسية واحدة وألا يزيد عدد الأعضاء المنتخبين والمعينين عن ١١ عضوا من الأجانب . هذا فى الوقت الذى أطلقت فيه نفس المادة فى الأمر العالى الخديوى لعام ١٨٩٠م عدد الأعضاء المنتخبين إلى ثلاثة أعضاء من جنسية واحدة ، وسوت بين الوطنيين — المصريين — والأجانب ، وأغفلت أية شروط بالنسبة لعدد الأعضاء المعينين من الأجانب فى المجلس .

(مادة ٣) : لم يحدث تعديل فيما نصت عليه هذه المادة فى الأمر العالى

الخديوى العام ١٨٩٠ م ، والتي نصت على تسمية الأعضاء الستة المعينين فى المجلس وهم :

١ — محافظ الإسكندرية أو من ينوب عنه .

٢ — النائب العمومى لدى محكمة الاستئناف المختلطة أو وكيله .

٣ — مدير عموم الجمارك أو من ينوب عنه .

٤ — رئيس النيابة بمحكمة الاسكندرية الأهلية أو وكيله .

٥ — الحكيم المعين بالإسكندرية فى أعلى وظيفة تابعة لإدارة الصحة(٣٧) .

٦ — المهندس المعين بالإسكندرية فى أعلى وظيفة تابعة للأشغال العمومية(٣٨) .

وإذا كان الظاهر أنه لاتعديل فى تسمية الأعضاء المعينين بمقتضى هذه المادة ، فالعبرة بمن يشغل هذه الوظائف ، ونسبة عدد المصريين منهم إلى عدد الأجانب ، والشيء المؤكد أن عدد الأجانب فيهم لم يكن قليلا .

(مادة ٤) : جاء فى قانون ١٩٣٥م ، مانصه : لايجوز لأحد أن ينتخب إلا إذا كان ناخباً . وحق الانتخاب يكون لكل شخص من الذكور بالغ سن من خمس وعشرين سنة على الأقل ومقيم فى مدينة الإسكندرية أو فى ضواحيها بمحل مقيد بدفاتر البلدية بأجرة قيمتها ٢٤ جنيهاً سنوياً فأكثر(٣٩) ولم يكن فى حالة من أحوال عدم الأهلية المبينة بالمادة الخامسة .

(المادتان ٥ ، ٧) : فصلت المادة ٥ فى قانون عام ١٩٣٥م ، الأشخاص المحرومين من حق الانتخاب تفصيلا أوضح مما جاء فى الأمر العالى الخديوى لعام ١٨٩٠م ، كما أن المادة ٧ فى قانون ١٩٣٥م ، لم تشر إلى تجار الصادرات

والواردات وأصحاب العقارات الذين أعطاهم الأمر العالى الخديوى المشار إليه الحق فى أن يقرروا فيما بينهم قاعدة للانتخاب يصير التصديق عليها من ناظر الداخلية وهذا معناه عدم إعطاء هذه الفئات ومعظمها إن لم يكن كلها أجانب امتيازات خاصة .

(مادة ١٧) : نصت هذه المادة فى قانون ١٩٣٥م، على اجتماع القومسيون البلدى عادة مرة كل أسبوع (٤٠) وبصفة غير اعتيادية عندما يتراءى لرئيسه ضرورة لذلك أو بناء على طلب محرر من ثمانية من الأعضاء .

(مادة ١٩) : وهى الخاصة بتصديق وزير الداخلية على قرارات القومسيون فى خلال ثلاثة أيام ، وتعتبر نافذة إذا لم يصدر منه أمر بايقاف تنفيذها فى بحر ثمانية أيام من تاريخ عرضها عليه ، أو إذا لم يجر إلغاؤها — إذا كان قد أوقف تنفيذها خلال ثلاثين يوماً من تاريخ عرضها عليه ، وأضيف فى قانون ١٩٣٥م ، نص فحواه : وكل مداولة تلغى يكون إلغاؤها بقرار مسبب من الوزير وأسباب الإلغاء لاتكون محل مناقشة فى القومسيون .

(مادة ٢١) : اختصرت هذه المادة فى قانون ١٩٣٥م، اختصاصات رئيس القومسيون البلدى وحددتها باعتباره النائب عنه فى الأمور المتعلقة به ، وأنه يمارس اختصاصاته تحت مراقبة القومسيون وملاحظة وزير الداخلية ، وهذه الاختصاصات هى :

١ — إمضاء المكاتبات الموجهة إلى وزارة الداخلية تنفيذاً لقرارات القومسيون .

٢ — عرض الميزانية التى تقرر بجلسة القومسيون على وزير الداخلية .

٣ — إصدار القرارات طبقاً لمداولات القومسيون البلدي المصدق عليها من وزير الداخلية .

٤ — تعيين ورفت الموظفين طبقاً للأحكام التي يقررها وزير الداخلية(٤١) .

٥ — النيابة عن البلدية أمام المحاكم سواء كان مدعياً أو مدعى عليه .

ومعنى هذا إلغاء ما كان مخولا له في الأمر العالي الخديوي لعام ١٨٩٠ م من اختصاصات أخرى مثل إدارة الإيرادات ، وملاحظة المحلات والمصالح المحولة على المدينة . وعقد المشتروات وإجراء المزادات المتعلقة بالأعمال البلدية ، والتوقيع على عقود المبايعات والمشتروات .

(مادة ٢٢) : حددت هذه المادة في قانون عام ١٩٣٥م . اختصاصات مدير عام القومسيون بالنسبة للموظفين الذين لهم حق تعيينهم وترقيتهم أو تأديبهم ورفتهم والوظائف التي يكون تعيين شاغليها وترقيتهم وتأديبهم وفصلهم بمعرفة الوزير مباشرة . وأكدت نفس المادة ماجاء بها في الأمر العالي الخديوي لعام ١٨٩٠م، بأن كافة مأموري ومستخدمي البلدية لايكون لهم حق في معاش أو مكافأة من أي نوع كان من طرف الحكومة .

(مادة ٢٨) : أضافت هذه المادة في قانون ١٩٣٥م، شرطاً بأنه في حالة مشاركة عضو القومسيون في مداولات تتعلق بمسائل له فيها صالح سواء كان عن نفسه أو بصفته وكيل ، فان حصل ذلك منه يقال من وظيفته .

(مادة ٢٩) : فصلت هذه المادة في قانون ١٩٣٥م، قبول أعضاء جدد بالقومسيون لاتتوفر فيهم الشروط المنوه عنها في المادة الرابعة — في هذا القانون — أو يوجد في إحدى الحالات المنصوص عليها في المواد ٥ ، ٥ مكررة ا ، ٥ مكررة ب ، ٩ ، ١١ ، ٢٨

(ماده ٣٧) : وفصلت هذه المادة في قانون ١٩٣٥م موضوع ميزانية القومسيون أى إيرادات البلدية ومصروفاتها ، وعرضها على القومسيون الذى عليه إقرارها بابا بابا — أى بنداً بنداً — قبل ١٥ مارس(٤٢) من كل سنة ، على أن يصدق وزير الداخلية على الميزانيـــة لتصبح معدة للتنفيذ . وأضافت المادة نصاً جديداً هو كل مصروف غير وارد بالميزانية أو زائدعلى التقديرات الواردة بها ، وكذلك نقل أى مبلغ من باب إلى آخر من أبواب الميزانية يجب أن يعرض على القومسيون البلدى .

(مادة ٣٨) : قضت هذه المادة فى قانون عام ١٩٣٥م ، بأنه إذا لم يصدق وزير الداخلية على مشروع الميزانية المقدم إليه لغاية ٣٠ أبريل(٤٣) يستمر العمل بميزانية العام المنصرم حتى يتم التصديق عليها .

(مادة ٣٩) : قررت هذه المادة فى قانون عام ١٩٣٥م ، بداية الميزانية فى أول مايو ونهايته العمل بها فى ٣٠ أبريل(٤٤) من كل سنة أو فى أى وقتين آخرين تعينهما وزارة المالية .

(مادة ٤٣) : جاء التعديل فى هذه المادة فى قانون عام ١٩٣٥ م ، بشأن مراجعة حسابات القومسيون عن السنة الماضية ، بحيث ألغى حق القومسيون البلدى فى النظر فى أعمال رئيسه الإدارية كما كان الأمر العالى الخديوى يقضى أن تحال الحسابات إلى وزارة المالية لمراجعتها ، بينما نص الأمر العالى الخديوى على تقديمها إلى إدارة عموم حسابات الحكومة لمراجعتها .

(مادة ٤٤) : جاء التعديل فى هذه المادة فى قانون ١٩٣٥م ، باتبـــاع التعليمات واللوائح الصادرة من وزارة المـالية(٤٥) ، وأن تعتبر أموال البلدية أموالا عامة وتتبع بشأنها القواعد الخاصة بحفظ وصرف الأموال العامة .

(مادة ٤٥) : نص التعديل فى قانون عام ١٩٣٥م ، على أن يقرر وزير

الداخلية فى لوائح خاصة أحكام الانتخابات البلدية(٤٦) والقواعد الأساسية للترتيب الإداى ، ولسير الأعمال فى الإدارات واللجان والقومسيون ، ولعلاقات البلدية مع مصالح الحكومة .

المادة الثانية

يضاف إلى الأمر العالى الصادر فى ٥ يناير ١٨٩٠م، المشار إليه بعد المادة ٥ المادتان الآتيتان :

(مادة ٥ مكررة ا) : يوقف استعمال حق الانتخاب للمدد المبينة بعد بالنسبة للأشخاص الآتى ذكرهم :

أولا: المحجور عليهم مدة الحجر ، والمصابون بأمراض عقلية والمحجوزون مدة حجزهم .

ثانياً : الذين أشهر إفلاسهم مدة خمس سنوات من تاريخ إشهار إفلاسهم إلا إذا رد إليهم اعتبارهم قبل ذلك .

(مادة ٥ مكرر ب) : يوقف استعمال حق الانتخاب بالنسبة لمستخدمى البلدية .

المادة الثالثة

تلغى المادة ٣٠ من الأمر العالى الصادر فى ٥ يناير ١٨٩٠م ، المشار إليه وكانت هذه المادة تنص على أنه يجوز للقومسيون البلدى أن يقرر المشروعات والرسومات والمقايسات المتعلقة بأعمال جديدة أو بحفظ وصيانة المدينة التى مجموع قيمتها لا يتجاوز مبلغ ١٠٠٠ جنيه مصرى وتعتبر قراراته صحيحة بشرط مراعاة أحكام المادة التاسعة عشرة، فاذا تجاوز فى المصاريف

هذا الحـــد لا يجوز إجراء الأعمال إلا من بعد تصديق ناظر الأشغال العمومية .

المادة الرابعة

على وزير الداخلية تنفيذ هذا المرسوم بقانون وله أن يصدر القرارات اللازمة لذلك .

نأمر بأن يبصم هذا المرسوم بقانون بخاتم الدولة وأن ينشر فى الجريدة الرسمية ، وينفذ كقانون من قوانين الدولة .

بأمر حضرة صاحب الجلالة فؤاد ، رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية محمد توفيق نسيم .

وانطلاقا من مواد هذا القانون الصادر فى يناير ١٩٣٥م ، سوف نناقش موقف الدول الأجنبية من إعادة تشكيل مجلس بلدى الاسكندرية فى إطار من الاتجاهات الوطنية المصرية الداعية إلى إنهاء الامتيازات الأجنبية من مصر فى مواجهة تمسك الدول الأجنبية ببقاء هذه الامتيازات فى مصر .

صدر القانون رقم ١ فى أول يناير ١٩٣٥ م ، وقراران وزاريان فى ٢ يناير من نفس العام ، وتم نشر القانون والقراران فى الجريدة الرسمية فى ٣ ، ٤ يناير ١٩٣٥ م(٤٧) ، ولكن معظم الدول الأوربية اقتنعت بوجهة النظر الانجليزية — كما ذكر الوزير الأمريكى فى مصر مستر فيش Fish لوزارة الخارجية الأمريكية — القائلة بأنه مادام القانون الجديد رقم ١ لعام ١٩٣٥ م ، لم يتعرض للمادتين رقم ٣١ و ٤٠ اللتين تضمنتهما الأمر العالى الخديوى لعام ١٨٩٠م(٤٨) ، فانه لا داعى لأن تحتج الدول على صدور هذا القانون ، وان كانت كل من إيطاليا وبلجيكا قد أعلنت كل منها — عند

صدور القانون وعن طريق ممثليها فى مصر – عن تحفظات بشأن حقوق الدولتين ورعاياها فى مصر .

كما شارك اتحاد تجارة التصدير لمدينة الاسكندرية فى الاحتجاج على صدور هذا القانون فى مذكرة سلمت إلى توفيق نسيم باشا رئيس مجلس وزراء الحكومة المصرية فى ١٦ فبراير ١٩٣٥م، مؤكدين أنهم ومعهم تجار الواردات وملاك العقارات كانوا أعضاء عاملين فى المجلس من ٥ يناير ١٨٩٠ إلى أول يناير ١٩٣٥م ، ولكن فى ظل التشكيل الجديد فأنهم سيمثلون ضمن الأعضاء الأجانب ، وكيف يكون ذلك وهم – تجار الصادرات وتجار الواردات وملاك العقارات – كانوا يدفعون مبالغ كبيرة تمثل أعلى دخل فى إيرادات المجلس(٤٩) .

وكانت فرنسا ثالث الدول الأجنبية التى أظهرت عدم رضى عن إعادة تشكيل مجلس بلدى مدينة الاسكندرية ، وشاركت فى ذلك كلا من بلجيكا وإيطاليا ، واشتركت قنصليات الدول الثلاث فى مصر فى توجيه مذكرة بوجهة نظرهم فى القانون الخاص باعادة تشكيل مجلس بلدى الاسكندرية ، إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية رأت أنه حيث لم يتضح من منطوق القانون حدوث تغير شامل، فان وضع الرعايا الأمريكيين لن يتأثر تأثيرات جذرية(٥٠) ، ومن ثم فلا داعى للمبالغة فى اتخاذ مواقف مضادة .

ولكن الوزير الأمريكى فى مصر – مستر فيش Fish – أرسل مذكرة لوزارة الخارجية المصرية فى ٢٢ مايو ١٩٣٥ م ، يشير إلى المرسوم بقانون رقم ١ الصادر فى أول يناير ١٩٣٥ م ، والقرارات الوزارية المؤرخة فى ٢ يناير من نفس العام المتعلقة باعادة تشكيل مجلس بلدى الاسكندرية ، وأنه بناء على تعليمات الحكومة الأمريكية فانه يذكر الحكومة المصرية بأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت إحدى الدول التى وافقت على مذكرة

وزارة الخارجية المصرية المؤرخة فى ١٦ مايو ١٨٨٩ م ، بشأن المرسوم الأساسى بتأسيس مجلس بلدى لمدينة الاسكندرية ، وان هذه الموافقة تضمنتها مذكرة رقم ١١٣٦ فى ٨ يوليو ١٨٨٩ م، من القنصلية العامة والوكالة الأمريكية فى القاهرة ، وانه كما جاء بالمذكرة يلاحظ أن موافقة الولايات المتحدة لم تكن مرتبطة بمادة أومواد بعينها ولكنها مرتبطة بكل بنود القانون الذي بموجبه تأسس عام ١٨٩٠ م، المجلس البلدى لمدينة الاسكندرية(٥١) .

وهذا يعنى أن الحكومة الأمريكية لا تعترض على اعادة تشكيل مجلس بلدى مدينة الاسكندرية ، وان كانت تبدى تحفظا بتأكيد حماية مصالح الرعايا الأمريكيين الذين يمكن أن تتعرض بأية صورة للتأثر بالقانون رقم ١ لعام ١٩٢٥ م ، والقرارات الوزارية الصادرة والمتعلقة بالقانون المذكور(٥٢) .

ولكن وزارة الخارجية الأمريكية رأت عدم الاصرار على إثارة الاعتراضات ضد إعادة تشكيل مجلس بلدى الاسكندرية ، وأن وزارة الخارجية لا ترغب أن يستمر الوزير الأمريكى فى مصر — Fish — فى التأكيد على وجهة النظر القائلة بأن اعادة تشكيل مجلس بلدى الاسكندرية من المحتمل أن يضعف من المصالح والحقوق الأمريكية بمصر(٥٣) .

وكان هذا بداية النهاية للاعتراف الدولى بأن الامتيازات الأجنبية فى مصر يمكن انتهاء أجلها تحقيقا لمطالب المصريين ، الذين استمروا فى التأكيد على ضرورة الغاء الامتيازات الأجنبية حتى عقدت معاهدة ١٩٣٦م، ومن بعدها مؤتمر مونترو ١٩٢٧ م، الذى تقرر فيه — كما رأينا — موافقة الدول الأجنبية على إلغاء الامتيازات فى مصر ، وبالغائها أزيلت آخر بقايا امتياز عدم خضوع — الأجانب — للحكم الوطنى(٥٤) .

الحواشى

(١) د. رأفت الشيخ : فى تاريخ العرب الحديث ص ، ٣٩ .

(٢) د مكى شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل،ص ٥١٥ .

(٣) بيير رنوفان ، تعريب د . جلال يحيى : تاريخ العلاقات الدولية ص ٥٩٢ .

(٤) The Secretary of state to messrs. Alexander and Green of New York, Washiugton, August 26, 1935. No. 17618.

(٥) Jasper Y. Brinton : The Mixed Courto of Egypt, P.L.

(٦) د. رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث — ص٣٦٦—٣٦٧ .

(٧) (الحاشية) .

(٨) The Secretary of State to Mesare —— Ibid,

(٩) د . محمد أنيس وآخرون : دراسات فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى والحديثة ، ص ١٩١ .

(١٠) لورد كرومر ، تعريب عبد العزيز عرابى : الثورة العرابية ، ص ٧٠ .

(١١) Warner, Morten and Muir : The New Groundwork of British History, P. 875.

(١٢) محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ج ١ ص ١ .

(١٣) د. مكى شبيكة : المرجع السابق ، ص ٧٤٢ .

(١٤) محمد شفيق غربال : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(١٥) مؤسسة الأهرام : ٥٠ عاماً على ثورة ١٩١٩ ، ص ٤٨ .

(١٦) نفس المرجع : ص٧١ ، وغربال،ص٤٠ .

(١٧) غربال : ص ٤٦ .

(١٨) مؤسسة الأهرام : ص ٩٠ .

(١٩) نفس المرجع، ص ٩٣ .

(٢٠) غربال : ص ٦٢ .

(٢١) مؤسسة الأهرام : ص ٣٧١ الحاشية .

(٢٢) غربال : ص ٦٩ .

(٢٣) نفس المرجع ، ص ٧٢ .

(٢٤) نفس المرجع ، ص ١٥١ .

(٢٥) نفس المرجع ، ص ١٧٧ .

(٢٦) نفس المرجع ، ص ١٨١ .

(٢٧) نفس المرجع ، ص ٢١١ .

(٢٨) Memorandum by the Chief of Division of Near Eastern Affairs, No. 833. 05 1516, Washingon, October 13, 1934.

(٢٩) The Chief of Division of Near Eastern Affairs (Murray) to the Under Secretary of State (Phillips) No. 883. 05 1525 Washington, Jannary 3, 19 5.

(٣٠) The Secretary of State to the Minister in Egypt (Fish) No. 883. 05 1551, Telegram, Washington, Jannary 3,1936 – 5 P.M.

(٣١) The Secretary of State to the Minister in Egypt (Fish) No. 883. 05 : Tekgram, Washington, January 13, 1936 – 3 P.M.

(٣٢) جاء ذلك فى البيان الذى ألقاه الدكتور أحمد ماهر عند ختام مناقشة المعاهدة فى مجلس النواب ، غربال : المرجع السابق ص ٢٨٩ .

(٣٣) أنتونى ناتنج ، تعريب د . راشد البراوى : العرب انتصاراتهم وأمجاد الاسلام ص ٥١٤ .

(٣٤) غربال : ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .

(٣٥) الوقائع المصرية ، السنة الخامسة بعد المائة ، ٣ يناير ١٩٣٥ م .

(٣٦) الوقائع المصرية ، السنة التاسعة والخمسون ؛ ٦ يناير ١٨٩٠ م .

(٣٧) أضيفت عبارة أو من ينوب عنه فى التعديل الصادر بالقانون رقم ١ لعام ١٩٣٥ م .

(٣٨) عدلت عبارة الأشغال العمومية الى مصلحة المبانى أو من ينوب عنه فى التعديل المشار إليه .

(٣٩) نصت نفس المادة فى الأمر العالى الخديوى لعام ١٨٩٠م، على أن تكون الأجرة ٧٥ جنيها سنوياً فأكثر .

(٤٠) كان نص نفس المادة فى الأمر العالى الخديوى لعام ١٨٩٠ م ، أن يتم اجتماع القومسيون مرة كل شهر .

(٤١) نقلت هذه الاختصاصات من المـادة رقم ٢٢ فى الأمر العالى الخديوى لعام ١٨٩٠ م .

(٤٢) جاء فى نفس المادة فى الأمر الخديوى لعام ١٨٩٠ م، إقرار القومسيون للميزانية قبل حلول اليوم الخامس عشر من شهر نوفمبر من كل سنة .

(٤٣) جاء فى نفس المـادة فى الأمر العالى الخديوى المشار اليه عبارة لغاية ٣١ ديسمبر .

(٤٤) حددت نفس المادة فى الأمر العالى الخديوى بداية الميزانية أول يناير ونهاية العمل بها فى ٣١ ديسمبر .

(٤٥) جاء بنفس المادة فى الأمر العالى الخديوى لعام ١٨٩٠ م، إدارة عموم حسابات الحـكومة .

(٤٦) مسألة أحـكام الانتخابات البلدية لم ترد فى الأمر العالى الخديوى المشار إليـه .

(٤٧) The Minister in Egypt (Fish) to the Secretary of State, February 14, 1935 Cairo.

(٤٨) نصت المـادة رقم ٣١ على مايلى : للقومسيون البلدى أن يتداول فى الميزانية والايرادات والمصروفات الاعتيادية وغير الاعتيادية ، وعلى العموم فى جميع المسائل التى تتعلق ببلدية المدينة ، ولا يجوز له بأى صفة كانت إحـداث رسوم جديدة ولا تعديل فى الرسوم المقررة ، بل له أن يعرض عما يراه فيما يتعلق بالأمور الآتى بيانها :

أولا : تقرير عوايد إضافية على الرسوم المقررة .

ثانيا : إحداث رسوم جديدة .

ثالثا : فتـح سلف لا يتجاوز مجموعها مطلقا ٥٠٠٠٠٠ ج ٠ م (٥٠٠ ألف جنيه مصرى) مع إيضاح الأبواب المرغوب صرف هذه الايرادات الغير اعتيادية فيها .

وللمجلس النظار دون غيره أن يقرر مايراه فيما يعرض عليه من هذا القبيل . فإذا وافق المجلس يـكون الطلب المعروض عنـه نافذ المفعول ، ولـكنه إذا كان مخالفا لنص المعاهدات الصريح فلا يصير نافذا إلا بعد إقرار الدول عليه .

ومع ذلك فلا حاجة لهذا إلا قرار فيما يختص بالرسوم على المواد الآتية وغيرها التى تكون مخصصة للبلدية فقط ، ويكون لها صفة بلدية محضة وهى : الطرق (التنظيم) والبالوعات والموازين العمومية والأسواق والمخازن العمومية وتشييع الجنازات وإعطاء أراضى للدفن فى الجبانات وإشغال الطريق العام والعربات العمومية والخصوصية وعوائد الوقوف والكنس والرش والفنادق (اللوكاندات) ، والنواد (الكلوبات) والبيوت المفروشة المعدة للتأجير والقهاوى والخمارات وقهاوى الملاهى والمراقص والملاهى والتياترات والألعاب والمهرجانات العمومية وأسواق الموالد وبيوت المومسات وعربات الأمنيبوس ، والترمواى وعربات النقل والكلاب والدواب المعدة لحمل الأثقال أو للركوب أو لجر العربات إلى آخره .

كما نصت المادة ٤٠ من الأمر العالى الخديوى لعام ١٨٩٠ م على أن ايرادات الميزانية هى الآتية :

أولا : صافى مايتحصل باعتبار نصف من واحد من الألف على قيمة الصادرات .

ثانيا : صافى ما يتحصل باعتبار نصف من واحد من الألف على قيمة الواردات (وهذه الايرادات صار تقريرها لمدة خمس سنوات لاغير تبتدىء من تاريخ نشر أمرنا هذا) .

ثالثا : صافى مايتحصل من أرباب الأملاك بواقع واحد فى المائة بالأكثر من قيمة إيجارات أملاكهم المبنية .

رابعا : صافى ما يتحصل من مستأجرى الأملاك المبنية بواقع اثنين فى المائة بالأكثر من قيمة الايجارات .

خامسا : صافى ما يتحصل من الرسوم على العربات والدواب المعدة لحمل الأثقال .

سادسا : المتحصل من جناين النزهة .

سابعا : المتحصل من عوائد الطرق .

ثامنا : صافى مايتحصل بواقع خمسين فى المائة من صافى إيرادات دخولية اسكندرية البالغ قدرة بضمان الحكومة ٣١٧٨٠ جنيه مصرى .

تاسعا : الايرادات الأخرى التى تتقرر بالوجه القانونى .

The Consul General at Alexandria (Russell) to (٤٩) the Secretary of State No. 624 Alexandria, February 25, 1935.

(٥٠) The Secretary of State to the Minister in Egypt (Fish) No. 84, Washington, April 29, 1935.

(٥١) The American Legation to the Egyptian Ministry for Foreign Affairs, No. 137. Cairo, May 22, 1935.

(٥٢) Ibid

(٥٣) The Secretary of State to the Minister in Egypt (Fish) No. 108, Washington, July 12, 1935.

(٥٤) أنتونى نانتنج ، تعريب د٠راشد البراوى: العرب٠٠٠ ص ٥١٤ ٠

مصـــادر البحث

أولا : الوثائق :

١ — Foreign Relations of the U.S. Diplomatic Papers, 1935. in foür Velumes, Vcl. 1 General, The Near Eastand Africa. U.S. Government Printing Office, Washington 1943.

٢ — الأمر العالى الخديوى الصادر فى ٥ يناير ١٨٩٠ م ، بشأن تأسيس قومسيون بلدى بمدينة الاسكندرية ، نشر فى الوقائع المصرية ، السنة التاسعة والخمسون ٦ يناير ١٨٩٠م .

٣ — المرسوم بقانون رقم ١ لعام ١٩٣٥م، بتعديل الأمر العالى الصادر فى ٥ يناير ١٨٩٠ م بتشكيل قومسيون بلدى بمدينة الاسكندرية ، معنون بعبارة نحن فؤاد الأول ملك مصر ، نشر فى الجريدة الرسمية — الوقائع المصرية — بتاريخ ٣ يناير ١٩٣٥م السنة الخامسة بعد المائة .

٤ — قرار وزارى صادر عن وزير الداخلية بإعادة التنظيم الإدارى لبلدية الاسكندرية الصادر فى ٣ يناير ١٩٣٥م، ونشر فى جريدة الوقائع المصرية بتاريخ ٤ يناير ١٩٣٥م .

ثانياً : الكتب :

١ — دكتور رأفت الشيخ: فى تاريخ العرب الحديث — القاهرة ١٩٧٥م.

٢ — دكتور مكى شبيكة: تاريخ شعوب وادى النيل (مصر والسودان فى القرن التاسع عشر) بيروت ١٩٦٥م .

٣ — دكتور السيد رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال البريطانى — القاهرة ١٩٧٠م .

٤ ـ بيير رنوفان ترجمة دكتور جلال يحيى : تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ — ١٩١٤م — القاهرة ١٩٧١م .

٥ ـ محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ١٨٨٢ — ١٩٣٦ ج ١ - القاهرة ١٩٥٢م .

٦ ـ لورد كرومر تعريب عبد العزيز عرابي : الثورة العرابية — القاهرة ١٩٦٠م .

٧ ـ مؤسسة الأهرام، مركز الوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة، ٥٠ عاماً على ثورة ١٩١٩ — القاهرة ١٩٦٩م .

٨ — Gaspery. Brirton (Justice of the Court of Appeals Mixed Courto of Egypt) ; The Mixed Courto of Egypt, New Haven Yale university Press, 2 nd Printing: 1931.

٩ — Warner; Masten and Muir ; The New Groundwork of British History, section four, (1688—1h39) Blackie London 1947.

أضـــواء على

موقف وزارة على ماهر

من الحرب العالمية الثانية

« دراسة وثائقية »(*)

للدكتور عبد الخالق محمد لاشين

فى ١٢ أغسطس ١٩٣٩ فاجأ محمد محمود — رئيس الوزارة المصرية — زملاءه أعضاء الوزارة وقيادات حزب الأحرار الدستوريين ونواب الأمة بتقديم استقالة وزارته طبقاً لرغبة الملك(١) . إذ يبدو أن الأخير رأى أن يدعم مركزه بإسناد الوزارة إلى على ماهر ساعده الأيمن ، لأنه وجد فيه « خير » من يتولى هذا المنصب فى « هذا الظرف الدقيق من حياة الأمة » ، نظراً لما كان يمر به العالم من « دور خطير »(٢) .

ويستوقف النظر فى أمر هذه الوزارة الجديدة أن على ماهر لم يكن حريصاً على أن يشرك معه فيها حزب الأحرار الدستوريين ، ذلك الحزب

---

* تقتضى الأمانة أن أسدى الشكر خالصاً للأستاذ حسن يوسف ، المشرف على مركز تاريخ مصر المعاصر ، التابع لمؤسسة الأهرام ، لتفضله باطلاعى على الوثائق البريطانية الخاصة بهذا البحث ، والاذن لي بنشر هذا البحث الذي كنت قد عاونت المركز المذكور في إعداده .

الذى كان قد بنى خطته على أساس التعاون مع الوزارة الجديدة والاشتراك فيها[٣]. غير أن على ماهر خيب أمل الحزب وقادته عندما لجأ خلال مباحثات تشكيل وزارته إلى إحراج الحزب ووضعه فى مركز لا يسمح له بالاشتراك فيها[٤]. ففى ١٨ أغسطس ١٩٣٩ صدر قرار تشكيل الوزارة من بين قيادات الهيئة السعدية وبعض المستقلين من أنصار على ماهر والقصر متجاهلا الأغلبية البرلمانية التى كان يتمتع بها حزب الأحرار الدستوريين فى مجلس النواب، وهى تلك الأغلبية التى كان الحزب قد حصل عليها فى انتخابات إبريل ١٩٣٨[٥]. وربما يفسر ذلك التجاهل أن التشكيل الوزارى الجديد استحدث منصبين وزاريين للشئون البرلمانية للمرة الأولى فى تاريخ مصر تولاهما سياسيان بارزان هما محمد على علوبة وإبراهيم عبد الهادى[٦]، ليستطيعا بما لهما من خبرة ونفوذ سياسى أن يتعاملا مع مجلس النواب والشيوخ فى مثل هذه الظروف الدولية الحرجة.

ولم يكد يمضى أسبوع واحد على تشكيل الوزارة حتى بعث مستر بوتمان — الوزير المفوض فى السفارة البريطانية فى القاهرة والقائم بعمل السفير نظراً لتغيب مايلز لامبسون — بمذكرة إلى على ماهر بتاريخ ٢٤ أغسطس ١٩٣٩ يطلب إليه فيها أن تمنح الحكومة البريطانية « ممارسة حقها فى تعزيز القوات البريطانية المتمركزة فى مصر »، وأن تضع الحكومة المصرية تحت تصرف حكومة بريطانيا « جميع التسهيلات والمساعدات المنصوص عليها فى المادة السابعة من معاهدة التحالف »[٧]. كما تطلب إليها اتخاذ « جميع الأعمال التحضيرية الإدارية اللازمة لضمان إعلان حالة الطوارىء فى أقصر وقت ممكن متى دعت الضرورة إلى ذلك »[٨]. ومما يلفت النظر أن القائم بالأعمال البريطانى استند فى مذكرته إلى « أن حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها قد وقعت »، وهى العبارة التى أثارت اعتراضات بعض أعضاء البرلمان المصرى عند مناقشة معاهدة التحالف والصداقة التى وقعت بين مصر

وبريطانيا فى أغسطس ١٩٣٦(٩) . على أن الحالة الدولية المفاجئة التى يشير إليها القائم بالأعمال البريطانى هى تهديد ألمانيا بغزو بولندا ، وتصميم كل من انجلترا وفرنسا على الدفاع عن سلامة بولندا فى حالة تعرضها لأى غزو ألمانى(١٠) .

وفى أول سبتمبر ١٩٣٩ استقبل الملك فاروق سير مايلز لامبسون — السفير البريطانى فى القاهرة — وأعرب له عن « كامل استعداده للتعاون » مع الحكومة البريطانية . وناقشا معاً موقف إيطاليا فى حالة وقوع الحرب. وأبدى الملك للسفير عدم ارتياحه لسياسة انجلترا الخاصة بأن « تظل إيطاليا بعيدة أطول فترة ممكنة » لأنه كان يرى أن الحكومة البريطانية « ستعمل على أن تشرك إيطاليا فى الحرب قريباً »(١١) . وينبغى أن نلاحظ أن هذه المقابلة وما دار خلالها من نقاش قد حدث فى نفس اليوم الذى أعلنت فيه ألمانيا الحرب على بولندا ، وقبل أن تعلن انجلترا حالة الحرب ضد ألمانيا .

وفى نفس اليوم — أول سبتمبر — بادر على ماهر بإعلان الأحكام العرفية فى مصر وتم تعيينه حاكما عسكرياً . وقام باتخاذ كافة الإجراءات التى نصت عليها المعاهدة للرقابة العامة على البريد والمراسلات السلكية واللاسلكية ، وأعلنت حالة الطوارىء وأنشئت مصلحة رقابة النشر ، وكانت رقابة مشتركة مثلت فيها كل من مصر وانجلترا ، كما فرضت مجموعة من القيود الحربية والاقتصادية ، وقسمت البلاد إلى أربع مناطق عسكرية ، ووضعت موانيها ومطاراتها تحت تصرف انجلترا . كما تم قطع علاقات مصر الدبلوماسية مع ألمانيا فى الثالث من سبتمبر ، وتم إلقاء القبض على الرعايا الألمان ووضع ممتلكاتهم تحت الحراسة ، وأصدرت الحكومة المصرية تصريحاً نص على ضرورة تفتيش السفن فى بور سعيد والسويس وإغلاق قناة السويس فى وجه السفن المعادية ، ولم يلبث أن أصبح المرور فيها قاصراً على سفن الحلفاء الحربية(١٢) .

وبالرغم من كل تلك الإجراءات التى اتخذتها وزارة على ماهر حتى من قبل أن تعلن انجلترا ذاتها قيام حالة الحرب ضد ألمانيا :وبالرغم من المعارضة التى أثارتها الأحزاب المصرية فيما بعد وخاصة حزب الوفد(١٣) ضد هذه الإجراءات ، فإن السفير البريطانى اعترض على موقف مجلس الوزراء المصرى وطالب بضرورة إعلان حالة الحرب على ألمانيا . غير أن على ماهر تذرع بوجود معارضة فى مجلس الوزراء « ضد إعلان حالة الحرب » . وقد وصف السفير البريطانى الموقف داخل مجلس الوزراء المصرى بأنه يعتبر « أول أزمة من نوعها فى تاريخ مصر المستقلة »(١٤) .

وقد بعث وزير الخارجية البريطانية فى الثامن من سبتمبر ١٩٣٩ بتأييده التام لموقف سفيره فى القاهرة ومطالبه من حكومة على ماهر محبذاً ضرورة قيام مصر باعلان حالة الحرب ضد ألمانيا متعللا بأن مصر سوف تكسب اقتصادياً من إعلانها لحالة الحرب ، كما أنها « سيكون لها الحق فى توقيع معاهدة الصلح على أساس المساواة مع الدول الأخرى »(١٥) .

وقد ظل السفير البريطانى فى القاهرة يمارس ضغطه بقوة كى يرغم على ماهر - رئيس الوزارة - على إعلان حالة الحرب ضد ألمانيا ، على الرغم من أن بريطانيا ذاتها قد تأخرت فى إعلان الحرب حتى الثالث من سبتمبر وبعد انقضاء يومين على غزو ألمانيا لبولندا . وقد جاء ذلك مجرد إعلان «لحالة» الحرب معها فحسب ، وشاركتها فرنسا نفس الموقف(١٦) . ولقدكان من الممكن اعتبار الاجراءات والترتيبات التى اتخذتها الوزارة المصرية كافية للغاية ، فقد قوبلت بموجة من الهجوم والاستياء من جانب بعض قطاعات الرأى العام المصرى على اعتبار أن مصر لم تكن قد أعلنت قيام حالة الحرب ، كما أن الحكومة الانجليزية ذاتها لم تكن قد أعلنت - مثلما فعلت مصر - الأحكام العرفية . بل اكتفى برلمانها وحكومتها بوضع التشريعات الكفيلة بحماية الدولة فى حالة الحرب دون تقييد لحرية الصحافة

ألهم إلا فى أضيق الحدود التى تقتضيها ضرورات الحرب(١٧) . ولكل هذه الاعتبارات وغيرها تريثت وزارة على ماهر فلم تعلن حالة الحرب مع ألمانيا ، حيث أن المخاوف كانت تساور البعض وتصدهم عن الاندفاع فى هذا التيار ، فقد كانوا يرون أن ألمانيا « لا تقهر » وأن تنفيذ مصر للمعاهدة باعلان الحرب ، أمر خطير النتائج ، خاصة إذا ما اشتركت إيطاليا فى الحرب إلى جانب ألمانيا(١٨) . لكل ذلك أخذت وزارة على ماهر تثير المشاكل والتعللات كسباً للوقت من ناحية ، ومسايرة للرأى العام المصرى من ناحية أخرى . على الرغم من أن السفير البريطانى قد لوح خلال حديثه مع على ماهر بأن « مصر بموقفها هذا قد فاتها كثير من المجد ، إذ فشلت فى قيادة العالم العربى وخذلت العراق وزعزعت ثقة الحكومة البريطانية فيها »(١٩). وذلك تلويح له مغزاه نظراً لما لإعلان مصر حالة الحرب من أثر معنوى كبير فى البلدان العربية وبلدان الشرق الأوسط .

وأمام الضغط المستمر من جانب السفير البريطانى وافق مجلس الوزراء المصرى بالإجماع فى اجتماعه المنعقد بالاسكندرية مساء ٨ سبتمبر ١٩٣٩ على إعلان حالة الحرب ضد ألمانيا ، وإن كان قد علق موافقته هذه على أن يبعث السفير بخطاب إلى رئيس الوزراء المصرى مؤداه « أن إعلان الأحكام العرفية فى مصر وقطع العلاقات مع ألمانيا لم تكن كافية لمواجهة التدابير اللازمة للمحافظة على أمن البلاد وسلامة القوات البريطانية ، وأن المطلوب الآن هو إعلان قيام حالة الحرب » . كما تم إبلاغ السفير البريطانى ببعض المسائل التى تشغل بال الوزراء المصريين ، ومنها حماية السفن المصرية فى الملاحة فى البحر الأبيض المتوسط وعودة المصريين الموجودين بالخارج وضرورة اتخاذ بريطانيا الاجراءات اللازمة لضمان أمنها وسلامتها . وقد بعث السفير البريطانى إلى وزير خارجيته يطلب الترخيص له بتقديم الخطاب اللازم لرئيس الوزراء المصرى ، ويحيط الخارجية البريطانية علماً بكل تلك المسائل(٢٠) .

وقبل أن يتلقى السفير رد حكومته، سلم إليـــه على ماهر - خلال اجتماعهما فى ٨ سبتمبر - صورة برقية كان قد تسلمها لتوه من حسن نشأت سفير مصر فى لندن مؤرخة فى ٧ سبتمبر تتعلق بمقابلة الأخير مع مستر بتلر وكيل وزارة الخارجية البريطانية، فهم منها نشأت أن بتلر يحبذ وقوف مصر على «الحياد»؛ لما فى ذلك من تسهيل وورود أسلحه أمريكية للحلفاء. وهو ذلك الامر الذى يعد تغييرا كبيرا فى خطة مصر وسياستها من إعلان الحرب. وربما أن رئيس الوزراء المصرى قدم صورة تلك البرقية رغبة منه فى التراجع عن القرار الذى سبق أن اتخذه مجلس الوزراء من قبل والذى عده السفير البريطانى «فشل فى الوفاء بما عاهده عليه كتابة وشفهياً». وقد عزا ذلك إلى دخول القوات الالمانية وارسو عاصمة بولندا، وطلب من حكومته «إيضاحات تبدد سوء الفهم الذى وقع فيه سفير مصر»(٢١).

وقد استمرت وزارة على ماهر من جانبها فى اتباع سياسة التسويف والمماطلة مستغلة عدم وصول الرد على ماطلبه السفير من حكومته. وأخذت تثير عدة مسائل دستورية تتعلق بقانونية إعلان حالة الحرب والاجراءات اللازمة لذلك. غير أن السفير الذى كان قد نفذ صبره طلب من رئيس الوزراء فى وضوح «هل الحكومة المصرية على إستعداد لإعلان الحرب؟»، وإذا كانت على إستعداد فهل يجب دعوة البرلمان للاجتماع؟ وذهب فى قوله إلى حد أنه «ينبغى أن تقوم الحكومة بما هو واضح وواجب عليها القيام به بموافقة البرلمان أو بغير موافقة»، وقد اتخذ من وضع السودان وسيلة للضغط على رئيس الوزراء حيث صرح له «ماذا يكون عليه موقف السودان الشاذ: فهو محارب مع أحد الشريكين ومحايد مع الشريك الآخر!!» وقد استرعى ذلك الحديث انتباه على ماهر وطلب منه إمهاله حتى المساء ليبلغه بما ينتهى إليه الموقف فى اجتماع الوزراء مساء ٩ سبتمبر ١٩٣٩(٢٢).

وقد قام رئيس لجنه قضايا الحكومة - عبد الحميد بدوى - بإعداد مذكرة

حول شرعية إعلان الحرب على ألمانيا من الناحية الدستورية صيغت ولا شك ببراعة فائقة ، كما استندت على أسس قوية وأشارت على الحكومة المصرية بعدم إعلان حالة الحرب إلا بموافقة البرلمان بالإجماع على اعتبار أن مصر ستخوض حرباً هجومية وليست دفاعية . ومما يسترعى الانتباه أن على ماهر أقحم الملك فاروق فى موضوع إعلان حالة الحرب من عدمه ونسب إليه أنه قد حضر تحرير مذكرة عبد الحميد بدوى(٢٣) .

وفى رسالته إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٢ سبتمبر بعث السفير البريطانى بملاحظاته على ماورد بالمذكرة المصرية من حجج وأسانيد محاولا تفنيدها والرد عليها ، وقد خلص فيها إلى أن الحكومة البريطانية ينبغى أن توطن نفسها على أن الحكومة المصرية غير مستعدة لإعلان حالة الحرب فى الوقت الحاضر ، ولكنه طلب ضرورة أن تسجل حكومته فى ردها على المذكرة المصرية خيبة أملها ودهشتها لفشل رئيس الوزراء فى أن يفى بما وعد به مراراً وبصفة رسمية ، وأن « ما أظهره من المراوغة كان له أثر سىء ولم يقع من حكومة جلالة الملك موقع الرضا »(٢٤) . وقد ضاق السفير البريطانى ذرعاً بهذه المذكرة التى أعدها بدوى وذهب فى التهجم عليها إلى حد القول بأنها « ليست قرآناً منزلا » ، وأن الخبراء الدستوريين « إنما يؤخذ رأيهم باعتبارهم مراجع قانونية فحسب » وأن الذين لهم القول الفصل فى ذلك إنما هم « أعلى المستويات » فى مصر(٢٥) .

وفى نفس اليوم — ١٢ سبتمبر — بعث وزير الخارجية البريطانية — فيكونت هاليفاكس — ببرقية إلى السفير البريطانى فى القاهرة يبلغه بأن حسن نشأت سفير مصر فى لندن قد سلمه رسالة من على ماهر تفيد بأن الحكومة المصرية مستعدة لتنفيذ كل واجباتها والتزاماتها التى تتفق ونصوص المعاهدة . كما أنه قد قامت عدة صعوبات فى سبيل إعلان مصر لحالة الحرب وهى نفس الصعوبات التى قامت فى العراق الأمر الذى دفع الحكومة

المصرية إلى الاتصال بالحكومة العراقية لإقناعها بضرورة أن تحذو العراق حذو مصر. كما نقل إليه الحديث الذى دار بينه وبين سفير مصر فى لندن عند اجتماعه به فى ١٢ سبتمبر ؛ ذلك الحديث الذى تضمن التطورات التى مر خلالها موضوع إعلان مصر لحالة الحرب ضد ألمانيا والمصاعب التى واجهت ذلك(٢٦) .

وفى ١٣ سبتمبر أبرق هاليفاكس وزير الخارجية البريطانية إلى سفيره فى القاهرة يبلغه بأن فرصة مصر فى إعلان حالة الحرب قد ضاعت بعد القرار الذى اتخذه مجلس وزراء مصر فى ٨ سبتمبر وكان يقضى بعدم إمكانية صدور مثل هذا الإعلان إلا بعد عرضه على البرلمان ، لأن ذلك « قد يجر إلى متاعب وقد ينتهى إلى الرفض » كما عبر عن ذلك هاليفاكس ، كما أشار إلى السفير بأنه يرى « أن معاودة الضغط على الحكومة المصرية فى هذا الصدد لا جدوى منه »(٢٧) .

وقد عاد وزير الخارجية البريطانية فطلب من سفيره فى ١٥ سبتمبر تجاهل المذكرة المصرية التى أعدها عبد الحميد بدوى حول دستورية إعلان حالة الحرب على ألمانيا ، ذلك لأن الخارجية البريطانية كانت قد بنت خطتها على أساس أنها سوف « تلجأ إلى الصمت المطبق» لتدع على ماهر « يتمكن بمدى تبرمنا ، وما عسى أن يكون عليه موقفنا فى المستقبل » . كما أوضح له كيف انتهت مشكلة الرعايا المصريين فى ألمانيا سواء كانوا دبلوماسيين أو غير دبلوماسيين(٢٨) .

وقبل أن ينصرم شهر سبتمبر ويمر شهر واحد على إجتياح ألمانيا لأراضى بولندا ، ونظراً لموقف وزارة على ماهر من قضية إعلان مصر لحالة الحرب على ألمانيا وما اتسم به هذا الموقف من مراوغة واكتساب للوقت وانتحال لشتى المعاذير ، فقد ضاقت الحكومة البريطانية بوزارة على ماهر

وأخذت تفكر فى تغييرها واستبدالها بوزارة جديدة . وذلك لأنها قد أخذت عليه عدة أمور كانت تكفى واحدة منها فقط لإسقاط وزارة مصرية فى الظروف العادية(٢٩) غير أن أوضاع الحرب وما نجم عنها من حساسية شديدة لوضع انجلترا فى مصر وموقف الرأى العام المصرى إزاء الحرب برمتها قد جعل الخارجية البريطانية وممثلها فى مصر يتريثان كثيرا قبل اتخاذ أى خطوة عنيفة ربما يكون من شأنها أن تضاعف من «إثارة معارضة شديدة ضد تدخل انجلترا » فى شئون مصر الداخلية . كما أن عدم وجود سياسى مصرى يستطيع — من وجهة النظر البريطانية — أن يخلف على ماهر فى الحكم دفع السفير البريطانى فى القاهرة إلى أن يشير على حكومته فى لندن أن تكف أيديها فى الوقت الحاضر ولا تتدخل فى الأمر إلى أن تحين الفرصة المواتية إما بأن « تعم الشكوى » أو أن « يعبث [على ماهر] بأحكام الدستور» فعندئذ تجد انجلترا مبرراً لتدخلها بحجة إنقاذ موقف « ظاهر الخطورة فى زمن الحرب »(٣٠) .

وكان من الواضح أن من بين العوامل التى دفعت انجلترا إلى التريث قليلا قيام على ماهر برئاسة كل من الوزارة والديوان الملكى معاً . الأمر الذى كان يعنى أن اصطدام إنجلترا بعلى ماهر سوف يؤدى حتما إلى صدامها بالملك فى نفس الوقت والذهاب إلى حد استخدام القوة والتلويح بعزله ، وهو ما لم تكن إنجلترا راغبة فيه فى تلك الظروف على الأقل خوفا من موقف الرأى العام ثم من موقف الجيش المصرى . يضاف إلى ذلك أن إنجلترا — بالرغم من كل ذلك — قد امتدحت لعلى ماهر كل مواقفه وجهوده فى تنفيذ كافة ما طلب منه فيما عدا مسألتين فقط هما : إعلان حالة الحرب ، واعتقال بعض الموظفين الألمان . وفى هذا الصدد يذكر السفير البريطانى « أنه قد استجاب لمطالبنا بكل همة ، وأصدر تشريعات الطوارىء بسرعة لم يكن فى مقدور حكومة أخرى أن تقوم بها » ، ويضيف « وقد

يكون له بعض العذر عن المسألتين المشار إليهما بسبب خشيته مما قد تسفر عنه الحرب ، ومن الجائز أن يعدل موقفه مع بوادر انتصارات الحلفاء »(٣١).

على أية حال ، فقد تجمد الموقف مؤقتا ، وقبلت بريطانيا من مصر موقفها على مضض ، وراحت ترقب تصرفات حكومتها بحذر وقلق شديدين طوال الأشهر المتبقية من عام ١٩٣٩ وأوائل عام ١٩٤٠ وإن ظلت ترى أن وزارة على ماهر تقوم بتنفيذ بنود معاهدة التحالف والصداقة بسخاء إلا أنها « تنفذها تنفيذ الكاره الساخط ، وليس الصديق الحريص على معاونة صديقه وانجاده » . وهكذا كانت الحالة النفسية القائمة بين الوزارة المصرية والسلطات البريطانية فى مصر مشوبة بفتور كبير وعدم الثقة والاطمئنان إلى المستقبل(٣٢). وظل وضع مصر الدولى شاذاً وفريداً ، فهى طبقاً لنصوص المعاهدة كانت فى حلف مع إنجلترا ، وبالتالى وضعت مواردها تحت تصرف إنجلترا دون أن تكون رسميا فى حالة حرب مع ألمانيا . ولهذا لم يكن باستطاعتها أن تأخذ بموقف الحياد . إذ أن الفارق العملى الوحيد بين وضع مصر هذا وحالة الحــــرب هو أن القوات المسلحة المصرية لم تكن ملزمة بالاشتراك فى الحرب اشتراكا فعليا ضد الألمان(٣٣) .

غير أن تطوراً كبيراً طرأ على الموقف العسكرى فى أوربا نتيجة لإجتياح الجيوش الألمانيه أراضى كل من بولندا والنرويج وبلجيكا وهولندا والدانمرك وتوغلها فى الأراضى الفرنسية حيث لم تستطع القوات البريطانية والفرنسية الصمود أمامها ، الأمر الذى أدى إلى سقوط وزارة نيفل شمبرلين فى إنجلترا باعتبارها وزارة غير قادرة على تحمل أعباء الحرب وإدارة دفتها وتشكيل وزارة قومية بريطانية برئاسة ونستون تشرشل فى العاشر من مايو ١٩٤٠(٣٤) ومن ناحية أخرى فإن موسولينى — عاهل إيطاليا - رأى مع التفوق العسكرى الألمانى أن الفرصة باتت سانحة أمام إيطاليا لاشتراكها فى الحرب إلى جانب حليفتها ألمانيا علها تظفر بنصيب من مغانمها عند

عقد الصلح . حقيقة أنه قد التزم موقف الحياد طوال الفترة الماضية فأتاح لبلاده أن تجنى الكثير من الفوائد الاقتصادية والتجارية ، غير أنه بدأ مع التطورات العسكرية الجديدة يفكر جديا فى دخول إيطاليا الحرب(٣٥) . ولهذا كان يهم بريطانيا بالدرجة الأولى أن تستطلع رأى الحكومة المصرية وموقفها فيما إذا دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا لأن ذلك سوف يشكل تطورا جوهريا فى موقف كل من مصر وبريطانيا. ومن ناحية أخرى فقد كان يهم إيطاليا أن تتعرف على موقف مصر فى حالة دخول إيطاليا الحرب مع ألمانيا .

ولهذا فقد سأل وزير إيطاليا المفوض فى القاهرة على ماهر فى ٢٥ مايو ١٩٤٠ عما إذا كان فى نية مصر مهاجمة إيطاليا ، فرد عليه رئيس الوزارة المصرية بأن مصر ليس لديها هذه النية وأنها ستبذل كل جهدها لتجنب الحرب ضد إيطاليا ، ولكنها ستقاوم أى هجوم يشن عليها من جانب إيطاليا . وفى نفس اليوم فإن السفير البريطانى رأى — هو الآخر — ضرورة إبلاغ رئيس الوزراء المصرى بأن بريطانيا — إذا ما وجدت نفسها فى حالة حرب ضد إيطاليا — فإن مصر بطبيعة الحال ينبغى أن تقف إلى جانبها « كحليف محارب » . إلا أن رئيس الوزراء المصرى عاد فكرر له ما سبق أن ارتأته حكومة مصر حول ضرورة عرض الموضوع على البرلمان والحصول على موافقته فى حالة ما إذا كانت الحرب بعيدة عن مصر ؛ لأنها ستكون فى هذه الحالة حربا هجومية . أما إذا ما وقع أى هجوم على أرض مصرية فإن الأمر يكون واضحاً تماماً بأنها ستكون حرباً دفاعية فلا داعى لدعوة البرلمان . وطلب من السفير عدم إثارة هذه المسألة فى الوقت الراهن إنتظاراً لتطورات الموقف « فقد لا تثار المسألة أبداً » كل ذلك على الرغم من إلحاح السفير وتذرعه بأن الهجوم يكون فى بعض الحالات « خير وسيلة للدفاع » . وقد اكتفى السفير بأن حذره من الدعاية الإيطالية التى تروج للنظرية القائلة بأن مصر يمكنها أن تظل بعيدة عن الحرب وهى آمنة إذا ما دخلت انجلترا فى حرب ضد إيطاليا(٣٦) .

ولم يكتف السفير البريطاني بذلك بل إنه إنتهز فرصة مقابلته للملك فاروق في أول يونية ١٩٤٠ ولفت نظره إلى الدعاية الإيطالية المتزايدة حول حياد مصر . فوعده الملك « بأنه سيتمهد المسألة » وأن كان لا يملك أن يصدر في هذا الشأن « أمراً عاليا » ، كما أوضح للسفير بأنه قام بوضع أحد أعمام الملكة فريدة تحت الحراسة نظراً لتشيعه للايطاليين ولميوله المحورية. بل ذهب الملك إلى حد القول بأنه مستعد لاتخاذ إجراءات مماثلة عند الضرورة وقد أبلغ السفير الملك بأنه فاتح على ماهر بلباقة « في شأن تعزيز حكومته بضم عناصر أخرى إليها لتصبح في وضع أقوى إذا ما عرضت مسألة (الحرب الهجومية) على البرلمان » . وكان السفير يقصد ضم عناصر وفـــدية إلى الوزارة ، ومع أن الملك أبدى موافقته على ذلك إلا أنه « راح يردد المطاعن ضد الوفد » على حد قول السفير ، الذي اقترح على الملك أيضا ضرورة تسوية الخلاف القائم بين الوفد ورئيسه مصطفى النحاس من جهة ، والهيئة السعدية ورئيسها أحمد ماهر الذي يترأس مجلس النواب من جهة أخرى ، لأن ذلك قد يساعد على تدعيم الوزارة بتوسيع القاعدة ، فوافقه الملك على ذلك وإن أبدى امتناعه عن القيام بدور الوســـاطة بينهما لأنه قد يزيد « الأمور سوءا بدلا من تحسينها » نظرا لأن المسألة « في غاية الدقة » . كما ناقش السفير مع الملك كذلك حجة على ماهر الخاصة بموقف البرلمان من الحرب الهجومية ، فجاءه رد الملك بأنه – ومعه رئيس وزرائه – يعرفان كيف يتعاملان مع البرلمان إذا تمسك برأيه ؛ ويقصد بذلك أنه يعتزم أن يتخطاه . ويذكر السفير أنه نظراً لخطورة المسألة فإنه لم يشأ أن يسترسل في الحديث عنها ، ويعلق السفير على موقف الملك بقوله أنه « لا يزال وديا كما يبدو في ظاهره ولو أنني لا أستطيع أن أقول إلى أي مدى يمكن أن نعتمد على ذلك إذا تأزمت الأمور » . وقد بعث السفير البريطاني بتقرير إلى وزير خارجيته في لندن بكل ما دار بينه وبين الملك وعلى ماهر ، وطلب رأي الوزارة في مسلكه هذا(٣٧) .

وفى الخامس من يونيه جاءه الرد من هاليفاكس مبدياً له عدم ارتياحه إلى الضغط الذى مارسه السفير على كل من الملك ووزيره الأول كى يتعهدا بإعلان الحرب على إيطاليا ، لأن ذلك الضغط ربما يسىء إلى بريطانيا أكثر مما يفيدها ، وأعرب له عن أمله فى أن تقدم الحكومة المصرية على عمل سوف تثبت الحوادث أن لا مفر منه . وأن مصر ستقف فى الحرب إلى جانب الحلفاء دفاعاً عن الحرية التى ينعم بها المصريون . كما أشار وزير الخارجية على سفيره فى القاهرة بأن «يكون مُقِلاًّ فى أبداء النصيحة بصدد تشكيل الوزارة فى مصر ، حتى لا يضايق الملك أو يساء تفسير نصيحته . أما فيما يتعلق بالخلافات الشخصية بين الساسة المصريين فقد أوضح له بأنها من « المشاكل الشائكة » ونصحه بأن يظل نفوذ السفارة البريطانية مستقراً إلا إذا اتخذت الأحداث « مساراً خطيراً »(٣٧) مكرر .

وفى نفس اليوم — ٥ يونيه — بعث السفير إلى وزير خارجيته بتطورات جديدة نجم عنها تطور سريع للموقف فى مصر ، ذلك لأن جريدة البلاغ — الموالية للقصر — كانت قد نشرت مقالا دعت فيه إلى ضرورة وقوف مصر موقف الحياد فى حالة دخول إيطاليا الحرب(٣٨) . وهو الأمر الذى عبر عنه السفير بقوله أن الجو «أخذ يتسمم بالنظرية القائلة بالامتناع عن دخول الحرب أو بالوقوف على الحياد » . مما دعاه إلى مقابلة على ماهر وحذره بلهجة قاسية ، واتهمه بأنه يخدع بريطانيا . وقارن بين ذلك المقال الذى نشرته جريدة البلاغ وبين مقال آخر نشرته جريدة المصرى — الوفدية — دعت فيه إلى عدم الاطمئنان لتأكيدات إيطاليا بعدم اعتدائها على مصر(٣٩) . وواضح من المقارنة التى عقدها السفير المغزى الذى يقصده من ورائها . وقد طلب السفير من رئيس الوزراء عدم السماح بنشر تلك الآراء « المضللة » والعمل على نشر الآراء « السديدة » التى يدعو لها الوفد فى هذه الأيام . غير أن رئيس الوزراء أنكر أية مسئولية له عن مقال

البلاغ ، وأوضح للسفير أنه قد أصدر تعليماته بمراقبة النشر ومنع جميع التعليقات ، كما أصدر تعليماته إلى وزير الدفاع بأن يعتمد أية مبالغ مالية تتطلبها الأغراض العسكرية ، وألا يتقيد في هذا الصدد باللوائح المالية العادية. وبأنه قد ناقش الموقف مع بعض الأعضاء البارزين فى مجلس الشيوخ فأوضح لهم بأن الحرب لا محالة ستمتد إلى مصر ، وإن كان قد أبدى للسفير عدم استحسانه لإشادته بالجريدة الوفدية . وخلال هذه المقابلة نصح السفير رئيس الوزراء بأن يصدر تعليماته للحد من نشاط وزير مصر المفوض فى روما — مراد سيد أحمد — لأنه — وفقاً لرواية السفير — يدعو إلى حياد مصر ، كما أنه يظهر عدم ولائه للحلفاء وقضيتهم الأمر الذى يضر بموقف انجلترا ومصالحها ، وإن كان على ماهر قد أوضح له بأن تعليماته لجميع وزراء مصر المفوضين فى الخارج تقضى بأن يقرروا حقائق الموقف فحسب ، وأنه لا سلطة لهم فى مناقشة موضوع حياد مصر(٤٠) . وقد ختم رئيس الوزراء حديثه بأن طلب بإلحاح ضرورة إعلان القاهرة مدينة مفتوحة ، وذلك فى مقابل أن يوافق للسفير على « كل المسائل الأخرى » . وهو ذلك المشروع الذى كان عبد الحميد بدوى - رئيس قلم قضايا الحكومة — قد أعده ؛ وأبدى بسببه جميع القادة العسكريين البريطانيين دهشتهم ، وكذلك الحكومة البريطانية فى لندن . وكان على ماهر قد فهم خطأ أن جنرال ويلسون — قائد عام القوات البريطانية فى الشرق الأوسط — قد وافق عليه . وقد رد عليه السفير البريطانى بأنه لا يستطيع أن يدلى برأى حول ذلك المشروع الآن لأن مقترحات بدوى تبحث على وجه السرعة . وفى ختام البرقية نفى السفير لوزير خارجيته الشائعات التى قيل أنها تتردد فى جو القاهرة بأن على ماهر يقوم بخداع انجلترا ، وإن كان قد أوضح بأن لرئيس الوزراء المصرى « شهوة فى الدس »(٤١) .

وفى السادس من يونيه استدعى وزير الخارجية البريطانية سفير مصر

فى لندن وأعرب له عن ارتياح حكومته لمسلك الحكومة المصرية خلال الأزمة الراهنة والترتيبات التى اتخذتها لتأمين الدفاع عن مصر ضد العدوان الخارجى وضـــد رجال الطابور الخامس الذين يقومون بترويج الدعاية المحورية . كما أوضح له مطامع إيطاليا فى شرق البحر المتوسط ، وطلب إليه أن يواصل إرسال التقارير المشجعة إلى حكومته فى مصر عن تصميم وعزم الشعبين البريطانى والفرنسى على مواصلة الحرب حتى النصر . كما أشار له أن مسألة إعلان القاهرة « مدينة مفتوحة » موضع بحث من جانب الحكومة والسلطات البريطانية ، وأنه يتعشم أن توافق الحكومة البريطانية على هذا الإعلان بشرط ألا يكون عقبة أمام السلطات العسكرية(٤٢) . كما أنه أراد من ناحية أخرى أن يتعرف على رأى السفير المصرى فى الموقف الداخلى فى مصر فى حالة وقوع غارات عليها ؛ وعما إذا كان ذلك سيترتب عليه اضطرابات داخلية ، فطمأنه السفير « بأن الأمن الداخلى يمكن المحافظة عليه بسهولة »(٤٣) .

وقد بعث وزير الخارجية البريطانية فى ١٠ يونيه ١٩٤٠ ببرقية إلى سفيره فى القاهرة أعرب له فيها عن تأييده لموقف السفير ومطالبه من رئيس الوزراء المصرى . وطلب إليه ضرورة إبلاغه بأن كل ما يقال عن حيدة مصر إنما هو « مقترحات مضللة تماماً » وأن الحكومة البريطانية سوف تتخذ من مصر بكل تأكيد قاعدة لعملياتها الحربية . وترك للسفير مطلق الحرية فى اختيار الأسلوب الذى يعالج به الموقف مع رئيس وزراء مصر(٤٤) .

وفى العاشر من يونيه ١٩٤٠ دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا على أثر سقوط فرنسا ، الأمر الذى أدى إلى تطور موقف كل من مصر وبريطانيا تطوراً جوهرياً . فإيطاليا — كما نعلم — تحتل ليبيا ومن ثم

تتاخم حدود مصر الغربية . وقد تولى جنرال جراتسيانى قيادة القوات الإيطالية فى ليبيا ليتوجه بها إلى مصر ويجعل من أرضها ميداناً لقتال انجلترا فيها . يضاف إلى هذا أن احتلال إيطاليا للحبشة جعل منها موضع تهديد دائم لمصر فى السودان وساحل البحر الأحمر . حقيقة إن إيطاليا سبق لها أن أعلنت على لسان موسولينى أنها مضطرة لدخول الأراضى المصرية لإخراج الإنجليز منها ، وأنها رغم ذلك تحترم استقلال مصر ولا تريد بحال أن تعتدى عليه أو تمسه . فهل يكفى مثل هذا الإعلان الذى روجته محطات الإذاعة لتظل الحكومة المصرية على موقفها من محور ألمانيا وإيطاليا؟ وهل تسمح بريطانيا للحكومة المصرية بأن تتخذ الموقف الذى تراه ؟؟ خاصة وأن القتال قد بدأ يتحرك سريعاً نحو الأراضى المتاخمة لمصر ، الأمر الذى قد ينتقل منها إلى مدن مصر وقراها فى أية لحظة .

لقد سبق أن رأينا كيف أن السفير البريطانى قد التقى برئيس وزراء مصر — إثر مقابلته مع وزير إيطاليا المفوض فى ٢٥ مايو الماضى لإبلاغه أن بريطانيا تتوقع أن تقف مصر منها موقف « الحليف المحارب » فى حالة اشتراك إيطاليا فى الحرب . كما أنه وقف موقفاً حازماً من الدعايات التى بدأت تروجها بعض الصحف المصرية لما سمى آنذاك «بحياد مصر» والامتناع عن دخول الحرب « وتجنيب مصر ويلاتها » . ولم يقتنع السفير بكل ذلك بل إنه أخذ يراقب الموقف بحذر ، وراح مع القادة العسكريين البريطانيين فى القاهرة يضعون كافة الترتيبات والخطط اللازمة لمواجهة الموقف فى حالة دخول إيطاليا الحرب . وعندما أعلنت إيطاليا الحرب على كل من فرنسا وانجلترا فى ١٠ يونيه سأل وزير إيطاليا المفوض على ماهر عما عساه يكون موقف مصر ؟ فأبلغــــه الأخير بأن « مصر بطبيعة الحال ستعمل بما يتفق ومعاهدتها » مع بريطانيا . وقد طلب السفير البريطانى فى مساء اليوم ذاته من رئيس الوزراء المصرى تنفيذ المرحلة الثالثة والأخيرة إزاء الرعايا

الإيطاليين التي تتعلق باعتقالهم وترحيل الوزير الإيطالي المفوض وجميع أعضاء المفوضية والقنصليات الإيطالية في مصر . وهي العملية التي أطلقت عليها السفارة البريطانية في وثائقها بعملية « التباك » . وقد استجاب علي ماهر « في الحال » لهذا المطلب ، وكلفت مراكز القيادات العسكرية البريطانية بالتعاون مع وزارة الداخليـــة المصرية بتنفيذ هذه العملية في ساعة محددة(٤٥) .

وفي اليوم التالي ١١ يونيه – قابل السفير البريطاني علي ماهر وأبلغه بتطورات الموقف العسكري وراح يذكره بوعوده والتزاماته السابقة تجاه الموقف . غير أن علي ماهر أوضح له بأنه تلقى الكثير من الأسئلة عن يزعمون أن مصر وهي لا تملك أكثر من خمســـة آلاف جندي كيف لها أن تلقي بنفسها إلى التهلكة بإعلان الحرب ؟ وقد أثار ذلك غضب السفير ، وعده تجاهلا للقوات البريطانية في مصر من ناحية ، كما رأى فيه « تقديراً خاطئاً لعدد الجيش المصري من ناحية أخرى . وأكد له مدى ما تعلقه حكومته من أهمية خاصة على معاونة الجيش المصري لها . وعند ذلك اكتفى السفير بإبلاغ علي ماهر بأنه إنما جاء ليطلب منه تســـليم جوازات السفر للوزير الإيطالي المفوض وأعضاء المفوضية الإيطالية في القاهرة . وقد نقل السفير البريطاني وقائع ما جرى خلال تلك المقابلة بينه وبين علي ماهر إلى وزير خارجيته في لندن ، وأعرب له عن قلقه من موقف رئيس الوزراء المصري(٤٦) .

وفي نفس اليوم – ١١ يونية أبلغ السفير البريطاني وزير خارجيته في لندن بأنه أصبح يشك في « حسن نية » علي ماهر . وأشار عليه بضرورة اتخاذ موقف حازم وعاجل ، كما أشار عليه بأن الموقف يقتضي تغيير وزارة علي ماهر وتشكيل وزارة جديدة على أساس أوسع يكون رئيسها مستعداً للوقوف مع بريطانيا « بإخلاص » ، كما يكون مستعداً لمواجهة إيطاليا

بقوة وحزم . ورشح كلا من حسن صبرى وحسين سرى وحافظ عفيفى أو غيرهم لتولى أمر تلك الوزارة الجديدة . كما أوضح السفير فى برقيته أن تنحية على ماهر تعنى الاصطدام بالملك فاروق لأنه سيعترض على اتخاذ مثل هـذا الإجراء . كما أنه طالب ضرورة استعداد الحكومة البريطانية للاقدام على ذلك عند الضرورة . وفى حالة معارضة الملك فانه يجبر على التخلى عن عرشه وأضاف السفير بأن « لنا من الأمير محمد على خير من يساعدنا ، ونستطيع الاعتماد عليه والثقة به » . وزعم بأن « جمهرة الشعب المصرى ترحب بذلك التغيير »(٤٧) .

وفى صباح اليوم التالى — ١٢ يونيه — قابل السفير البريطانى على ماهر وأطلعه على التطورات العسكرية وأوضح له أن الإيطاليين قد اقتحموا أحد المواقع المصرية على الحدود الغربية جنوب السلوم ، وأن السلوم نفسها باتت عرضة لهجوم الإيطاليين ، الأمر الذى يحل «مشكلة الحرب الدفاعية والهجومية» ذلك لأن الحرب قد امتدت فعلاً إلى الأراضى المصرية مما يتطلب ضرورة إعلان الحكومة المصرية لحالة الحرب مع إيطاليا طبقاً للتعهدات والتأكيدات السابقة التى قطعها رئيس الوزراء على نفسه . وقد طلب السفير ضرورة ترحيل نائب القنصل الإيطالى فى السلوم فوراً . فوافقه على ماهر على نقله إلى الإسكندرية تحت الحراسة .

وقد أطلع على ماهر السفير البريطانى على البيان الذى اعتزم إلقاءه فى جلسة سرية أمام البرلمان المصرى بمجلسيه — الشيوخ والنواب — صباح اليوم ذاته ، والذى كان مقرراً أن يدلى به مساء الليلة الماضية . وقد تضمنت مراسلات السفير البريطانى مع وزير خارجيته أهم محتويات ذلك البيان . ولا ترجع أهمية تلك الوثيقة إلى أنها تضمنت أهم محتويات بيان رئيس الوزراء المصرى فحسب ، بل لأنها تصور كذلك فهم السفير البريطانى لذلك البيان ورد الفعل عنده إزاءه . بالإضافة إلى أنها تعتبر المصدر الوحيد الذي تحت

أيدينا حتى الآن لذلك البيان(٤٨) . ويذكر السفير أن على ماهر سيفتتح بيانه بالإشارة إلى التغيير الذى طرأ على الموقف منذ إعلان إيطاليا الحرب فى ١٠ يونيه ثم بالإشارة إلى الموقف الجديد الذى تجد مصر نفسها فيه . ويشير البيان إلى موقف مصر من ألمانيا منذ سبتمبر وإلى قطع العلاقات معها . أما مع إيطاليا فإن الوضع يختلف بسبب الجوار فى البر والبحر ، ومصر مصممة على التمسك بمعاهدة التحالف . أما عن نظرية حياد قناة السويس إذا كانت مصر فى حالة حرب فإن هذا الحياد يستحيل تطبيقه عملياً . والاتجاه العام لرئيس الوزراء هو أن يثبت للبرلمان والجمهور بأن مصر قد بذلت كل ما فى وسعها للحيلولة دون الحرب وأنها بمقتضى المعاهدة ملزمة بتقـــديم جميع التسهيلات الممكنة لحليفتها وسوف تقوم بهذا كما فعلت ضد ألمانيا . وأن مصر متجهة بكل عواطفها نحو الحلفاء . ولكنها بمقتضى المعاهدة غير ملزمة بإعلان الحرب فى جميع الأحوال وأنها لابد لها من أن تحمى نفسها وهى مصممة على ذلك . فإذا ماوقع اعتداء بالقنابل أو هجوم على الجيش المصرى أو دخول فى الأراضى المصرية فهذا معناه الحرب . وهذا هو الموقف مبدئياً فإذا ماهوجمت هبت للدفاع عن نفسها ووقفت فى الحرب مع حليفتها ، وبعدئذ سيلمح رئيس الوزراء إلى رغبتنا فى أن تكون مصر معنا فى الحرب ثم يشير إلى حديثه منذ فترة قصيرة مع الوزير المفوض الإيطالى عندما سأله الوزير عما إذا كانت مصر ستهاجم إيطاليا إذا لم تقم إيطاليا بمهاجمتها وكانت إجابته بالنفى كما سبق أن أبلغ السفير والقيادات العسكرية البريطانية فى مصر بذلك . كما سيتضمن بيان على ماهر إشارة إلى موضوع إعلان القاهرة مدينة مفتوحة وإلى أن الأمر لايزال قيد البحث . هذا كل ما نقله السفير عن البيان ، وتنبغى الإشارة إلى أنه قد تراجع فى برقيته إلى وزير خارجيته عما سبق له اقتراحه بضرورة تنحية وزارة علي ماهر ، حيث رأى أنه كان خلال لقائه معه أقل تردداً عما

كان عليه فى الليلة الماضية » . وإن كان قد نصح بأنه « لايزال يتطلب مراقبة شديدة »[٤٩] .

على أن أهم مايسترعى النظر فيما دار خلال إلقاء بيان رئيس الوزراء المصرى فى الجلسة السرية للبرلمان هو أن أحمد ماهر – رئيس الهيئة السعدية ورئيس مجلس النواب – قد عارض بيان رئيس مجلس الوزراء – وإن كان قد وافق عليه من حيث الشكل – وطالب المجلسين بضرورة الثقة بانجلترا ومنحها حقوقاً أكثر مما تخولها لها المعاهدة ، خاصة وأنه فى حالة انتصار كل من ألمانيا وإيطاليا فإنهما لن تحمدا لمصر موقفها الذى وقفته منهما . وقدم اقتراحاً يعبر عن الرغبة فى منح الديموقراطيات كل مايمكن من عون وتأييد . وقد ووفق على هذا الاقتراح . كما أن الأحرار الدستوريين – فى المجلسين – قد أيدوا بيان رئيس الوزراء . بينما امتنع الوفديون – وكان عددهم ١٢ عضواً فى مجلس النواب – عن التصويت على هذا البيان على اعتبار أن الحكومة لم تتح لهم الوقت الكافى للتشاور مع زعماء حزبهم فى مثل هذه الأمور الخطيرة[٥٠] .

ومما يستلفت النظر أيضاً أن على ماهر رفض فى بيانه أمام البرلمان مصارحة أعضائه بماسبق أن تعهد به لوزير إيطاليا المفوض من حيث أن مصر ليس فى نيتها مهاجمة إيطاليا ، ولكنها سوف تتصدى لأى هجوم يشن عليها . غير أنه صرح لهم بأنه « فى حالة عدم هجوم إيطاليا على مصر فإن الأخيرة لن تعلن الحرب ضد إيطاليا » . وهو ما أشار إليه السفير البريطانى فى برقيته ليلفت نظر وزير خارجيته إليه .

وعلى أية حال ، فبعد أن أدلى رئيس الوزراء ببيانه السياسى أمام البرلمان صباح ١٢ يونيه صرح وكيل وزارة الخارجية المصرية بأن الحكومة المصرية قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع إيطاليا . كما أنه استدعى وزير إيطاليا

المفوض فى مصر وأبلغه بأن عليه أن يرحل عن مصر هو وأعضاء بعثته الدبلوماسية ، ولكن نظراً لأن الحكومة المصرية أرادت ألا تتكرر معها مسألة احتجاز أعضاء بعثتها الدبلوماسية فى ألمانيا ، فانها لم تسمح للوزير الإيطالى المفوض وأعضاء مفوضيته بمغادرة مصر إلا بعد أن تغادر البعثة الدبلوماسية المصرية روما وتخرج من إيطاليا بأمان ، كما أضاف وكيل الخارجية المصرية بأن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية قد وافقت على أن ترعى مصالح مصر فى إيطاليا(٥١) .

وفى ١٤ يونيه توجه على ماهر وبرفقته صديقه المخلص عبد القوى أحمد وزير الأشغال العمومية إلى السفارة البريطانية - بناء على استدعاء من السفير البريطانى - وطلب السفير من على ماهر ضرورة قيام الحكومة المصرية بمصادرة جميع السفن الإيطالية الراسية فى المياه المصرية وتسليمها للسلطات البريطانية ، ومنع الاتجار مع العدو وتطبيق الأمر العسكرى رقم٦ على إيطاليا ، وهو الذى تم بمقتضاه فرض حالة الطوارىء ضد ألمانيا . كما طلب السفير ترحيل أعضاء المفوضية والقنصليات الإيطالية وضرورة مراقبة النشر لمنع نشر أى مقالات تروج للدعايات الإيطالية ، وقد أشاد السفير فى حديثه مع رئيس الوزراء بموقف الوفد والصحف الوفدية المؤيد تماماً لبريطانيا . كما أكد له خطورة النشاط الذى يمارسه « الطابور الخامس » فى مصر ؛ ويعنى بهم الرعايا الألمان الذين لم يتم إلقاء القبض عليهم بعد . وطلب من رئيس الوزراء سرعة إصدار الأوامر اللازمة لتعيين الحكام العسكريين للمناطق العسكرية الثلاث التى حددتها بريطانيا وهى : الصحراء الغربية ، الصحراء الشرقية ، ومنطقة القنال . وحذره من خطورة الموقف الذى قد ينجم عن حدوث أى تأخير فى هذا الصدد . كما لفت السفير البريطانى نظر رئيس الوزراء إلى الحالة السيئة التى أصبحت تسود الجيش المصرى كنتيجة لموقف الحكومة المصرية المتراخى تجاه إيطاليا . وحثه على ضرورة تزويد الجيش

بالتعليمات التي تقتضي التعاون الكامل مع بريطانيا حليفة مصر لأن انجلترا تعلق على الجيش أهمية كبيرة . وفي ختام حديثه ذكر السفير كلا من رئيس الوزراء ووزير الأشغال بموقفهما المنطوي على التساهل وتقلب وجهة نظرهما فيما يتعلق بتعهدهما والتزامهما بأنه في حالة ما إذا دخلت إيطاليا الحرب فلن يكون هناك ثمة شك في موقف مصر منها . وقد شرح علي ماهر وجهة نظره في كل أمر من هذه الأمور السابقة وإن لم يقتنع السفير بواحدة منها . كما اتهمه في برقيته التي بعث بها إلى وزير خارجيته « بالتهرب » و « عدم التعاون » . وفسر موقفه هذا بأنه رد فعل لرجحان كفة الميزان في غير صالح الحلفاء ، ومحاولة رئيس الوزراء أن يكسب لنفسه شعبيـــة بمحاولة تجنب الشعب المصري دخول الحرب والتعرض لويلاتها(٥٢) .

ويبدو أن السفير كان قد تلقى من وزير خارجيته ما يؤيد الرأي القائل بأن اتخاذ مصر موقف الدولة غير المحاربة قد يفيد بريطانيا ، لأن السفير أعرب له عن موافقته على هذا الرأي على شرط أن تكون هناك حكومة مصرية يمكن الاعتماد عليها في اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لتأمين القوات البريطانية المسلحة بالسرعة المطلوبة ، وهو ما لا ينطبق على وزارة علي ماهر . كما أن السفير أوضح في برقيته أن وجود الملك فاروق في الإسكندرية وتغيبه عن القاهرة في مثل هذه الظروف الحرجة يدل في حد ذاته على مدى استعداده ومعه حكومته لمواجهة الموقف الناجم عن دخول إيطاليا الحرب وما يستتبعه من التزامات تجاه مصر(٥٣) .

وقد وصل السفير البريطاني في ١٥ يونيه إلى اقتناع كامل بأن علي ماهر « غير متعاون ولا يمكن الاعتماد عليه بل ولا احترامه » على الرغم من أن علي ماهر كان قد استجاب للكثير من المطالب التي طلبها منه السفير فيما عدا إعلان حالة الحرب على إيطاليا . وهو ذلك الأمر الذي كان السفير قد تغاضى عنه ولو إلى حين كما اتضح من الوثائق السابقة ، وكما سيتضح فيما يلي

من وثائق(٥٤) مما يدل على أن تشدده مع على ماهر ربما يرجع إلى عدائه الشخصى وكراهيته له من ناحية ، ولأنه وهو الأهم كان رجل القصر والملك شخصياً الذى كانت ميوله تجاه المحور لاتخفى على أحد خلال تلك الفترة . وهو ما لا يمكن لانجلترا احتماله فى مثل هذه الظروف . وقد دفع ذلك كله السفير إلى أن يشير على وزير خارجيته بضرورة « تغيير الوزارة بلاتأخير » . وربما أن السفير قد دفع إلى اتخاذ هذا الموقف أيضاً نتيجة للرسائل التى كان قد بعث إليه بها كل من مصطفى النحاس - زعيم الوفد - ومحمد محمود - زعيم الأحرار الدستوريين . والتى أعربا فيها عن « اليأس » وأشارا « إلى ضرورة تخلى على ماهر عن الحكم فوراً إذا ما أريد إنقاذ البلاد » . كما وافق على هذا الإجراء كذلك حسين سرى وزير المالية فى وزارة على ماهر الذى صرح للسفير بأن على ماهر لا يتعاون مع انجلترا بإخلاص ، وأنه وبعض زملائه قد يقدمون استقالاتهم من الوزارة لولا ماقد يحدثه ذلك من أثر فى البلاد من الناحية السياسية . كل ذلك حدا بالسفير إلى أن يقترح على وزير خارجيته ضرورة تغيير الوزارة فوراً ، وأنه مستعد لقبول وزارة وفدية صميمة إذا ما كان مصطفى النحاس يفضل ذلك . لأنه يرى أن النحاس - رغم أخطائه - سيعمل مع انجلترا «بولاء» . وطلب من وزير خارجيته الترخيص له بمفاتحة النحاس فى الأمر للتعرف على رأيه . وأشار إلى أنه ينبغى على انجلترا أن تلتزم الحزم مع الملك . ولوح له بأن جنرال ويفل Wavell - قائد القوات البريطانية فى مصر - مستعد لأن يشد أزره إذا لزم الأمر . كما أوضح السفير بأن الملك فاروق قد فقد شعبيته إلى حد كبير وأنه يجب منع على ماهر من العودة إلى القصر مرة ثانية لأن مركزه فيه يكون أكثر خطراً على بريطانيا من وجوده كرئيس للوزراء(٥٥) .

وفى ١٦ يونيه وافق هاليفاكس وزير الخارجية البريطانية على اقتراح

تنحية على ماهر من رئاسة الوزارة وفوض سفيره فى القاهرة إبلاغ الملك فاروق بذلك. كما أعرب للسفير عن رغبة بريطانيا فى إقامة حكومة جديدة تمثل أكبر عدد من العناصر المختلفة وأن الحكمة تقتضى أن يكون رئيسها غير وفدى على أن يتمتع بثقة الوفد. ذلك لأنه كان يرى أن تشكيل وزارة وفدية خالصة سوف يغضب القصر وبعض الدوائر السياسية الأخرى التى يهم بريطانيا تعاونهم معها حتى لا يخشى مناوأتهم لها، فضلا عما يتسم به الوفد — من وجهة النظر البريطانية — من عدم الكفاية والدراية. كما أنه أشار عليه بضرورة أن تتمتع الوزارة الجديدة بولاء كل من: الجيش المصرى نظراً لما «لموقف القوات المسلحة المصرية من أهمية بالغة»، ثم «تأييد أغلبية الشعب المصرى»(٥٦).

وفى نفس اليـــوم — ١٦ يونية — بعث السفير البريطانى إلى وزير خارجيته ببرقية يبلغه بنتيجة استطلاعه رأى كل من النحاس ومحمد محمود فى الموقف، فالنحاس «يفضل تشكيل وزارة وفدية خالصة يقوم إلى جانبها (مجلس حرب) مؤلف من زعماء الأحزاب الأخرى، كما أنه قدم أيضاً إقتراحاً بديلا يقضى بتأليف وزارة محايدة برئاسة عبدالفتاح يحيى أو سيف الله يسرى» ويضيف السفير أن النحاس ومحمد محمود «لم يوافقا على ترشيح حافظ عفيفى أو حسن صبرى لرئاسة الوزارة، ومن ناحية أخرى فإن محمد محمود لا يوافق على إختيار عبد الفتاح يحيى للرئاسة». ويعقب السفير على ذلك أن «مما يؤخذ على تشكيل وزارة وفدية خالصة:

(ا) إغضاب القصر والقوى السياسية الأخرى، واستبعاد حسين صبرى وأحمد ماهر وغيرهما ممن هم على استعداد للعمل معنا.

(ب) قلة عدد الوفديين الأكفاء من الناحية الإدارية.

(ح) عدم ملاءمة الاقتراح الخاص بتعيين نفر من الزعماء أعضاء فى (مجلس الحرب) واختصاصه والفائدة من تشكيله غير واضحة ».

ومن بين مآخذ السفير على إقتراح الوزارة المحايدة «أن المرشحين لها ليست لهم قوة الزعامة. كما أن تجارب سيف الله يسرى تنحصر فى عمله فى السلك الدبلوماسى فى الخارج. بيد أنها تلقى تأييداً من محمد محمود وحزب الأحرار وقد يؤيدها الوفد كما قد يرتضيها السعديون. ويضيف السفير أنه «بعد إعمال الفكر» قــرر أن ينصح الملك باستشارة كل من محمد محمود بوصفه زعيم المعارضة فى البرلمان، والنحاس باعتباره زعيم «أكبر الأحزاب شعبية»، وأن يعمل بآرائهما. وخلص إلى القول بأن الأمر قد يؤدى فى النهاية إلى تأليف وزارة محايدة غير حزبية برئاسة سيف الله يسرى، الذى لا يشك فى تعاونه مع البريطانيين «تعاوناً صادقاً»(٥٧).

وفى ١٧ يونيه قابل السفير البريطانى الملك فاروق — بالاسكندرية — وأبلغه مطالب بريطانيا وكان ذلك بمثابة إنذار صريح بأن لا سبيل إلى التعاون مع وزارة على ماهر نظراً لأنه غير حائز على ثقة بريطانيا «ولا ثقة الشعب المصرى» وفقاً لما أبداه زعيم كل من الوفد والأحرار الدستوريين. كما طلب من الملك بإلحاح عدم عودة على ماهر إلى منصبه فى القصر «لأن التجارب أظهرت أن وجوده فى ذلك المنصب يجعل من المستحيل على أية وزارة أن تقوم بعملها». وقد طلب الملك فاروق من السفير أن يرشح له من يخلف على ماهر فى الوزارة. فاعتذر السفير بحجة أن ذلك «ليس من شأنه». وإن كان قد أشار عليه — بعد إلحاح من الملك — أن الطريق السليم هو أن يستدعى للاستشارة كلاً من محمد محمود زعيم المعارضة، ومصطفى النحاس زعيم أكبر حزب «حائز لتأييد الشعب». ولكن الملك — الذى سلم بضرورة استشارة زعيم المعارضة، أبى أن يستشير النحاس بحجة أنه صدرت عنه «إهانة للملك». وهنا أوضح له السفير ضرورة استشارته

« لصالح بلده بل ولصالح عرشه » . مع ما لهذه العبارة الأخيرة من مغزى كبير واضح . وخلال حديثهما لوح له الملك فاروق « بأن واجبه كملك لمصر يقتضيه أن لا ينضم فى الحرب إلى الطرف الخاسر » . فرد السفير بأن مصر مرتبطة « بنا نجونا أو غرقنا، فمن الخير أن نتحمل معاً لكى ننجو معاً » وصرح له « بأن بريطانيا سوف تنتصر فى النهاية فلا يظنن غير ذلك » . وكان السفير قد ألمح له خلال حديثه بأن جنرال ويفل « يترقب عودتى هذا المساء ليقف على مدى إستجابة الملك لطلباتنا » . ويذكر السفير أنه لم « يكن فى إستطاعتى أن أمارس ضغطاً عليه أقوى مما فعلت إلا أن أقدم له إنذاراً » . ويختتم السفير برقيته بأنه قد أبلغ أحمد حسنين — الذى كان يشغل منصب الأمين الأول فى القصر — بكل ما دار بينه وبين الملك ، وطلب إليه أن يبصر الملك بضرورة الأخذ بما اقترحه عليه . وكان من رأى أحمد حسنين إعطاء على ماهر فرصة أخرى . إلا أن السفير رد عليه باستحالة ذلك بحجة أن على ماهر « لا يستطيع أن يعمل باستقامة »(٥٨) .

وعلى الرغم من أن هذا « الإنذار » الذى قدمه السفير البريطانى للملك قد تضمن مطالب محددة، فإن الأخير أخذ يراوغ ويماطل فى تنفيذها تمسكا منه بوزارة على ماهر التى وقفت من إعلان حالة الحرب حتى الآن هذا الموقف الذى يجنب مصر ويلاتها، والذى يمكن تفسيره على أنه كان يعنى عدم ربط مصر بعجلة الامبراطورية البريطانية الخاسرة والمراهنة على الجواد الخاسر الذى اتضح من حديث الملك مع السفير البريطانى ، خاصة بعد أن تطور الموقف العسكرى فى أوربا لغير صالح الحلفاء بعد انهيار فرنسا أمام القوات الألمانية . وهو ماشجع تزايد الميول المحورية فى مصر شعبية كانت أم رسمية، ليس على اعتبار أن المحور صادق النية فى الوعود التى أعلنها قادته وتتعلق باحترام سلامة وإستقلال دول منطقة الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط ، ولكن على اعتبار أنه لن يكون أسوأ من الاحتلال

البريطاني الفرنسي الذى عانت منه شعوب منطقة الشرق الأوسط بأسرها وخبرته فترات طويلة ، ومن ناحية أخرى أن هذا الميل كان يحمل فى طياته دوافع التشفى والانتقام من « حليف » أكرهت مصر على محالفته ضد رغبة شعبها . كما أنه كان يتضمن فى نفس الوقت معنى الإعجاب بالعسكرية الألمانية « التى لا تقهر » من جانب بعض قطاعات الرأى العام المصرى وقادته بل وحتى الملك فاروق ذاته .

وعلى أية حال ؛ فإن الملك فاروق رغبة منه فى المراوغة وكسب الوقت بعث فى ١٨ يونيه ببرقية إلى ملك بريطانيا يشكو فيها من أسلوب التعسف والتشدد وعدم اللياقة الذى مارسه السفير البريطاني ، وفى نفس الوقت دفع بأحمد حسنين لمقابلة السفير كى يحيطه علما ببرقية الملك إلى ملك انجلترا ويوضح له بأن لن يكون هناك تعديل فى الوزارة حتى يصله رد لندن على تلك البرقية . فى الوقت الذى راحت فيه الصحف الموالية للقصر تشيع الأنباء بأن على ماهر أخذ فى تعديل وزارته بتوسيع نطاقها حتى تقطع على البريطانيين خط الرجعة . وقد كانت مقابلة أحمد حسنين للسفير تعنى — فى نفس الوقت — محاولة القيام بدور الوساطة كى يسمح لعلى ماهر بالعودة إلى منصبه فى القصر كرئيس للديوان الملكى ، مراعاة لـ« كرامة الملك فاروق » . وقد رفض السفير ذلك رفضاً باتاً فى الوقت الذى أكد له أنه ليس فى نية بريطانيا التصميم على مطالبة أى حكومة مصرية بإعلان حالة الحرب . وقد طالب السفير من حكومته ضرورة أن يكون الرد على برقية الملك والتعليمات الصادرة إلى السفير هو تنحية على ماهر من رئاسة الوزارة وعدم السماح بعودته إلى منصبه فى القصر بصورة قاطعة بحجة أنه « لا يمكن أن تقوم حكومة مناسبة إذا هو استعاد مكانه فى القصر »(٥٦) . علماً بأن الإجراءات التى اتخذتها وزارة على ماهر لتمكين بريطانيا من استخدام مصر كقاعدة عسكرية

فى المنطقة لم تكن لتختلف كثيراً عن قرار إعلان حالة الحرب ضد دول المحور .

وقد أخذ السفير البريطانى يستعجل رد حكومته على برقية الملك فاروق متعللا بأن أى إبطاء فى عزل على ماهر سيؤدى إلى « وضع خطير » ، لأن القصر قد أوقف كل تصرف انتظاراً لذلك الرد . هذا فى الوقت الذى أخذ على ماهر يشيع بأنه قد عزل من منصبه بغير وجه حق ، وأنه لا يعتزم التخلى عن منصبه طالما أن وزارته « تتمتع بثقة الملك والبرلمان » . كما أنه دأب على إذاعة أن وزارة الخارجية البريطانية لازالت تدرس الموقف حتى يترك انطباعاً عاماً فى مصر بأن انجلترا قد تتراجع عن موقفها وأنه قد يبقى فى الحكم مستعيناً فى ذلك ببعض قطاعات الرأى العام المصرى المشايع له(٦٠) وقد أشار السفير البريطانى على حكومته — فى برقيتين بعث بهما إلى وزير خارجيته فى ١٩ يونيه — بأنه فى حالة رفض المطالب البريطانية فليس أمامها سوى التهديد بإعلان الأحكام العرفية البريطانية على مصر كما حدث من قبل فى عام ١٩١٤ عندما أعلنت بريطانيا الحماية على مصر . وذلك إجراء كان من شأن تطبيقه الرجوع بحالة مصر إلى الوراء والتجاهل الكامل لاستقلالها وسيادتها المعلن فى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ والذى تأكد بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ ، علماً بأن السفير ذاته لم يكن مرتاحاً تمام الارتياح إلى تطبيق هذا الإجراء ، وإن كان قد أراد استخدامه كورقة يلوح بها للضغط على مصر حتى تستجيب للمطالب البريطانية. وقد عبر السفير عن ذلك بأن « مجرد التهديد سيكون كافياً » فى حد ذاته . وإن كان قد أوضح بأن الاستعداد لمواجهة مثل هذا الموقف قد تم ، وأن لديه من القوات العسكرية ما يكفى لتنفيذه . الأمر الذى يعنى أن جزءً كبيراً من القوات سيخصص للقيام بالمحافظة على الأمن الداخلى وما يتبع ذلك من مصاعب من الناحية الإدارية(٦١) .

وقد تأخر رد وزارة الخارجية البريطانية على سفيرها فى القاهرة —

بالرغم من إلحاح الأخير — بعض الشيء . وإن كانت قد وصلته برقية من الوزارة بتاريخ ١٩ يونيه تطلب إليه عدم التمسك فى علاقاته ومطالبه من الحكومة المصرية ببعض الأمور الأقل أهمية كتلك التى تتعلق باعتقال أو ترحيل الرعايا الإيطاليين فى القاهرة ، والتى ربما قد تتخذ ذريعة لعرقلة سياسة بريطانيا العامة فى مصر ، وإن أعربت له فى نفس الوقت عن استعدادها لتأييده — ومعه السلطات العسكرية — فى اتخاذ مايراه من إجراءات ضرورية(٦٢) .

وفى الثانى والعشرين من يونيه وصل الرد الذى طالما انتظره السفير وألح فى طلبه . وقد تضمن ذلك الرد موافقة هاليفاكس وزير الخارجية على الاقتراح الخاص بالتهديد باعلان الأحكام العرفية البريطانية فى مصر بما فى ذلك فرضها إذا لزم الأمر على اعتبار أنها إجراء مؤقت دعت إليه اعتداءات الإيطاليين والمحافظة على الأمن العام فى مصر . وأن ذلك لن يؤثر فى سير الحياة العادية إلا بأقل قدر ممكن . كما نصحه بأن تكون ذريعة بريطانيا عند اللجوء إلى ذلك هو مخالفة الحكومة المصرية لنص المادة الخامسة من معاهدة الصداقة والتحالف(٦٣) كما خوله وزير الخارجية حق قبول تنازل الملك فاروق عن العرش إذا لم يستجب إلى المطالب البريطانية . بشرط ألا يترك — بعد تنازله — حراً طليقاً ؛ وأن يوضع تحت الرقابة البريطانية حتى لا يلجأ إلى إيطاليا للمطالبة بعرشه(٦٤) .

ويتضح من ذلك الرد أن وزارة الخارجية البريطانية قد هيأت نفسها لقبول وزارة يتولى رئاستها مصطفى النحاس — رئيس الوفد وزعيم حزب الأغلبية — فى حالة ما إذا تم تنحية الملك فاروق عن العرش لأن العقبة التى كانت تقف دائماً أمام تعيين النحاس رئيساً للوزارة المصرية وهى الخوف

من إغضاب القصر تكون قد زالت ، مما يسمح بتولى النحاس رئاستها باعتباره «أب المعاهدة وراعيها»(٦٥) .

ورغبة من الملك فاروق فى تدارك الموقف وحفاظاً على عرشه — وكانت قد وصلت إلى مسامعه أنبــاء رد وزارة الخارجية البريطانية — استدعى إلى قصر عابدين عدداً من الساسة القدامى وزعماء الأحزاب وقادة الرأى للتشاور فى الأمر . فاجتمعوا بالقصر مساء السبت ٢٢ يونيه — وهو اليوم الذى وصل فيه رد الخارجية البريطانية ذاته — وافتتح الملك الاجتماع وتركهم بعد أن أشار عليهم بالمسائل التى سيجرى بحثها وطلب إليهم أن تتم دراستها بكل حرية . وقد تداول المجتمعون فى الموقف بعد أن عرضه عليهم على ماهر رئيس الوزراء واستمروا فى اجتماعهم أكثر من خمس ساعات . وتروى المصادر العربية(٦٦) أن المجتمعين وفى مقدمتهم أحمد ماهر قد اتجهوا إلى اتخاذ قرار بالموافقة على استقالة وزارة على ماهر بعد أن انعدمت الثقة بينها وبين الحكومة البريطانية . حيث ورد فى القرار أنه إزاء إصرار على ماهر باشا على الاستقالة فانهم يضعون الأمر بين يدى الملك ليصرفه بحكمته ، وذلك يعنى الإذعان للتبليغ البريطانى . ثم انتقل البحث إلى شكل الوزارة الجديدة فرأى بعضهم أن تكون وزارة قومية ورفض النحاس الفكرة وطلب أن تؤلف وزارة محايدة تقوم باجراء انتخابات جديدة ، مما أدى إلى أن ينتهى المجتمعون على غير اتفاق . وتكاد الوثائق البريطانية أن تتفق فى روايتها حول هذا الاجتماع مع ما أوردته المصادر العربية(٦٧) .

وفى صباح اليوم التالى — ٢٣ يونية — قابل السفير البريطانى وبرفقته الجنرال ويفل الملك فاروق ، وسلمه الأخير صورة القرار الذى تم التوصل إليه فى اجتماع القادة بالأمس فى قصر عابدين . وأوضح له أن ذلك يعنى « أننا نسير فى سياسة قويمة من الصداقة والإخلاص تجاه انجلترا » . فذكره

السفير مرة أخرى بالمطالب البريطانية التى تقضى بتشكيل « حكومة قوية تمثل الشعب ... وتلتزم بتنفيذ المعاهدة ؛ أى يوافق عليها النحاس باشا » . كما طلب إليه ضرورة استدعاء النحاس للتشاور معه فى الأمر[٦٨] .

وفى مساء نفس اليوم – ٢٣ يونية – قدم على ماهر استقالة حكومته وأشار فيها إلى التدخل البريطانى حيث ورد فى كتاب الاستقالة « ولكن أصبح الاستمرار فى الحكم متعذراً لأسباب قاهرة خارجة عن إرادتنا وإرادة الشعب المصرى . لهذا أرانى مضطراً إلى رفع استقالتى إلى مقامكم السامى » ، معرباً عن أمله فى أن تخرج البلاد «من هذه المحنة مرفوعة الرأس عزيزة الجانب »[٦٩] .

كما ذهب أحمد حسنين – الأمين الأول بالديوان الملكى – إلى دار السفارة البريطانية فى مساء اليوم – ٢٢ يونية – لإبلاغ السفير رد الملك على المطالب البريطانية ، ويتضمن موافقته على اعتزال على ماهر رئاسة الوزارة وتعهداً بألا يعود إلى منصبه فى القصر كرئيس للديوان الملكى ، واقتراح الملك بأنه سيقوم باستدعاء النحاس ورؤساء الأحزاب السياسية الأخرى للاتفاق على اختيار رئيس وزراء محايد . وقد أوضح السفير لمندوب القصر تمسكه بمطلب بريطانيا الأساسى ، وهو أن يكون رئيس الوزراء الجديد حائزاً على « تأييد النحاس » . فرد عليه أحمد حسنين بأن الملك يعمل طبقاً لمشورة النحاس وزعماء الأحزاب الأخرى فى سبيل الحصول على تأييدهم لرئيس الوزراء الجديد ولضمان موافقة البرلمان . وقد طلب السفير ضرورة الانتهاء من هذه المشاورات على وجه السرعة وأن يكون رئيس الوزراء الجديد من طراز حافظ عفيفى أو حسن صبرى[٧٠] .

ويبدو أن الملك أراد أن يستغل اقتراحاً نسبه إلى وزير الخارجية البريطانية ورد ضمن برقية من حسن نشأت سفير مصر فى لندن إلى الحكومة

المصرية بأن الخارجية البريطانية ترى أن يتم تغيير الوزارة دون ضجة وبغير حاجة إلى حل البرلمان . فقد عقب السفير على ذلك بأن هذا الأمر « قد يتخذه الملك ذريعة لاستبقاء الحال على ما هو عليه » ، لأنه من غير المحتمل أن يجمع النحاس وزعماء الأحزاب الأخرى على مرشح واحد لرئاسة الوزارة . مما دعاه إلى أن يقترح وقف جلسات المجلس النيابي خلال عطلة الصيف مما يذلل تلك الصعوبات . كما أنه رأى أن ينتظر ما قد تسفر عنه المشاورات وإلا فإنه سوف « يصر على قبول ما يشير به النحاس الذى يتزعم الأغلبية العظمى فى البلاد » . ويعلق السفير على الموقف برمته موضحاً « وقد نخرج من الأزمة الحالية دون حاجة إلى تغيير الملك ، ولكنى أشك كثيراً فى أن يستمر طويلاً وعلينا أن نراقبه طول الوقت » ، ويضيف « وفى نفس الوقت اتخذت جميع الإجراءات إذا ما اقتضى الأمر إعلان الأحكام العرفية »(٧١) .

والأمر الذى يدعو إلى الالتفات هو بروز دور بعض رجالات الجيش المصرى للمرة الأولى خلال هذه الأزمة وظهور ما أسماه السفير — فى برقيته بتاريخ ٢ أكتوبر ١٩٣٩ — « بالشلة العسكرية » ويقصد بهم الفريق عزيز على المصرى وعبد الرحمن عزام وصالح حرب وغيرهم(٧٢) ، والتى ربما كانت مدفوعة من جانب على ماهر — وربما من جانب الملك ذاته — للعمل على إحباط دور البعثة العسكرية البريطانية وهدم نفوذها فى صفوف الجيش المصرى . وقد دفعت كل تلك العوامل وغيرها السفير البريطانى إلى حد التلويح بإعادة مصر إلى ما يشبه عهد « الحماية » ذلك لأن بريطانيا ما كان بوسعها أن تغض الطرف عما كان يجرى فى مصر فى تلك الظروف العصيبة التى كانت تمر بها بريطانيا . لذلك آثرت أن ترتب الموقف باهتمام بالغ إلى أن واتتها ظروف مناسبة للتخلص من هذه الوزارة « المناوئة » دون أن يثير تدخلها مشاعر مصر والمصريين .

على أية حال ، فقد دعى الزعماء إلى عقد اجتماع آخر فى قصر عابدين يوم ٢٤ يونية للمشاورة فى تأليف الوزارة . فأصر النحاس على رفض الاشتراك فى وزارة قومية مؤكداً رأيه بشأن تأليف وزارة محايدة تجرى انتخابات حرة عندما تسمح الظروف بذلك(٧٣) . وفى نفس اليوم — ٢٤ يونية — طلب على ماهر عقد جلسة لمجلس الشيوخ ليدلى فيها ببيان عن موقفه من الأزمة . وقد أوضح فى بيانه أسباب استقالته وذكر أن السلطات البريطانية تقدمت إليه بعدة طلبات كما هو ثابت فى محفوظات وزارة الخارجية ورئاسة مجلس الوزراء وأنه استجاب إلى الكثير من هذه المطالب فى نطاق معاهدة التحالف ، الأمر الذى استوجب شكر السلطات العسكرية البريطانية عليها . ولكن السفير البريطانى لجأ إلى « الوسائل العتيقة » وطالب بتنحيته عن الحكم . وجاء فى هذا البيان أن « جوهر الخلاف الحالى فى التعارض بين مصلحة الدولتين فكل منا كان يعمل بما يمليه عليه الولاء والإخلاص لوطنه » . وقد أعرب المجلس عن كامل تأييده لرئيس الوزراء المستقيل(٧٤) ، ونلاحظ أن على ماهر التجأ إلى مجلس الشيوخ وليس إلى مجلس النواب — الذى يملك وحده إعلان الثقة بالوزارة وربما يرجع ذلك إلى خشيته من المعارضة التى قد يثيرها رئيس المجلس نفسه — أحمد ماهر — استمراراً لمواقفه السابقة من رئيس الوزراء فيما يتعلق بموقف مصر من الحرب .

وقد تأخرت موافقة الملك على قبول استقالة على ماهر ووزارته حتى يوم ٢٧ يونية ١٩٤٠ إلى أن كلف حسن صبرى بالقيام بتشكيل الوزارة الجديدة طبقاً للترتيبات التى أعدتها بريطانيا ومواقف مختلف القوى السياسية المصرية .

وهكذا تم الإطاحة بوزارة على ماهر نتيجة لانتهاك بريطانى سافر لاستقلال مصر وسيادتها بلغ حد توجيه إنذار إلى الملك ، وتدخل بريطانى مباشر وصريح فى عزل وتعيين رؤساء الوزارات المصرية . وليس فى وسع

من يطلع على هذه الوثائق البريطانية التى كشف النقاب عنها مؤخراً إلا أن يشيد بموقف على ماهر وسياسته خلال فترة تقلده رئاسة الوزارة التى استمرت بين ١٨ أغسطس ١٩٣٩ ، ٢٧ يونية ١٩٤٠ ؛ والتى التزمت بمبدأ « تجنيب مصر ويلات الحرب » . على الرغم من أنها عملياً قد انساقت تحت تأثير الضغوط البريطانية إلى اتخاذ إجراءات عديدة وصلت بالبلاد إلى حد أنها كانت أشبه بالدولة المحاربة .

الحواشى

(١) الرافعى ، فى أعقاب الثورة ، حـ ٣ ، ص ٦٩

(٢) فؤاد كرم ، النظارات والوزارات المصرية ، ص ٣٨٠

(٣) هيكل ، مذكرات فى السياسية ، حـ ٢ ، ص ١٦٣

(٤) نفس المرجع ، ص ١٦٤ — ١٦٥

(٥) الرافعى ، المصدر السابق ، ص ٦٠

(٦) فؤاد كرم ، المصدر السابق ، ص ٨٢ — ٣٨٣

(٧) راجع نص هذه المادة فى ، القضية المصرية ص ، ٤٦١

(٨) F.O., 407/223, No., 1060, from Petman to Halifax

(٩) راجع ، قانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٣٦، صفحات ٤٠ وما بعدها، ١٣٥ ومابعدها

(١٠) حول هذه الظروف الدولية ، راجع ، تروخانوفسكى، سياسة بريطانيا الخارجية خلال الحرب العالمية الثانية ، ترجمة عبد الحميد الجمال ، ص ٢١ وما بعدها ، كذلك جرانت وآخر ، أوروبا فى القرنين ١٩ ، ٢٠ ، ترجمة محمد على أبو دره وآخر ، ج ٢ ، ص ٤٧٨ وما بعدها .

(١١) F.O., 407/223, No., 507, from Lampson to Halifax.

(١٢) Ibid, No., 527, from Lampson to Halifax.

(١٣) لم يوافق مجلس الشيوخ فى البداية على إعلان الأحكام العرفية ، ولكنه انتهى إلى الموافقة بأغلبية ٦٨ صوتا ضد ٥٩ صوتا .

(١٤) Op. Cit., No., 527.

(١٥) F.O. 407/223, No, 618, from Halifax to Lampson

(١٦) ربما يرجع ذلك التأخير إلى سياسة التهدئة التى كانت تتبعها الحكومة البريطانية تجاه توسعات هتلر واستفزازاته المتكررة ، راجع ، تروخانوفسكى ، المصدر السابق ، ص ٢١ وما بعدها . أو أنها ترجع إلى إرتباط خطة بريطانيا العسكرية فى الدفاع عن بولندا بموقف الحكومة الفرنسية ، حيث أن انجلترا لم يكن فى وسعها اتخاذ خطوة عسكرية إلا بعد نزول قواتها فى الأراضى الفرنسية .

(١٧) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، العلاقات المصرية البريطانية ، ص ٣٢

(١٨) هيكل ، المصدر السابق ، ص ١٧١

(١٩) F.O. 407/223, No. 555, from Lampson to Halifax.

وكان من بين الأسباب التى تعللت بها الوزارة فى تأخير إعلان حالة الحرب احتجاز ألمانيا لرجال المفوضية المصرية وبعض الرعايا المصريين المقيمين فى ألمانيا .

(٢٠) F.O. 407/223, No., 557, from Lampson to Halifax,

F.O. 407/223; No., 562, from Lampson to Halifax. (٢١)

Ibid., No., 570, from Lampson to Halifax. (٢٢)

Ibid, No., 575, from Lampson to Halifax. (٢٣)

Ibid, No., 582, from Lampson to Halifax. (٢٤)

Ibid, No., 570, from Lampson to Halifax. (٢٥)

F.O. 407/223, No., 1038, from Halifax to Lampson. (٢٦)

Ibid , No. 651, from Halifax to Lampson. (٢٧)

Ibiu , No., 669, from Halifax to Lampson. (٢٨)

(٢٩) ومن بين المآخذ التي عدها السفير البريطاني على علي ماهر : جمعه بين رئاسة الحكومة ورئاسة الديوان الملكي وادارته لأعمال ذلك الديوان بينما الملك في معزل عما يجرى حوله ، تمكينه للمعارضة في ظل الأحكام العرفية !! ؛ اتجاه القصر والأوساط المحيطة به ومعهم علي ماهر إلى معاداة الانجليز والميل نحو الألمان ، بل أن بعضها اتجه نحو « اليسارية » ؛ محاولات علي ماهر التفريق بين المدنيين والعسكريين البريطانيين العاملين في مصر ، إذاعته أنباء خلافه مع السفارة البريطانية ، محاولات علي ماهر التخفيف من قبضة الانجليز على مصر والحد من نفوذهم تدريجيا . عزل بعض العناصر المقربة إلى الانجليز من مناصبهم كأمين عثمان وعبد الرازق أبو الخير ...

F.O. 407/233, No. 719. from Halifax to Lampson. (٣٠) and No., 298, from Lampson to Halifax.

F.O., 407/223, No., 298, from Lampson to Halifax. (٣١)

(٣٢) هيكل ، المصدر السابق ، ص ١٨١

(٣٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، المصدر السابق ، ص ٣٢

(٣٤) تروخانوفسكي ، المصدر السابق ، ص ١١١ — ١١٢

(٣٥) تروخانوفسكي ، المصدر السابق ، ص ٤٨ — ٥٠ ، جرانت وتمبرلي ، المصدر السابق ، ص ٢٩٣

F.O. 407/224, No. 382, from Lampson to Halifax. (٣٦)

Ibid., No., 429, from Lampson to Halifax. (٣٧)

Ibid., N., 401, from Halifax to Lampson. (٣٧) مكرر

(٣٨) البلاغ ، ٥٦٠٠ في ٢/٦ ، ٥٦٠٢ في ٤/٦/١٩٤٠

(٣٩) المصري ، ١٢٨٧ في ٢ يونيه ١٩٤٠ مقال افتتاحي لمحمود أبو الفتح بعنوان « في ساعة الخطر تؤدي مصر واجبها كاملا »

F.O.. 407/224, No. 447, from Lampson t› Halifax. (٤٠)

F.O., loc. Cit. (٤١)

Ibid, No., 406, from Halifax to Lampson. (٤٢)

F.O. 407/224, No., 406, from Halifax to Lampson. (٤٣)

(٤٤) Ibid., No. 435, from Halifax to Lampson.

(٤٥) Ibid, No., 477, from Lampson to Halifax.

(٤٦) F.O, 407/224, No.; 488, from Lampson to Halifax.

(٤٧) Ibid., No, 491, from Lampson to Halifax.

(٤٨) إذ أن كل ما عرف عن هذه الجلسة هو أن رئيس الوزراء عرض سياسة الحكومة إزاء دخول إيطاليا الحرب . فأقر المجلسان سياسة الحكومة ومضمونها تجنيب البلاد ويلات الحرب ، مع الوفاء بتعهداتها وتقديم أكبر معونة ممكنة للحليفة فى دفاعها عن الحق والحرية فى حدود معاهدة الصداقة والتحالف . وأن يكون موقف مصر موقفا دفاعياً مع قطع العلاقات السياسة مع ايطاليا واعتقال معظم رعاياها . أنظر : الرافعى ، فى أعقاب الثورة المصرية ، جـ ٣ ، ص ٨٣

(٤٩) F.O., 407/224, No., 498 and No., 502, from Lampson to Halifax.

(٥٠) F.O., loc. Cit.

(٥١) F.O, loc. Cit.

(٥٢) F.O., 407/224, No, 519, from Lampson to Lampson

(٥٣) Ibid., No., 522, from Lampson to Halifax.

(٥٤) Ibid., No., 530, from Lampson to Halifax.

(٥٥) F O. 407/224, Nos., 525 and 530, from Lampson to Halifax.

(٥٦) Ibid., No., 468, from Halifax to Lampson.

(٥٧) Ibid, No., 532, from Lampson to Halifax,

(٥٨) F.O, 407/224, No, 536, from Lampson to Halifax

(٥٩) Ibid., No., 541, from Lampson to Halifax.

(٦٠) F.O., 407/224, Nos., 544 and 555, from Lampson to Halifax.

(٦١) F.O, loc. Cit.

(٦٢) Ibid., No., 475, from Halifax to Lampson

(٦٣) وتنص تلك المادة على تعهد كل من الطرفين المتعاقدين بأن لا يتخذ فى علاقاته مع البلاد الأجنبية موقفا يتعارض مع المحالفة ، وأن لا يبرم معاهدات سياسية تتعارض مع أحكام المعاهدة الحالية . القضية المصرية ، ص ٤٦١

(٦٤) F.O., Ibid., No., 493, from Halifax.

(٦٥) F.O., 407/224, No, 493, from Halifax to Lampson.
F.O., Ibid., No. 590, from L. to H.

(٦٦) الرافعى ، فى أعقاب الثورة ، حـ ٣ ، ص ٨٣ — ٨٤ . هيكل ، مذكرات فى السياسة المصرية ، حـ ٢ ، ص ١٨٦

(٦٧) حيث تذكر الوثائق البريطانية ان النحاس قد أبدى رايا خلال الأجتماع يتعلق بتشكيل وزارة محايدة مؤيدة من الأحزاب المختلفة ، وأضاف بأن تستمر تلك الوزارة فى الحكم الى حين اجراء انتخابات حرة .

(٦٨) F.O. Loc. Cit.

(٦٩) كرم ، النظارات ، ص ٣٨٤ — ٣٨٥ ، الرافعى ، المصدر السابق ، ص ٨٤

(٧٠) F.O., 407/224, Nos., 590 and 592, from Lampson to Halifax.

(٧١) F.O., loc. Cit.

(٧٢) F.O., 407/223, No., 298, from Lampson to Halifax.

(٧٣) الرافعى ، المصدر السابق ، ص ٨٥

(٧٤) مضابط مجلس الشيوخ ، دور الانعقاد العادى الخامس عشر ، الجلسة ٤٤ فى ٢٤ يونيه ١٩٤٠ ، ص ٩٤٧ — ٩٤٨

مصادر البحث

أولا : الوثائق العربية المنشورة :

١ - جمهورية مصر، القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٠٤، القاهرة، ١٩٥٥

٢ - مجلس الشيوخ ، قانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٣٦ بالموافقة على معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا العظمى ، القاهرة ، ١٩٣٧

٣ - مضابط جلسات مجلس الشيوخ ، دور الانعقاد العادى الخامس عشر ، الجلسة ٤٤ فى ٢٤ يونية ١٩٤٠

ثانيا : المؤلفات المنشورة بالعربية والمترجمة :

١ - أحمد عبد الرحيم مصطفى ، العلاقات المصرية البريطانية ١٩٣٦ - ١٩٥٦ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨

٢ - تروخانوفسكى، سياسة بريطانيا الخارجية خلال الحرب العالمية الثانية، ترجمة عبد الحميد الجمال ، مراجعة وتقديم عبد الخالق لاشين القاهرة ، ١٩٧٦

٣ - جرانت وتمبرلى ، أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ترجمة محمد على أبو درة ، القاهرة ، ١٩٦٧

٤ - عبد الرحمن الرافعى ، فى أعقاب الثورة المصرية ، الجزء الثالث ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٥١

٥ - فؤاد كرم ، النظارات والوزارات المصرية ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٦٩

٦ - محمد حسين هيكل ، مذكرات فى السياسة المصرية ، الجزء الثانى ، القاهرة ، ١٩٥٣

ثالثاً : الصحف والدوريات :

١ ــ الأهرام ، مايو ــ يونيه ١٩٤٠

٢ ــ البلاغ ، مايو ــ يونيه ١٩٤٠

٣ ــ المصرى ، مايو ــ يونيه ١٩٤٠

رابعاً : الوثائق البريطانية غير المنشورة :

F.O,, 407 - 223 & 224, Nos. : -

1060 - 507 - 527 - 618 - 555 - 557 - 562 - 570 - 575 - 582 - 1038 - 651 - 669 - 719 - 298 - 382 - 429 - 401 - 447 - 406 - 435 - 477 - 488 491 - 498 - 502 - 519 - 522 - 530 - 525 - 468 - 532 - 536 - 541 - 544 - 475 - 493 - 590 - 592

وثائق ونصوص

(٣)

بلوغ الأرب برفع الطلب

تأليف

محمد البرلسى السعدى

تقديم وتعريف وتحقيق

الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

كلية البنات ـ جامعة الأزهر

تمهيد :

وضع السلطان سليم ـ بعد خضوع مصر للحكم العثمانى ـ بعض الترتيبات الإدارية، التى كان الهدف منها، ضمان استمرار ولاء مصر للحكم العثمانى ،وكان من بين هذه الترتيبات ، ترك حامية عثمانية كبيرة ، مهمتها حماية البلاد، وتوطيد الأمن فيها ، والمشاركة فى إدارة شئونها[١] ، ورغم هذه الترتيبات التى وضعها السلطان سليم، فان بعض العناصر المملوكية الجركسية، وبعض الزعامات العربية

(١) بشأن هذه الترتيبات ، ونظم الحكم العثمانى ، انظر ، دكتور عبد الرحيم عبدالرحمن تقديم « كشف الكربة فى رفع الطلبة » المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث والعشرون ١٩٧٦ م ، ص ٢٩٢ .

وبخاصة التى كان فى يدها إدارة الأقاليم ، قامت بعد وفاة خاير بيك ، ببعض التمردات ، ضد الحكم العثمانى[1]. كما حاول ، أحمد باشا ، أحد الولاة العثمانيين الملقب « بالخائن » إستغلال روح التمرد هذه ، والإستقلال بالبلاد ، ولكن محاولته باءت بالفشل[2] ، فجاء ابراهيم باشا الصدر الأعظم إلى مصر لدراسة أحوال البلاد واستقصاء أسباب هذه التمردات ، وبعد دراسته لأوضاع البلاد وأحوالها قدم إلى السلطان سليمان تقريرا مفصلا ، وصدر قانون نامة مصر[*] « وجدّد القوانين المصرية ، وخلدها فى الدفاتر » ، « بموجب دفاتر الجراكسة القديمة »[3] .

استطاع الولاة العثمانيون ، فى الفترة التالية لصدور قانون نامة ، وحتى السبعينات من القرن السادس عشر ، وإلى حد كبير ، تنفيذ أحكام هذا القانون،

---

(١) من هذه التمردات ، تمرد جانم السيفى ، كاشف البهنسا والفيوم ، وكاشف أطفيح وإينال الطويل كاشف الغربية .

انظر ، يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (مخطوطة) نسخة مصورة ، عن النسخة الأصلية ، المحفوظة بمكتبة رفاعة رافع الطهطاوى بسوهاج ، النسخة المصورة رقم ٥٦٢٣ تاريخ ، ص ١٦٤ ؛ أحمد شلبى بن عبد الغنى ، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، نسخة مصورة — فى حوزتى — عن نسخة مكتبة جامعة ييل بالولايات المتحدة ، المحفوظة بها تحت رقم Landberg No. 3 ؛ محمد بن أبى السرور البكرى ، المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ، (مخطوط) ورقة ٤١ ، والنزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية مخطوطة ورقة ٢٢ ؛ دكتور عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ — ١٧٩٨)، الطبعة الثانية ص ص ١٣٨ — ١٤٠ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص ص ١٤٠ — ١٤٣ .

(*) نقوم حالياً بالاشتراك مع الصديق الدكتور أحمد فؤاد متولى مدرس اللغة التركية بآداب عين شمس تحت إشراف أستاذنا الدكتور أحمد عزت عبد الكريم بإعداد دراسة عن هذا القانون ونشر نصه مترجماً إلى اللغة العربية ضمن مطبوعات « سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث » بجامعة عين شمس .

(٣) يوسف الملوانى ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ ، محمد بن أبى السرور ، المنح الرحمانية ، ورقة ٤٢ ؛ النزهة الزهية ، ورقة ٢٣ .

بجد وحزم ، وقاموا بكثير من الأعمال النافعة . وتوطيد نظم الإدارة العثمانية فى البلاد ، ولكن منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر ، بدأت الأمور تضطرب بعض الشيء، وبدأت بعض فرق الحامية العثمانية - وبخاصة جند السباهية - هى التى تتزعم الثورات ، والحقيقة أن ثورات الجند فى تلك الفترة أصبحت ظاهرة عامة فى أرجاء الدولة العثمانية وليست ظاهرة خاصة بمصر ، وقد كانت اهنك عوامل كثيرة تحرك هذه الثورات، يأتى على رأسها العوامل الاقتصادية[١] وسندرس فيما يلى أسباب هذه الظاهرة فى مصر ، حيث أن موضوع المخطوطة التى ننشرها ، كان أحد الأسباب التى حركت هذه الثورات ، وسوف تتناول هذه الدراسة ، أسباب ثورات جند السباهية فى مصر ، ثم التعريف بالمخطوطة ومؤلفهـــا .

أسباب ثورات جند السباهية :

(أولا) تذكر المصادر المعاصرة الكثير عن الاضطراب الاقتصادى الذى بدأ يسود البلاد وكان أحد العوامل المحركة لثورات الجند منذ ولاية على باشا الصوفى(غرة رجب ٩٧١ - سلخ رمضان ٩٧٣هـ / ١٤ فبراير ١٥٦٤ - ٢٠ أبريل ١٥٦٦م) حيث بدأ الزيف فى المعاملة ، نتيجة لخلطها بالنحاس زيادة عن القانون، وكثر المفسدون من اللصوص وقطاع الطرق ، وكان لذلك أثره على أحوال البلاد ، وبدأ جند السباهية يستغلون نفوذهم فى فرض الضرائب غير الشرعية على الأهالى، ويثورون ضد الولاة الذين يقفون فى وجـــه ما يفعلون ، محتجين على ذلك بانخفاض القيمة الشرائية لمرتباتهم[٢] ومن هنا كانت بداية ثورات جند السباهية .

---

(١) انظر : دكتور عبد الكريم رافق ، ثورات العساكر ، ص ص ١٥ - ٢٢ .

(٢) محمد بن أبى السرور البكرى ، المنح الرحمانية ، ورقة ٤٧ ، النزهة الزهية ، ورقة ٢٥ ؛ يوسف الملوانى ، المصدر السابق ، ص ص ١٦٨ - ١٦٩ ؛ أحمد شلبى ، المصدر السابق ، ص ١١ ، دكتور عبد الكريم رافق ، ثورات العساكر فى القاهرة فى الربع الأخير من القرن السادس عشر ، والعقد الأول من القرن السابع عشر ومغزاها ، ص ص ١٥ - ٢٤ .

(ثانياً) نتيجة لنظام الإدارة العثمانية فى الريف ، أصبح لجند السباهية (جمليان – تفكجيان – جراكسة) نفوذ كبير فى الريف ، حيث كانت مهمتهم الأساسية . توطيد الأمن وحماية المناطق الزراعية ، وطرق المواصلات من غارات البدو ، والمحافظة على شبكات الرى ، والإشراف على توزيع المياه على القرى ، ومساعدة الأمناء الذين كانوا يديرون المقاطعات ، وكذلك مساعدة الكشاف فى أداء مهمتهم،حتى أن المصادر المعاصرة تطلق عليهم « طائفة الجند المكتوبين ، فى بلاد الأرياف ، مع كشاف الأقاليم » ولكن هؤلاء الجند استغلوا نفوذهم على سكان الريف ، وفرضوا لأنفسهم كثيراً من الامتيازات والعادات التى لم يستطع أهل الريف منها فكاكا ، ولما حاولت الدولة العثمانية رفع هذه المظالم الاقتصادية عن كاهل أهل الريف ، وكلفت ولاتها بالعمل على إبطال هذه المظالم وبخاصة مظلمة الطلبة ، كانت هذه المحاولة سببا مباشراً فى إشعال نار ثورات جند السباهية[1] .

والمخطوطة التى نحن بصددها ، تصور ما أصاب الريف من أعمال هؤلاء الجند ، وثوراتهم ضد الولاة منذ الربع الاخير من القرن السادس عشر ،حيث ترسم الصورة التالية لأوضاع أهل الريف فى ظل هذه المظالم ، وكيف أصبح جند السباهية يشكلون طبقة متميزة عن سكان البلاد :

« وكانت قبل هذا الأوان قد اختل أمرها ، وضاقت معيشة أهلها ، لما كثر شرها ، وحصل ضرها ، وضعفت فلاحيها ، وخربت قراها ، وانفصمت عراها ، وانقلبت أحوالها ، وتعطلت غلالها وأموالها ، لما أراده الله سبحانه وتعالى فى القدم ، ابرازها من الوجود إلى العدم ، وخراب البلاد ، وهلاك العباد ، وجلاء الفلاحين ، وإهانة الشرع المبين ، واتسع الخرق وزاد الحرق ،

---

(١) دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص ص ٥٣ — ٦١ .

وكان ذلك كله بسبب قيام طايفة من جنـــد مصر المكتوبين مع الكشاف فى نواحى الأرياف ، أظهروا العناد ، وسعوا فى الأرض بالفساد ، وأحدثوا شيئاً يسمى الطلبة ، على الفلاحين ، وصاروا يضاعفونها فى كل سنة من السنين ، إلى أن زادت على أموال المقاطعة ، هذا ولم يقدر أحد على المدافعة ، وعمت وطمت وزاد خبثها وغمت ، وذلك خلاف ، ما صدر منهم من الأمور الشنيعة ، والفعايل الخارقة البشيعة ، من ارتكاب الزنا واللواط بالمرد جهارا ؛ وافتضاض الأبكار نهاراً ، وصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ولا يأتمرو بأمر ولاتهم وكشافهم فيما يفعلوه ، وصار لهم اسمطة وأطعمة غالية المقدار ، زايدة الافتخار ، تحمل إلى خيامهم آناء الليل وأطراف النهار ، وتهديد الكشاف بالقتل ، إن قصروا عن ذلك ، ويسلكون بهم أسوأ المسالك ، والمسلمون معهم فى أمر مريج معوج غاية التعويج ، وقد صار أرذل الجند عندهم مقلداً بالسيوف المسقطة والسروج المذهبة المنقطة ، والخيول المسومة ، والعدد المقومة ، والأولاد الجميلة المزينة ، والنعمة الظاهرة المبينة ، فإذا وجدوا ولداً مع والده اغتصبوه وأخذوه وتبعوه ورصدوه ، مع الفسق بنساء الفلاحين ، وافتضاض بناتهم الأبكار ، وسلب ما معهم من الدثار ، وغير ذلك من الأشياء المنكرة ، والحوادث الشنيعة المبتكرة»[1] وواضح من هذا النص ، كيف أن أفراد جند السباهية استغلوا سلطتهم ونفوذهم على أهل الريف ،الذين ضجوا بالشكوى من هذه المظالم ، ولما حاول الولاة الحد من هذه المظالم وإلغاء الطلبة التى أصبح هؤلاء الجند يعتبرونها حقاً مقرراً لهم ، ثاروا ضد هؤلاء الولاة ، وتمردوا عليهم وعلى أوامر الدولة ، ولم تجدهم النصيحة فتيلا ، ووصل بهم الأمر إلى حد تهديد هؤلاء الولاة بل وقتل أحدهم ، وقد سبق لنا معالجة هذه الثورات ، فى الدراسة التى قدمنا بها لنشر مؤلف محمد بن أبى السرور البكرى الصديق ، حول موضوع

---

(١) انظر النص ، ص ص ٨ — ١٠ ، ص ص ٢٨٦ — ٢٨٨ من هذه الطبعة .

« الطابة » ذاته ، والمسمى « كشف الكربة فى رفع الطلبة » ، ونضيف هنا إلى الدراسة السابقة الملاحظات التالية :

أولا : إن هذه الثورات ، إمتازت بالعنف والقسوة ضد الولاة العثمانيين من ناحية ، وضد السكان المحليين من ناحية ثانية ، فنجد أن اتسامها بالعنف ضد الولاة، أذهب عنهم هيبتهم ، وأفقدهم سلطانهم ، حتى أصبح بعضهم يستجيب لمطالب هؤلاء الجند ، ويصدر أوامره بإعطائهم ما يريدون من طُلب وغيرها ، كما حدث مع أويس باشا ($\frac{\text{١٢ جمادى الثانية ٩٩٤ – ١٨ جمادى الثانية ٩٩٩هـ}}{\text{٣ مايو ١٥٨٦–١٣ ابريل ١٥٩١م}}$) الذى قامت ضده أول ثورة من ثورات هؤلاء الجند ، ووصل العنف بهم أقصى درجاته ساعة قتلهم إبراهيم باشا ($\frac{\text{١٤ ذو الحجة ١٠١٢–١ جمادى الأولى ١٠١٣هـ}}{\text{١٤ مايو ١٦٠٤ – ٢٥ سبتمبر ١٦٠٤ م}}$) وتحديهم بعد ذلك للسلطات وإعلانهم الاستقلال بمصر ، وتعيينهم سلطانا ورؤساء من بينهم ، وتقسيم البلاد فيما بينهم إلى مناطق نفوذ[1] .

أما السكان المحليين فان هذه الثورات كانت سبباً فى إضعاف أحوالهم ، وخراب بلادهم ، ولم يكن أمامهم من سبيل سوى الشكوى لكل باشا جديد ، ساعة قدومه إلى مصر ، لعلهم واجدين فيه ، منقذاً لهم من تصرفات هؤلاء الجند[2] .

ثانياً : إن عنف هذه الثورات ، لم يكن قصراً على الريف ، وإنما امتد إلى المدينة ، وبخاصة المدن الكبرى ، كما حدث فى القاهرة والمحلة ، وطنطا ، واعتدائهم على الكشاف ، وتهديدهم لهم ، كما هددوا كثيراً من الرؤساء ، وكبار

---

(١) دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، تقديم كشف الكربة ، ص ٢٩٨ .

(٢) نفسه ، ص ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

المسئولين فى حكومة القاهرة ، وتعقبوا بعضهم إلى حد القتل وإهانة أولاد العرب (السكان المحليين) ، إهانة شديدة « فى أخذ خيولهم ، وما عليهم من اللباس الحسن » « ونادى مناديهم أن أولاد العرب لا يستخدمون مماليكا بيضا » ، وهذا يوضح أن أمر إلغاء الطلبة لم يكن هو السبب الوحيد لهذه الثورات ، وإنما محاولة الوقوف فى وجه الإمتيازات المادية التى حصل عليها هؤلاء الجند ، كانت الدافع الأساسى لها سواء فى المدينة أو الريف[1] .

ثالثاً : يتضح من دراسة هذه الثورات والعناصر التى شاركت فيها ، بروز العنصر المملوكى على وجه الحياة السياسية والعسكرية فى مصر ، سواء فى الجانب الثائر أو فى الجانب الحكومى المضاد لها ، فإذا نظرنا إلى الجانب الثائر ، وهم جند السباهية فإننا نجد أن معظمهم من عناصر مملوكية ، أى أن هؤلاء الثائرين حينما أعلنوا خروجهم على السلطة العثمانية وعينوا سلطاناً ورؤساء من بينهم ، معنى ذلك إعلان العنصر المملوكى خروجه على السلطة العثمانية ، وفى نفس الوقت نجد أن القوات الحكومية ورياستها كانت فى يد عناصر مملوكية كذلك وأن كثيراً من المناصب الإدارية — كما يتضح من استعراض الأسماء التى وردت فى المصادر المعاصرة — أصبحت فى يد عناصر مملوكية كذلك ، أى أن العناصر المملوكية أصبحت هى المتنفذة فى إدارة شئون البلاد وأنه لو قدر لجناحيها التنسيق فيما بينهما ، لربما أدى ذلك إلى استقلال هذه العناصر بالبلاد وإعادتها إلى الحوزة المملوكية كاملة كما كانت من قبل ، ولكن لم يقدر لها فى تلك المرحلة أن تفعل ذلك ، وإن وضح منذ تلك الفترة وحتى نهاية القرن الثامن عشر ، سيطرتها التامة على إدارة شئون البلاد السياسية والعسكرية والاقتصادية ، وتوارى الحكم العثمانى إلى مرحلة الظلال ، حيث ضعفت فاعليته وسيطرته ، واكتفى بالسيادة الاسمية ، يؤكد هذا الاعتقاد ، أن الكتاب المعاصرين لأحداث ثورات السباهية ،

---

(١) انظر النص ، ص ١٢ ؛ ص ص ٢٨٨ — ٢٨٩ من هذه الطبعة .

اعتبروا تغلب محمد باشا (٧ صفر ١٠١٦ — ١٨ جمادى الثانية ١٠٢٠ هـ / ٣ يونيو ١٦٠٧ — ٢٨ أغسطس ١٦١١ م) على الثائرين ، وقضائه عليهم ، فتحاً عثمانياً ثانياً للبلاد ، وهو فى الحقيقة الفتح الثانى لمصر ، فى الدولة الشريفة العثمانية أيدها الله تعالى ، كما نعتت هذا الباشا بألقاب « معمّر مصر » و « مبطل الطلبة » و « قول قـــران » . وأعجب الكتاب والشعراء بأعمال هذا الباشا ، وعلى الأخص إبطال الطلبة ، وأخذ كل منهم يدلى بدلوه فى هذا الميدان[1] ، وكان من بين المعجبين صاحبنا « محمد البرلسى السعدى » الذى وضع مؤلَّفه « بلوغ الأرب برفع الطلب فى عام ١٠١٧ هـ / ١٦٠٩ م » ، مبينا سبب وضعه لهذا المؤلَّف بقوله « فلما رأيت ما وقع بالديار المصرية فى هذا العام (١٠١٧هـ / ١٦٠٩م) من الأمور الجسام ، والأهوال العظام ، اقتضى الحال ، تعليق تلك الأخبار ، قصداً للاعتبار ، وبما فعله هذا الدهر الغدّار بمشيئة الأقدار وتغلب حال الليل والنهار ، مما يفضى لقارئها العجب ، وتميل أعطافه من الطرب وطرزتها ببعض آيات شريفة من الكتاب الكريم ، وأحاديث شريفة ، الواجبة القبول والتعظيم ، ونكات لطيفة ، واستطردات ظريفة ، بعضها بالمشاهدة وبعضها بأخبار الثقاة طلباً للفائدة ، وسميتها « بلوغ الأرب ، برفع الطلب » والله سبحانه

---

(١) انظر محمد بن أبى السرور البكرى ، كشف الكربة فى رفع الطلبة ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث والعشرون ، ١٩٧٦ م ، تحقيق دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ؛ دكتور عبد الكريم رافق ، ثورات العساكر ، ص ص ٢٩ — ٣٢ ، بلاد الشام ومصر ، ص ص ٢٣٩ — ٢٥٣ .

— Shaw, J. Stanford. The financial and Administrative organization and development of ottoman Egypt, Princeton 1956. pp 87—88

— Holt, P.M. Egypt and fertile Crsséent 1515—1722, apolitical History, P. 76,

وتعالى أسأل اتباع سلوك الحق ، وإلهام طريق الصدق، إنه ولىُّ ذلك والقادر عليه ، وفى الحقيقة فالكل منه واليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم »[1] .

* * *

(ثانياً) التعريف بالمخطوطة ، ومؤلفها وموقفه من الأحداث التى عاصرها :

١ — المخطوطة :

مخطوطة « بلوغ الأرب برفع الطالب » ، تأليف محمد البرلسى السعدى ، تؤكد الصورة التى رسمها ، محمد بن أبى السرور البكرى فى مؤلفه « كشف الكربة فى رفع الطلبة » ومؤلفاته الأخرى[2] ، عن أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فى الفترة الممتدة من (٩٩٧ — ١٠١٧هـ / ١٥٨٩ — ١٦٠٩م) ، حين تمكن محمد باشا (١٠١٦ — ١٠٢٠هـ / ١٦٠٧ — ١٦١١م) ، من القضاء على ثورة جند السباهية فى (٩ ذى القعدة ١٠١٧ هـ / ١٤ فبراير ١٦٠٩ م) ، وتوجد النسخة الأصلية لهذه المخطوطة بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، تحت رقم (٨١) تاريخ ، وتوجد صورة لهذه النسخة على فيلم برقم ٢٦ بمعهد إحياء المخطوطات العربية ، التابع لجامعة

---

(١) انظر : ص ص ٢ — ٣ ، من الترقيم الذى وضعناه للنص ، ص ص ٢٨٣ — ٢٨٤ ، من هذه الطبعة .

(٢) انظر : حول هذه المؤلفات . دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، تقديم « كشف الكربة ، فى رفع الطلبة » المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث والعشرون ، ص ٣٠٤ .

الدول العربية ، ومدونة تحت رقم (٩٣٧) ، تاريخ بالجزء الثانى من فهـــرس المخطوطات[1] .

وهذه النسخة بخط المؤلف الذى كتبها عام ١٠١٧ هـ / ١٦٠٩ م ، بخط النسخ الجميل ، والمخطوطة تقع فى تسع وخمسين (٥٩) ورقة ، لا ســـتين (٦٠) ، كما ذكر فى البيانات المدونة عنها فى فهرس المخطوطات ، أى أنها تحتوى على مائة وخمسة عشرة صفحة ، خلاف صفحة الغلاف حيث أن الورقة رقم ٥٩ ، كتبت بها صفحة واحدة فقط والصفحة الثانية تكملة للمخطوطة المكتوبة على هامش المخطوطة ، وقد رقمنا صفحات النص بأرقام بين قوسين معكوفين لتوضيح بداية كل صفحة جديدة مبتدئة برقم ١ ، ومنتهية برقم ١١٥ :

وكل صفحة من النص تحتوى على سبعة عشر (١٧) سطرا ، وكل سطر يحتوى مابين سبع أو ثمانى (٧ ، ٨) كلمات ، ومماهوجدير بالإشارة ، أنه كتب فى الجزء الأعلى من يمين صفحة الغلاف العبارة التالية « استصحبه العبد الآثم شابي زاده ، إسماعيل عاصم ، أصلح الله شانه ، وصانه عما شانه » وشلبي زاده هذا مؤرخ عثمانى مشهور ، وربما قصد بهذه العبارة أنه استصحب أصل المخطوطة معه إلى المدينة المنورة حيث آلت إلى مكتبة عارف حكمت .

والمخطوطة بعد المقدمة التى بين فيها المؤلف السبب الذى دعاه إلى وضعها وفضل مصر وخيراتها وجندها ، وماقيل بخصوصها فى الحديث تعالج الموضوعات التالية :

---

(١) أشار الدكتور عبد الكريم رافق ، الى هـذه المخطوطة ، فى مؤلفه القيم « بلاد الشام ومصر » الطبعة الثانيـة ، ص ص ٢٤٢ ـــ ٢٤٣ ، ص ٤٣٢ ؛ ثورات العسا كر فى القاهرة ، طبع دمشق ؛ ص ص ٥ ، ١٠ ، ١٤ .

١ – الطلبة وماهيتها، وكيف أصبحت سبباً فى خراب البلاد، وفساد أحوالها.

٢ – الأحداث التى وقعت فى عهد الولاة الذين تولوا حكم مصر، منذ عهد أويس باشا (١٢ جمادى الثانى ٩٩٤ – ١٨ جمادى الثانية ٩٩٩ هـ / ٣١ يناير ١٥٨٦ – ١٣ أبريل ١٥٩١ م)، وحتى نهاية عهد محمد باشا (٧ صفر ١٠١٦ – ٨ جمادى الثانية ١٠٢٠ هـ / ٣ يونيو ١٦٠٧ – ٢٨ أغسطس ١٦١١ م)

٣ – ثورات جند السباهية، والعناصر الأخرى التى شاركت فيها.

والملاحظ على هذه المخطوطة، أنها تكاد تتشابه تماماً، مع مؤلف «كشف الكربة فى رفع الطلبة»، لمحمد بن أبى السرور البكرى، فى أسلوبهـا، وترتيبها لذكر الأحداث بنفس العبارات، مما يجعل الباحث فى حيرة أيهما تأثر أو نقل عن الآخر، وإن ذكر كل منهما، أنه وضع مؤلفه عام ١٠١٧ هـ / ١٦٠٩ م

ولكن مما هو جدير بالملاحظة أن مؤلف ابن أبى السرور يمتاز بذكر تفاصيل أكثر فى كثير من المواضع، كما أنه يمتاز بأنه جمع فى نهاية المؤلف، مانقله من أفواه الثقاة من الناس، ومما تجدر الإشارة إليه كذلك، أن محمد البرلسى السعدى، هو الذى قام بنسخ ومقابلة النسخة الموجودة لدينا من مؤلف ابن أبى السرور وانتهى من هـذا العمل فى ١٠ ربيع الآخر ١٠٢٢ هـ / ٣٠ مايو ١٦١٣ م، وربما يدعونا ذلك إلى الظن بأنه تدخل فى بعض مواضع من هذا المؤلف، حيث أننا نجد أن الأشعار التى نسبت إليه فى كلا المؤلفين، أصابها بعض التعديل فى بعض ألفاظها، وزيادة بعض الأبيات فى نص ابن أبى السرور، والتى لم يرد ذكرها فى نصه

الذى ننشره الآن[1] ، كما نجد كذلك أن المواضع التى تركت بيضاء فى مؤلف ابن أبى السرور البكرى ، هى نفس المواضع التى تركت بيضاء فى مخطوطة البرلسى التى نحن بصددها . وإن ظهر بعض الاختلاف فى ذكر بعض الأسماء التى وردت فى المؤلفين ، وقد أشرنا إلى كل ذلك فى موضعه من النص .

والمؤلف يعالج موضوعه على طريقة التراجم ، فبعد المقدمة يذكر الباشا الذى أوكل إليه السلطان حكم مصر ، وأهم الأحداث التى وقعت فى عهده ، وأهم أعماله ، ويستطرد خلال كتابته للأحداث ، بذكر بعض العظات والأحاديث النبوية ، والنكات والفكاهة التى تطابق واقع الحال ، ولم نحذف هذه الفقرات كما فعلنا عند نشر مؤلف ابن أبى السرور البكرى ، وإنما اكتفينا بالإشارة إلى مواضعها فى الهامش . وعموماً فإن أسلوب محمد البرلس السعدى، أكثر تناسقاً وإتقاناً فى التركيب من أسلوب ابن أبى السرور ، وقد أصلحنا الأخطاء النحوية والإملائية التى وقع فيها المؤلف،وأشرنا إلى ذلك فى الهامش .

* * *

٢ — المؤلف :

إذا كانت المعلومات التى لدينا عن محمد بن أبى السرور البكرى وأسرته جد كثيرة ، فإن معلوماتنا عن محمد البرلسى السعدى مؤلف «بلوغ الأرب برفع الطلب» ، جد قليلة ، حيث سكتت المصادر المعاصرة ، وكتب التراجم ، عن الترجمة له ، وكل معلوماتنا التى استطعنا تجميعها عنه ، جاءت مما كتبه عن نفسه ،

(١) قارن على سبيل المثال : قصيدته السعدية التى دونها فى مؤلف «كشف الكربة فى رفع الطلبة» ، ص ص ٣٧٨ — ٣٨٢ مع قصيدته المدونة فى نهاية نص مؤلفه «بلوغ الأرب برفع الطلب» .

فى ثنايا مؤلفه هذا ، أو أشعاره التى رصدها فى هذا المؤلف ، وما ذكره على صفحة غلاف مؤلفه ، وصفحة غلاف مؤلف محمد بن أبى السرور البكرى «كشف الكربة فى رفع الطلبة» ، والتى قام بنسخها ومقابلتها عام $\frac{\text{١٠ ربيع الآخر ١٠٢٢ هـ}}{\text{٣٠ مايو ١٦١٣ م}}$ ، وبناء على هذه المعلومات يمكن القول ، بأنه ينتمى إلى قبيلة بنى سعد وأن مستقر أسرته منطقة البرلس بشمال دلتا مصر ، وأنه كان فقيراً وكثير العيال وليس لديه مال ، حتى أنه وضع قصيدة مدح فى محمد باشا ذاكراً له هذه الحقائق لعله يمد له يد العون قائلا :

فخذها عروساً من سميك وهو من	ذوى سعد من أرض البرلس فى الذكر
وفى النفس حاجات وفيك مكارم	يناجيك عن أسرارها عالم السر
فقير ومن أهل العيال وماله	وحرمة رب دوهم قط فى مصر
ومن نيلك الفياض يرجو مكارماً	فنيل أياديكم تجل عن الحصر[1]

ذكر كذلك أنه ولى منصب القضاء فى كل من إسكندرية ودمياط ورشيد قبل عام $\frac{\text{١٠١٧ هـ}}{\text{١٦٠٩ م}}$ ، وأنه شافعى المذهب ، رفاعى الطريقة «البرلسى الرفاعى الشافعى[2] » .

أما ماورد من نسبة الدمياطى إليه ، فى البيانات التى كتبت عن طريق معهد إحياء المخطوطات على الورقة الأولى من المخطوطة . تحت اسم المؤلف . محمد البرلسى السعدى الدمياطى » ، فلا ندرى من أين جاءت نسبة الدمياطى هذه إليه » أجاءت نتيجة لأن منطقة البرلس تتبع لمحافظة دمياط ، أم نتيجة لأنه ذكر أنه

---

(١) انظر : ص ص ١١٤ — ١١٥ من النص طبقاً للترقيم الذى وضعناه له .

(٢) انظر : كشف الكربة فى رفع الطلبة ، صفحة الغلافة ، ص ٣٠٧ .

كان خادماً للشريعة المطهرة باسكندرية ودمياط ورشيد ، أم أنه خاط من كاتب البيانات ، حيث أنه لم يذكر هذه النسبة إليه قط فى مؤلفه[1] .

وقد كان البرلسى صادقاً فى رصده لأحـــداث الوقائع التى عاصرها ، متتبعاً لمسبباتها ونتائجها موجزاً لها ، غير مبالغ فيها ، لجاء تصويره للوقائع ، قريباً من الواقع ، ومتفقاً مع ماذكر فى المصادر المعاصرة الأخرى[2] ، ففى مؤلفه صورة واضحة عن الواقع الذى كان يعيش فيه المجتمع المصرى ، فى الربع الأخير من القرن السادس عشر ، ومطلع القرن السابع عشر ، إقتصادياً ، وسياسياً وإجتماعياً .

---

(١) انظر : الورقة الأولى من المخطوطة ، حيث دونت البـــيانات الخاصة بالمخطوطة ومؤلفها ص ٢٨١ ، من هذه الطبعة .

(٢) انظر : مؤلفات محمـــد بن أبى السرور البـكرى ، السابق ذكرها ، ويوسف الملوانى ، تحفة الأحباب ص ص ١٦٨ — ١٨١ ، وأحمد شلبى بن عبـــد الغنى ، أوضح الإشارات ، ص ص ١٠ — ٢٣ ، جرجى زيدان تاريخ مصر الحديث ، ج٢ ، ص ص ٨٢ — ٨٣ . طبعة ١٨٨٩م .

بلوغ الأرب برفع الطلب

لمحرره

العبد الفقير المفرط الحقير

خادم السنة الشريفة والعلوم المنيفة

محمد البرلسى السعدى

وخادم الشريعة المطهرة باسكندرية

ودمياط ورشيد سابقاً

ختم الله تعالى له بالصالحات

وأدرّ له البركات ، ولطف به فى المحيا والممات

وجميع المسلمين والحمد لله رب العالمين

[١] الحمد لله الذى أقام قوايم الشريعة الغرآ ، والمحجة الزهرا بحمده ، وأباد ذوى الطغيان ، والبغى والعصيان بمهنده ، وقطع دابر الطايفة المارقة ، الخارجة عن طاعة الله ورسوله ، وطاعة السلطان ، ذوى البغى والعصيان ، الذين هم فى ضلالهم يعمهون ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون ، نحمده على أن هدانا الدين القيم ونشكره على إهانة الطغاة البغاة ، ومن يهن الله فما له من مكرم ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، الملك العدل القادر القاهر الديان ، ونشهد أن سيدنا ونبينا محمدا [٢] صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله . وصفيه وخليله ، القايل : « من شق عصى أمتى فاقتلوه كاينا من كان » ، الذى أرسله الله تعالى رحمة للعالمين ، وجعله رسول الله وخاتم النبيين ، فأخبر صلى الله عليه وسلم عن السر المصون ، ونبأ بما كان وما يكون إلى يوم يبعثون ، واستعاذ صلى الله عليه وسلم من غلبة الدين وقهر الرجال ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين شيدوا دعايم الاسلام فرفعوها ، وعمروا بلاد الله بالعدل والاحسان أكثر مما عمروها ، وسلم تسليما كثيراً ، دايما غزيراً ، وبعد فلما رأيت ماوقع بالديار المصرية فى هذا العام(*) ، من الأمور الجسام ، والأهوال العظام ، اقتضى الحال تعليق تلك الأخبار قصداً للاعتبار وبما فعله هذا الدهر الغدار بمشيئة الأقدار ، وتغلب حال الليل والنهار [٣] مما يفضى لقارئها العجب ، وتميل أعطافه من الطرب ، وطرزتها ببعض آيات شريفة من الكتاب الكريم ،

---

* عام ١٠١٧هـ / ١٦٠٨ / ١٦٠٩م .

وأحاديث شريفة الواجبة القبول والتعظيم ، ونكات لطيفة ، واستطرادات ظريفة ، بعضها بالمشاهدة ، وبعضها بأخبار الثقاة طلبا للفائدة ، وسميتها « بلوغ الأرب ، برفع الطلب » ، والله سبحانه وتعالى أسأل اتباع سلوك الحق، والهام طريق الصدق ، إنه ولى ذلك ، والقادر عليه ، وفى الحقيقة فالكل منه وإليه ، لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ، قال الله جل ذكره ، وتقدست أسماؤه ، « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض»[1] وقال تعالى : «ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم»[2]. وقال تعالى : [٤] «ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم»[3] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياأيها الناس اسمعوا وأطيعوا وإن ولى عليكم عبداً حبشياً » والأحاديث فى معنى ذلك كثيرة ومن المعلوم أن مصر المحروسة خير بلاد الأرض على الاطلاق ، وجندها خير أجناد الأرض ، وسلطانها أعظم السلاطين وأبهى الملوك وأفخمهم، وكفاه مجداً وشرفاً خدمة الحرمين المحترمين، وأهلها أرق الناس طباعا ، وأكثرهم فضيلة واتضاعا ، لما جاء فيها وفى ساكنها من الآثار ، والفوايد والأخبار . من ذلك مارواه[4] عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه أنه قال ، حدثنى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم . يقول « إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا بها جنداً كثيفاً » وقال: «إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط ،فاستوصوا بأهلها خيراً » ، وفى الأخبار أن الله سبحانه وتعالى لما خلق آدم [٥] عليه السلام مثل له الدنيا شرقها وغربها وسهلها وجبلها ، وبحارها وأنهارها ، وعامرها

---

(١) سورة المائدة ، آية ٣٣.

(٢) سورة النساء ، آية ٥٩ ، وصواب الآية «ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم » .

(٣) سورة النساء ، آية ٩٣ .

(٤) فى النص تعبير « أمير المؤمنين » وعليه شطب فحذفناه .

وغامرها ، ومن يسكنها من الأمم ، ومن يملكها من الملوك ، فلما رأى إلى مصر رأى أرضا سهلة ذات نهر جار مادته من الجنة تنحدر فيه البركة ، ورأى جبلا من جبالها مكسوا نورا لايخلو من نظر الرب إليه بالرحمة ، فدعى آدم عليه السلام فى أرضها بالبركة ، وبارك فى نيلها سبع مرات ، وكان آدم عليه السلام أول من دعى لها بالبركة والرحمة والخصب والرأفة ، ثم دعى لها بعد ذلك نوح عليه السلام، فأثارت دعوتهما فيها البركة،وقال عليه الصلاة والسلام « مصر كنانة الله فى أرضه من أراد لها بسوء قصمه الله » ، وأخرج الطبرانى وغيره من حديث أبى بكرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الوالى العادل المتواضع ظل الله ورحمته فى أرضه [٦]فمن نصحه فى حقه وفى عباد الله حشره الله تعالى فى ظله يوم لاظل إلا ظله ، ومن غشه فى نفسه وفى عباد الله خذله الله تعالى يوم القيامة» ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال ،قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة قيام ليلها وصيام نهارها » . وأخرج الزبيرى من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم عنده مجلساً إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه مجلساً إمام جاير » ، وأخرج الزبيرى أيضا من حديث عمر بن الخطاب رضى اللهعنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السلطان ظل الله فى الأرض فإذا عدل كان له منى الأجر وعلى الرعية الشكر ، ثم إذا خان كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر » ، وقال عمرو بن مرة لمعاوية يوما سمعت رسول الله [٧] صلى الله عليه وسلم يقول « مامن إمام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسكنة، إلا أغلق الله تعالى أبواب السماء دون حاجته ، وخلته ومسكنته » ، وروى اليزيدى وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين واحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله

ثعالى دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة »[1]، وعلى ماذكرناه فإنه يجب على عامة الرعية إمتثال ولى أمرهم، والانقياد لطاعته بهذا ، وليس بخاف أن الديار المصرية، والقاهرة المعزية ، محروسة بحمد الله تعالى ومحمية ببركة الأولياء والأصفياء والصالحين ، والعلماء العاملين ، أيمة الدين، وبالجبل المقطم الذى ساحته غراس إبل الجنة عن يقين ، ليس لها فى مصر الأمصار نظير يشهد بذلك المسافرون[2] ، وكل من أراد لها سوءاً انقلب عليه ، وصار [٨] وباله إليه ، وهى الآن فى غاية العمار والاطمئنان وأهلها راتعون فى نعم الله تعالى فى دولة حضرة مولانا السلطان[3] وخصوصاً فى زمن متولها الآن[4] ، داعون له بطول الأعمار ، أناء الليل واطراف النهار ، وأن يديمه بالقطر المصرى مادام الفلك الدوار ، وقد كانت قبل هذا الأوان قد اختل أمرها ، وضاقت معيشة أهلها ، لما كثر شرها ، وحصل ضرها ، وضعفت فلاحيها وخربت قراها ، وانفصمت عراها ، وانقلبت أحوالها وتعطلت غلالها وأموالها ، لما أراده الله سبحانه وتعالى فى القدم ، إبرازها من الوجود إلى العدم ، وخراب البلاد . وهلاك العباد ، وجـــلاء الفلاحين وإهانة الشرع المبين ، واتسع الخرق ، وزاد الحرق ، وكان ذلك كله بسبب قيام طايفة من جند مصر المكتوبين مع الكشاف فى نواحى الأرياف أظهروا العناد ، وسعوا فى الأرض الفساد ، وأحدثوا [٩] شيئاً[5] يسمى

---

(١) بخصوص جميع الأحاديث المذكورة فى النص ، انظر ، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ، عن الكتب الستة وعن مسند الدارمى وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل « رتبه ونظمه لفيف من المستشرقين ، ونشره الدكتور أ . ى . ونسنك ، أستاذ العربية بجامعة ليدن ، ليدن ١٩٣٦ ، حيث أوردها جميعاً منثورة فى هذا المعجم كل فى موضعه .

(٢) فى الأصل « المسافرين » .

(٣) السلطان أحمد الأول تولى السلطنة $\frac{\text{١٨ رجب ١٠١٢ — ٢٣ ذى القعدة ١٠٢٦ هـ}}{\text{٢٢ ديسمبر ١٦٠٣ — ٢٢ نوفمبر ١٦١٧ م}}$

(٤) يقصد محمد باشا $\frac{\text{٧ صفر ١٠١٦ — ١٨ جمادى الثانية ١٠٢٠ هـ}}{\text{٣ يونيو ١٦٠٧ — ٢٨ أغسطس ١٦١١ م}}$

(٥) فى الأصل « شىء » وصححتها « شيئاً » .

«الطلبة» على الفلاحين ، وصاروا يضاعفونها فى كل سنة من السنين ، إلى أن زادت على أموال المقاطعة[1] ، هذا ولم يقدر أحد على المدافعة ، وعمت وطمت وزاد خبثها وعمت ، وذلك خلاف ماصدر منهم من الأمور الشنيعة ، والفعايل الخارقة البشيعة من ارتكاب الزنا واللواط بالمرد جهاراً ، وافتضاض الابكار نهاراً ، وصاروا لايتناهون[2] عن منكر فعلوه ، ولا يأتمروا بأمر ولاتهم وكشافهم فيما فعلوه ، وصار لهم اسمطة وأطعمة غالية المقدار ، زايدة الافتخار، تحمل إلى خيامهم أناء الليل وأطراف النهار ، وتهديد الكشاف بالقتل إن قصروا عن ذلك ، ويسلكون بهم أسوأ المسالك ، والمسلمون معهم فى أمر مريج ، معوج غاية التعويج ، وقد صار أرذل الجند عندهم مقلداً بالسيوف المسقطة ، والسروج المذهبة المنقطة والخيول المسومة ، والعدد [١٠] المقومة ، والأولاد الجميلة المزينة ، والنعمة الظاهرة المبينة ، فإذا وجدوا ولداً مع والده اغتصبوه وأخذوه ، وتبعوه ورصدوه ، مع الفسق بنساء الفلاحين ، وافتضاض بناتهم الابكار ، وسلب مامعهم من الدثار ، وغير ذلك من الأشياء المنكرة ، والحوادث ، الشنيعة المبتكرة ، وغير ماسنذكره من الوقايع والدواهى الفظايع وذلك فى ثانى شهر شوال المكرم سنة ٩٩٧[3] زمن ملك الأمراء المرحوم

---

(١) سبق التعريف بضريبة الطلبة عند نشر مؤلف محمد بن أبى السرور البكرى « كشف الكربة فى رفع الطلبة » ، ص ٣١١ ، المجلد الثالث والعشرون ، المجلة التاريخية المصرية ، ١٩٧٦م .

أما المقصود بأموال المقاطعة ، الأموال الأميرية التى كانت مقررة على القرية أو الناحية ، التى كانت تعرف فى تلك الفترة بالمقاطعة ، وذلك قبل تطبيق نظام الالتزام فى جباية الضرائب فى مصر ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨ م

انظر عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص ص ٧١ — ٧٥ .

(٢) فى الأصل « يتناهوا » وصحتها « يتناهون » .

(٣) ١٤ أغسطس ١٥٨٩ م .

أويس باشا كافل المملكة الإسلامية ، بالديار المصرية ، دامت عليه رحمة خير البرية ، ركب العسكر المصري وهجموا عليه في الديوان الشريف ، وحقروه حقارة زايدة بحيث أن أحدهم دخل إلى محل حرمه ، وأخذ له ساعة مثمنة ، وسيفا مثمنا جداً[1] بأنواع الفصوص وقوسا[2] وضربوا ثلاث ختمات شريفة بالسيوف ، فوسطوهم نصفين ، وفرول منهم وقد قتل (في)[3] ذلك اليوم ثلاثة أنفار من أتباعه ودخلوا [١١] إلى بيت مولانا شيخ الإسلام ملا أحمد أفندي الأنصاري ، قاضي القضاة بمصر المحمية إذ ذاك ، وقطعوا رأس عثمان باش الجاووشية في ذلك النهار بمرأى منـــه ، ثم قبض على فخر الأماثل علي بن القاق ملتزم الغربية ، والقاضي محمد شمس الدين بن زحاق ناظر الحرمين الشريفين ، في يوم الأربعا رابع الشهر المذكور[4] وسجنوهما بالعرقانة وفي صبيحة يوم الخميس خامسه[5] أنفذوا حكم الله تعالى فيهما بأن قطعت رؤسهما في الديوان وعلقتا بالجيزة في الرميلة وضرب رأس شخص من الجاووشية يسمى أحمد جاوش بيضة ناعمة بباب زويلة ، وهرب الأمير أحمد العادلي أياما ، وكذلك الأمير مصطفى أمير الحاج الشريف في تلك السنة ، وطاب سفرة حسن المقاطعجي وابن العادلي المذكور ، والسملاوي المباشر[6] ، وقفلت الحوانيت ، ونهب بعض أسباب الناس ، وقتلوا غلام الأمـــير الصوباشي ، وضجوا العسكر وبضعوا [١٢] بأولاد العرب من أخذ خيولهم وعمايمهم وأولادهم ، وما وجد معهم من الجوخ والملابس الحسن أخذوه ، ونادى مناد[7]

---

(١) في الأصل « سيف مثمن » .

(٢) في الأصل « قوس » .

(٣) أضفت حرف (في) لتوضيح المعنى

(٤) ١٦ أغسطس ١٥٨٩ م .

(٥) ١٧ أغسطس ١٥٨٦ م .

(٦) في كشف الكربة : والقاضي بدر الدين السملاوي .

(٧) في الأصل « ونادوا مناد » .

أن أولاد العـــرب لا يستخدمون مماليكا بيضا ، وأن اليهود والنصارى لا يستخدمون[1] جواراً ولا عبيداً ، والكشف عليهم بعد ثلاثة أيام ، وأن أولاد العرب لا يتزيون بزى الاروام[2] ، وصاروا يجتمعون طوايف طوايف ، ويذهبون إلى منازل أصحاب المناصب من أولاد العرب ، فيضربون بالبندق ، ويدخلون فى وكبة عظيمة ، فيأخذون[3] من كبير المنزل ، ماأرادوه بالقول ، وإلا يبطشون به ، وخلص من أذاهم وشرهم القاضى زين العابدين أمين ديوان المحاسبات بالديار المصرية بالبلص الكثير لساير فرقهم ، وهرب منهم الشيخ العلامة محيي الدين الغزى الحنفى لكلمة بلغتهم عنه ، ورصدوا منزله مراراً ليقتلوه ، وما نجاه إلا الهروب من المنزل ، وجماعة أخر أغلقوا منازلهم وصاروا يعاملونهم [١٣] بكسر الأبواب ، وحضر مولانا أفندى المشار إليه يوم الأحد ثامن شوال[4] هو والأمير الدفتردار ، يوميذ ، وقاضى مكة المشرفة ، وفخر الأماثل والأفاضل محمد جلبى يغلى زاده كاتب الديوان ، إذ ذاك ، والعسكر جميعاً بمدرسة مولانا السلطان السعيد الشهيد السلطان حسن طاب ثراه ، بعد أن وعظ العسكر مولانا فخر العلما عمدة الفضلا شمس الدين محمد التى برمق ، زيدت فضايله ، وأعطى حضرة مولانا أويس باشا بيورلديا شريفا[5] لقاضى مصر أنه مهما طلبوه العسكر يفعل لهم ويخلصه من أيديهم ، وقد عاثوا وتمردوا ، وزادو فى طغيانهم وضربهم بالبندق ، فى الديوان العالى ، واشهروا السلاح ، وهجموا بالخيول إلى مجلس الحكم الشريف وأخربوا

---

(١) فى الأصل « لا يستخدموا » .

(٢) فى الأصل « يتزاوا » والمقصود بالأروام الأتراك .

(٣) فى الأصل « فيأخذوا » .

(٤) ١٩ أغسطس ١٥٨٩ م .

(٥) فى الأصل « بيور لدى شريف » .

الرفوف ، أوخذوا ولد مولانا أويس باشا المومى إليه[1] ، رهينة على بعض أشياء ، يفعلها لهم ، وكتب محمد جلبي المذكور حجة بين الفريقين [١٤] بأشياء على قدر مرادهم ، وما سلم أويس باشا من القتل إلا طول أجله ، وتوفى عند حلول أجله بالديوان المصرى ، تغمده الله تعالى برحمته ، وفى هذه الواقعة يقول مولانا العلامة عبد الواحد البرجي زيد فضله :

قد أصبح العالم فى حصر ... فعجل اللهم بالنصر
فمصر قد أوبقها أصرها ... ومن له صبر على الإصر
ياصاحبي الأمر مستفحل ... قفا نبكى على مصر

وقال الشيخ الأديب عبد المنعم المساطى فى هذه الواقعة :

موالا[2] مؤرخاً

نظام مصر العزيزةقد غدا مخروم
وصار من رزقها القاطن بها محروم
وذل فيها العزيز الفاضل المكروم
لما بتاريخها جارت عليهـا الروم
سنة ٩٩٧[3]

---

(١) كتبت فى الأصل عبارة «هو محمد جلبى» وهو خطأ حذفناه ، حيث أن محمد جلبى ، كما يتضح من النص ومن مؤلفات ابن أبى السرور ، هو كاتب الديوان العالى ، وليس ابن أويس باشا .

انظر : محمد بن أبى السرور ، كشف الكربة ، ص ص ٣١٧ — ٣١٨ ، النزهة الزهية ، ص ص ٥٧ — ٥٩ ؛ المنح الرحمانية ، ورقة ٦٢ .

(٢) فى الأصل « موال » .

(٣) ١٥٨٩ م .

ثم فى أواسط شهر رجب المرجب سنة ١٠٠٦[١] ست وألف اجتمع جماعة من العسكر من ساير [١٥] الأقاليم ، وحضروا إلى مصر[٢] ، زمن حضرة مولانا السيد الشريف محمد باشا ، بالديار المصرية دامت عليه نعم رب البرية ، فوجدوا مولانا الباشا المشار إلى حضرته فى الربيع[٢] ، وكان متحفظاً منهم ، وكان معه طايفة من العرب ، هم الأمير مقلد ، وعطا الله ، وابن الخبير وغيرهم ، كل واحد منهم فى خيمة وقد ركب شخص من أماثل جاووشية الأبواب العالية الخنكارية يدعى دالى محمد ، وكان معظما فى نفسه مهابا عند الحكام ، فى جماعة كثيرة ، وكل واحد من الأمرا المحافظين بمصر إلى أن نزل من الربيع ، إلى أن وصل إلى الرميلة ، فاجتمع العسكر المذكور بالرميلة وأخذت الرءوس فى الهرب ، فقصد مولانا صاحب السعادة الصوة فقاطعوا عليه العسكر واحتاطوا به ورموا بندقاً كثيراً ، وطايفة الينكجرية ينحوا الطايفة عنه ، وهم يسبونه وقد حاصروه مقداراً من النهار ، وطلبوا منه الدالى محمد المذكور [١٦] والأمير محمد الجلاد ، وصوباشى مصر ، والأمير مقلد ، والأمير جعفر رفضى اغاة الجاووشية ، وداود أغا الصغير ، وابن السكرى ، وجماعة آخر ليقتلوهم فأجابهم إلى ذلك ، وطلب المهلة ثلاثة أيام ، فصار كل منهم يزعق بأعلا صوته ، شرع الله ، وطلبوا قاضى العسكر بمصر[٤] ، ليحكم بينهم بمدرسة مولانا السلطان حسن ، فأجابهم إلى ذلك فتوجه طايفة منهم إلى المدرسة فهمز حضرة مولانا الباشا بفرسه من باب السلسلة ، وفر ، وترك ولده

---

(١) فبراير ١٥٩٨ م .

(٢) فى الأصل كتبت عبارة « فوجدوا حضرة » ثم شطبت .

(٣) تولى ولاية مصر ٢ شوال ١٠٠٤ — ١٢ ذى الحجة ١٠٠٦ هـ / ٣٠ مايو ١٥٩٦ — ١٦ يوليو ١٥٩٨ م

(٤) هو عبد الرءوف الشهير بعرب زاده ، انظر محمد بن أبى السرور ، النزهة الزهية ، ص ٦٢ ؛ كشف الكربة فى رفع الطلبة ، ص ٣٢٠ .

وكتخداه فمسكوهما وسلموهما إلى مولانا حسين باشا بأقليم الحبشة يوميذ[1] ، ونخر الأمراء الكرام ، عمدة الكبرا الفخام الأمير بيرى بك أمير الركب الشريف الحجازى ، ولم ينزجروا بعد ذلك ، ولم يرجعوا عن فعايلهم الخبيثة وتوجهوا إلى منزل الدالى محمد بقناطر السباع ، فعاركوه وعاركهم ساعة طويلة وقد قتل من الطايفتين نحواً من عشرة أنفس ، فلما كثروا عليه فر [١٧] هارباً إلى داخل منزله وكان بكوشك مشرف على مأذنة الجامع بالمحكمة[2] ، التى هناك فخرر بعضهم عليه من المأذنة المذكورة ببندقة فلم تخط رأسه ونفدت إلى الجانب الآخر ، وأطلقوا النار فى باب بيته وهجموا عليه ، دفعة واحدة فقتلوه وقطعوا رأسه وعلقوها بباب زويلة ، ونهبوا جميع ما فى منزله من العدد والأسلحة والخيول والملبس والتحف وغير ذلك ، وصادفوا نخر الأمرا ، الأمير محمـــد عشى باش بك[3] أمير اللوا الشريف بالرميلة ، وهو طالع إلى الديوان الشريف فهجموا عليه وقتلوه وقتلوا مقدم مصر يوميذ ، وضربوا شخصاً يدعى محمد المغربى من أتباع مولانا نخر القضاة محمد أفندى رفاعى زاده بالثغر الرشيدى كان ، وهو فى طبقة بالقرب من الغورية مع أستاذه فطلعوا إليه وقتلوه فى حضن أستاذه وتتبعوا جماعة من أولاد العرب المتزيين بزيهم فقتلوهم ، وقفلت محاكم مصر وهرب الأمير مقلد [١٨] وداود أغا وابن

---

(١) يذكر ابن أبى السرور فى مؤلفاته أن اسمه « حسن باشا المدعو بالسكران بكلربكى الحبشة يومئذ ، وليس حسينا ،وربما كان تحريفاً من المؤلف ، حيث أننا نميل الى رأى ابن أبى السرور ، والمقصود بالحبشة ، ولاية جدة ، انظر : كشف الكربه فى رفع الطلبة ، ص ٣٢٠ ، النزهة الزهية ، ص ٦٣ .

(٢) المقصود بها محكمة قناطر السباع التى كانت تقع بحى السيدة زينب ، وبها مدرسة البردكية .

(٣) يذكر أن أبى السرور أن اسمه « الأمير محمد الشهير باشجى محمد بيك ، انظر كشف الكربة ، ص ٣٢١ .

انظر : كشف الكربة ، ص ٣٢٠ ؛ النزهة الزهية ، ص ٦٣ ،

السكرى والمطلوبين كلهم ، ومحمد الصوباشى ، وولوا كشافا بالاقليم وصوباشى بمصر ، وكان عند طلبهم الشرع ، وطلبهم هؤلاء ، هب ريح عاصف[1] من قبل الله تعالى وثار الغبار وأظلم النهار فأرسل له كتخدا العزب هو[2] أن يتقدم ويدخل من باب العزب ، فهمز ودخل الباب وأغلق بعد دخوله ، ومنع من يدخل من العسكر ، فلما أن دخل إلى الحوش ، ونزل عن جواده ووضع رجله على الدرجة الأولى ، داس على ذيل قفطانه من شدة الدهشة فمال لها فعندما مال من ذيل القفطان جاءته بندقة ففاتت راسه بدوسه على ذيله وميله ودخلت فى الحائط ، وهى إلى الآن أثرها موجود فى الحايط ، على يسرة الطالع للمقعد الصغير ، إنشا مولانا الملك السعيد الشهيد السلطان قايتباى سقى الله ثراه[3] ، والسلم المذكور (حادث)[4] بناء المرحوم محمود باشا بالديار المصرية كان[5] ، وكان ذلك سبباً لنجاته وسلامته [١٩] ولما أن كان يوم الأحد عشرين رمضان المعظم سنة تسع وألف[6] ، فى دولة مولانا أمير الأمراء خضر باشا الوزير[7] ، كافل المملكة الإسلامية بالديار المصرية سابقاً ، طلع العسكر ، هم وقاضى مصر يوميذ ، وطلبوا كتخدا الوزير المشار إليه المدعو بهرام لدعاوى شرعية بسبب الشونة وبعض أمور احتجوا بها ، وكان فى ذلك الوقت عند حضرة مولانا الباشا ، فنزل من باب الكلار ، وهو متوجه إلى أن وصل إلى نوبة خانة الجاووشية فتعدوا عليه ، ووضعوا فيه السيوف وقتلوه ، وفعلوا بحسين الترجمان كذلك ، وقتلوا

---

(١) فى الأصل « ريحا عاصفا » .

(٢) بياض بالأصل ، ولم تذكر المصادر التى رجعنا إليها اسم كتخدا العزب هذا . انظر كشف الكربة ، ص ص ٣٢٠ — ٣٢٢ .

(٣) من سلاطين دولة المماليك الجراكسة تولى السلطنة ١٤٨٦ - ١٤٩٦م .

(٤) أى مستجد فى البناء .

(٥) تولى ولاية مصر ٩٧٣ — ٩٧٤هـ / ١٥٦٥ — ١٥٦٦ م

(٦) ٢٥ مارس ١٦٠١ م .

(٧) تولى ولاية مصر ١٧ ذى الحجة ١٠٠٦ — ١٥ محرم ١٠١٠هـ / ٢١ يوليو ١٥٩٨ — ١٦ يوليو ١٦٠١م

المعلم يوحنا النصرانى النبــــلاوى المباشر ، وقطعوه قطعاً ، وطافوا برأس الـكتخدا المذكور وعلقوها بباب زويلة ، وتوجهوا إلى بولاق القاهرة وقتلوا بها من[1] وجدوه من خزان الغلال ، وعاثوا وبغوا وطغوا وفعلوا فعايل خارقة من نهب الأموال والأولاد ، والأمر إلى الله سبحانه وتعالى [٢٠] ثم ما هو أعجب وأغرب ، مافعلوه بعد ذلك من الداهية العظا ، والواقعة الدهما التى لم يسمع فى هذا الأوان بأغرب منها ولا أعجب ، ولا أبشع فعلا ولا أشنع ذرفت منها العيون ، وتفتت القلوب ، وخابت الظنون ، فى سنة ١٠١٣ فى يوم الجمعة المبارك سلخ ربيع الثانى[2] قبيل صلاة الجمعة وذلك أن حضرة مولانا ، الجناب العالى ، الراقى رتب المعالى أمير الأمرا ، حضرة مولانا الوزير ابراهيم باشا[3] ، بمصر المحروسة تغمده الله تعالى برحمته وأسكنه فسيح جنته ، لما توجه إلى ناحية شبرا لقطع سد قناطر أبى المنجا ، زمن النيل السعيد ، فى موكب عظيم من القلعة المحروسة المنصورة إلى ساحل بولاق نزل فى المركب وتوجه إلى الناحية المذكورة ، وجلس فى دولاب حضرة مولانا أمير الأمرا الـكرام ، كبير الـكبرا الفخام ، ذو القدر والمجد والاحتشام ، المتمسك بلطف رب العباد ، مولانا الوزير الأعظم مراد باشا أعطاه الله تعالى من العز والعظمة [٢١] والسعادة والسيادة ماشا ، وفى هذا اليوم المذكور توجه جميع العساكر المصرية الأشقيا المذكورين[4] بمعاونة من الأمرا والمتفرقة والاسباهية والجاووشية ، إلى القرافة الشريفة على ما قيل ، وتحالفوا على قتل مولانا الوزير إبراهيم ، وباتوا على ذلك ، وبات مولانا الوزير فى الدولاب المذكور ثم فى صبيحة يوم السبت مستهل

---

(١) فى الأصل (ما) .

(٢) ٢٤ سبتمبر ١٦٠٤ م .

(٣) تولى ولاية مصر $\frac{\text{١٤ ذى الحجة ١٠١٢ — جماد أول ١٠١٣ هـ}}{\text{١٤ مايو ١٦٠٣ — ٢٥ سبتمبر ١٦٠٤ م}}$

(٤) فى الأصل « المذكورون » .

شهر جمادى الأول من تلك السنة[1] توجهوا بقضهم وقضيضهم ، وأتباعهم ولفيفهم إلى ساحل بولاق، لملاقاته وهم بالسلاح الكامل ، والعدة الوافرة ، واستمروا هنالك إلى آذان الظهر ، فبلغهم الخبر أن حضرة الوزير جالس بالدولاب المذكور فافترقوا فرقتين ، فرقة مكثت فى بولاق ، وفرقة توجهت إلى الدولاب المذكور ، وهم بأهبتهم الكاملة غارقين فى أسلحتهم ، إلى أن وصلوا إلى الدولاب ، توصل إليه الخبر أن العسكر حضر جميعه وهو فى غاية الشدة والصلابة وطلب الشر ، وقد حضر اليه بعض الصناجق [٢٢] وقال له يا مولانا قم واركب بنا فى المركب قبل أن يتلاحق بنا العسكر ، وتوجه إلى القلعة المنصورة خفية وإذا طلعت بسلامة الله تعالى ، افعل ماتختاره وترومه ، فلم يلتفت إلى ذلك الكلام بل وأغلظ على قايله ، ولعمرى أنه كان رأيا صالحاً ، لو فعله ، ولكن إذا نزل القضاء عمى البصر :

ولقد صدق من قال :

إذا أراد الله أمراً بأمرءٍ	وكان ذا عقل وسمع وبصر
أصم أذناه وأعمى قلبــــه	وسلّ منه عقله سل الشعر
حتى إذا أنفذ فيه حكمه	رد عليه عقله ليعتبر
فلا تقل فيما مضى كيف مضى	فكل شىء بقضاء وقدر

واستمر جالساً فى مكانه بقصر الدولاب وعنده من أمراء الصناجق ، فخر الأمرا الأمير عثمان بيك [٢٣] العثمانى . والأمير بايزيد بيك ، والأمير محمد بيك ابن خسرو ملتزم مقاطعة الثغر السكندرى والبحيرة ، والأمير درويش محمد بن عثمان أفندى قاضى القضاة هو بمصر سابقاً ، وحضرة مولانا شيخ

---

(١) ٢٥ سبتمبر ١٦٠٤م .

مشايخ الإسلام مصطفى أفندى عزمى زاده ، والأمـــير الدفتردار ، وبعض صناجق أخر . ومن الجاووشية والمتفرقة مالا يحصى،فطلع من الجند الأسباهية خمسة عشر نفراً[1] إلى القصر وهم متسلحين بسيوفهم إلى أن وقفوا عندهم فى شدة الغضب والتلهب . فلما رآهم على هذه الحالة قال لهم كلاماً لطيفا[2] « ايش مرادكم ياعسكر السلطان أنا ما أعطيتكم علوفاتـكم كاملة مع ترقياتكم وأعطى لكل شخص منكم ثلاث عثامنة[3] أيضاً » فقالوا له نحن مانريد إلا روحك ، فلما رآهم مصممين عل ذلك ، وأنهم لايريدون إلا البطش به ، تشهد وقام على أقدامه فضربه شخص منهم بالسيف على وجهه فسقط إلى الأرض،والذى ضربه أولا أحقر الطايفة ونزلت عليه السيوف من كل جانب منهم وقطعوا [٢٤] رأسه ثم إن الأمير محمد بن خسرو المذكور لما رأى ذلك ، قام على أقدامه ، وقال حاس ياطايفة ، هذا ماهو مايح تقتلوا وزير السلطان ، فقالوا له أنت هنا يافاعل ياتارك ، ثم ضربوه بالسيوف أيضاً ، وألحقوه به ، هذا والعسكر تحت القصر يتماوج كما يتماوج البحر ، فى شدة هيجانه واضطرابه ، يكاد يأكل بعضه بعضاً ، وإذا بالرءوس أخرجوها لهم من الشباك فسكن الاضطراب يسيراً ، ثم إنهم نزلوا بالرأسين إلى أسفل القصر ، وأماالأمير عثمان فإنه قد توارى وكذلك كل من كان فى المجلس من الأمرا ، وقتل أيضاً من اليـنكجرية ثلاثة أنفار ، وأخذوا الرأسين على رمحين ، وطافوا بهما البلد وهم ينادون[4] عليهما هذا جزاء من أفتن من عسكر السلطان،ثم أتوا بهما وعلقوهما فى باب زويلة على أسقيفةهناك فباتا عليها إلى ثانى يوم ، بعد طلوع الشمس ، فسلموا الرأسين فدفنا مع جثتهما [٢٥] وأصبح الناس جميعاً فى غاية التـكدر والاضطراب ، والتشويش لعدم

---

(١) فى الأصل « نفر » .

(٢) فى الأصل « كلام لطيف » .

(٣) نوع من العملة العثمانية كانت مستعملة فى ذلك الوقت مفردها عثمانى .

(٤) فى الأصل « ينادوا » .

من ينظر إلى أحوال الناس ولهول هذه الواقعة الغريبة ، وقد قيل إنهم ذهبوا للأمير عثمان بيك،وسألوه أن يكون قايم مقام فأبى ، وامتنع فأبرموا على مولانا مصطفى أفندى وجعلوه قايم مقام ، وقالوا له أنت قاضى ذلك القطر وأنت أحق، وكذلك أرباب الدولة أيضاً ، وجعلوا الأمير ناصف سوباشى ، والأمير أحمد ابن الدمرداشى دويداراً ، والناس فى أمر مريج ، ونسأل الله تعالى العافيـــة واللطف فى القضا وأن يسلمنا فى شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا إنه كريم رحيم ولقد قلت :

مصر لك الله لقد أصبحت	يبكى عليها بالدموع الغزار
عن حالها حالت وقد أصبح الـ	حال بها فى شغل قلب أحار[٢٦]
فلا رجاء لا ولا مأمنـــاً	كلا ولا جار به يستجار
ولا أمير بامرء مشفق	أعان عان راج أجار
ولا ولى يتولى إذا	كشف من الله لدفع الآصار
فمن لذى محنـة أو شـدة	ذو غيرة أو منقذ من عثار
إلا وزيراً كف عن ربقة الـ	أسر رعاياه وعنـــا وجار
فالهجرة الهجرة من مصر لا	مقام فيها والفرار الفرار
ليس لها كاشفة دونه	برحمة تدرك ذى الاختيار
فالغوث الغوث منك الرجا	أنت ملاذى أنت والمستجار
وصـل يارب على المصطفى	وآله والصحب أهل الوقار

وتم الأمر على هذا الحال من تقلب الأحوال [٢٧] وكثرة الأهوال وركوب الأخطار وسلب الأموال[1] (ومما وقع فى زمن أمير الأمرا مولانا

(١) النص الموضوع بين القوسين (ــ ــ) كتب على هامش الصفحة رقم ٢٧ وأشير الى وضعه مكان النص التالى من الصفحة بعد شطبه ، والنص المشطوب هو « وكل من ورد بعد ذلك من البكلاربكية الى ديار مصر المحمية ، منهم من يأخذهم بالملاطفة ، وعدم المجانفة ، ويهمل أمورهم ولا يفتش على ما يفعله جمهورهم ، ومنهم من يأخذهم بالسياسة ، ويقطع رءوس رءوسهم ، ويخمد أنفاسه فى الخفاء لا الظهور ، ويظهر أنه لم يعارضهم فى أمر من الأمور » .

محمد باشا الخادم البكلربكى بالديار المصرية[1] فإنه عند وروده إلى مصر حضر إليه من الأعتاب الشريفة جاشنكير راس الجاشنكيرية ورئيسهم ومعه خطا همايونيا وأحكاماً منيفة[2] لجمع الصناجق والعساكر بالديار المصرية بسبب الطلبة وأصلها وإبطالها وعن سبب قتلة مولانا الوزير إبراهيم المقتول ظلماً ، ومن قتله وقد اجتمعوا كلهم فى قرة ميدان ، وكذلك فخر الأفاضل مولانا محمد أفندى التى برمق فذكر مولانا محمد باشا أنه لم يعرف أصل ذلك ولا سببه فإن ذلك لم يكن فى زمنه وأن الخط ليس له ، وإنما لأمرآ مصر وأغواتها وعساكرها ، وأبى أن ينزل من القلعة ، ونزل الجاشنكير بقرا ميدان ، واتفقوا على جواب ، وقفل الباب الكبير وفتح الصغير ، ووقف محمد أفندى المشار إليه هو وفخر الأكابر الأمير على الهلالى كتخدا الطايفة الجاووشية وبيدهما مصحف شريف وهما ناحيتى الباب وكل من طلع من العسكر يحلفوه على أنهم على كلمة واحدة وأنهم يحضروا المطلوبين من المفسد منهم ، وأنهم لايحصل منهم فساد لأحد من الرعايا ، ولايخرجوا عن كلام الملك ولانايبه ، وذلك بعد مجالس وأيمانات سابقة ، لم نذكرها خوفاً من الإطالة ، ثم إن مولانا محمد باشا قطع منهم طايفة بالروية وحسن التدبير شيئاً فشيئاً ، وكل من ظفر به منهم تلطف به وأرسله المشبك[3] ولم يزدد[4] والأمر بعد ذلك إلاشدة) فلما انتشرت هذه الأخبار الموحشة ، والأفعال المدهشة ، وطرقت سمع حضرات السلطنة الشريفة ، والسدة الخاقانية المنيفة . سلطان سلاطين الزمان ، وخاقان خواقين العصر والأوان ، وخليفة الله الأعظم فى أفراد بنى الإنسان ، ثالث العمرين صرامة وحزماً من

---

(١) تولى ولاية مصر $\frac{\text{غاية رجب ١٠١٣ — غاية صفر ١٠١٤ هـ}}{\text{٢٢ ديسمبر ١٦٠٤ — ١٦ يوليه ١٦٠٥ م}}$ ، ويعرف باسم محمد باشا الكورجى .

(٢) فى الأصل « ومعه خط همايون وأحكام منيفة » .

(٣) المشبك = السجن .

(٤) فى الأصل « يزداد » .

ملوك آل عثمان . ظل الله الممدود على كافة أهل الإيمان ، وسيفه المسلول بيد القهر على أهل البغى والعدوان ، قاتل [٢٨] الكفرة والمبتدعة وساير حزب الشيطان القايم بفرض الجهاد لأعلاء كلمة الله تعالى وإذلال أهل العصيان ، لم تكتمل أعين الزمان ، بمن يوازنه أو يوازيه ولاتنظر أحداق النجوم مع كثرة دورانها حول السماء والأرض من يساميه أو يساميه ، صاحب الإمامة العظمى والسلطان الباهر ، وارث الخلافة الكبرى كابرا عن كابر ، مرغم أنوف الفراعنة كاسر تيجان الأكاسرة ، قاصر قصور القياصرة ، هازم جنود الطغاة البغاة وجيوشها ، هادم حصون الكفرة فهى خاوية عن عروشها ، اسكندر الزمان ، الذى نصر محمداً صلى الله عليه وسلم وأكبت له عدا ، وأذل من استطال بجهله على شريعته وعدى ، وصان الإسلام والمسلمين بجهاد الكفرة والملاعين ، وأزال الجور عن الأمة ورد عنهم كيد الكائدين سلطان الحرمين ، حامى القبلتين ، ملك البحرين ، ملك جهان ، ناشر علم العلم والإحسان ، [٢٩] جامع ذيول الأقطار ، فاتح البلاد والقلاع والأمصار ، مبيد الطغاة والبغاة والكفار ، المؤيد من السما ، المنصور على العدا ، مدبر البلاد بالعدل والإيمان ، ناصر الشريعة المحمدية بالفضل والأيمان ، ملك البرين ، والعرب والعجم والروم والترك والعراقين ، والشرق والغرب واليمن والحبشة والخافقين ، السلطان الأعظم الغشمشم والبحر القطمطم ذى الجيش العرمرم ، وواسطة عقد ملوك آل عثمان ، ذى البذل والإحسان ، المحفوف بمزيد عناية الملك الصمد حضرة مولانا السلطان الملك المعظم أحمد بن مولانا السلطان الأعظم محمد خان بن المرحوم مراد خان بن عثمان[1] ، اللهم أدم دولة عبدك هذا الخاضع لهيبتك الشاكر لنعمتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والمحامى عن دينك والمدافع ، اللهم وعمر بدولته البسيطة ، واجعل ملايكتك [٣٠] براياته الشريفة محيطة ، اللهم ابق للإسلام

---

(١) تولى السلطنة ١٨ رجب ١٠١٢ — ٢٣ ذى القعدة ١٠٢٦هـ / ٢٧ ديسمبر ١٦٠٣ — ٢٢ نوفمبر ١٦١٧م

مهجته ، وأنشر فى المشارق والمغارب دعوته ، وافتح اللهم على يديه دوانى الأرض وقواصيها ، وملكه صياصى الكفرة اللئام ونواصيها ، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزقها ، ولا جماعة إلا فرقها .

سل عنه وانطق به وانظر إليـــه   تجده ملء المسامع والأفواه والمقل

اللهم اشكر عن العالم وساير البلاد الإسلامية سعيه ، وانفذ فى المشارق والمغارب أمره ونهيه ، وأصلح له أوساط الفلاة وأطرافها وأرجاء الممالك وأكنافها .

فهو الذى دلت عليه الملاحم   بالشكل والصورة والعلائم

وفى المعنى

ملك إذا ضاق الزمان بأهله   بخلا توسع فى المكارم وانفسح

يكسو السحائب إذا تجارى كفه

فالغيث من وجناتها عرق رشح [٣١]

ويكاد الأسد المصور بعدله   فى القفر أن يرعى الغزال إذا سنح

خلد الله ملكه وأعز أنصاره ، وختم بكل خير وسعد أعماله ، وقرن بالنجح والسعد أعماله ، وأجرى أحكام سلطنته فى أكناف أطراف الربع المسكون ماتعاقبت الأعوام والسنون ، وجعل الملك كلمة باقية فيه وفى عقبه إلى يوم القيامة ، ومنحه فى الدنيا والأخرة مايليق بجلاله من أنواع العزة والكرامة .

وهذا الدعاء لايرد لأنه   يزان به كل الورى والممالك

تراه بلا شك أجيب لأننا   إذا مادعونا أمنتة الممالك[1]

---

(١) فى كشف الكربة « الملايك » ، ص ٣٣٠ .

أنعم بايالة مصر المحمية ، مع الوزارة العلية لحضرة مولانا وسيدنا الوزير المعظم ، والمشير المفخم ، والدستور المكرم ، مهد أمور جمهور الأمم ، منصف المظلوم ممن ظلم ، نظام العالم ، رافع أثار الجور والفتن ، وقالع مآثر الظلم والأحن ، جواد لم يحق الهلال إلا ايكون نعلا لحافر [٣٢] جواده ، ولا مدت الثريا أكفها الخضيب إلا للتمسك بذيل كرمه وإمداده ، ولا سلّ الصبح سيفه إلا قال الله أكبر على أعدايه ، ولا احمرت الشفق من الخافقين إلا حرمة لحرة خافق لوايه ، ولا أمطرت السحب إلا بكاء من خشية جلاله ، ولا استقرت البروق إلا خجلا من لمعان سيوفه ونصاله ، ولا تحلت الخناصر بالخواتم إلا لأنها تعقد عليه ، ولا كحلت العيون السود بسواد النور الباصر إلا لتتشرف بالنظر إليه ، ولا فتحت الدوى أفواها إلا لتنطق بمدحه ألسنة الأقلام ، ولا حبّر الحبر بياض الطروس بسود السطور إلا لتشير أن الليالى والأيام من جملة الخدام ، ليث عرين الوطيس بأساً وجأشاً ، حضـــرة سيدنا ومولانا الوزير المعظم محمد باشا[٢] أنعش الله تعالى به بساط البسيطة انتعاشاً ، ولازال عمود خيام هذا الدين القيم بعدالته الشريفة قايما ، وكلما نوت أعداؤه[٣] فعلا مضارعا [٣٣] كان سيفه له جازما ، وهو الذى قهر الأعدا من طوايف الأشقياء المذكورة أخذا بالنواصى ، وبدد شمل البغاة العصاة وفرقهم إلى الأقاصى ، وهو الذى من حل فى فنائه آمن من عوارض الفنا ، ومن استجار بجاه خلص من بوايق البلا ، ومن استظل بظل رأفته وجده ظايلا ، وهو الذى من قصد بابه ماخاب ، ومن لزم جنابه الشريف عاش وطاب ، وهو الذى دأبه إغاثة الملهوف وإسدا المعروف وهو الذى اصطفاه الله وزاده بسطة فى العلم والجسم ؛ وهو الذى منحه من المكرمات أوفى قسم :

---

(١) تولى ولاية مصر ٧ صفر ١٠١٦ — ١٨ جمادى الثانية ١٠٢٠ هـ / ٣ يونيو ١٦٠٧ — ٢٨ اغسطس ١٦١١ م

(٢) فى الأصل « أعداءه » .

ولو أن أشجار البلاد خلقن فى أقلام خط والمداد الاكثرا[1]
وأردت حصر فضايل جمعت له دون البرية كنت فيه مقصرا

ثم أوصاه حضرة مولانا الخنكار نصره الله تعالى على أهالى مصر والوصية التامة بهم، ونشر [٣٤] العدل فيهم، والشفقة والحنو عليهم، ومعاملتهم بالعدل والإنصاف، ورفع الجور والإعتساف، وكان من معظم الوصية، إبطال الطلبة ورفعها لاشتداد غضبه لأجلها، وقلعها بالكلية، ومن خالف وعاند وكابر وكايد، قتل أشر قتله وأستبيح ماله بغير مهلة، وهو مصغ لكل مايقول ممتثل لما برزت به الأوامر الخنكارية بغاية القبول، وأعطاه بذلك خط همايون، الذى هو بالسعادة مقرون، فقضى إربه من القسطنطينية المحمية. ونزل فى السفن قاصدا ثغر الإسكندرية. فلم يزالوا سايرين بسلامة الله تعالى فى ذلك البحر الفسيح، تارة بالكورك وتارة بالريح، إلى أن لاح له الثغر المذكور، وقد ازداد رفعة وحبورا[2] فخضعت الأعناق لدى المرأى المدهش. وانتعشت النفوس بذلك المنظر الشريف المنعش ـ فأى صدر ماتزحزح عند رؤيته، وأى قدر ماتضاءل عند مشاهدة [٣٥] عظمته، وأى بدر ماغاب، وأى شمس ماتوارى ضياؤها بالحجاب، وقد تلقاه بالاستقبال من مصر المحروسة أكابرها وأعيانها، وأمراؤها وأركانها وأرباب دولتها، وهنؤه بالسلامة وقد حفت به الكرامة وقالت:

ته يا وزير البرايا منقذ الأمم وأسعد وأبشر بنصر الله عن أمم
أضحى بعدلك هذا القطر ماتما وهل بعدلك شمل غير ملتيم
يافاعل الخير طبعاً حيث لاكلف ومولى العرف فى مصر بلا سأم
قد أصبحت بك مصر بعد غربتها موصولة بكم لحما على وضم

---

(١) فى كشف الكربة « الأبحرا » ، ص ٣٣٢ .
(٢) فى الأصل « حبور » .

مكفولة أبدا منكم بخير أب   وخير بعل فلم تيتم ولم تيم

فالنيل بعد وقوف قد وفا وغدا   جار كبحر نوال منك ماتطم [٣٦]

بالشكر كل لسانى ناطق أبدا   محمد الخلق محمود بكل فم

واستبشر كل أهالى الثغر بطلعته، ويمن غرته، ونصب سرادقه العالى، ورواقه السامى المتعالى، بفيحاء الجزيرة الخضرا، خارج ثغر الإسكندرية الغرا وقد حفت به جنود النصر والإقبال، وتطأطأت للثم تراب أقدامه جباه الأقيال وأحدقت بأطناب مخيمه الكماة والأبطال، وحصل من حضرته لهم إنعام عام لمن حضر من العسكر السلطانى فى ذلك المقام، وزاد كل واحد من العسكر فوق ماتليق به من الترقى من عثمانى فأزيد، ولم يحرم أحدهم من الأنعام، ونالوا جميعاً ما أرادوه من المرام، ونظر فى أحوال الأمم، وأنصف المظلوم ممن ظلم ومن جملته أنه خلص جملا من شخصين جنديين أخذاه من ناحية أدكو فى طلبة، وهرب الجنديان، وكان مولانا قاضى القضاة حسن أفندى [٣٧] القاضى بالثغر السكندرى حيئذ لحضر اليه، وقبل يديه الشريفة وسر برؤيته سروراً كثيراً وأقبل حضرة مولانا الوزير اليه إقبالا عظيما وتوجه حضرة الوزير من يومه ذلك، ومولانا حسن أفندى يسايره، ويحادثه، إلى زيارة مقام مولانا وسيدنا الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر القطب الربانى، والعارف الصمدانى، مربى المريدين ومقتدى السالكين ذو الكرامات الظاهرة، والأنفاس الطاهرة والأسرار الباهرة، الاستاذ الأعظم، والمولى الأفخم الأكرم، سيدى أبو العباس المرسى نفع الله تعالى به وبأنفاسه الطاهرة فى الدنيا والآخرة، وزار المقام الشريف وصلى وابتهل وتركع، ودعى لحضرة مولانا الخنكار الأعظم الإمام الأفخم تقبل الله منه ذلك، وهو فى غاية الخشوع والتواضع والخضوع وقرب القربان الكثيرة من الأغنام وأغدق [٣٨] على أهل المقام وأحسن إلى الفقرا والمساكين، والأرامل والمنقطعين، من خدام المقام، وغيره، وكل منهم لاهج بالدعاء له والثناء عليه، ثم إلى مقام فخر الأولياء، وعروس الاصفياء

ذو الرتب العالية ، والمقامات السنية ، والمواهب اللدنية والنفحات المحمدية ، القطب الربانى ، أبو الروح سيدى ياقوت العرشى المجاور ضريحه للشيخ المشار اليه ، ثم منه إلى زيارة مقام الشيخ الأكبر والعلم الأشهر ، الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، ثم إلى مقام سيدى أبو الفتح الواسطى ، ثم إلى مقام الشيخ نجم الدين السبع ، ثم إلى مقام سيدى عبد الله اليمانى ، وهو فى كل ذلك يتصدق ويغدق على الفقراء والمساكين والخدمة القاطنين بالمقامات المذكورة ، ولم يحرم من إحسانه ولطفه أحد[1] ، وشمل غالب الناس بره وعطفه ، وحصل لهم كمال الإرتفاق ، وملأوا بالدعاء له أكناف الأرض وآفاق الآفاق ، ثم [٣٩] توجه بقية نهاره إلى حيث الحصار الكبير الأشرفى بجزيرة الثغر المذكور ، إنشاء حضرة مولانا السعيد الملك المظفر الاشرف السلطان قايتباى المحمودى سقى الله ثراه . وهو الذى اشتهرت قطبانيته فى الآنام ، وقطع بولايته وعدله كل خاص وعام ، وكشف بنفسه النفيسة عليه ، وتوجه بكليته وجزيئته اليه ، كشفا جلياً ، وتأمله ملياً ، فرأى فيه بعض خلل ورث فى بنيانه ، فأمر بترميمه وعمارته ، واتقانه لهيئته ، ثم إنه صعد إلى المسجد المبارك بعلوه فزاره وصلى فيه وتبرك به ، ودعى الله سبحانه وتعالى بذلة وخضوع ، وأنعم على جميع من بالحصار من الجند القاطنين به ، وأنعم وأغدق كعادته ، وفرق أغناما كثيرة ، وانعامات أثيرة ، وعمر الحصار ، بعد ذلك عمارة حسنة جيدة فى غاية الاحكام ، على وجه المكنة والتمام ، ومما وقع فى أيام سلطنة المرحوم قايتباى المشار إليه فى بضع وتسعين وثمانماية خرج عليه [٤٠] شخصان[2] يدعى أحدهما سوار ، و(ثانيهما) حسن[3] الطويل ، ومعهما عساكر كثيرة ، طمعا فى الديار المصرية ، فأرسل اليهما تجريدة عظيمة ، ووقع الحرب الشديد والقتال العنيد ، وقتل سوار ، وحسن

---

(١) فى الأصل « ولم يحرم من إحسانه أحد ولطفه » ، ونعتقد أن هذا سبق قلم من المؤلف ولذا أصلحنا العبارة على الوجه المذكور .

(٢) فى الأصل « شخصين » .

(٣) أضفت كلمة « ثانيهما » ليتضح الأسلوب والمعنى .

الطويل المذكور أشر قتلة ، ووقعت النصرة لمولانا السلطان قايتباى المشار اليه ولهجت الشعراء بذكرهما فمن ذلك مانظمه شمس الدين القادرى :

أيا حسن الطويل بعثت جيشاً كاغنام وهن لنا غنايم
فنار الحرب قد قدّت سواراً وأنت لسبكها لاشك خاتم

وقال الشهاب المنصورى :

عروس الحرب نقطها المواضى بأرواح الأعارب والأعاجم
وقد جايت وفى يدها سوار وها حسن لكف الحرب خاتم

وقال بعضهم [٤١] :

ياحسن الطويل قصرت عمراً وفاتتك المعالى والمغانم
سوار قد سبكاه ابتداء وأنت بناره للسبك خاتم

ثم عاد منه إلى زيارة سيدنا ومولانا، الولى الشهير، والعلم الخطير، من عمت بركته أهل الغرب والشرق ، سيدى عبد الله البرق ، وحصل له بزيارته غاية السرور ، والبهجة والحبور ، وهو على عادته من الإنعام للخاص والعام ، وخصوصاً محبته فى المجاذيب والبله ، لا ينكرها أحد من الأنام ، ثم عاد إلى سرادقه الشريف ، وهو فى غاية العزة والتشريف وفى أثناء بكرة ذلك النهار توجه للزيارة أيضاً، ومولانا حسن أفندى يسايره ويحادثه ، قاصداً زيارة سيدنا ومولانا خلاصة الأولياء، وزبدة الأصفياء ، والولى المشهور ، بلا نزاع ، وسلطان الأولياء بلا دفاع ، الزاهد الورع ، التواب المعتقد المتهجد الأواب ، ذو الأنفاس [٤٢] الطاهرة ، والكرامات الباهرة ، صاحب الولاية على الإطلاق، ولى الله تعالى، والعارف به الشيخ عبد الرازق،داخل الثغر المذكور تقبل الله منه الأجور ، وحصل له بزيارته غاية البشر والسرور ، وقرب قربانا ، وأغدق براً وإنعاما وإحسانا ، ثم بعد أخذ حظه من الزيارة ، توجه من ذلك

المكان الأنور، قاصدا زيارة الباب الأخضر بالجزيرة، فزاره وتماس به وتبرك وحصل له حظا عظيما، وأنعم إنعاما جسيما، ثم توجه منه إلى الجامع الأنور المعروف بالجامع الأخضر وزاره وصلى عنده، وتبرك به ودعى الله سبحانه وتعالى، وهو بغاية الخشوع والطمأنينة والخضوع، وزار المسجد اللطيف العمرى من داخله المنسوب لحضرة مولانا عمرو بن العاص الصحابى الكبير وانفرد فيه بنفسه ودعى لحضرة مولانا الخنكار الأعظم، وطلب من الله تعالى ما فى خاطره بلغه الله تعالى غاية المراد، فان من المشهور أن الدعاء عنده مستجاب، كل ذلك [٤٣] وهو يواصل الإحسان والبر إلى فقرآ أهل الثغر وكان يوما معدوداً، مباركا مشهوداً، ثم عاد إلى مخيمه الشريف بالعظمة والتبجيل والتشريف، ثم بعد بلوغ أربه من ثغر اسكندرية، توجه بما حازه من الأجور المرضية، إلى محل إيالته بالديار المصرية، فى طالع سعيد، ووقت مبارك حميد، فمر فى مسيره على مقام مولانا وسيدنا الصحابى الكبير والعالم الشهير، العالم العابد الصايم القايم، الراكع الساجد، ذو المناقب الكثيرة، والبركات الاثيرة، المجاهد الأكبر، والكبريت الأحمر، المختص برحمة الملك البارى، سيدى جابر الأنصارى، فعطف عليه، ودخل إليه بغاية الخضوع، وزار المقام الشريف، وصلى عنده وابتهل، وركع وسجد وتبتل، وحصل منه من الأنعام، والغنم والأنعام، مالا مزيد عليه، ورأى المقام ضيقاً[1]، فأمر متوليه، والناظر عليه، وهو فخر الأماجد والأعيان الأمير محمد بن المرحوم [٤٤] بلال من الأمراء المتفرقة بمحروسة مصر بتوسيعه وعمارته عمارة حسنة فامتثل ذلك، وعمره عمارة مليحة إلى الغاية، وزاد فيه زيادة كبيرة، وصار نزهة للناظرين، ثم إن حضرة الوزير أحسن إلى جميع من هو بالمقام من الخدمة والزوار، والفقراء والمعتقدين إحسانا عاما، وأرصد عليه حين وروده إلى القاهرة المعزية ملاّحة مستجدة خارج الثغر المذكور يصرف ريعها على سماط

---

(١) فى الأصل « ضيق ».

يعمل بالمقام فى كل ليلة جمعة واثنين ويجتمع فيه المقرءون والوعاظ والمنشدون ويحيون هاتين الليلتين(١) من العشا إلى الصباح دايما أبداً ، ويهدى ثواب ذلك لحضرة مولانا سيدالمرسلين ، وآله وأصحابه (وللسلطنة الشريفة) ، ثم لساكن المقام ، ومن كان سببا فى ذلك،وساير المسلمين تقبل الله ذلك إلى يوم القيامة(٢) (ومما حررته نقلا من مروج الذهب للمسعودى، رحمه الله تعالى أن بأرض اليمن مكان يعرف بالقاعة . مزار لصحابى من الأنصار [٤٥] يعرف بجابر ابن عبد الله الأنصارى ، وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وله مناقب ومآثر وبركة ظاهرة ، وفيض طاهر ، وله أخبار تنقلها الأفاضل كابر عن كابر ، قدم جابر بن عبد الله هذا إلى الشام وافداً على معاوية رضى الله عنه ، فحجب عنه ، ثم اذن له فقال يا معاوية أما سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول انكم ستلقون بعدى أثره فاصبروا حتى تلقونى على الحوض أفلا صبرت. قال فى النهاية لابن الأثير ، الأثرة بفتح الهمزة ، والثاء المثلثة . الإسم من أثر يؤثر إيثارا ، إذا أعطى يريد أنه يستأثر بعضكم على بعض فى نصيبه فى الغنيمة والفىء ، فقال جابر اذكرتنى يا معاوية ما أنسانيه الدهر وخرج من عنده ، وركب راحلته ، ونزل إلى المدينة ، فذكره معاوية فأرسل إليه بستماية دينار ذهبا فردها جابر عليه ، [٤٦] وكتب إليه .

وإنى لأختار القنوع على الغنـــا ... إذا اجتمعا والمـاء بالبارد الممضى
وأقضى على نفسى اذا الأمر نابنى ... وفى الناس من يقضى عليه ولا يقضى
وألبس أثواب الحياء وقد أرى ... مكان الغنى أن لا أهين به يرضى

قال وليس هذا جابر بن عبد الله الأنصارى أحد المكرمين عن رسول الله ﷺ

---

(١) فى الأصل «ويجتمع فيه المقرئين والوعاظ والمنشدين ويحيوا تلك الليلتين» .

(٢) من هنا وحتى السطر الأخير من ص ٤٦ ، استطراد وخروج عن موضوع النص ولذا وضعناه بين قوسين (...) .

وان اشترك معه فى إسمه واسم أبيه ، فإن ذلك معمراً عاش أربعا وتسعين سنة ، وتوفى فى سنة ٧٧ من الهجرة النبوية ، فى أيام الحجاج بن يوسف الثقفى وهذا صحابى أنصارى آخر ، ولعله المدفون بهذا المقام ، ذكر ذلك الشيخ أبو الفتح اليعمرى فى السيرة النبوية رضى الله تعالى عنه وأرضاه، ثم إن حضرة الوزير زاده الله تعالى [٤٧] إجلالا وإقبالا ، لم يزل يجد المسير بعناية الملك الحميد ، إلى أن وصل بسلامة الله تعالى إلى ثغر رشيد ، فى عيش رغيد، فتوجه إلى الحصار الذى هناك ، وكشف بنفسه النفيسة عليه ، فوجده فى غاية الإحكام والإتقان ، فحصل له بذلك حظ عظيم وانشرح صدره لذلك ، وأحسن على من بالحصار المذكور من الجند والمرابطين وأرباب شعاير مسجده ، وأبطل بعض ظلامات ، وشكت الرعايا من شخص هناك يدعى ترك محمد ، كان شقيا من الأشقياء ، فسجنه بالحصار ، وأنفذ أمر الله فيه ، وكان جباراً عنيداً ، ثم توجه مصحوبا بالسلامة ، فلما مر على كوم الأفراح زاره ، ومن به من الأولياء والشهداء ، وتصدق وأنعم وأغدق ، ولهجت الرعايا بالدعا لحضرة مولانا الخنكار الأعظم ، ولذاته الشريفة وسار والعسكر المنصور وأمراء الألوية ، وأكابر الدولة يسايرونه، وكلما ورد عليه أحد من الكشاف [٤٨] والملتزمين يقابله بسن ضاحك ، وبشر وإقبال ويلبسهم الخلع والتشاريف، وكل من ألبسه قفطانا شرط عليه أن يمشى بالاستقامة مع الرعايا، وأن لا يكتب لأحد من الجند طلبة أبداً ، ومتى بلغه عن أحد منهم أنه كتب طلبة لفرد من الأفراد ، يكون ذلك القفطان كفنه ، واستمر على ذلك وكلما نزل على بلد أو قرية ، وشكى إليه أحد من فلاحيها يحسن لهم ويكشف ظلاماتهم إلى أن حل بشبرا المدينة وجزيرة الفيل فنصب سرادقه بها على العادة بذلك ، وقد اصطفت العساكر بين يديه صفوفا ، وكان دخوله تاسع عشر شهر صفر المظفر سنة ١٠١٦[1] فى طالع سعيد ، وساعة مباركة والسعد يقدمه ، والإقبال يخدمه ، فأقام بها ثلاثة أيام فى أرغد عيش ، وتوجه إلى دار سعادته،

(١) ١٥ يونية ١٦٠٧ م .

ومحل إيالته ، بالديار المصرية ، والقلعة الصلاحية، فدخل فى موكب عظيم ،وعز وجاه وتعظيم [٤٩] وطلع القلعة ، فى إقبال وتفخيم ، وأنعم على ساير الجاووشية والخدلم والنوبتجية،وسلبوا وانصرفوا بغاية الترقى والأنعام،وبلوغ المرام وكان جلوسه فى الديوان العالى . بالعز المتتالى والسعد المتوالى، يوم السبت المبارك حادى عشرين الشهر المذبور[١]، زاده الله تعالى عزا وإجلالا وسعادة وعظمة وإقبالا ، وبلغه أعلا مراتب الرضا حتى يقول جميع العالم هكذا ، وإلا فلالا، فأخذ أولا فى زيارة الأولياء والصالحين والعلماء العاملين،بالقرافتين المنيفتين ، وما بهما من الأولياء والشهداء ، فتوجه إلى مقام سيدنا ومولانا إمام الأيمة وناصر السنة . مَنْ مصر به محروسة محمية ، صاحب العلم النفيس، الإمام الأعظم ، والمقام الأفخم الإمام محمد بن ادريس الشافعى المطلبى ، تغمده الله برحمته واسكنه بحبوحة جنته ، وأنعم على من بالمقام من الخدمة والمجاورين انعاما زايدا ، ودعى الله سبحانه [٥٠] وتعالى وتوسل إليه ، ثم توجه من عنده إلى مقام سيدنا ومولانا الإمام المجتهد المجيد العالم البارع المجيد ، ذو الكرامات الظاهرة والأسرار الباهرة ، والأنفاس الطاهرة ، الترياق المجرب ، مولانا الليث بن سعد الفهمى القلقشندى المصرى ، نفع الله بعلومهما ومددهما كافة المسلمين بجاه سيد المرسلين ، ثم منه إلى الصحابى الجليل ، والغوث النبيل سيدى عقبة بن عامر الجهنى،ثم إلى مقام الولى العارف بالله تعالى سيدى فارس قطايا بالقرافة الصغرى ، وصار كلما زار مشهدا من تلك المشاهد ، أو معبدا من المعابد يتصدق كثيرا على عادته، ويقرب أغناما إبتغاء للمثوبات، واستجلابا للدعوات الصالحات ،ولم يزل مداوما على هذا الحال،لا يغفل عن زيارات الأوليا والصلحا ليلا ولا نهاراً،مع النظر للرعايابعين المعدلة والأنصاف [٥١]وخلاص المظلومين من الظالمين[٢] وإزالة الجور والاعتساف ، وشرع فى تعمير البلاد

---

(١) ١٩ يونية ١٦٠٧ م .

(٢) فى الأصل « وخلاص الظالمين من المظلومين » ونعتقد أنه سبق قلم من المؤلف .

وتأمين العباد ، وإستجلاب خواطر الحاضر والباد ، وقطع جادرة أهل البغى والعناد ، والطغيان والفساد، وإكرام العلماء ، والنظر إلى الفقها والفقرا ، وتقوية الضعفاء من الفلاحين وعود المتسحبين ، وجذب قلوب كافة البرايا ، وعامة الرعايا ، حتى عمرت مصر بعد أن كانت خرابا ، وقراها يبابا ، ودب فيها ماء الحياة ، بعد موتها ، وانتعشت انتعاشا قويا بعد موتها ، ورفع من المظالم المظلمة ، والخطوب الموحشة المؤلمة ما اكسبت الدولة كمالا ، وأزالت نقصا ، ورفعت عنها محنا وغصصا ، فأحسن إلى أهل الحرمين المحترمين ، وبسط فى ذلك كلتا اليدين ، طلبا للمثوبات العظيمة، من الله البر السلام، ومزيد الاكرام والانعام وإستجلاب القلوب بالدعا بدوام دولة [٥٢] سلطان الاسلام ، ظل الله فى الأنام ، الخنكار الأعظم ، والسلطان الافخم ، مولانا السلطان أحمد لا زال بمجد مؤيد، وفى الحقيقة أن مولانا الوزير محمدى الإسم، طاهر الذات والجسم أخلاقه من أخلاق سميه ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، المبعوث فى الالف السابع من السنين وهى الدولة المحمدية القمرية ، والروضة الازهرية العلية نبى الساعة ، وصاحب الشفاعة ، وله حظ أيضاً من سميه محمد المهدى ، الذى يظهر آخر الزمان ، ويزيل الرجس والظلم والبهتان . وكان ورود حضرة مولانا إلى مصر الامينة ، وهى ميتة فاحياها وحصل لها الطمأنينة من إزالة جميع ماشرحناه وقدمناه فى أيام الفتن ومظاهر البغى والمحن فى هذا الزمان المشئوم ، وسوء أخلاق الخلايق ونياتهم وذلك ظاهر معلوم ، ولنذكر نبذة مما ذكره مولانا عبد الرحمن بن طلحة البسطامى صاحب مفتاح الحضر أعلم[1] [٥٣] (أن خير القرون قرنه صلى الله عليه وسلم قال أنس رضى الله عنه لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شيء ، وقد ولد صلى الله عليه وسلم فى الالف السابع

---

(١) من هنا وحتى نهاية القوسين (٠) فى منتصف ص ٥٧ ٤ خروج عن موضوع النص ولذا وضعناه بين القوسين .

عام الفيل عهد كسرى أنوشروان ، فهو فاتح كتاب الوجود ، وهو الفاتح الخاتم وقال صلى الله عليه وسلم أنا أول من تنشق عنه الارض ، ولذلك خص بسورة الحمد التى هى فاتحة كتابه من كنز تحت العرش ، ولم يسبح إلا باسمه صلى الله عليه وسلم أحمد ، ألا ترى أن حروف الفاتحة ، تشير إلى أسمه صلى الله عليه وسلم محمد ، قال عليه الصلاة والسلام لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الارض الله الله ، فالله الله لها من العدد ١٣٢ وذلك عدد اسمه عليه الصلاة والسلام محمد وهو أيضا عدد ١٣٢ وهذا العدد له من الحروف قلب فهو عليه الصلاة والسلام قلب هذا العالم ، ويخرج من[٥٤]اسمه عليه الصلاة والسلام عدد من أرسل من الانبياء . وإذا ضممت باطن عدد هذا الاسم الذى ظاهر عدده كان الخارج من الجمانين ، وقت ظهور خاتم الأولياء محمد المهدى فافهم افهم وقد انقرض عصر من الصحابة ما بين تسعين إلى مائة رضى الله تعالى عنهم وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عما وقع بعده من الفتوح وعما ظهر من الفتن التى الأمساك عن الخوض فيها من أحسن الحسن ، وما ورد من أحاديث الملاحم وأمثالها ، وظهور الفتن المتداولة وأحوالها ، ولقد أخبر عن ملاحم الروم فحصلت ، وعن قتال طايفة فقوتلت ، وفصل ذلك صاحب الجفر على المآت ، فقال المائة الأولى على رأسها يظهر سيف الحق ، وإمام الخلق أقامه الله تعالى ليحى الكتاب والسنة ، وعمى الضلالة والبدعة إلى أن قال ، والمائة التاسعة ، وهى أم المآت فى الشدائد ، والتى يجرى فيها ما لم يكن فى العوايد ، فان الناس كانوا فى الزمان الخالى ، ومامر من الأيام والليالى ، منتظرون هذا القرن التاسع ، وذكر ما فيه [٥٥] من الأهوال بينهم شايع حتى أن من الناس من يقول إن القيامة فيه تقوم ، وأنه لا يبقى إلا الحى القيوم ، ولأرباب الملاحم وأهل التيسيرات وأصحاب الحساب فيه مجال واسع ، وشرب جامع ، وقال فى موضع آخر بعد هذا ، وأما القاف والنون والياء فلها من العدد ٣٦٠ فإذا أسقطنا منها ياء كان الباقى ٣٥٠ ، وذلك أعداد عيسى وعدد سيف ، وهو إشارة إلى ظهور سيف القرآن محمد

المهدى ، ونزول عيسى المسيح وعدد[1] سلطان وهو إشارة إلى تجدد سلطنة الدولة المحمدية القمرية ، وقد ورد فى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال إن صلحت أمتى فلها يوم وهو ألف سنة ، وبلغنا أن عيسى عليه السلام يصلى بالناس صلاة العصر ، وهى إشارة إلى أنه ينزل على ثلاثة أرباع اليوم فاذا أخرجت من الألف ٨٤٢ كان الباقى فى خمس الربع سبعة فهى مدة لبث الدجال الأعور فى الأرض وينزل عيسى عليه السلام [٥٦] على ثلاثة أرباع اليوم ، ويرفع القرآن عند تمام حروفه وذلك على دائرة ٩٥٢ سنين ، ويبقى فى الألف ٩٧ سنة فيها شرار الناس ، وعليهم تقوم الساعة حتى تباع أولاد العلوج بسويقة مازن ولا تقوم الساعة حتى تحسر الفرات عن جبل من ذهب ولا تقوم الساعة حتى يجتمع صايب الاسلام وصليب الكفر برج داود ولا تقوم الساعة حتى يحتاج الاخيار إلى الاشرار[2] ، ولا تقوم الساعة حتى تكثر الفتن والخوارج، والأمور العوارج ، قال عليه الصلاة يأتى على أمتى زمان يأكل القضاة من الخصمين ، ولا تقوم الساعة حتى تأكل المرأة من فرج ابنتها ، ولا تقوم الساعة حتى يكون شيخهم شاطر ، وشابهم فاجر ، وأمينهم جاير ، ووزيرهم تاجر، قال عليه الصلاة والسلام إذا أتى على أمتى ماية وثمانون سنة فقد حلت لهم العزلة والغربة والترهب على رءوس الجبال ، وفى تاريخ ٨٥٥ ترفع الشريعة ، وتسرق الوديعة ، وقال عليه الصلاة والسلام يكون فى آخر الزمان [٥٧] عباد جهال ، وعلماء فساق ، سنة ثلاث يظهر الخراب ، وفى هذه الاشارة الشافيه ، والعبارة الكافية ، إشارة إلى الحى البساط ، ورفع السماط وتحريك الزامر ، وشق الاثواب ، وطرق الابواب ، وسفك الدماء ، وهتك النساء ، وشقاق العلماء وخلف الامراء ، وقيام السيف فى الشتاء والصيف ، وسوء الحال ورفض المال، وكل ما ترى من العبر ، لنفوذ القضاء والقدر) ، ولولا أن الله سبحانه

---

(١) فى الأصل حرف «على» وعليه شطب .

(٢) فى الأصل « يحتاج الأشرار الى الأخيار » ونعتقد أنه سبق قلم من المؤلف .

وتعالى أغاث عباده بهذا الوزير الماشي على سنن نبيه صلى الله عليه وسلم البشير النذير ، ومحمد المهدى الآتى فى الزمن الأخير ، لخربت البلاد وهلكت العباد ، وصرت لا ترى إلا فيافى أو قيعان ، وبوادى وغيلان ثم أنه نظر فى أمر القلعة المنصورة وجدد بناها وعمرها عمارة حسنة إلى أن صارت نزهة للناظرين ، ولم يزل على ماهو عليه من مزيد الإنعام والنظر بما فيه المعدلة ، ولما أن آن أوان توزيع الأقاليم المصرية ، على العمال والملتزمين ، فوزع كل إقليم على مايليق به من غير خدمة وكان من جملة [٥٨] من أنعم عليه من الكشاف المعتمدين شخص من أكابر الجند الملتزمين يقال الأمير حسن الحلوجى فأعطاه ولاية الغربية وأخلع عليه قفطاناً عظيما ، فتوجه الأمير حسن المشار إليه وهو فى غاية السرور ، بعد ذلك إلى بولاق لبعض مصالحه وجلس بموضع مشهور هناك على شاطىء البحر، يقال له سبيل البردان ، فصادفه طايفة من الجند المذكور ، واللوند المفسدين ، وقصـــدوه بسيوفهم وهى مسحوبة بأيديهم ، فهرب منهم ، وطلع إلى بعض السفن روماً للنجاة فأدركوه ، وضربوه بالسيوف ، وسقط إلى البحر ميتاً ، وأخرج بعد ذلك، وعرض أمره على حضرة مولانا الوزير المشار إلى حضرته فاستشاط غضباً وغيظاً وتأججت نار حميته وزادت لهباً ، وبرز أمره الشريف بإجهار النداء لجميع العسكر المنصور ممن يأكل العلوفة السلطانية من عثمانى إلى ألف أن يجتمعوا فى قرة ميدان ، ولم يتخلف أحداً ، فامتثلوا الأمر [٥٩] ذلك واجتمعوا أسفل القلعة المنصورة ، وأقام سنجقاً سلطانياً ، ونادى من كان طايعاً لله سبحانه وتعالى ولرسوله وللسلطنة الشريفة الخنكارية ، فليقف تحت هذا اللواء ، ومن خالف وخان وسعى فى الأرض بالفساد حاربناه وقتلناه ، فحضر كل أمراء الألوية الشريفة من المستحفظان بمصر المنيفة . ممن يأكل العلوفة وأجابوا بمزيد السمع والطاعة ، ووقفوا تحت السنجق السلطانى وقالوا نحن عبيد مولانا السلطان ، وممتثلون لأوامره الشريفة، وأمر مولانا الوزير صاحب السعادة ، وأن جميع ما يأمرنا به فعلناه وكل من تخلف منا قاتلناه ، فلما كان الأمر على ذلك أظهر لهم حضرة مولانا الوزير خط

همايون المتقدم ذكره المتضمن لرفع الطلبة ، وأن كل من طلبها ، أو تسبب فى أخذها أو تحصل عليها بوجه من الوجوه يكون ساقطاً مخرجاً من ديوان الجند بعد التحقير الشديد والتنكيل به [٦٠] فذكر لهم حضرة الوزير أن من بعض البلوكات عسكراً أشقيا يصدر منهم مثل هذا الفساد فى كل حين ، والتجرى على قتل الآمراء وأرباب الدولة والأكابر جرأة وعدم مبالاة ، فإن كنتم تريدون الصفح عنكم فيما صدر منكم سابقاً ، فتقبضون عليهم وتسلموهم إلينا لنخرج من حقهم فأجابوا بالسمع والطاعة ، وقبضوا على من كان معروفاً منهم بذلك فأسلموهم لحضرة مولانا الوزير نصره الله تعالى ، ثم حلفوا بعد ذلك يميناً معظما على كلمة واحدة، أشهدوا على أنفسهم أنهم من اليوم لايمشون فى أمر شىء يقال له الطلبة ، ولايذكرونها على لسانهم ، ولايقرون عليها ، وخرجوا على ذلك وصاروا كل من عرفوا ذلك منه يكبسون عليه ويحضرونه لحضرة مولانا صاحب الدولة وسكنت الفتنة بمقتضى ذلك ، واطمأنت العباد ، وحصل للفلاحين والرعايا غاية الانتعاش ، واتسعوا غاية الاتساع [٦١] بعد أن كان الواحد من الفلاحين لايملك ريش دجاجة، وصار عندهم الأوز والدجاج والأغنام والشىء الزايد ، والبركات المتزايدة آمنون مطمئنون ، فى ظل الدولة الشريفة . وصار الكبير لايقدر أن يجير على الصغير ، ولايأخذ أحد من الباعة شيئاً إلا بأزيد من ثمنه ، وصار الذيب والغنم فى المرتبة سواء ، ثم بعد ذلك ورد أمر آخنكارياً بأن يجهز من العسكر المنصور نحو ألف فارس لحضرة مولانا السردار بالديار الشامية لأجل دفع الطايفة الجلالية ، فأجابوا كلهم بالطاعة وأذعنوا للأمر ، وجهز مولانا صاحب السعادة العسكر المطلوب على أتم الوجوه ، ولم يصدر من أحدمنهم مخالفة ولاإيذاً لمخلوق ، فتوجهوا صحبة سردارهم المعين من جانب مولانا الوزير أدام الله تعالى نصرته ، هو الجانب العالى حاوى المفاخر والمعالى الأمير قانصوه مير اللواء الشريف السلطانى بالديار المصرية ، وتوجه بالعساكر المنصورة إلى قتال الطايفة [٦٢] الخوارج الجلالية فسار هو وهم يقطعون الفيافى والمراحل بالبشر والسرور إلى أن قدموا المملكة الشامية ، واجتمعوا بحضرة الوزير

الأعظم، والدستور الأمجد الأكرم، حضرة مراد باشا المفخم المعظم، وهو السردار الأعظم، وصار فى خدمته بما معه من العساكر المنصورة المصرية، وكذلك جميع مامعه من العساكر إلى أن التقوا بمكان يقال له «كوكسون يايلاسى»[1] ووقع بينهم القتال، والحرب والصيال، وتجاولا وتجالداً، وتقابلا وتقاتلا، فنصر الله تعالى الإسلام، وأعلا كلمة الإيمان، وأخذ الخوارج الليام، ببركة النبي عليه السلام، وقتل منهم طايفة كبيرة لاتعد ولاتحصى، ولاتحد ولاتستقصى، وولوا على أعقابهم مدبرين، وقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين، وأظهرت العساكر المصرية اليد البيضاء فى ذلك وأبلو بلاء حسناً وأظهروا [٦٣] شجاعة عظيمة عرفوا بها، وأفرغ حضرة الوزير الأعظم على الأمير قانصوه الخلع السنية والترقيات البهية، هو ومن معه من العسكر كل منهم على حسب مرتبته وبما يليق به من المناصب المصرية، وأذن بعد الأنعام للأمير قانصوه ومن معه بالعود إلى منازلهم، ومحل أوطانهم، فعادوا سالمين غانمين، فرحين مستبشرين، كأنهم لم يقاسوا تعباً، ولم يعاينوا وصباً ولانصباً، ولامشقة ولاخطراً، ولا ألماً ولاسقراً، وكان دخول السردار إلى مصر المحروسة يوماً مشهوداً، شهده الكبير والصغير، وجميع أكابر مصر وأمرائها وعلمائها وفضلائها، وساير الأمرا المستحفظين والنوبتجية، والسنجق الشريف مفرود على رأسه، والنوبة السلطانية تدق بين يديه، وكان دخوله مصر المحمية فى يوم «الجمعة المبارك»[2] وقدطلع إلى الديوان الأعلا فى غاية العظمة، وواجه حضرة مولانا صاحب الدولة [٦٤] والسعادة، فتلقاه بغاية الإقبال والعظمة

---

(١) فى الأصل « بياض المخطوطة » وأكملت اسم المكان من مخطوطة « كشف الكربة فى رفع الطلبة » وجه ورقة ٤٣ « من الجزء المحذوف من الطبعة المشار اليها سابقاً .

(٢) فى الأصل « بياض المخطوطة » والتكملة من مخطوطة « كشف الكربة فى رفع الطلبة » ظهر ورقة ٤٣، من الجزء المحذوف، من الطبعة المشار اليها .

والإجلال ، وشكر صنيعه وسعيه وكذلك جميع من معه من العساكر السلطانية وشرف معاطفة بالخلع السنية الفاخرة ، وأنعم عليه بالنعم الجزيلة الوافرة ، وكذلك كتخداجا ووشيتة ومن كان مشهوراً بالفروسية والشجاعة وانبسطوا غاية الانبساط ، وحصلوا مرادهم وصاروا فى ألذ ما يكون من النشاط ، وأنعم عليهم بالعود إلى بلادهم التى كانوا بها سابقاً ، كل ذلك وهم فى غاية الطاعة والإذعان ، والخضوع والاستكان غير أن طايفة من الأشقيا كانوا قديماً فى أسنانهم طعم حلاوة «الطلبة»فصاروا يصابرون عليها ، ويحتالون على الكشاف فى أخذها ، ويُغْرِ بعضهم بعضاً فى القيام بطلبها ، فلم يطاوعهم أحد من الكشاف على ذلك ، فقدر الله سبحانه وتعالى بعد مدة يسيرة أن شخصاً من الجند الذين عادوا من السفر يدعى (   )[1] أحضر حكماً من حضرة السردار الأعظم بمنصب [٦٥] دوادارية الغربية ، وأنعم عليه بذلك من قبل مولانا صاحب السعادة زيد إقباله ،وأعطاه بذلك قفطاناً ، وكتب له حكماً شريفاً خطاباً لمولانا قاضى القضاة إسماعيل أفندى الحاكم الشرعى بالغربية ، والكاشف بها هو فخر الأكابر الأمير محمد الحلوجى بالتمكين فامتثلا ذلك ولبس الخلعة الشريفة ونودى له بذلك بالمحلة الكبرى ، وهو لابس القفطان على العادة ، فمر على طايفة من الجند وهم مجتمعون جالسون تجاه بيوت القهوة بوسط السوق ، فلما أن رأوه وعاينوه وهو لابس القفطان فزعوا عليه جميعا بأسلحتهم وأرادوا قتله وتكلموا بكلام غير لايق ، وقالوا له إن لبست هذا القفطان ، أو تصرفت فى الدوادارية قتلناك فمن خوفه على نفسه قلع القفطان ، وتوجه إلى المحكمة الشريفة، والكاشف مقيم بها فألقاه إليهما ، وأعلمهما بما وقع ، وإذا بطايفة من الجند هجموا على مجلس الحكم الشريف ، وحصل منهم مالاخير فيه ، من أنواع السب فى حق الكاشف ،

---

(١) بياض فى المخطوطة ولم يذكر اسم هذا الشخص ، ولم يذكره كذلك ابن أبى السرور فى كشف الكربة ، بل ترك مكان الإسم بياضاً فى كلتا المخطوطتين ، انظر : كشف الكربة فى رفع الطلبة ، ص ٣٤٧ .

وقالوا [٦٦] من جملة ذلك إيش هذا الذى عملته داوداراً هذا مايستحق أن يكون مشداً فى أقل النواحى ، فقال لهم الكاشف أنا مافعلت هذا إلا امتثالا لحضرة مولانا الوزير الذى مكنه فانه جهز أمراً مرتباً على إعطاء السردار ، ولايمكن الإمتناع ، فحصل منهم أيضاً قلة أدب زايدة جداً ثانياً ، وتم الأمر على المنع ، وقد كانت هذه الفعلة داعية لقيامهم ، وكتابتهم لبعضهم بعضا من من طايفة الإسباهية البلوكات الثلاث لساير أقاليم مصر الاثنى عشر[1] ، وأن يجتمع ساير الجند المكتوبين بهم يوم الجمعة المباركة فاجتمعوا كلهم فى أوائل شهر القعدة الحرام سنة سبع عشرة وألف[2] ، بمقام مولانا القطب الربانى والعارف الصمدانى الشيخ أحمد البدوى بطندتا بالغربية نفع الله تعالى به ، فاجتمع هناك ساير الجند من الأقاليم المذكورة ، وتحالفوا داخل المقام وتعاهدوا وتعاقدوا ، وأوثقوا الإيمان الذى ماعندها ايمان ، على أمور [٦٧] يفعلونها وأنهم فى ذلك على قلب رجل واحد فى الحالات الست ، وأن لايتخلى أحدمنهم عن الآخر موتاً ولاحياة ، ومن جملة ماتعاقدوا عليه طلب بعض جماعة من أكابر الدولة ليقتلونهم ، وأخذ الطلبة التى هى معظم الفتنة . وتواردت أخبارهم بذلك من الثقاة[3] وغيرهم واشتهر ذلك عنهم وذاع ، وملأ الأسماع والبقاع ، ومن أعجب ماأشيع أن جند إقليم الشرقية هجموا على الكاشف بها هو نخر الأمراء (   )[4].

---

(١) كانت مصر آنذاك مقسمة إلى الأقاليم التالية :
الشرقية ، المنوفية ، الغربية ، القليوبية ، المنصورة ، جيزة ، أطفيح ، فيوم ، البهنسا ، أشمونين ، منفلوط ، جرجا .

(٢) فبراير ١٦٠٩ .

(٣) فى كشف الكربة «البغاة» ، والصحيح ما ذكره المؤلف . انظر كشف الكربة ، ص ٣٤٩ .

(٤) بياض فى الأصل ، ويبدو أن الأمر التبس على المؤلف أهو كاشف إقليم الشرقية أم المنوفية ، وترك الأمر لتحقيقه ولكنه لم يفعل ذلك ، وقد ذكر ابن أبى السرور أنه =

فى منزله وطلبوا منه كتابة وصولات بالطلبة . وقالوا له نحن كنا فى السفر السلطانى : وما كان معنا نفذ بأجمعه ، وقد بعنا جميع ماعندنا فى السفر من العدد والآلة ، ولم يبق بيدنا شىء، وركبتنا الديون، ونحن لنا ثمانية عشرة خدمة، ولابد أن تطاقها لنا فامهلهم ثلاثة أيام، وأعرض هذه الواقعة على حضرة مولانا الوزير بالتفصيل، والتمس الجواب بالاذن فى ذلك أو عدمه على يد كتخدايه المقيم بمصر، فلما أطلع مولانا صاحب [٦٨] السعادة على العرض غضب غضباً شديداً ، وصمم التصميم الكلى على المنع ، وأن لاجواب فى ذلك ، فلما تبين لهم حقيقة المنع اجتمعوا بامرائهم وبجميع مامعهم من اللفيف والأتباع ، وطلبوا أطلابهم وأخذوا معهم من وجدوه فى طريقهم من داعية الفساد من الجماعة البطالة الذين ليس لهم علوفة، وما انضم إليهم من أهالى الفساد ، وكتبوا مكتوبا لحضرة مولانا صاحب الدولة والسعادة بما يطلبونه ويرومونه : هذا وقد أقاموا أربع سناجق ورتبوا جموعهم ونشروا أعلامهم ، وجعلوا لهم كاتباً لضبط أسمائهم وعملوا يقلمه وتجمعوا بقضهم وقضيضهم بالات الحرب والقتال ، والعدة الكاملة والأهبة الشاملة ، وصاروا لايمرون على قرية إلا وأخربوها ودمروها من نهب جميع مايجدونه من الغلال والسوايم والعليق والأغنـــام ، وأنواع المطاعم . ودهكوا الزراعات بحوافر خيولهم [٦٩] خصوصاً بما يتعلق بالامناء ، فانهم أكبر أعدائهم ، فانهم كانوا يقولون بإباحة ما يأخذونه منهم ، وفعلوا أفعالا لايفعلها من فى قلبه رقة ولاشفقة على المسلمين ، وبدت منهم أمور منكرة جداً ، فلما رأى ألا مناء ذلك على ماقيل ، طلعوا إلى الديوان العالى ، وشكوا هذه الفعايل لحضرة مولانا الوزير نصره الله تعالى وقالوا نحن فينا كفاءة لحربهم، هذا والطايفة المذكورة مستمرون على فسادهم وعنادهم ونهبهم جميع ماظفروا

= كاشف اقليم المنوفية ، حيث كتب فى مؤلفه « وأعجب ما حكى أن بعض الجنــد المقيمين بالمنوفية ، هجموا على الـكاشف بالإقليم ، هو فخر الأكابر سليمان ابن درغوث ، وطلبوا منه كتابة وصولات الطلبة » ، ص ٣٤٩ .

به ، ومن جملة العسكوسات أنهم نزلوا بمكان يقال له منى جعفر [1] بالشرقية بيابيس فأقاموا به ، وهو بالقرب من مكان يقال له ، تل اليهودية وصاروا فى كل يوم يمر فى زيادة من داعية الفساد ، فلما أن تقرر خروجهم ، وظهر واتضح لمولانا الوزير نصره الله ، فقد أمر مناديا ينادى لجميع العساكر المصرية ، المطيعين للحضرات الخنكارية من أمراء [٧٠] الألوية الشريفة والجركسية ، والمتفرقة ، والجاووشية ، وما وجد من الاسباهية المقيمين بالديار المصرية ، والينكجرية والعزب ، وغير ذلك ممن يأكل العلوفات السلطانية من عثمانى إلى أكثر ، وأحضر ساير الأمراء من الأقاليم أيضاً فحضروا جميعاً بآلات حربهم ، ومن يعتمد عليهم فى حسن الرأى واصابته ، ونصب ديوانا طنانا فى خصوص ذلك وذكر لهم أمر العساكر الذين خرجوا عن الطاعة ، وطلبوا القتال ، واستشارهم فى ذلك ، وأراهم صورة نقش ضميره فى مرآة مقاله ، فإن القائل يقول :

أقرن برأيك رأى غيرك واستشر
فالحق لايخفى على رأيين
المرء مرآة تريه وجهه ويرى قفاه بجمع مرآتين

ولابأس بالاستشارة من ذوى الرأى والمثوبة والحكمة لقوله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ،« وشاورهم فى الأمر» ، وقال سبحانه وتعالى مخاطباً له ، «ولاتك فى ضيق مما يمكرون » [2].(وذلك لما ألب الطلوب عليه ، وقصدوه [٧١] بالمكر والمكروه ، كما أخبر الله تعالى بقوله ، ولاتك فى ضيق مما يمكرون ، وكان رؤساء قريش ، اجتمعوا فى دار الندوة للتشاور فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم فأتاهم ابليس لعنه الله تعالى ، فى صورة شيخ أعرابى،

(١) تعرف حالياً باسم السلمانية ، من قرى مركز شبين القناطر ، محافظة القليوبية .
(٢) من هنا وحتى نهاية القوسين (٠ ٠) فى منتصف ص ٧٣ خروج عن الموضوع .

فأرادوا إخراجه عنهم ، فقال لهم إنى رجل من أهل نجد . ولاغنى عليكم منى ولعلكم لاتعدمون من محضرى خيرا ، فأخذوا فى تشاورهم ، فقال عتبة أرى أن تخرجوه من بين أظهركم . فان ظفر كان ظفره حظا لكم . وان قتل كنتم قد كفيتم أمر دمه ، فقال ابليس ما هذا برأى . أما سمعتم حلاوة منطقه وأخذه بالقلوب. فلا تأمنوا أن يقع فى حى من أحياء العرب فيستفسد أهواءهم ويسيرهم اليكم حتى يفرق جماعتكم . فقال آخر منهم أن يوثق فالحبس حتى يأتيه أجله . وهو فى حبسه فقال إبليس لعنة الله عليه . ليس هذا رأى . أما علمتم أن له أهل بيت وأتباع . لايرضون منكم بهذا فيقع الحرب [٧٢] بينكم وبين أمركم ثم قد تكون الدايرة عليكم فقال أبو جهل أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قبايل قريش شابا جلدا . ونعطى كل منهم سيفاً ويأتونه فى مضجعه . فيضربونه ضربة رجل واحد ، فلا يقدرون أهله أن يطلبوا بدمه جميع القبايل إذا افترق دمه بينها ، فقال ابليس لقد أصاب ، فتفرقوا على رأى أبى جهل وأوحى الله تعالى إلى رسوله عليه الصلاة والسلام يعرفه مكرهم ويأمره بالهجرة إلى طيبة ، وجاء الذين تخيروهم من القبايل ـ لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم — إلى منزله من أول الليل ، وأوصى النبى صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه أن يلبس برده الأخضر وينام على فراشه وأعلمه أن لا يصله أحد من قريش بمكروه ، فالتحف على كرم الله وجهه ببردة النبى صلى الله عليه وسلم ، ونام على فراشه ، وخرج النبى صلى الله عليه وسلم من بيته ؛ والقوم على الباب . فقرأ أوايل سورة يس والقرآن الحكيم . وأخذ كفاً من التراب [٧٣] وجعل يذرية على رؤوس القوم وهم لايرونة وانصرف صلى الله عليه وسلم متوجهاً نحو الغار ، وجعل المشركون ينظرون إلى على كرم الله وجهه فى مضجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليه برده الأخضر فيقولون هذا محمد نائم ولا يطيقون الدخول حتى أصبحوا وقام على رضى الله عنه ، فنظروا إليه فأتوه وقالوا له أين محمد فقال لاأدرى أمرتموه بالخروج فخرج فحبس فى المسجد ساعة ثم تركوه)،عوداً إلى مانحن فيه، فمنهم من أشار بأن الرأى المتين ، والمنهج المبين

وتطيب نفوسهم بما يطالبونه إلى أن تطفى هذه النايرة، فان الأمر ربما يتسع، ولا يتجمع، ويعسر الإلتيام . ويترتب على ذلك مراتب صعبة المرام . من هلاك الأنفس والأموال، ودهك الرعايا والرجال، وإذا توجه كل منهم إلى محله، فيؤخذ المفسد بالتدبير، ولا ينبئك مثل خبير، فلم يقبل هذه الإشارة ولا التفت إلى هذه العبارة، ومنهم من قال [٧٤] بل نقاتلهم إلى أن يحكم الله بيننا وبينهم . وكان من تكلم بهذا الكلام . ونطق بهذا المرام . الناصح للسلطنة الشريفة . الباذل مهجته ونفسه فى مرضاتها المنيفة حضرة فخر الأمرا وكنز الكبرا، زين الدين صالح، أمير اللواء الشريف، حفظه الله تعالى وأعانه على فعل الخيرات، ودفع المنكرات . فإنه قال من المحال أن نرجع عنهم إلا بالقتال، إلى أن ينفذ القضاء والقدر، فأجابه إلى هذا الرأى جميع الأمراء والعساكر المشار إليهم، وأقام حضرة مولانا الوزير نصره الله تعالى فخر الامرا الكرام، عمدة الكبرا الفخام، الأمير مصطفى مير اللواء الشريف السلطانى، سردارا على العساكر الشريفة لما علم أنه مستحق لذلك وفيه كفاءة تامة، وعين معه شدًّا لعضده، ودفعا لملالته حضرة مولانا فخر الأماجد والأكابر، حاوى المحامد والمفاخر، الجناب العالى، والكوكب الوضّاح فى أفق المعالى، الأمير مصطفى كتخدا الطايفة الجاووشية بالديار المصرية، وساير الأمناء والملتزمين وانعقد [٧٥] الإجماع على ذلك وبرز أمره الشريف ببيورلدى شريف للطايفة المذكورة على يد مولانا فخر الفضلا عمدة النبلا، محمد أفندى الشهير بالتى يرمق زيدت فضايله، وأغاة التوفكجيان، متضمنا للوعظ والنصايح لهذه الطايفة، ويحذرهم من غضب الله عليهم، وغضب السلطان، وأن يقلعوا عما هو فى زعمهم من خيالاتهم الفاسدة الذين لا يقدرون عليها، ولا يورثهم ذلك إلا الخذلان والبوار، وبعد الدار، وانهم يرجعون ويتوبون إلى الله سبحانه وتعالى، ولا يرجعون لما صدر منهم، ويدخلون في عموم العسكر بنفس رضية، ونية مرضية

فان فعلوا ذلك سامحناهم ، وعفونا عنهم ، مع عدم الإنتقام ، والتوجه الى بلادهم ومرعاتهم الزايدة ، وبإمتثال هذا الـكلام ، فتوجها إليهم وقرءآ عليهم البيورلدى الشريف، وطرز الشيخ المشار إليه نصايح وعظات أوردها عليهم[1]، (ومعناها ، هو أنه ليس بخاف على العاقل اللبيب ، الفطن الاريب أن الاتسام بصفـــة العصيان ، والخروج عن طاعة [٧٦] سلطان الزمان من سمات الغرور ، وصفات كل غبي مغرور ، ومخالفة أوامر سلطان البسيطة ، الذى أوامره فى أطباق الآفاق محيطة ، صاحب العسكر الجرار كالجراد المنتشر ، والجنود الغالبة والجيوش المنصورة ، التى لا تعد ولا تنحصر ، هذا وقد كنتم غارقين فى نعم السلطنة بألذ العيش ، وأنعم البال ، لا تشوبكم شايبة من الوبال، وكنتم كما قال الله تعالى «وأضرب لهم مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله»[2] ، ومثل هذه الوقايع الصادرة عنكم لا تصدر عن عاقل ، ولا يتجرى عليها بالاقدام أحد ولو تحصن بالمعاقل ، لـكن نحن نبريكم أن يقع منكم شيء من هذه الوقايع ويصدر عنكم مثل هذه الشنايع البشايع ، وقد قرن الله تعالى فى كتابه المجيد الأمر بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ، وإطاعة ولاة الأمور ، فقال تعالى كما لا يخفى عنكم « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »[3] وأمر الشارع صلى الله عليه وسلم [٧٧] بقتل من خلع ربقة الطاعة ، وخالف الجماعة ، فقال عليه الصلاة والسلام وأمره لاحق بأمر القران ، «من أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهو جمع فاضربوه بالسيف كاينا من كان » ، وحيث كان الأمر كذلك فاللايق بكم التبرى عن هذه الفتن ، والتنصل من صدور هذه البشايع ، ما ظهر منها وما بطن ، ومن الظاهر المعلوم أن هذه الفضايح لم تصدر من عاقل بل من غوغاء الأشقيا ممن استغواهم الشيطان ،

---

(١) من هنا وحتى السطر الرابع من ص ٨١ ، خروج عن موضوع النص ولذا وضعناه بين القوسين (...) .

(٢) سورة النحل آية ١١٢ ، وصحة الآية « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة .... »

(٣) سورة النساء، آية ٥٩ .

واستخفهم البغى والطغيان ، فإذا فعلتم ذلك تفوزوا بالحظ الأوفر ، واللحظ السلطانى الأكبر ، الذى هو أعز من الكبريت الأحمر ، وإن أبيتم ونأيتم وخالفتم وعصيتم ، فهذا ظن واهى ورأى متناه فى الغباوة غاية التناهى ، والأمر حينئذ عظيم ، والخطب جسيم ، ولا ينبئك مثل خبير ، والله الغفور الرحيم ، وضرب لهم مثالا أيضاً يليق بما هم فيه لا بأس بذكره للاعتبار والعظة ، وذلك أن الخيشنوان[1] [٧٨] ملك الهياطلة لما أسر فيروز بن يزدجرد ملك فارس وأراد اطلاقه أخذ عليه عهداً[2] أن لا يغزوه ولا يقصده بمكروه ، ووضع فى أقصى أرض الهياطلة صخرة وأخذ على فيروز عهداً أن لا يتجاوز تلك الصخرة ، ولما استوثق الخيشنوان من فيروز بما أخذه عليه من العهد أطلقه ، فلما رجع فيروز إلى دار مملكته داخلته الحمية والأنفة والعظمة وعزم على التوجه إلى الخيشنوان وأطلع وزراءه على ذلك فحذروه النكث وخوفوه عاقبة البغى وذكروه العهود الذى أخذها عليه الخيشنوان وقالوا له لكل عاثر راحم إلا الباغى فإن القلوب مطبقة على الشماتة بمصرعه ، وما أعطى البغى أحدا شيئاً إلا أخذ منه أضعافه وما كثر من كثره البغى ، ولا قوى من قواه الظلم ، ولا ملك من ملكه الغضب ، فقال لهم إنى إنما حلفت له أن لا أتجاوز تلك [٧٩] الصخرة وأنا آمر بحملها على فيل فيكون بين يدى جنودى، لا يتجاوزها أحد منهم ، فلما رأوا وزراءه أن الهوى قد وقف به على حد الرضا بهذا القول علموا انقياد عقله لشهوته ، فأمسكوا وأقسموا أن لا يراجعوه فاخرج فيروز مرازبته وهم أربعة يتبع كل مرزبان منهم خمسون[3] ألف مقاتل — كان كل واحد منهم حافظاً لربع مملكته وأمرهم بالتجهيز لحرب الهياطلة ففعلوا ، وسار فيروز نحو الخيشنوان ، وهو يضعف عن مقاومة مرزبان من مرازبة فيروز ، وإنما كان

---

(١) فى الأصل « الخينشوار » والتصحيح من « كشف الكربة » لابن أبى السرور ، الجزء المحذوف من الطبعة المشار إليها ، ظهر ورقة ٥٢ .

(٢) فى الأصل « عهد » .

(٣) فى الأصل « خمسين » .

ظفره به أولا بمكيدة ، وقد كان مؤابدن قال لفيروز حين قوى عزمه على الخيشوان لا تفعل أيها الملك فان رب العالم يمهل الملوك على الجور ما لم يأخذوا فى هدم أركان الشريعة ، فلا تتعرض له بسوء ، فلم يلتفت فيروز لهذه المقالة [٨٠] وركب هواه وسار قاصداً نحو الخيشوان حتى انتهى إلى تلك الصخرة التى نصبها الخيشوان لفيروز ، واستحلفه أن لا يتجاوزها فأمر فيروز بقلعها وحملها على فيل ، وأن يكون الفيل الذى يحملها بين يدى عسكر فيروز ، ونهى أن لا يتجاوز ذلك الفيل أحد من العسكر ، فلما بعد عن ذلك الموضع الذى كانت فيه الصخرة ، وعلم الخيشوان ، قصد فيروز عليه لحربه ، حمل نفسه على التثبت ، وتوكل ووكل الأمر إلى الله تعالى وسأله أن يغضب لعهوده ومواثيقه التى لم يرعها فيروز ، ولاخاف نكثها لحصن ثغوره ، وجمع إليه جنوده، وأعد للقاء فيروز عدته ، وأمهل حتى وطىء فيروز كثيراً من أرضه ، وتوسط مملكته ، وعاث بلاده ، وأساء على رعيته ، فنهض إليه ففاجأه ، وصدقه الجلاد، ففر فيروز منهزماً ، وتسلَّمَ ما كان فى يده وقتل ، [٨١] الخيشوان رجاله وغنم أمواله ، وأمعن فى طلب فيروز حتى ظفر به فقتله وأسر إبله ، وجماعته وأصحابه ، وكانت العاقبة له ، وانقلب بغى فيروز عليه ، وهذه عاقبة البغى والتعدى) ، وضرب أمثالا كثيرة من هذا المعنى ، فلم يتعظوا ولم ينزجروا ، ولم يطرق هذا الكلام أسماعهم ، وأصروا على ما هم عليه ، ولم يلتفتوا ويتعظوا بقول الله تعالى ، ومن بغى عليه لينصرنه الله ، وبقوله تعالى يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، وقوله سبحانه وتعالى فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى ، والبغى شىء مشئوم ، وعند الله يجتمع الخصوم ، واستمروا على المخالفة والعصيان ، والشقاق والطغيان ، فرجع المشار إليهما من عندهم ، وفاوضا[١] حضرة مولانا صاحب الدولة والسعادة بذلك ، وكان ذلك أيضاً بعد إجهار الندا ، بأن كل من يأكل العلوفة السلطانية فى قليل أو كثير يتجهز ويبيت

---

(١) فى الأصل « وفاوض » .

عند السردار المشار إليه [٨٢] بقراميدان بألات الحرب والقتال، فامتثلوا ذلك وأحضروا لامة حربهم، وعدتهم وأسلحتهم وأقاموا ليلتهم تلك وهم متقلدين بأنواع السلاح، وأصبح السردار المشار إليه صبيحة يوم الأربعاء المبارك سابع عشرة القعدة الحرام سنة ١٠١٧(١). وفخر الأمرا الكرام عمدة الكبرا الفخام، الأمير يوسف بيك ميراللوا الشريف، وأمير عربان هوارة، واقليم دجرجا بالوجه القبلي، وكامل اقليم الصعيد الملقب بالغطاس، لا زال محروساً بملايكة إله الناس، وفخرى ذوى الاقبال، والعظمة والإجلال، الأمير قانصوه، والأمير محمد بيك، وصحبهم من العساكر المنصورة ما يسد عين الشمس فى كبد السماء ولم يبق بمصر إلا نفل كشيخ هرم أو طفل أو نحو ذلك، بالعاديات ضبحاً والموريات قدحا، والبنادق والمكاحل، وأثاروا من دخان البارود وسنابك الخيل نقعاً صير النهار كظلمة الليل، ما بين فارس وراجل ومبندق ونابل، [٨٣] وذلك غير ما صحبهم من مشايخ العربان، من ساير البلدان، وضيقوا عليهم المطالب، وسائر المآرب، وأحرموهم لذيذ المطاعم والمشارب يحطم كل منهم صم الجنادل والجبال، عددهم ما ينوف عن عدد الحصى والرمال من كل خواض للغمرات، نهاض بالغرمات، رواض للحاجات على صواهل ينقلن الأطواد عن صهواتها، ويقذفن الزبد كالحمام من لهواتها، ويكتنفن طلايع النقع بكوكب غرة جبهاتها، ويعانقن بيض الصفاح بسود ذوائب صفحاتها، وطيور الهام تقصد من الأحداق أوكارها، والأوتار تطلب من الفتنة الباغية تارها، ويشعلن نارها والحديد قد سد على النبال المنافذ، والنصل تكسرت على النصل كانهن قنافذ، فتوجهوا إلى الريدانية بعزيمة قوية، وفخر العربان، قاهر ذوى الطغيان ذى الأصل الأصيل الأثير، الأمير على ابن الخبير، قد توجه إلى ناحية بولاق وجزيرة الفيل، [٨٤] تجاه العسكر الشريف فبينما هم مستعدون، وللحرب متأهبون، إذ بلغهم أن الطايفة المخذولة المأسورة،

---

(١) ١٢ فبراير ١٦٠٩ م.

قد افترقوا ثلاث فرق ، وقصدوا أن يكبسوا على العساكر المنصورة فى تلك الليلة ، فقال الأمير يوسف أن من الرأى المتين، والقول الرصين أن يتوجه إلى خان النهار ، الذى هو ورا الطبخانة ليدخل فيه الضعيف والعاجز منا، وأما نحن فنبيت خارج الباب ، ونجعل أظهرنا إلى الخان ، فنكون محصنين ، حتى لا يأتون من ظهورنا ، فقدر الله تعالى الذى لا راد لأمره ، ولا مرد لحكمه ، أن فى تلك الليلة ثارت رياح عظيمة ، وبرق ورعد كنفخ الصور ، وأمطار غزيرة دامت إلى البكور ، ورفع لحضرة مولانا الوزير أدام الله تعالى أيامه أن الجند الأشقيا ، قد تجمعت بما انضم إليهم من اللفيف ، وأرادوا الهجوم على المدينةونهبها،وقتل أكابرها[٨٥]واستباحةأموالهم ، فوعظهم ثانيا،وحذرهم سطوة الخنكار أعز الله تعالى أنصاره ، وضاعف اقتداره ، فلم يمتثلوا ذلك ،ولم يزدادوا إلا تمردا وعصيانا وطغيانا ، وشقاوة ، فضاق صدره لذلك وجرح جرحاً شديداً ، واهتم لذلك جداً ، ودعى الله سبحانه وتعالى وفوّض أمره إليه ، وأن الأمر فى ذلك كله راجع لما يقتضيه ، وقد بالغ النبى صلى الله عليه وسلم فى التصريح به والنص عليه بقوله لعبد الله بن مسعود « ليقل همك ما قدر يأتيك ، وما لم يقدر لم يأتك ، واعلم أن الخلق لو جهدوا أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله عز وجل لك لم يقدروا على ذلك» ، « بقوله عليه الصلاة والسلام « ليقل همك أمر بالتفويض » ، وقوله « ما قدر يأتك » ، بيان العلة ، التى من أجلها فوض العقلاء ، وسلموا إلى الله عز وجل ، ونحو ذلك كما روى فى مسند مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأبى هريرة . [٨٦] فى كلام قاله له « فان أصابك شىء فلا تقل ، لو فعلت كذا كان كذا كذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فان « لو » تفتح عمل الشيطان ، فدله على التفويض إلى الله ، والتسليم لأمر الله ، ونهى عن قول « لو » لما كانت تنافى التفويض إلى الله ، وتقتضى الاعتراض على قدرته ، والتوطى لدفع مشيئته ، قيل كان الحجاج ابن يوسف الثقفى إذا تعارضت أراؤه فى خطب من الخطوب .

أنشد :

دعها سماوية تجرى على قدر لا تفسدها برأى منك منكوس .

هذا وقد عدوا أيام الحجاج من الفتن العظام على ما ذكره إمام المحدثين ، سلطان العلما المجتهدين الشيخ جلال الدين بن المرحوم كمال الدين السيوطى الشافعى فى كتابه تاريخ الخلفا ، قال قال ابن أبى حاتم فى تفسيره ، حدثنا يحيى ابن عبدك القزوينى ، حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا [٨٧] المبارك بن فضالة عن على بن زيد عن عبد الرحمن بن أبى بكر عن العريان بن الهيثم عن عبد الله ابن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهما ، قال ما كان منذ كانت الدنيا رأسماية سنة إلا كان عند رأس المابة الأولى أمر قلت كان عند رأس المـاية فى هذه الملة فتنة الحجاج ، وما أدراك ما الحجاج ، وفى المـائة الثانية فتنة المأمون وحروبه مع أخيه ، حتى درست محاسن بغداد ، وباد أهلها ، ثم اقتل أخاه أشر قتله ثم امتحانه الناس بخلق القرآن ، وهى أعظم الفتن فى هذه الأمة . وأولها بالنسبة إلى الدعا إلى البدعة ، ولم يدع خليفة قبله إلى شىء من البدع ، وفى المائة الثالثة ، خروج القرمطى ، وناهيك به ثم فتنة المقتدر ، ولما خلع وبويع لابن المعتز ، وأعيد المقتدر ثانى يوم ، وذبح القاضى وخلقا من العلما ، ولم يقتل قاضى مثله فى الإسلام . ثم فتنه تفرق الـكلمة ، وتغلب المتغلبين على [٨٨] البلاد واستمر ذلك إلى الآن ، ومن جملة ذلك ابتداء دولة العبيدية ، وناهيك بهم إفساداً وكفراً وقتلا للعلما والصلحا ، وفى المائـة الرابعة كانت فتنة الحاكم بأمر أبليس لا بأمر الله ، وناهيك بما فعل ، وفى المائة الخامسة أخذ الفرنج الشام وبيت المقدس ، وفى المائة السادسة كان الغلا الذى لم يسمع بمثله منذ زمن يوسف عليه السلام ، وكان ابتدا أمر التتار وفى المائة السابعة كانت فتنة العظمى التى أسالت من دماء أهل الإسلام بحاراً ، وفى الثامنة كانت تمرلنك التى استصغرت بالنسبة إلى فتنة التتار على عظمها ، قال الشيخ رحمه الله تعالى ، وأنا أسأل الله أن يقبضنا

إلى رحمتـــه ، قبل وقوع الفتنة التاسعة ، وأنا أقول أيضاً وأسأل الله سبحانه وتعالى ، وأتوسل إليه بنبيه صلى الله عليه وسلم أن يقبضنا إلى رحمته وغفرانه قبل وقوع الفتنه العاشرة ، فتأسى بذلك [٨٩] مولانا صاحب السعادة ، وقام فى تلك الليلة ، فأحياها بالصلاة والقراءة والدعا ودموعه تجرى على خده ، كما أخبر عنه بعض الثقاة تواضعاً وابتهالا لله سبحانه وتعالى ، وأخذ المصحف الشريف وقبله ، وفتحه ليأخذ منه فألا مباركا ، فصادف قوله تعالى « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم»[1] الآية ، فحصل له بذلك سروراً عظيما ، وسرى عنه ما كان به وأخذ فى إجهار الندا فى تلك الليلة أنه من كان طايعا للسلطنة الشريفة فليخرج فى بقية ليلته ويبيت فى الطبخاناه عند العسكر الذى هو مقيم بها ، فتوجه الجمع الكبير من الجاووشية وغيرهم إلى الطبخاناه ثم أثناء تلك الليلة خرج الأمير مصطفى السردار المشار إليه ، ومن معه من العساكر السلطانية وهو فى موكب عظيم زايد الانبهار لا يعد ولا يحصى إلى الطبخاناه المذكورة ، ظاهر القاهرة يوم الجمعة من الشهر المذكـور ، وأمامه عشرة مدافع [٩٠] وضربزانات كبار هايلة زايدة الاعتبار ، والعساكر محدقة به من كل جانب ، وهم غارقون فى الأسلحة وآلات الحرب كما شرح ذلك ، ومعه ساير أمراء الألوية الشريفة ، وأمراء البلوكات الثلاث ، والألوية السلطانية منشورة على رءوسهم ، والنوبة الخنكارية والطبول والزمور ، وكان يوم خروجه يوماً مشهوداً ، ولم يعهد مثله فى العظمة والأبهة ، وجميع أهالى مصر قد ملوا الحوانيت والشوارع ، مزدحمين بعضهم على بعض لمشاهدة ذلك الجمع العظيم والعسكر الفخيم ، وكل منهم مبتهل بالدعاء للحضرات الشريفة بالنصر والتأييد ، وأن الله سبحانه وتعالى يخذل هذه الطايفة ويعاملهم بالنكال الشديد ، وتوجه إلى الريدانية ، وخيم بظاهرها فلما سمع الأمير يوسف ، ومن معه من العساكر

---

(١) سورة التوبة ، آية ١٤ .

حسّ صهيل الخيل وحركات العسكر وهيجانهم فى بعضهم ، ظنوا أنهم قد كبسوا ، فأرموا البنادق [٩١] عليهم وهم لا يعرفونهم ، وقد حصل الرعب فى قلوب الفريقين ، ولولا أن لطف الله تعالى بالمسلمين ، وبعساكر الإسلام لقتل فى تلك الليلة من الطايفتين ما لا يعد كثرة ، ولكن الله تعالى سلم بسماع أصواتهم فمسك كل منهم يده ، واجتمعوا فى محالهم ، وتولى الحرس فى تلك الليلة الامرآ الصناجق التى بالريدانية إلى الصباح ، وقد نودى ثانى يوم خروج السردار أن جميع السوقة والمتسبين والخبازين والزياتين ، وأرباب البضايع والقهوجية أن يتوجهوا ببضايعهم ، ويبيعوا ، على العساكر المنصور ، ويسيرون معهم حيث ساروا فامتثلوا ذلك وخرجوا بجميع بضايعهم إلى حيث العسكر المذكور ، هذا وقد ورد ساير أكابر مشايخ العربان حتى العصاة المؤمّنين من حضرة الوزير ، وكان فى السابق أرسل إليهم وأمّنهم ، وحلفهم ، واستتوبهم عما كانوا يفعلونه من سلب المسلمين ، وألبس مشايخهم [٩٢] خلعاً عظيمة ، وقد ربطوا الطرقات من جهاتها الأربع ، وهم كالجراد المنتشر ، فلما رأت الطايفة الشقية هول ذلك الجمع العظيم ، وهم قد سدوا الآفاق ، وفزعوا وتحيروا وارتعبوا وارتعدوا ، وأخذوا فى الحيرة والإنبهار ، وعميت منهم الأبصار ، وانحل برمهم ، وهبطت[1] قواهم ، وحاروا وخاروا ، كما تخور الأثوار ، وصاروا ولهانين حيارى ، دهشانين سكارى ، وتيقنوا أنهم مأخذون لا محالة ، وإنما يشجعون أنفسهم ويتعللون بالمحالة ، فخيب الله سبحانه وتعالى ظنهم وشتت جمعهم ، والعسكر المنصور يحاولهم ويجاولهم ، وقلت :

ولازموهم ثم طافوا بهم — وأحدقوا كالسيف لا كالسوار
وانهزم الأعداء إذا بصروا — بحر وغى تغرق فيه البحار
وعذرهم إذ هربوا واضح — هل يثبت الليل أمام [٩٣] النهار

---

(١) فى الأصل « هبط » .

وقلت :

ولما أبى الأعداء إلا تمـــرداً　　أبى الله إلا أن يكون لنا النصر
فكم زجرتهم من سلطان[1] مواعظ　　فما نفع الوعظ المنية والزجر
أبى الله إلا أن يكـــونوا أذلة　　ففروا وشتان المذلة والفـــر

وفى أثنائه توجه حضرة السردار إلى أن نزل فى ساحة بركة الحاج الشريف تجاه الطايفة المخذولة ، وكانوا قد انتقلوا من مكانهم الأول ونزلوا خلف البركة من ذلك الجانب ، وقد تحصن كل من الطايفتين والأشقياء على ماهم عليه ، من الرعب والخوف ، فأرسل إليهم السردار يقول لهم إن البلا واقع بكم لامحالة وقد رأيتم ما رأيتم من هول العسكر وقوتهم ، ولو كنتم أمثالهم أو أمثال أمثالهم لم تقاوموهم [٩٣] لأنكم باغون خاينون ، ناكثون العهود والمواثيق ولعلكم أن تسمعوا وتطيعوا ، وتنزجروا وتتوبوا إلى الله سبحانه وتعالى وتقلعوا عما أنتم عليه ، فإنى والله ناصح لكم ، وأنتم شرذمة قليلة ضعيفة بالنسبة إلى قوتنا وكثرتنا وتعرفوا أيضاً عاقبة الظلم والبغض ، وماضربناه لكم من الأمثال ، فلما سمعوا ذلك أجابوا تشجعاً لاشجاعة ، إن أردتم رجوعنا عن قتالكم ومحاربتكم فيكون ذلك بإحدى شيئين ، إما بالخدم القديمة وهى الثمانية عشر خدمة المذكورة، أو القتال بيننا وبينكم ، وأبى السردار ، وأقدم بمن معه من العساكر إلى قتالهم والتنكيل بهم، بل وقتل منهم طايفة ، فلما نظروا إلى تلك العساكر المصرية وما معهم من العدد والأسلحة والبندق والنار ، ونظروا إلى تلك المدافع الكبار المقدمة نحوهم ، وإلى كثرة العربان ، وقد صاروا بينهم كالكرة فى البسيطة ، وأنهم مأخوذون لامحالة حاروا [٩٥] ودهشوا ، وصار البندق يتساقط من أيديهم من الدهش ، واصفرت ألوانهم واحتالت أكوانهم ورغمت أنوفهم ،

---

(١) فى الأصل « سلطانا » .

وفلت صفوفهم ، وقرعوا باب الصلح وتعلقوا بأسبابه ، وأرسلوا إلى حضرة السردار يطلبون منه أن يأخذ لهم من حضرة مولانا الوزير المعظم محمد باشا ، أعطاه الله تعالى من العظمة والإقبال ماشأنه الأمان ، وأنهم تائبون إلى الله سبحانه وتعالى من جميع ماصدر منهم ، وأن يشفع لهم عنده فى الصفح عنهم ، ويعاملهم بمافيه العفو عن جرائمهم ، وأن تذهب كل طايفة منهـــم إلى محلها ، فأجاب سؤالهم وجهز مولانا السردار المشار إليه فخر الأكابر الأمير مصطفى كتخدا جاوشيان المشار إليه ، لحضرة مولانا الوزير لعرض ماطلبوه وسألوا فيه ، كان جوابه الشريف هيهات ، هيهات ، كان هذا من الأول ، وأما الآن فلايمكن ذلك إلابشرط أن يقبضوا على جميع من كان سبباً لهذه الفتنة ويحضرونهم [٩٩] إلى الديوان الشريف ،وإلا فما هناك إلاالسيف ، فعاد الكتخدا من ليلته وأخبر حضرة السردار بذلك ، فلما دعا داعى الصباح ونادى المنادى حى على الفلاح ، وجرد الفجر صارمه الأبيض ، ولبس الصبح المشرق نوره المبيض ، وانهزم جيش الظلام وانتشر فى بياض الصبح الرايات والأعلام ، وكبت كماة المصاع ، وحماة الصراع ، ورماة الحـــدق من كل سرحان لاينظر إلا من جلد أرقم ، وشيطان لايقتحم من نيران الحرب إلاجهنم ، وهم ثايرون للهيجاء ، غارقون فى دأماءالدماء ، مثابرون على اللقا ، وبرزوا بمامعهم من المدافع والبنادق ، وأكثروا من رفع الألوية والبوارق ، وزلزلوا الأرض والرمال ، ونسفوا التـــلال والجبال ، وأشعلوا نار الحرب وأقدموا على الطعن والضرب ممايصم الأذان بأصوات إذا أطلقت كالصواعق تهلك بالصعق وكصيب من السماء فيه ظلمات ورعد [٩٧] ذلك فلما استوثقوا بالأمان صاروا يأتون أفواجاً ، خاضعون ذليلون يقبلون أقدام مولانا السردار ، ومن معه من الأمراء ذوى الاقتدار وقد صار كل واحد منهم يتوجـــه إلى بلوكه ويقف تحت سنجقه ، وهو فى فى غاية الذلة والخذلان ، وقد ضحك عليهم الشيطان حتى أحلهم محل البوار

والبهتان هذا وقد ظفر بعض العسكر السلطانى بطايفة من العزيكية[1] فقطعوا رءوسهم ووضعوا السيف فى رقابهم ، إلى أن لم يبق منهم أحد ، سوى ماتسحب منهم طريداً شريداً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وتوجه الأمير السردار بمن معه من العساكر المنصورة ، إلى الخانقاه السرياقوسية وجمع من هناك رءوس العسكر ، وقد اطمأن المسلمون بذلك وسروا سرورا عظيما ، وآمنت الرعايا ونامت البرايا ، فى أكناف ظلال السلطنة الشريفة ، ودعوا بدوام دولتها المنيفة لازالت ظلال عظمتها فى ساير الأقطار سايفة وريفة ، وجهز بخبر ذلك [٩٨] كله إلى حضرة مولانا الوزير المشير لذاته وهبه الله تعالى العزة والاقبـــال ، والهيبة والعظمة والاجلال ، فسر بذلك سرورا كبيراً ، وحمدالله سبحانه وتعالى وشكره شكراً غزيراً ، وازداد فرحا وغبطة وسروراً وانبساطاً وحبورا ، وأنعم بالخلع الفاخرة على أصحاب البشاير بذلك ، وكذلك على الأمير الكبير على بن الخبير ، والأمير محمد جلبى بيك وكل من حضر إليه مبشراً بحيث وصلت الخلع الشريفة إلى نيف وعشرين خلعة فاخرة فى يوم واحد خلا بقية الأيام ، وقدمت العساكر السلطانية الخنكارية والنصر يقدمهم ، والعز والسعد يخدمهم ودخل فخر الأمراء الكرام الأمير مصطفى كتخدا المشار إليه ، بعد ذلك ،وهو فى غاية العزة والعظمة وبين يديه ثلاثة رءوس وتسعة أنفار مثقلون بالحديد يساقون بين يديه فى وقت الضحى من ذلك اليوم ، ثم وصل حضرة السردار ، فى وقت العصر من ذلك اليوم والرءوس أمامه والبلوكات موضوعون فى الحديد مشاة [٩٩] قدامه ، وهم بالحالة المذكورة فى غاية الذلة والاهانة والحقارة والمهانة وكان يوم دخوله يوما شهوداً ، وأهالى مصر من كبير وصغير ، وغنى وفقير ، كل ذلك مسرورا ومحبورا ، رافعين أصواتهم بالدعا وحسن الثناء ، وطلع إلى القلعة الشريفة وأمراء الألوية بين يديه ، والسنجق الشريف مظلل عليه ، ومثل بين يدى مولانا الوزير ، وذكر له ماوقع من أول الحادثة وآخرها على وجه

(١) هكذا فى النص .

التمام ، فشكر الله تعالى الوزير على ما منحه من النصر التام ، وقطع رءوس طايفة كثيرة من الأشقيا فى ذلك اليوم فى ساعة واحدة ، وكان ذلك بمحضر من حضرة مولانا قاضى مصر جبار زاده وقت آذان العصر ، و بمحضر من فخر العلما عمدة الأماجد والفضلا أحمد أفندى باشا زاده ، وجماعة من الأكابر والأعيان ، ثم صار مولانا الوزير كلما يجاء اليه بأحد من الأشقياء يفعل به كذلك إلى أن استوفى فى يومه ذلك نيفا وأربعين نفراً سبكهم سبكا فى ساعة واحدة ، وذلك خلا ما كان [١٠٠] على الأرماح وهم عشرون رأساً وصار لا يغفل عن تتبعهم وكل من أتوا به إليه يفعل معه السياسة حتى خلت أراضى مصر من المعتدين ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، وقد عرف هذا الوزير الكريم نعمة الله سبحانه وتعالى عليه ، وتواتر فضله واحسانه لديه ، معترفاً بتتابع آلاء الله تاليا قوله سبحانه وتعالى «وما النصر إلا من عند الله»(١) متحققاً عجزه عن ذلك ، وعدم قدرته لولا نصرة مولاه عالما بعجزه وقصوره ، مفوضاً إلى جناب الحق غاية أموره ، قايلا بلسان حاله منشدا بصريح مقاله :

سلم إلى الله الأمـــور مفوضاً   فالعبد أحسن حالة التسليم

ومن خصايص هذا الوزير المشير ، حسن نظره إلى الرعايا ، ومعدلته للبرايا ، خصوصاً فلاحى البلاد والتلطف بهم على وجه السداد ، وإجرائهم على عوايدهم القديمة من عدم معارضة الملتزمين فى [١٠١] أطيانهم وزراعاتهم وآثارهم ، وعدم إخراج ذلك عمن بيده من الفلاحين والملتزمين إلا بحجة ماشية ، وسياسة الأمور ، وما فيه النفع للجمهور ، ومن خصائص هذا الوزير حسن نظره إلى أهالى الحرمين الشريفين ، وعدم معارضتهم فيما هو بأيديهم مع الزيادة منه أيضا ، والاحسان والتفضل عليهم وطلب الدعاء منهم ، ومواساتهم

---

(١) سورة الأنفال، آية ١٠ .

لـكونهم جيران الله سبحانه وتعالى، بواد غير ذى زرع، ونمو صرتهم ومابيدهم من بيت المال المعمور، ضاعف الله تعالى له الأجور، ومن خصائص هــذا الوزير أيضاً النظر فى أمر الزوايا والأضرحة والمساجد وزيارتها فى كل حين، وعمارة ماينبغى عمارته منها العمارة الحسنة المتقنة، وزيارة مقامات الأولياء والصالحين، والعلماء العاملين كمقام مولانا الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه، ومقام سيدى عقبة بن عامر الجهنى الصحابى، والليث بن سعد القلقشندى المصرى، ومقام ولى الله تعالى والعارف به سيدى فارس قطاه، وعمارة مقام ولى الله تعالى والعارف [١٠٢] به سيدى على أبو النور، واتقان عمارته جداً إلى أن صار كاحسن ما يكون، وكثير من المدارس والمساجد والزوايا، وغالباً من ماله الشريف ابتغاء لوجه الله تعالى، وطلباً لمزيد مرضاته، وعمارة القلعة المعمورة. العمارة الجيدة واقتلع مادرس منها وعمره عمارة متقنة، وأنشأ بها طباقاً عديدة وآثار حميدة، ومن خصائص هذا الوزير اعتقاده فى الصالحا والعلما والأولياء بالقرافتين الشريفتين، وطلب الدعا منهم والإحسان إليهم خصوصاً طايفة المجاذيب فان له ميل كلى من الدنو منهم والإحسان إليهم والتبرك بهم وجلوسه بين يديهم كأحدهم، وقد رأى ولده مؤلف هذه العجالة هو أحمد الرفاعى رؤيا عظيمة تدل على ذلك لا بأس بايرادها ونتيجتها صدق المقال إن شاء الله تعالى، وذلك فى الليلة المسفر صباحها عن يوم الثلاثا ثانى عشرين جمادى الثانى من شهور سنة ١٠١٨[1] رأى أنه كتب لحضرة مولانا [١٠٣] الوزير عرض حال بخط والده المذكور فى نصف الفرخ الرومى وكمل ما كتبه فى عرض الحال فى الهامش فبقى مقدار سطرين كتبهما على طرة القصة من فوق، ثم رفعها إلى حضرة الوزير المومى إلى ذاته الشريفة وكان جالساً[2] بالمشهد فأخذها الوزير منه وقرأها فأعجم عليه بعض حروفها لـكونها باللغة العربية، فقال للولد تقدم وادن منا فتقدم جداً إلى أن قرب منه وجعل يقرأها عليه حرفاً حرفاً وكذلك

(١) ٢٢ سبتمبر ١٦٠٩

(٢) فى الأصل « جالس ».

قرأ ما بهامشها ،ولم يقرأ ما على طرتها، فقال له حضرة مولانا الوزير، إقرأ هذا وأشار إليه فقرأه ، فلما انتهى من قراءته مد يده الشريفة فأخذها وكتب عليها بخطه الشريف ، فأقيمت الصلاة ، وهو عمّـال يكتب ، فلما سمع الإقامة وضع القلم بالدواة ، وقام إلى الصلاة ، ولم يكن الولد حـين ذاك متوض فذهب وتوضأ وأتى فوجد الصـلاة قد انتهت ، فصلى منفرداً وجاس الوزير نصره الله تعالى وأخذ فى اتمام الـكتابة على القصة ، وإذا بأربعة أشخاص من المجاذيب [١٠٤] المستغرقين جلوس على مايدة وضعت لمولانا الوزير فجلس الولد بينهم ، وقال لهم من أى حرفة أنتم فقالوا نحن من فقرا بردين ، فقـــال لهم أنتم من فقراينا فقالوا له من أنت فقـال لهم رفاعى ، فقالوا نعم أنتم ساداتنا ثم التفت كبيرهم وقال لحضرة الوزير نصره الله يا مولانا اقض حاجة هـذا فانه من ساداتنا ثم رفعت المايدة فجعل حضرة مولانا صاحب السعادة يتبسط معهم ويجاذبهم ويسألهم الدعا ، وهو جالس معهم بأدب وخضوع ، ثم وقف بعد ذلك عـلى أقدامه الشريفة ، وإذا بجانبه الأيمن كرسى وتحته قفطانين أحـــدهما بغدادى مضرب كلـكلى ، والآخر أخضر فأخذ القفطان الـكلـكلى فقال كبير المجاذيب تحياتى عليك نلبس هـذا فأفرغه عليه ، ثم عهد الى الأخضر وألبسه للثـانى وجلس وأخرج ختمه الشريف ووضع عليه شىء من الحبر ودفعه للولد وهو مشتبك بعقد حرير معه ، ودفع له القصة أيضاً ، وقال اختم عليها بيدك فلا تخالف ما كتبت [١٠٥] لك أخذ ، فختمها الولد ثم انتبه والقصة بيده فوجد المؤذن يؤذن لصلاة الصبح فتوضأ وصلى ، وهذا المقام يدل على تعلق قلب مولانا الوزير نصره الله تعالى بمحبته المجاذيب والاعتقاد فيهم ، وهو بموجب ذلك ملحوظ بلحظهم، ومن خصايص مولانا الوزير أيضاً ما وقع فى هذه الحـادثة الشنيعة فى زمنـه الشريف ودفعها بسياسته ووفور عقله ، وفراسته على أحسن حال وأتمه وأنجحه وأعمه، هذا وقد عجز عنها من تقدمه من الوزراء والبكلربكية عجزاً كلياً ،مع ما حصل لهم من الأمور المشروحة، وذلك لحسن نيته ومحبته للمجاذيب والفقرا ، وتصرفه

بعقله الوافر ورأيه الثاقب ، ونظره الصايب ، بلغه الله تعالى غاية المراد والمرام ببركة النبي عليه السلام ، ومن خصايص هذا الوزير المشير ، قطع جادرة أهل العناد ، والبغى والفساد ، أولياء الشيطان بمعونة الرحيم الرحمن ، فان ذلك لم يسطر نظيره فى ديوان ، وكف أكف الظلم عن الرعية ، ومافيه الأمن والانبساط للبريةومشى [١٠٦] الغنم مع الذياب لاتجسر الذياب عليها وكأنها الولد بين يديها من الحنو والشفقة اليها ، والناس آمنون فى ظلال السلطنة المنيفة فى زمن ايالته ووزارته الشريفة ، ومن خصايص هذا الوزير المشير إلقاء الرعب فى قلوب جميع الأعداء والمفسدين والفسقة المعتدين حتى أنه صار أكبرهم أصغرهم ، وأعزهم أذلهم وأمثلهم أحقرهم وصاروا هباء منثورا ، وأمرهم مبتورا ، ومن خصايص هـذا الوزير أن مصر صارت فى زمنه تحلا كالعروس بتالد من الحلل والتزين كثيرة الأرزاق نابتة الأغصان والاعراق نزهة للناظرين فى غاية الأمن والتوطين ، وقد دب فيها ماء الحياة بعد موتها سنين بسعادة هذا الوزير العظيم المشير ، وعلى كل الأحوال فى الحال والمآل ، فهذا الوزير المفخم ، والدستور المعظم ، عمر مصر بعد دثورها ، ودبر مصالحها وأمـورها ، وأذهب شرورها ، وأدام سرورها ، ودان له كبيرها وصغيرها ، ونظرت اليه بالمهابة الاحداق ، وخضعت له طوال [١٠٧] الأعناق خلد الله تعالى على التخت اليوسفى وزارته وايالته وأدام سعده وسيادته وسعادته ، وعمر به البلاد وأنعش به العباد ، ونصره على الأعـــدا والحساد ، بجاه سيد العباد وزين العباد آمين .

ومن الأمر العجيب المطرب الغريب أن حضرة مولانا الوزير نصره الله تعالى بعد هذه الواقعة بيسير ، أمر بقطع ما علا من الأرض بالأسواق والحوانيت ومساواتها ، فلما شرعوا فى ذلك مر شخص من الناس ، وقال لرفيقه ما هذا فقال إن حضرة مولانا الوزير أمر بقطع ما مشى عليه الجند المفسدين من الأرض ، فقال الفقير فى ذلك مؤرخاً :

فى وقعة الأجناد قد حارت قلوب وفكر
والحق عم لطفه على الوزير فانتصر
وقطع الأرض التى[1] مشوا عليها وعفر
وأبدل الله العلى بالصفا غث الكدر
قد جاء فى تاريخهم يقطع الله الأثر

سنة ١٠١٧ [١٠٨] ١٦٠٩ م

فى التاريخ حرف مشدد، والمشدد عندهم بحرفين فى اصطلاح الأوفاقية
وقال الشيخ على الملاح مؤرخاً .

أجناد مصر قد طغوا وبجهلهم قد باهوا
طلبوا بيغى طابة عنها نهانا الله
وخالفوا مايكهم وبخلفهم قد تاهوا
فأتى الوزير محمد بالنصر من مولاه
ليردهم عن غيهم فأبوا اتباع رضاه
وتجمعوا لقتاله أرخت هد بغاه

سنة ١٠١٧ هـ/١٦٠٩ م

ولكاتبه :

أتى جمع من الأجنا د جمعاً ذل لقياه
فكل منهم الشيطان بالتاريخ أعناه

سنة ١٠١٧/١٦٠٩ م

---

(١) كتب البيت فى الأصل :

« وقطع الأرض الذى مشوا عليها فى الأثر »

ثم شطب فى الأثر ، ولم يضع التصويب ، كما أنه استعمل الاسم الموصول « الذى » بدل التى
ولذا أثبتنا البيت كما جاء فى كشف الكربة، انظر كشف الكربة المطبعة المشار اليها ص ٣٧٤ .

وقلت مؤرخا :

قال لى صاحبي وقد ثارت ألفـ ساق للحرب طالبين النزالا
والذى قلت قلت أرخ فزالوا وكفى الله المؤمنين القتالا.
سنة ١٠١٧ / ١٦٠٩ م

وقلت : [١٠٩]

جاشت جيوش الترك يوم غرورهم يتضامرون على متون الضمر
أوردت أطراف الرماح صدورهم فولغن فى علق النجيع الأحمر
فهناك لم تر غـــير نجمه مقبل فى أثر عفريت رجيم مدبر
فمن الذى من جيشهم لم ينهزم ومن الذى من جمعهم لم يقهر
لا يعـــد منك المسلمون فـكم يدآ أوليتهم معروفا لم تنـكر
أمنت مصرهم وصنت حـــريمهم وزرأت عنهم قاصمات الاظهر
ما أن أراك الله إلا آمرا فيهم بمعروف و مُنكرٌ منـكر

وقلت :

ما رأينا فيما تقدم يوما كامل الحسن غاية فى البهاء
مثـــل يوم الأجناد جنى عليهم ذلة القهر والبلا والفنا [١١٠]
بعد جمع لهم عديد فصاروا بين ذل وحسرة وعنا
هكذا هـكذا هلاك الأعادى عند متن الاغارة الشعواء
فلقوا منهم بمـا كان فيهم من فساد بجهلهم وإعتـــداء
لا حمى الله شملهم من شتات بمواض تفوق حد المضاء
فجزا المفسدين قتل وأسر وجزا الشكور خير الجزاء
ولرب العباد حمـــد وشـكر دايم مع تواصل النعماء

وقال كاتبه أيضاً :

ان جس عوداً رأيت الخيل راقصة كأنها فى سماع هزها النغم
أو حركت يده اليمنى له وتراً على اعاديه غنى البـــوم والرخم
وساق كل عصاة المصر خاضعة [١١١]تمشى الهوينا وقد زلت بها القدم
فالخيل والليل والبيدا تعرفه والسيف والرمح والقرطاس والقلم .

وقال أيضاً :

أبى الله أن يموتوا أذلة وفروا وشتان المذلة والفر
وغرتهم الأحلام فى ساعة فـكا د يقرعهم خوفا إذا استيقظوا الفجر
طووا مكرهم تحت الضلوع خيانة لحاق بهم خبث الطوية والمكر
نبت بهم أوطانهم فتنكروا وحق الأوطان إلى أهلها النكر
لقد ركضت خيل المنايا فارجفت بهم ولهم فيمن بقى منهم ذكر

ومما قلته فى هذه الواقعة متمدحا لحضرة الوزير نصره الله وتعالى :

لك الحمد يا مولاى فى السر والجهر على قتلة الأجناد [١١٢]والعز والنصر
وتدبير مولانا الوزير ومن له أياد كموج البحر والنيل فى مصر
وزير عظيم الشأن ثاقب رأيه يجهز فى آن جيوشا من الفكر
يقوم بأعباء الوزارة قومة يشد جيوش الملك بالأيد والذكر
بكل جديد الطرف اسمران رما إلى جحفل أحاه بالنظر الشزر
ومن أبيض لا يعرف الصبح إنما يقاتلهم بالحد فى لبـــة النحر
فما اضطربت فى نحر قلب سيوفه ولا اختلجت أوداجه فى سوى صدر
فـكم حاز من أجر وأولى من الندا ويسر من عسر وأنقـذ من أسر
فيا حافظ الإسلام من طعن طاعن
يصيب ويخطى فى الحديث ولا يدرى [١١٣]
بأفق علاه قابعة الجبل ازدهت فهزت صباحا فوق قادمة النسر

وحفظ بلى ذات البروج به وقد … بدت فى حلاه الغر كالأنجم الزهر
حمى حوزة الإسلام بالباس والندا … وجهز جيش النصر فى العسر واليسر
أياد له بالباس كاسرة العـــدا … ولـكنها بالجود جابرة الـكسر
محمد مولانا الوزير عزيزنا … ألم تره فى مصر أحكامه تجـرى
حمى أرض مصر من طغاة أذلة … ومهـــد جيشاً قد تمزق بالشر
وشتت شمل الأشقيا وردهم … مثال قرود فى البلاد من الذعر
وقطع رءوسا من كبار رءوسهم … لهم باطن السرحان والطير كالقبر
وكأن عصى موسى تلقف كلما … بدا من صنيع الأشقيا[١١٤] من البحر
منـكسة أعلامهم ورءوسهم … فلا غرو أن يبنى الجبع على الـكسر
وأبديت فى فن الحروب معانى الـ … تشريع برد العجز منهم على الصدر
خدمت سجاياه العلا بعجالة … بديعة لفظ نخبـة الدهر والعمر
ومن بحرب العجاج صغت قصيدة … كميت لفحول الشعر فى خلفها تجرى
وجهزتها فيه إليه هـــدية … ومن عجب أن يهدى الدر للبحر
يلف حياء وجهها طيب نشرها … فتجلو طباق الحسن فى اللف والنشر
نخذها عروسا من سميك وهو من … ذوى سعد فى أرض البرلس فى الذكر
وفى النفس حاجات وفيكم مكارم … يناجيك عن أسرارها عالم السر[١١٥]
فقـــير ومن أهل العيال وماله … وحرمته رب درهم قط فى مصر
ومن نيلك الفياض يرجو مكارما … فنيل أياديـكم تجل عن الحصر
وعش وأبق واسلم وأغن وأغنم وجـد وسد
ودم وأرق وأسعد فى هناء مدى العمر
ونل فوق هام الأنجم الغر رفعة … لتروى حديث الجود منك عن الزهر
ويارب فاحرسه بجاه محمد … وأيده يا رباه من حادث الدهر
غـــزا بحمد جاه تاريخ وقعها … وانشاها والنظم يا ملك العصر
سنة ١٠١٧/١٦٠٩

والحمد لله أولا وأخرا ، وباطنا وظاهراً وحسبنا الله ونعم الوكيل .

29. Varille, op. eit., p. 65 ; aussi Drioton—Vandier, op. cit., p.

30. Vandier, Manuel d'archéologie II, p. 689 ; Varille, op. cit., p. 65—66 fig. 7.

31. Drioton—Vandier, op. cit., p. 385.

32. Weigall, Hist. de l'Egypte ancienne, p. 133.

33. Id., op. cit., p. 133 ; aussi Varille, op. cit., p. 65 — 74. C'est un décret relatif au personnel de la fondation funéraire d' Amenhotep (Brit. Mus. no. 138). l'origine du monument est inconnue ainsi que la date de son entreé au musée.

34. Habachi, CdE 29 (1954). p. 211—215.

35. Gaballa, BIFAO 71 (1972), p. 130 -137 : Sauneron, BIFAO 53 (1953), p. 57—63.

36. Habachi, op. cit. p. 219.

37. Gaballa, op. cit., p. 132.

38. Habachi, op. cit., p. 220.

39. Vercontter, op. cit., p. 88—91.

40. Posener, le Premiere domination Perse, p. 90 n. f.

41. Daumas, la civil. de l'Egypte pharaonique, p. 163, 606 ; aussi Gunn, The Instruction of Kagemni London 19:8.

42. Sethe, Imhotep der Asklepios der AEgypter (Unter. II), p. 4 ; aussi Gardiner, Egypt of Pharaohs, p. 73 ; Daumas, op. cit., p. 73 : Gilbert, l'histoire et la legènde d'Imhotep, dans Kon. Bel. Acad. 35 Brussel 1949, p. 200—202 ; J Turnuie, A statuette of Imhotep dans Record of the Art Mus. Princeton Univ. vol. XI no. 2 (1952), p. 25—28.

43. Lefebvre, op. cit., 41—70 , Wilson, dans ANET (1958), p 5 : Daumes; op. cit., p. 400.

et p. 285 n 40 et dans ASAE 55 (1958), p. 110 (13)=de Meulenaere, BIFAO 62 (19'4), p. 162 (18)=Herodotos, p. 61 n 54 = Daumas, BIFAO 56 (1957), p. 50 = Gardiner, JEA 24 (1938) p. 157-8 (1) = lefebvre, Essai sur la médecine, p. 19 = Otto, Die Die biogr. Inschr., p 127 (30) = Jonkheere, les medecine de l'Egypte, p. 32-33 (20) et p. 94 (20) = Michailidis, ASAE 43 (1943), p. 101-102 = Klasens, JEOL 10, p. 339-49.

12. Drioton-Vandier, l'Egypte, p. 601.

13. Posener; Dict. de la civil. Egypt. p. 161—161 ; Rowton, JEA 34 (1948), p. 57—74 ; Manetho, with an English translation by W.G. Waddell, London 1948 ; Helck, Untersuchungen zu Manetho und den agyptischen königslisten, Berlin 1953.

14. Posener, op. cit., P. 161 ; Mayani, les Hyksos et le monde de la Bible, p. 108.

15. Aldred, les Egyptiens, p. 9.

16. Id., op. cit., p. 10.

17. Posener, od. cit., p. 161.

18. Elgood, les Ptolemeés d,Egypte, p. 97.

19. Bresciani, Studi Classici e Orientali Vol. 16 (1967), p. 275—278 cité par de Menlenaere, le surnom Egyptien, p. 20 (64).

20. Vercontter, op. cit., p. 33.

21. Id., op. cit., p. 28.

22. Posener, litterature et Politique dans l'Egypte de la XII dynastie, p. 3. 16—19, 20 21, 33-36, 60-65, 76-80, 87, 96—108 115, 124-138, 145—157 : voir aussi Posener, RdE 8 (1951), p. 174 n. (1) ; Gardiner, JEA 1 (1914), p. 20 ; Golenis cheff, Pap. hieratiques 1116 B.

23. Lefebvre, Romains et contes Egxptiens, p. 91-94.

24. Habachi, Tell Basta, p. 9, 97, 100-103 112.

25. Gauthier, ASAE 28 (1928), p. 131.

26. Aldred, op. cit., p. 199.

27. A. Varille, Amenhotep fils de Hapou, dans Bibl. d'Etude 44 (1968), p. 125-142 ; aussi Aldred, op. cit., p. 203.

28. Drioton-Vandier, l'Egypte, p. 342.

10 Voir Id., op. cit; p. 228-230=(a) Statue Caire CG. 679= Borchardt, Stat. und Statuett. III p. 23 — 24 = Gauthier, ASAE 22 (1922), p. 92—93=Jelinkova, op cit. p. III (c)=PM, IV, p. 47 (b) Statue Caire JE. 34043=Gauthier, op. cit., p 88=Jelinkova, op. cit., p III (d) - PM, IV, p. 47 (c); (c) Statue Caire JE. 34044— Gauthier, op. cit, p. 89 = Jelinkova, op cit., p III (e) =PM, IV, p 47 (e); (d) Statue Caire JE. 34015 = Gauthier, op. cit., p 90 = Jelinkova, op. cit., p III (f) = PM, IV, p 47 (c): (e) Statue Caire sans no=Gauthier, op. cit, p 90; (f) Fragment de sarcophage Caire = Gauthier, op cit, p. 84-85 = Jelinkova, op. cit., p 112 (m,n) = Mariette, Mon. divers, p. 30 pl. 106 D= Brugsch, Dict. geogr, p. 1288 = PM, IV, p. 47-48; (g) Statue Coll priveé à londres = Gauthier, op cit, p. 93-94 = Sharpe, Egyp. Inscr. 11, pl. 65 = Jelinkova, op cit., p III (a) = PM, IV, p 47 (d): (h) Statue louvre A 91 = Gauthier, op. cit., 95= Jelinkova, op. cit., p. III (j)=PM, IV, p 47 (e); (i) Fragment de naophore sans no au Caire = Gauthier, op. cit., p 93 (3) = Jelinkova, op. cit., p. III (i) = PM, IV, p. 47 (f); (j) Statue Caire CG. 677 = Borchardt, op. cit, p. 22-23 = Gauthier, op. cit, p. 91-92 = Jelinkova, op. cit; p. III (g) = PM. IV, p 5; (k) Statue Brit. Mus. 818 (III) = Gauthier, op. cit, p. 86-88= Jelinkova, op cit, p. III (b) = PM, IV, p. 6; (L) Statue de Bologne 1820=Kminek-Szedlo, Cat. Mus Civ. Bologna,; p. 154-155=Jelinkova, op. cit., p. 112 (1); (m) Statue Florence 1522 (5420) = Schiaparelli, Mus. Firenze, p. 222-223 = Jelinkova, op cit, p. III k.

Malheureusement les documents ci-dessus ne portent aucune indication quant à la date; Gauthier propose le règne d'Apries (op. cit, p 8) voir aussi Jelinkova, op cit, p. III (15).

11. Posener, la Premiere domination Perse, p. 2-26; ajouter Botti-Romanelli, le Sculture del Museo Gregoriano, p 32-39, pl. 27-32 (40) = R. El-Sayed, op. cit., p. 235-233 (15)=Tulli, Misc. Gregor., p. 211-280 = Jelinkova, ASAE 54 (1957), p. 252 n 2

Un autre personnage eut un role important dans le Delta et à l'étranger mais là aussi il est impossible de retrouver une biographie authentique nous voulons évoquer le très célébre Sinouhé qui vécut dans l'entourage d'Amenemhat I sous la XII dynastie (2000—1970) pourquoi s'enfuit-il en terre étrangère et y resta-t-il longtemps en exil ? pourquoi sa vie fut-elle romancée et adapteé pour être raconté au peuple comme une belle histoire ? pourquoi put-il se fixer dans une tribu bedouine dont il devint le chef-on a beaucoup èpilogué sur cette belle vie aventureuse qui se termine si bien puisq'il revient mourir en paix dans sa terre natale. (43)

S'il plait à Dieu nous comptons évoquer dans un prochain article les vies célèbres des hommes de Moyenne Egypte et de Hauté Egypte.

Notes

1. Nous projetons de ne pas nous limiter au Delta et de continuer ultérieurement cette recherche pour la moyenne et la Haute Egypte.

2. Voir de Meulenaere, BIFAO 60 (1960), p. 117-119, pl. 12 ; voir aussi R. El Sayed, Documents relatifs à Sais, p. 239-240.

3. Borchardt, Stat-und Statuett III, p 10-11 Jelinkova, ASAE 55 (1958), p 116-117 (37-39=R. El Sayed, op cit. p 238-239 (18) = PM IV, p 47 (c).

4. R. El-Sayed, op cit, p 145-152 pl. 24-26.

5. Id., op. cit, p 153-159, pl. 27-29.

6 Vercoutter. Textes biographiques du Serapeum de Memphis, p. 105-108 pl. 16.

7. Vercoutter, op cit., p 33.

8 Ranke, MDIAK 12 (1943), p. 112-133 pl. 24-25 = R. El-Sayed, op. cit, p. 255-256.

9. Ranke, op. cit., p. 114.

lieu d'origine des gens célébres, en la circonstance les gens qui sont originaires de Delta. Pour beaucoup d'autres célébrités dont on retronve une trace du leur vivant ou après leur mort en Basse Egypte, le doute subsiste sur le lieu d'origine—pour d'autres encore le culte qu'ils reçurent peu de temps après leur mort ou plusieurs siecles après voilent en partie les actions authentiques de ces héros, c'est pourquoi, toutes restrictions faites nous citerons — parce qu'ils ont oeuvré, ou ont laissé leur trace dans le Delta :

Kagemni, (41) vizir de l'Anien Empire dont le souvenir est conservé â Saqqara grâce à une chapelle et aux stêles près de son mastaba.

Toujours à saqqara on ne peut omettre de citer le plus célèbre bien sûr, il s'agit du sage Imhotep (42) architecte de Djeser (III dynastie) vers 2800 avant J C. auquel on attribue les admirables constructions de pierres qui subsistent toujours sur le plateau et auxquelles l'aichitecte modrene lauer a redonné son éclat-On-ne sait rien sur sa vie et peu sur son oeuvre mais les nombreuses statues de bronze le représentant sont resteés el le sage est là, assis, déroulant les rouleaux de papyrus s'il fut sage, il l'est devenu plus encore dans la tradition, plusieurs millenaires aprés, à l'époque persane et ptolémaique, non seulement un sage, un architecte de génie sachant utiliser la pierre qui dure au lieu du bois ou de la terre, un médecin dont les guérisons sont connues partout, Imouthes fait des méracles non suelement dans l'Asklepeion des Crecs à Saqqarah, dans sa chapelle devenue sonatorium, mais dans divers temples à karnak, à Deir el Bahari, a Deir el Medineh, à Philae dans une chapelle commandeé par un Ptolemée.

Imouthes est un dieu, la ferveur populaire lui rend un culte. On retrouve pour Imhotep une tradition populaire sembleble à celle que nous avons evoqueé pour Amenhotep.

naissons par une stele du Serapeum ([39]) sur la quelle on peut lire ses titres et connaitre sa famille :

"Père divin et connu du roi, directeur des châteaux de Nt, prêtre Oun-ro, Hery Pe, khnemibrê" mais aussi "feâl auprés de Ptah-Sokaris-Osiris et de Apis-Atoum Horus de Sepa" le souci de dévotion de l'Horus de Sepa, ville proche de Tourah permet de penser qu'il était originaire de la ville ou de ses environs.

Ensuite le fils de Psammetique-sa-neith, notre khnemibrê, entreprend de citer ses proches sans doute pour leur permettre de rester sous la protection du divin taureau et c'est ainsi que nous connaissons :

— Son père, prêtre-lecteur-son grand-père Henat-sa mère la dame setairêtbenet-son fils aîné également père divin, connu du roi, directeur des châteaux de Nt, prêtre Oun-ro, Hery-Pe (son nom) est Oudjaharresné;-Sa femme Oudjatemhat.

Son frêre Henat qui a les mêmes titres que lui, deux autres frères dont il ne donne pas les titres (Psammetique-sa-neith et Amasis-sa-neith) sa soeur (Setairet-benet).

La généalogie est compliquée du fait de la similitude des noms des personnages qui, selon une coutume toujours observée et aujourd'hui encore portent par dévotion, le nom d'un des membres de la famille, qui le précéde. C'est pourquoi on avait admis que deux khnemibrê n'etaient qu'un même personnage alors qu'il s'agit sans doute de deux personnages apparentes ([40]) de la même région (Tourah).

Il serait possiblê d'allonger cette liste de célébrités mais rappellons que notr point de vue a été ici de prêter attention au

une bonne partie de son activité dans cette ville. C'est là, d'ailleurs, qu'il epousa Taterkeia originaire de la ville—Mais, comme beaucoup de fonctionnaires de l'époque ramesside, May parcourt l'Egypte du Nord au Sud, chargé par son maître de divers travaux à Memphis, à Thebes et l'on trouve sa trace jusqu'à Assouan ([36]).

Des stèles parlent d "un chef des travaux, commandant des troupes dans tous les monuments de sa Majesté dans le temple de Rê, Hay J.V." et encore "d'un chef des travaux, comman dant de troupes dans le monument appelé Brillant-est-Ramsès Meiamon, dans la Maison du Prince, May, a trouvé une place dans le temple de Rê" ([37]). Il ne faut pas se méprendre sur ce titre de chef des troupes et comme le dit Habachi, ([38]) il ne faut pas y voir une fonction militaire à proprement parlar, même si May avait des soldats sous ses ordres.

Assouan, encore aujourd 'hui nous semble loin d'Heliopolis, on peut envisager combien de temps il était necéssaire, sous Ramses II pour qu'un groupe important d'ouvriers puisse travailler dans les carrierès d'Assouan et revenir avec son chargement de pierres sur les grandes felouques du Nil. la sécurité de tous demand ait des soldats et tout ce monde était sous la responsabilité de May.

Tourah

Khnemibrê de même que May ne fut peut-être pas une étoile de premierè grandeur mais il eut la chance d'appartenir à une famille fort importante par plusieurs de ses membres et il put suivre le chemin tont tracé' dans l'honorabilité. Il vécut à la fin de l'époque saite ou sous la 1ere domination perse et nous le con-

l'hérésie amarnienne il semble que le Sage Amenhotep ait joué un rôle en considérant comme "impurs" les partisans d'Aton et en conseillant au roi de debarasser d'eux le pays (32). Il mourut au début de la 31 ou de la 35e anneé du règne d'Amenophis III vers 137 avant J.C. et le pharaon lui aurait fait construire une chapelle mortuaire dont les ruines subsistent et pour conjurer les violations de ce sanctuaire le roi y fit inscrire une terrible malédiction contre les mal intentionnés (33).

Son temple reste honoré, son souvenir reste si vif qu'à l'époque ptolémaique, à l'exemple d'Imhotep, on le divinise, il devient dieu guérisseur, on lui attribue des miracles, on installe son sanatorium dans une des chapelles de Deir el Bahari.

Héliopolis

La célébrité de *May* n'est peut être pas aussi brillante que celle des personnages précédents, du moins à notre point de vue mais la vie de May ne manque pas de relief. Il fut un des grands serviteurs de sa Majesté Ramses II Nous le savons par deux inscriptions de Guizeh car au Nord et à l'Ouest de la pyramide de chephren (34), sur la paroi rocheuse entailleé verticalement, il est question du "chef des travaux May . . . dans le temple de Rè" "un chef des travaux May . . . dans l'edifice Brillant-est-Ramses-Meiamoun, dans le Grand-château du-Prince, May, fils du chef des travaux Baken amon J.V." (35)

Pourquoi ces inscriptions à Guizeh du chef des travaux May qui travailla pour les châteaux de Ramsès à Heliopolis ? c'est qui May, originaire d'Héliopolis était chargé de prendre des revêtements de la pyramide de chephren pour construire un ou plusieurs temples au nom de Ramses à Heliopolis. Il semble avoir consacré

pour le dicu invisible qui l'inspire (Caire CG. 42127). Mais soit que ce poste militaire n'ait pas suffi à son activité, soit plutôt qu'on appréciât son esprit d'organisation et son génie naissant d'architecte, voici qu'il devient celui qui déplaçait des montagne, de quartzite pour construire des monuments colossaux a la gloire de son roi. Sa gloire est, pour les générations qui suivirent, surtout né de son génie d'architecte et en même temps c'est vizir d'Amenophis III. le roi qui appréciait fort les talents d'Amenhotep lui confiâ la construction "d'un somptueux palais non loin de la Vallée des Reines, dans le désrt occidental de Thèbes . . . . le temple funéraire aujourd'hui disparu était le plus vaste de monu-ments analogues ; il ètait précédé des col sses majèstreux qui dominent aujourd'hui encore la fertile plaine de Thèbes (colosses de Memnon). A louxor, le roi evait fait élever sur les plans d' Amenhotep un temple dont on peut encore admirer l'élégance harmonieuse" ([28]).

' Fouillé par Varille et Robichon en 1936 les dimensions inusiteês du temple funeraire prouvent le rôle de 1er plan joué dans l'histoire de l'Egypte par Amenhotep" ([29]).

C'est pourquoi sous doute, il lui fut accordé un honneur sans précédent : un peu en retrait du remple d'Amenophis III le roi lui accorda de construire son propre temple funéraire, de son vivant ([30].) Mais outre ce talènt indiscutable d'architecte on a prêté plus encore à Amenhotep : ce fut un sage à qui on a pu attribuer un Enseignement qui ne nous est pas parvenu. Mais l'expession de concentration intérieure, de gravité, qui caracterise ses statues permettent d'accepter volontiers l'idée qu'il fut un sage. Certains disent un inspiré qui rendait des oracles et faisait des propheties ?. Ses avis en tous cas étaient respectés puis qu'il était charge de la question des biens de la reine Tiy ([31]). Au moment de

(d) des deux célébres fils royaux de Kush *Hori I, Hori II* sont originiares de Boubastis également et y furent enterés. (24) le père vivait sous Setnakht et Ramses III, le fils sous Ramses III et Ramses IV leurs tombes furent déconvertes au Nord du Grand temple de Tell Basta, la 2eme (celle d Hori II) en 1925.

Auparavant on avait trouvé dans le même site un sarcophage de granit rouge sur le couvèrcle duquel on peut lire (25) :

"L'Osiris fils royal de Kouch, prêposé aux pays étrangers du Sud, flabelliferè à la droite du roi, scribe royal, Hori, jus ifié, fils du fils royal de Kouch, Hori, justifié".

On sait que sous le Nouvel Empire cette charge de vice-roi avait été creeé (26) d'une impotance peut être encore plus grande que celle des vizirs. le vice-roi représentait le pharaon dans une égion s'etendant d' El Kab à Napata. Il récevait le sceau royal la charge sans doute devint rapidement heréditaire; ce qui semble le cas ici.

(d) La ville d'Athribis (Banha) a donré naissance à un des plus célèbres personnages : *Amenhotep fils de Hapou* (ou Amenophis) qui a vécu au temps d'Amenophis III et est né, pense-t-on d'une famille modeste puisq il n'est pas fait mention des titres de ses parents sur les statues du fils. Sans doute fut-il d'abord un scribe dont l'intelligance lui permit de degré en degré d'atteindre aux plus hautes fonctions. Il semble qu'on n'exigeait pas, comme on le fait à outrence aujourd hui des spécialisations pour les jeunes gens. Un scribe instruit pouvait dévenir un commis principal (27) aux armeés-puis avec un peu de persévérance et de chance scribe des recrues, poste qui occupa un moment Amenhotep et lui permettait d'affecter les jeunes soldats à l'un ou l'autré service. C'est dans cette fonction qu'une de ses statues le represente assis en tailleur, prêt à écrire sur le papyres et la tête penchée par respect

peut être ce roi qui lui commande d'oeuvre-du mains fut elle écrite sous son règne. Mais au lieu de composer directement le panégyrique en l'honneur du roi, l'auteur va utiliser un procédé litteraire qui n'etait pas neuf et consistait ici à mettre en scenê un roi ancien de la IV 'dynastie' Snefrou. Snefrou s'adresse à ses courtisans pour qu'on lui amêne un homme capable de le divertir par de "paroles et des phrases choisies" (23). le courtisans désignent un prêtre de Bastet 'enfant du nome héliopolite". Habilete de Neferti qui demande au roi "Veux-tu que je te parle du passé ou de l'avenir". le roi optant pour "l'avenir" le "voyant" va donc lui faire le tableau des 4 siecles écoulés représentant la fin de l'Ancien Empire et la 1ere période intermédiaire, des dernieres années de Pépi II jusque vers la fin de la XI dynastie avec les troubles et les invasions. Nefrti. expose "la vision" des Asiatiques dans le Delta, des Bédouins nomades avec leurs troupeaux partout en Egypte . . . des Egyptiens dépouillés de leurs richesses, des violences, des désordres, de la joie de vivre qui a disparu et même du Nil à sec, du soleil astre mort comme la lune . . . En réalité ces malheurs n'affectent pas le nome héliopolite et ils cesseront grâce à l'intervention d'un roi sauveur né dans l'extrême Sud de l'Egypte, appelé Ameny fondateur de la XII dynestie. Il retablira l'ordre dans le pays et construira le Mur du prince mettant l'Egypte à l'abri des invasions asiatiques (ils'agit d'Amenemhat I bien entendu).

En fait nous ne pouvons lire ce précieux document qui est perdu mais il subsiste par chance le manuscrit 1116 B de leningrad qui en est une adaptation, environ 5 siecles après à la XVIII dyna tie sous Thoutmosis III. On sait que le rouleau de papyrus en question fut "decouvert" par Golenischeff que en 1876 se vit confier ce rouleau trouvé dans une armoire du muséé, par le conservateurs de l'Ermitage.

de Sais m'a convié pour ériger le temple de sa mère Neith, en grès, parce que je suis sage de visage et efficace de mains, auprès de sa Majesté plus qu'aucun de mes pairs" . . . plus loin il répète que . . . "Sa Majesté (lui a demandé) d'achever les travaux dans le temple de Neith) dans la salle du silex".

La fonction d'architecte ne fut pas suffisante pour le personnage car la même statue le présente comme un homme de guerre et l'on comprend qu'il avait dans ces activités là besoin d'être ce efficace de ses mains". Il se targue donc d'être a chef de la cavalerie, chef à la porte des pays étrangers de libye, chef des pays étrangers de l'Asie. Sans doute dut-il donc parcourir le Delta de l'Ouest à l'Est.

(b) Un certain *Ouahibré-oun-nefer* était peut être originaire de Pharbaitos (Behbet el Haggar) ou des environs (20), mais le doute subsiste à ce sujet puisqu il porte des titres memphites, il est possible qu'il ait residé, au moins, à Hebyt. (21)

En tous cas ce haut fonctionnaire, contemporain d'Amasis "chancelier royal, connu du roi, père divin de Ptah" avait en l'honneur d'être choisi pour participer à l'entrrement de l'Apis et remettre les cadeaux au clegé d'Apis. C'est donc qu'il jouissait d'un grand renom et pour cette occasion solennelle il laissa, selon le coutume, une stèle érigée à cette intention dans les grands souterrains du Serapeum.

(c) Pour la ville de Boubastis nous avons par chance, un personnage célébre qui date d'un lointain passé. Il s'agit de *Neferti* et de ses Propheties (22), une des richesses de la littereture Egyptienne.

Ce Neferti était un prêtre rituel de Bastet à Boubastis et contemporain d'Amenemhat I qui fonda la XII dynestie. C'est

interpeté par leur auteurs ainsi Jules l'Africian cite 9 rois pour la XXII dynastie et Eusèbe 3, Manéthon ne donne pas leurs noms. De même pour la VII la XII, la XX dipastie.

Quoi qu'il en soit des erreurs possibles de Manéthon et des interprétations erronées de son oeuvre, lorsque, après les découvertes de Champillion les savants modernes durent inevitablement attaquer la question de l-ordre des roin, seul Manéthon leur permit un départ sur des bases vastes et solides, même si des discussions restent ouvertes.

Le Delta Oriental

(a) Les personnages élèbres brillent peut être d'un éclat aussi vif dans le Delta Oriental.

Si nous pensons que *Ouahibre-men* (surnommé ainsi) contemporain d'Amasis appartenait à une famille de Delta Oriental. C'est à cause du titre de son père Hori que était prêtre Aou-haou ; lui même eut ce titre, de même que sa mère Shepen-Soped, prêtresse Aou-haou. Mais par ailleurs, selon la Statue Caire 27/11/58/8 c'est à Sais que notre personnege concentra son activite. Sa Majesté du nome de Sais l'ayant convié dans la ville et de même que nous l'avons constaté pour certains, précédemment, les talents de ce Ouahibre, en fait Semtaou-Tefnakht étaient variés.

Fut-il en compétition avec Prammétique-sa-neith dans ses fonction d'artichecte ? Tous deux semblent contemporains et exercèrent à Sais. (19)

Semtaou-Tefnakht a beaucoup de respect pour lui même : en l'an 39, le 3 eme mois de la saison akhet sous la Majesté du Roi de Haute et Basse Egypte [khnemibrê] Sa Majeste du Nome

Basse Egypte, une pierre de de Palerme qui était peut être encore intacte à l'epoque. (16)

A l'aide de ces éléments Manéthon devait retrouver, mettre en ordre, les évènements qui, sur plusieurs millénaires, constitutaient l'histoire de son pays.

En faif son oeuvre est géniale et les grees et les romains purent connaître l'histoire complete et relativement authentique de l'Egypte. Après l'histoire des dieux et des demi—dieux, il divisa en 34 dynasties les familles royales en commencent par Ménès et en finissant par Alexandre le grand. De la Iere à la XI dynastie il comptait 2300 ans.
de la XII à la XIX 2121 ans.
de la XX ' à la mort de Darius 1050.

Cette histoire "Aegyptiaca" n'était pas la seule des ses oeuvres On lui prête d'ouvrages "divers manuels sur les doctrines religieuses, le rituel, les fêtes et même un traité de la fabrication de l'encens ; un exposé chronologique—le livre de Sothis — lui a été également attribué, surement à tort" (17).

Il fut peut-être poète et verse dans l'astrologie, ou dit qu "il dédia à Philadelphe une dissertation en hexamètres sur les corps célestes" (18).

Mais hélas peu nous est parveuu de tout cela !

En ce qui concerne l'essentiel pour nous : Aegyptiaca quelques extraits seulement furent préservés par l'historien juif Josèphe (aux environs de 70 après J C.) et un abrégé dans les travaux des chroniqueurs chrétiens Jules l'Africian vers 217 et Eusêbe vers 327 ainsi que dans Georges le Syncelle vers 800, abrégé plus ou moins

de Sarapés qui n'apparut pas aux Egyptiens comme une innovation malheureuse bien que Macrobe pétendre le contraire. Sarapis avait certains aspects égyptiens qui l'apparentent à Osiris et certains aspects héllénistiques l'apparentant à Dionysos ou à Asklépios (il fut comme lui dieu guerisseur) (14).

Toutefois ce n'est pas là que réside pour nous aujourd'lui l'imporance incomparable de Menéthon. Il suffit de consulter les livres des plus grands égyptelogues depuis Champollion avec les tableaux dynastiques pour être conscient du rôle de Menéthon. Comment concevoir une histoire pharaonique sans l'usage des dynesties instaureés par lui !.

Les Grecs se contentaient sans doute d'uliliser leur propre langue en s'installant, par la conquête, en Egypte mais les plus lettres des Egyptiens durent vite comprendre la necessité de s'axprimer en grec pour entrer en contact avec le vainqueur ce fut le cas du pêtre Menêthon ; peut être sur la demande de Ptolemeé II fut-il chargé d'ecrire l'histoire de son propre pays en langue gracque. Il fut sans doute mêlé à la controverse (15) opposant ce roi et Antiochus de Syrie au sujet de l'an cienneté des deux pays. Bien entendu Menéthon opte en faveur de l:Egypte. De quoi disposàit -il pour réaliser ce travail ? D'abord de sa connaissance des hieroglyphes expliquant une grande partie du passè sur les murs des temples et sur tous les monuments de pierre, sur les paprus. Ensuite il devait avoir connaissance des récits qui se transmettaint verbelement ainisi que des contes et des légendes qui cérculaient.

Probablement qu'il eut acces à des archives mutilées aujourd hui comme les listes rois d'Abydas et la Karnak pour la Haute Egypte, les listes de Saqqarah et le papyrus de Turin pour la

commettre services sur services en Egypte, à Sais en particuclier; alors profitant de son inflence notre personnagc convainc cambyse de lui permettre de retablir l'ordre, de reintroduire la decénce dans les temples, de rendre au clergé de Neith ses pouvoirs et il reussit, ce dont il se flatte sans mettre l'accent bein entendu, sur un passé plur inquietant !

"En bon courtisans su, il idealise l'attitude de cambyse à l'égard de l'Egypte" (12). Il est toujours en vue au temps de Darius qui l'appela sans doute en Perse et à son retour il fait rebâtir l'école de Sais, ce qui prouve san attachement pour sa ville.

Darius est en Egypte vers 518 mais sans doute Oudjahorresné était-il mort à ce moment car il n'est plus question de lui.

Sebennytos

On appelle le plus souvent le grand historian Manéthon,

Menethon de Sehennytos. même si l'on ne peut donner de preuves de sa naissance en cétte ville du Delta (a ctuellement Samanoud), La tradition en est bien établie et plus largement accredité que celle le rattachant à Mendes pour laquelle on n'a d'ailleurs pas de preuves non blus. De Sebennytos, on le sait, il ne subsiste que des blocs de granit rose, gravés, dispersés ca et là dans les champs et absolument rien de ce qui fut le temple (13).

A l'époque ptolémaique, sous Ptolemée Soter et Ptolemée Philadelphe (325—245) en pense que les rois eurent l'idée d'instaurer une nouvelle religion ou de développer un aspect de l'ancienne cimentant les liens entre Grecs et Egyptiens. les conseillers royaux furent Timotheé l'Athenien et le prêtre égyptien—peut-être prêtre à Héliopolis : Menéthon dont on ignore à peu près tout de la biographie mais dont le renom d'homme de science na fait pas de doute. c'est sur ses conseils, croit-on, que se develope le culte

"chef des grands scribes de prison". Il a encore d'autres fonctions civiles importantes comme "directeur du palais et chancelier royal".

Mais où sa biographie prend un aspect tres complexe c'est dans son rôle de chef militaire, exactement de "chef de la marine royale sous le roi de Haute et de Basse Egypte Psammetique III". Suit alors un long panégyrique qui laisse le lecteur quelque peu perplexe :

" . . . Je fais que sa Majestê connut la grandeur de Sais, c'est la résidence de la grande Neith . . . . " qu'il connut l'aspect de la grandeur du château du roi de Basse Egypte . . . . je me suis plaint auprés de sa Majeté le roi de le Haute et de la Basse Egypte, Cambyse, au sujet de tous les étrangers qui s'étaient installés dans le temple de Neith pour qu'ils soient chassés de la, afin que le temple de Neith soit dans toute sa splendeur comme; il était auparavant. Sa Majesté ordonna de chasser tous les étrangers qui s'étaient établis dans le temple. Sa Majesté ordonna de restituer les revenus des biens à la Grande Neith . . . . Sa Majesté ordonna de purifier le temple de Neith et d'y replacer tous ses membres et les prêtres horaires du temple . . . . Sa Majesté se rendit en personne au temple de Neith. Elle se prosterna très grandement devant Sa Majesté Neith comme le faisait chaque roi".

Faut-il louer Oudjahorresné d'avior su retablir ainsi les lieux saints dans leur pureté et d'avior reussi à convaincre cambyse d'observer une telle attitude de respect ? Oui peut être mais pourquoi na se glorifie -t-il pàs plus tôt d'avoir chassé l annemi d'abrod et avant tout ? Que fait ce chef de la flotte face à l'ennemi ?. Il n'y a guére de doute. Oudjaharresné a livre sa flotte à cambyse et de ce fait il a été fort apprécié à la cour perse mais le armcés ennemies, comma cela a toujours lieu dû

sés pairs pour faire tous les monuments qui sont à Sais parce que sa Majesté reconnaît en moi un serviteur du dieu". Un serviteur dont le roi reconnait la main habile; sans doute, puisqu'il se déclare. "Confident du roi et . . . celui qui transmet les sapports des concitoyens de sa ville dans le palais et qui éloigne le mal d'eux; chaque jour". Sans doute était il préférable pour un saite d'être en bons termes avec un intermediaire si puissant qui approchait aisément le roi.

(d) On est célèbre quand on participe à la défense de son pays, ou qu'on prévient les attaques ennemies. Cet honneur dut être reservé à :

— Ouahibrê qui est peut être né sous Apries et et a suivi sa carrierè sous Amasis. Il est connu par 14 documents (10). Bien sûr il était aussi directeur des châteaux de Neith, le hery-Oudjeb, fils d'un prophète de Neith-la vache nommé Peftaouneith et d'une prêtresse horaire de château de Selkit nommeé Ta-cheben neith, c'est a'dire un personnage saite d'origine, mais nous déstinguerons ici ses titres militaires : "directeur des pays étrangers du Sud . . . , chef des troupes . . . préposé à la porte des pays étrangers".

(e) Un autre personnage contemporain du précédent a fait beaucoup parler de lui . . . . mais participe-t- il lui aussi à la défense de son pays ?. Il s'agit du célèbre.

— Oudjaharresne (11) qui, sous la XXVII 'dynastie—perse (525-405) se fit faire une statue connue aujourd'hui au Vatican sous le no. 196. Il était de noble famille saite et il nous apprend que son père Peftaouneith était "directeur des châteaux de Neith, le hery-Pe, le Renp, le hept-Oudjat, prophète de Neith qui est en tête du nome saite". les talents du fils devaient être varies et il ne se contente pas de suivre le voie sa cerdotale. Il se targue d'être "scribe et inspecteur des scribes du tribunal" ainsi que

son fils qu'il aime qui a fait pour lui cette statue alors qu'il etait déja dans la nécropole" ; le quel fils digne successuer de son perè était sussi " directeur des châteaux de Neith, initié aux secrets du ciel, le grand pur connaissant ses devoirs celui qui connaissait son rang dans les places sacrées"—ce fils appelé Amasis avait pour mère, de même que dans le cas précédent, "une joueuse de sistre de Neith, dame de Saïs" appeleé khedk—neith - ert—bent"

Enfin, toujours, dans le même ordre d'esprit, nous citerons :

—Amasis connu par la Stele no. 4129 du Serapeum (6) et qui vécut sous la lere domination perse.

Ses titres et ceux de son père permettent de penser qu'il appartenait lui aussi à une famille saite. Il etait :

"Perè divin et directeur des chatéaux de Neith, le oun—ro le hery—Pe d'Ouadjit maîtresse d'Imet". Ces deux derniers titres sembleraient indiquer qu'il était un fonctionnaire provincial de Sais. Il possedait encore le titre de "chanteur du temple de Neith" et était fils de "l'imakhou auprès de Neith, prêtre lecteur en chef Psàmmétique—sa - neith".

Il n'est pas impossible que la Stèle du Serapeum s'explique par la venue de notre saite lors de l'enterrement de l'un des Apis (7).

(c) D'autres célébrités sàites eurent peut-être des talents plus précis. N'etait—il pas architecte cet autre :

—Psâmmétique—Sa—Neith contemporain d'Amasis (8) ?

Sur sa statue du Musée de Philadelphie no. 4091 on apprend (9) que ce "chancelier royal [etait] directeur de tous les travaux de Sais" et plus loin il se vante que "sa Majesté m'a choisi parmi

" directeur des châteaux de Nieth, initié aux secrets du ciel, le hery-Pe, l'initié secrets dans les places secrées dans le château de Neitn"

Digne fils de son père Padeg—ahet qui était avant lui :

" Directeur des chêteaux, prophete d'Hathor d-me de l'Imaou, qui est dans le temple de Neith, prophête des vêtements de lin de Neith".

Ce sont de grands serviteurs des temples entre la fin de la XXVI dynastie et la debut de la domination perse ou encore :

—Psammétique-sa-neith

Contemporain d'un des deux Psammétique royaux et d'Apries. sur sa statue de l'Ashmolean Museum no. 1131 on lit : (4)

" Psammetiqe sa—neith . . . . prophète d'Isis, issu de la tisseuse du sanctuaire de Rs—Nt, sheryt—ent—Asat", ... son père est le prophète d'Horus, fils de Neith, Ouahibrê—mer—neith c'est une famille bien assise et le fils suit la trace des parents— lui aussi est "directeur des châteaux de Neith, prophète d,Isis" —C'est Oudjahorresne ' issu de la dame de la maison, joueuse de sistre de Neith, dame de Sais". Elle s'appelle Ta-net-resne.

Nettement toute la famille est vouée aux occupations sacerdotale et ne pouvait manquer d'être respecteé à Sais. De même encore :

—Djed — Thoth — iouef ankh que a vécu entre Psammétique II et Amasis. Sur sa statue n' 71 (289) du Musée Rodin (5) on apprend que ce prêtre était "directeur des châteaux de Neith et fils de Psammétique—men—er-nehh". On lit enconre : "C'est

On lit sur le socle de la statue :

" (Statue) qu'a faite leur fils, pour renouveler leur noms dans le temples de Neith dame de Sais—chef des chanteurs d'Osiris, le souverian—chef des chanteurs de Neith de la couronne blanche et de la couronne rouge — chef des chanteurs de temple de dieu bon Néchao—chef des chanteurs de la Meret de la Haute—Egypte et de la Meret de la Basse Egypte—chef des chanteurs du temple de Selkit dans le nome de kedem.

Ouahibrè—mer neith, fils de Pen-hout bit — qu'a enfanté Sitman; fille du chef des chanteurs du Pieu sacré, Amasis . . . . Plus loin il est précisé que Pen-hout-bit et le grand-père Ire-faa-neith étaient aussi au service des temples de Sais comme chefs des chanteurs.

Toute une famille de musiciens donc, originaire de Sais et ayant servi leur ville. On verra que des fonctions ne seront pas toujours aussi étroitement limitées, Beaucoup multipliéron des fonctions diverses, incompatibles de nos jours, beaucoup auront des parents chanteurs et chanteuses mais eux-mêmes n'auront pas de titres de musiciens ou ce sera un titre parmi d'autres comme Amasis.

(b) Quel degré de célébrités eurent des personnages dont l'abondance des titres religieux peut surprendre ? Nous ne saurons jamais si la muliplicité de leurs titres était le fait de leur habileté politico—religréuse ou celui du renom de leur sainteté mais, en un sens, ils etaiant célèbres . . . . à Sais au moins. Citons par exemplé.

—<u>Tefnakht</u>

connu par la statue CG. 662 du Caire lui aussi est membre d'une famille importante à Sais (3). Il est :

mes justement célèbres sont originaires de Basse Egypte ; selon leurs dons, leur intelligence, ils ont pu servir tel ou tel monarque.

Dans notre société ils seraient des ministres, des Professeurs, des géneraux, des médecins, plusieues fois académiciens : ils furent vizirs, prêtres, juges, écirvains . . . . Nous partirons d'abord de l'Ouest de Delta avec Sais qui nous tient particulierèment à coeur, nous limitant d'ailleurs toujours aux personnages dont l'origine est peu contestable.

— au centre nous aurons à citer Sebennytos.

— à l'Est Pharbaitos, Boubastis, Athribis.

— au Sud Heliopolis, Toura.

Sais

Il est à remarquer que les personnages cités sont de la XXVI dynastie ou d'une époque plus tardive.

(a) Ouahibrê—mer—neith

Il ne remble pas que l'on connaissait à l'epoque pharaonique d' "artistes à renommée mondiale" mais il y avait des familles de musicians dont plusieurs members honoraient les dieux qu,ils servaient dans les temples en jouant de la harpe, des sistres ou des tambourins, en chantant des hymnes. Ce fut le cas de Ouahibrê—mer—neith et de sa famille. Nous le savons par sa statue en passession du comte de Beaumont—Bonelli à Naples ([2]).

Ce fut une famille originaire de Sais et attacheé aux dieux des temples de la ville au temps de Néchao.

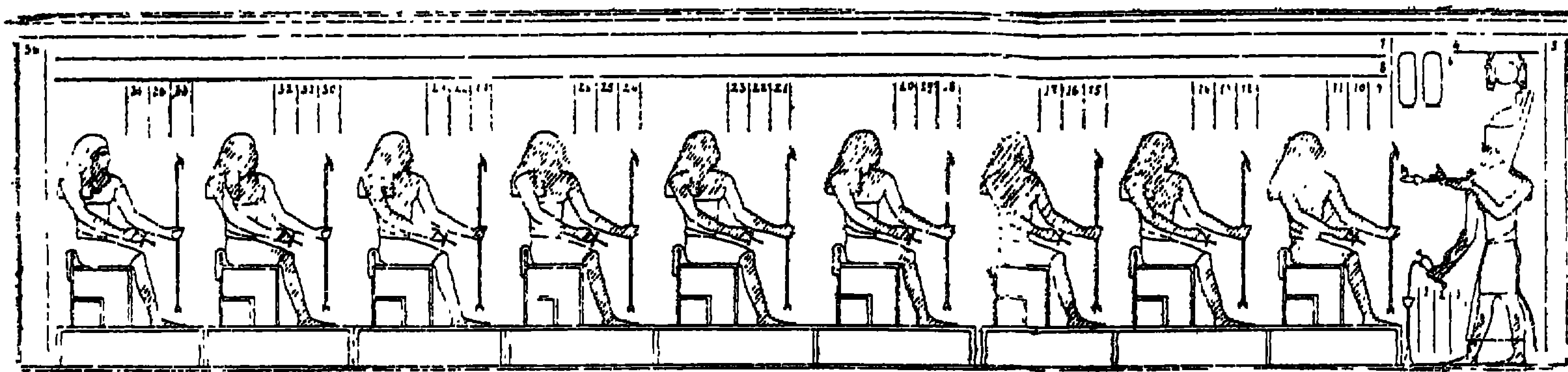
Quelques personnages célèbres au temps pharaonique dans les provinces de Basse Egypte

PAR

Ramadan el Sayed Minieh

L'ideé de cette recherche est neé d'une conversation avec le profes.eur yoyotte en novembre 1976. C'est lui qui a fait de nous un fervent égyptologue et ses suggestions sont toujours riches de développement eventuel. Pourquoi suivre uniquement l'eclairage le mineux fixe sur les rois ? De toute évidence l'importance des rois est au-dessus de toute comparaison mais le comportement royal, autrefois comme aujourd 'hui, pour les chefs détat, est inspire' par les ministres clairvoyants qu'ils savent attirer, par leurs juges integres, leurs philosophes pleins de sagésse, leurs ecrivains astucieux. Beaucoup des personnages de l'Egypte ancienne ont disparu à jamais dans les ruines, dans les sables du désert, dans les limons du Nil mais certains vivent encore dans le souvenir grâce â une stèle, à une tombe, à un texte où leurs hauts faits sont relatés. C'est pourquoi sans pretendre à une recherche exhaustive qui serait un défi au bon sens nons nous sommes interésses à certaines bioqraghies des contemporains de pharaons. (1)

Nous avans voulu commencer notre travail par le Delta. Un souci d'ordre peut-être, en utilisant notre logique qui va du Nord au Sud mais aussi un signe de notre regret. Hèlàs ! — la Basse Egypte a conservé bein peu des monuments qui durent l'orner à un moment ou l'autre de l'histoire pharaonique, les sables ont avalé jusqu'aux ruines mais on ne peut ignorer l'importance, l'lêxistence de sais, de Tanis; de Boubastis, d'Heliopolis . . . . Et certains hom-



From Chassinat, *Edfu*, X, pl. LXXXV

4. Harshedty : (1)

5. Neter-AA-Em-Spat-ef :

6. Neb-Shenw : (sic)

7. Ba-Netry :

8 Khenty. Behdet :

9. Neb-Hwt-Wᶜret : (2) (sic)

(1) Read (collated)

(2) It is a mistake for See E. IV, 85, note 2

1. Banebded:

2 Harshaphes:

3 Imeshy

Exterior of Naos
(E. IV, 83,4 – 85,8)

Title and Formula:

(sic)

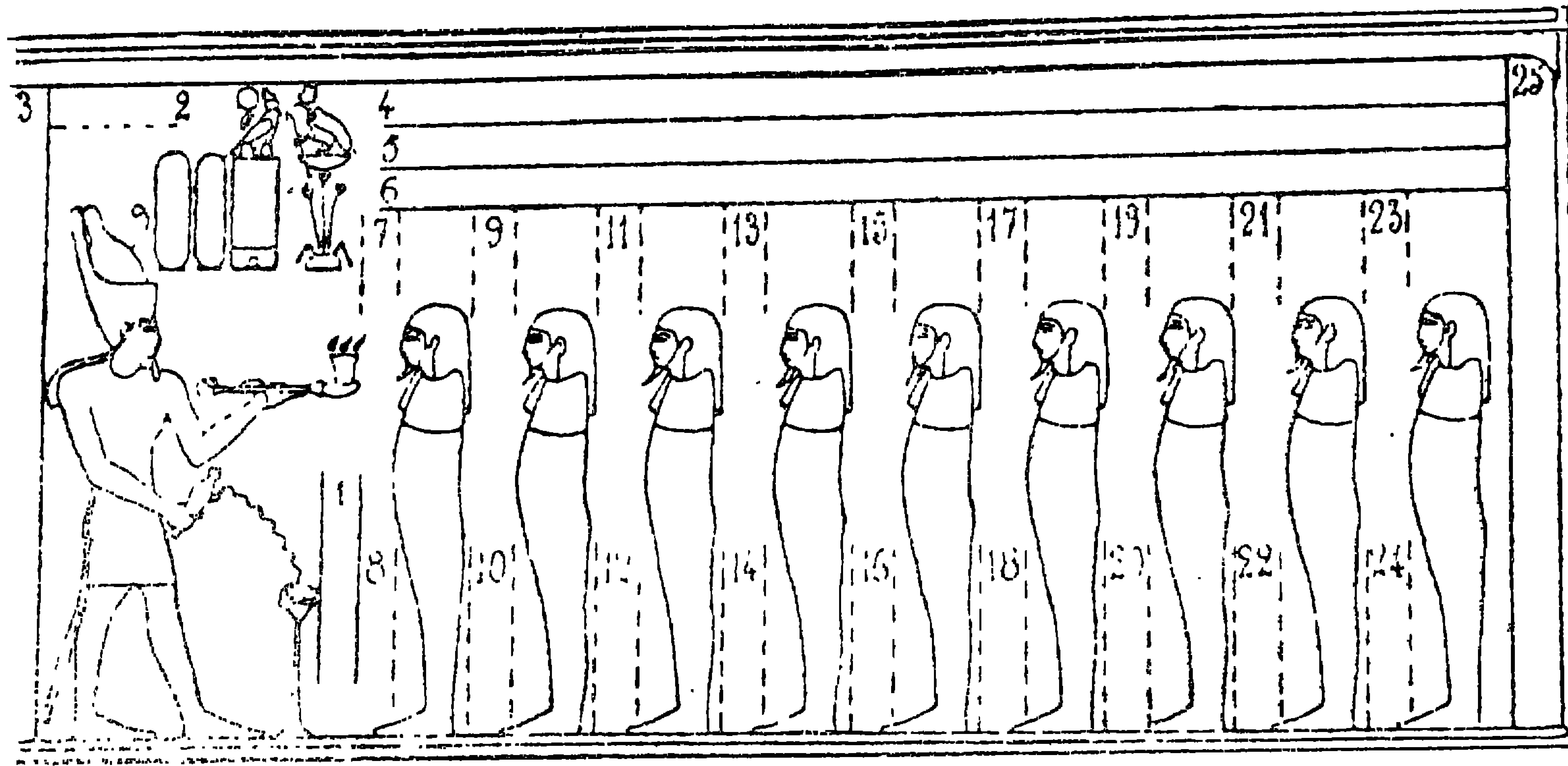
The King:

Behind him

above him is the solar disk

Divinities:

(?)



From Chassinat, *Edfu*, IX, pl. XL d

Pl. II[1]

1. Banebded :

2. Harshaphes:

3. Benenu :

4. Imenhy :

5 Antywy :

6. Seth

7. Seth : (sic)

8. Seth

9. Seth :

(?) (sic)

Second Hypostyle Hall

(E. II, 51,3 – 52,9)

Title :

The King:

(sic)

Divinities :

(sic)

(sic)

: The signs placed between the square brackets are traced in the reversed order of the rest of the inscription

12. For the significance of the driving of the calves see A.M. Blackman and H.W. Fairman, "The significance of the ceremony of '*Hwt-Bhs.t*' in the Temple of Horus at Edfu" in *J E A.* 35,98-112 ; 36, 63-81.

13. Very important witness that a sacred grove was in Heliopolis as in Edfu and Philae too. This shows that the cult of the ancestors was spreading throughout Egypt, see Mohiy Ibrahim, "Festival of the Sacred Marriage" in *Magazine of the Faculty of Archaeology, II.*

14. For *wnw* see below p.

15. For *spr-mrw* see below p.

16. *N* is for *m*.

17. To be read *hnk*=mortuary priest, see Gardiner, *Wilbour Papyrus*, II, 111–113, esp. 112.

It happened also in Shoshenk stela as *hnkw* = endowments, see Blackman, *J.E.A.* 27, pl. 10 (No. 4*d*) ; P. 48 (No. 24).

18. For *nswty* priest, see Blackman, *J.E A.* 11,214. The *nswty* priest was the priest of *Hry-s.f.* See also *wb.* II, 334 (9).

19. Lit. means "of prominent position in the presence of him who is upon his bier" i.e. 'Osiris'.

20. Cf. *E.* II,51,3 – 52,9.

21. For *wnsy* see *Onomastica,* II, p. 111.

22. This text will be discussed in a forthcoming paper.

23. Either *'ntywy* or *Hr-sdty.*

24. For the Battle of Raphis see No. 8 above.

FOOTNOTES

1. See Mohiy Ibrahim, "King makes offering to his ancestors" in *Société Egypiiénne d'Etudss Historique*, No. 23 (1976), pp. 3–10

2. See Mohiy Ibrahim, "The Festival of the Secred Marriage in Edfu" (in Arabic) in *Magazine of the Faculty of arrchaeology*, II. (1977), pp.

3. See above nos. 1,2; sce also Mohiy Ibrahim, "An oblation offered to reigning king king and queen" in First International Congress of Egyptology (Cairo 1976).

4. See the review on pp.

5. S.K. Eddy, *The King is dead : Studies in the Near Eastern Resistance to Hellenism* 334-31 B C. (Nebraska 1961), 260 ; 302 ff ; H.I. Bell, *Egypt from Atexander the Great to the Arab Conquuest : A Study in the Diffusion and Decay of Hellenism* (Oxford 1956), 36–37.

6. Eddy, *op. cit.*, 306

7. Bell, *Egypt*, 35.

8. For the Battle of Raphia see Eddy, *op. cit.*, 297 ; Bell, *Egypt*, 57—58 ; Bell, *Cults and Creeds in Craaco Roman Egypt* (Livrpool 1957), 53—54.

9. See below on pp.

10. See *E.* II,51,3—52,9 ; *E.* IV, 83,4-85,8 ; See our pls. I-VII.

11. It might be also *sty mw*.

kbhw n s'hw sn ikr(w) ikh nb(t) 'Iwnt r bw hr hm ntr.sn hr sfsf-3w n b3 (w) sn dsr (w) mn. tw m Bhdt [hm] sky dt tp-t3 m drw ntrw.

(19) di.n n k 'h'w ir.n hnt imnt mi R' hr st Hr
dd mdw in B3 nb ddw wr hnty Bhdt s'h·f m mh 36.

(20) dd mdw in Hry-s.f ntr '3 '3 sfyt hry-ib Bhdt wsh dt. f m mh 9.

(21) dd mdw in ('I) mhy mnh m 3ht-hh wsr-'3 inm n ' 'n.

(22) dd mdw in Hr-sdty wr ntr '3 hry-ib Bhdt wsh h'w. f m [mh I3].

(23) dd mdw in Ntr-'3-m sp3t.f hk3 nb mh 31.

(24) dd mdw in Nb snw dsr sdg.sw ds.f h3p h3t f m Bhdt rsy.

(25) dd mdw in B3 ntry hpr ds.f '3 phty thn im3w.

(26) dd mdw (i)n Hnty-Bhdt hry-ib 3ht-hh ntrw hnty psdt wrt.

(27) dd mdw in Nb Hwt-w'rt hry-ib Bhdt imm dt.f m Wbn-Hr.

(28) wn b3w ikrw hnt Bhdt st3 .tw m hwt-snbty hr hw Msn hr mk hwt-bik hr shr dw h3 st-wnp swt m nb (w) igrt hk3w n hrt sm3 smyt m s'h (w). sn ikr(w).

(9) dd mdw in Sth n snw
di.n. i n.k sn nb n irt nb n irt nb- r -dr.

(10) dd mdw in Sth n wh3t
di.n. i n.k ptr n i3bt m grh.

(11) dd mdw in Sth n wnw
di.n. i n,k bw nb n dr 3hw.

(12) ddw in Sth n spr-mrw
di.n. i n.k m33 nb n h3yty.

(13) wnn nn ntrw dsrw hry mnt sw m b3w spsw m msw 'Itm Hr Hwt-Hr m hnk. sn.

(14) irt sntr kbhw dd mdw iw sti nfr r. tn m Nhn snsn hnmty. tn im.f bs. i n. tn hp'y wr m krrt b'h.i h3wt (or wdhw). tn im.f kbh.i n.tn m in snty sntr kbhw mrw.

(15) nsw bit (iw' n ntrwy stp n Pth ir m3't R' shm 'nh n 'Imn) ntr mnh s3 R' (Ptolemy 'nh dt mry Pth) ntr mnh nswty nfr n nnyw w'b hnk n b3w 'nhw s3 R' (Ptolemy 'nh dt mry Pth) hr p.f h" .tw m-hnt P Msn hr ssp hkrw f hr itt rnpwt hr sty mw n nty m ihks sw mi Hr sm3-t3 n htptyw nb wndwt m r-'3 imntt.

(16) s3 'nh w3s h3 .f nb mi R' dt.

(17) Bhdty ntr '3 nb pt.

(18) dd mdw n Bhdt msw Hr-3hty dsr-st. sn m i3t ntry pri m R' hpr m ...... nbnb in it.sn m-ht wttyw nn nt b3 m pt msw n Tty (or 3hty) ntrw hn hrt nhhw nt psd-t3 i3w wtt Hr pry im f snsn (m) h't. sn m Bhdw n R' hpt rst m 3ht-hh sm r imnt m Wbn-Hr imn st sn m st-hh sm3-t3 im.sn m imnt [w'bt]. sn m w'bt w'bw b3w ikrw wn m t3 pn wsh st hr hry nmyt.f wd n.R' r st3 styt sn sikr t3 dr thn. sn spr Bhdty r Bhdt hr k3(w) sn sty n.f

TRANSL TRATON*

(1) iıt sntr kbbw n [ntrw wrw] pr-hrw n imyw ist. sn

(2) Hr hwnw kn.

nsw bit (iw' ntr mnh) s3 R' (p(3) mr 3st) s3 Bhdty ms n Hwt-Hr kb n imyw Bhdt wnn ntr nfr (p(3) mr 3st) wnn. sn m nsw hnty 'nhw sw mi Hr w3h ht n tpyw-' sfsf-3w n dw3tyw.

(3) dd mdw in ntrw 'nhw pri m R' psdt msw Itm st3 m styt. sn hry mnt hr rsy imnt n Db3 dr ntr r db' shrw.sn n rf skm tp-t3 .sn pr b3 .sn m 'pv r hrt 'nh sn m-' 'nhw w3 ib sn R' r dw hr m33 hpr n nsw.f wd n hm.f r hts h3t.sn m bw ir.sn im nwdt m Bhdt dsr h3t sn im hwt bhsw r hhy ist sn st3 -st hr st3 styt.sn mitt ntt m Iwn i3t ntry wrt Bhdt h3p h3t n ntrw krtyw R' sm im hry-tp.f hr f r nd ht n msw f n3 h3t '3(w) spsw ntry nty htp m Bhdt r'-nb w3h.sn ht r rw styt sn 'nh-sn hr.sn dw3.sn swt sdm sn spr.sn r hpr ir n iw.sn is.

(4) dd mdw in B3 nb ddw typ n snw.f
di.n. i n.k 'h'w n R' m nsw.

(5) dd mdw in Hry-s.f
di.n. i n.k nsyt n 'Itm hr shmty.

(6) dd mdw in Bnnw hpr ds.f
di.n. i n.k rnpwt n nb r-dr m 'hk3.

(7) dd mdw in 'Imnhy
di.i whm.k rnpy mi hpry.

(8) dd mdw in 'ntywy
di.n. i n.k m33 n wnmt m hrw.

---

* Because of the shortage of italicized script, we have been obliged to use the normal charcters in printing this translitration.

But one feels, nevertheless, the very thin relation between some of them and the god Seth himself; such as "Seth of the trees" in the earlier versions and "Lord of the trees" in the later versions, and Moreover the lord of *hwt-w'rt* (i.e. Avaris) was indeed Seth.

The reason of this replacement seems very historical more than dogmatic, because under Ptolemy IV the four forms of Seth were mentioned, while under Ptolemy VI only two short texts referred to these four forms, then these four forms were replaced by the other four gods just mentioned above.

The historical reason for this change was the reaction of the Battle of Raphia [24] (217 B.C. under the reign of king Ptolemy IV) when attempts of Antiochus III to invade Palestine were decisively defeated at this battle (on the 22nd June 217 B. C.), in which for the first time native Egyptian troops served in the Ptolemaic army, this was a great stimulus to Egyptian nationalism and sparked off the first of the long series of native feeling, especially in the Thebaide, always the breading-ground of Egyptian nationalism. The Egyptians, for the first time, were treated as the military equals of the Greeks, had acquired a new conceit of themselves, and thus one cannot notice any direct mention to Seth, that god of evil after the reign of Ptplemy VI.

Thus, after reviewing these texts. it is an extraordinary fact, as I have mentioned before, that in the earlier versions no less than four of these nine gods are forms of Seth ; which indeed seems remarkable in the Ptolemaic Period when Seth cult was particularly unpopular, and above all at Edfu where the main emphasis was always violent enmity towards Seth.

This parodox was apparently appreciated, for the latter versions showed that the Seth forms were replaced by others, though in a very thinly disguised way.

The four forms of Seth as mentioned in the above review are :

1. Seth of the trees (near or at Kasr as Sayyad, see *Onomastica*, II, pp 31, 32 (344)).

2. Seth of the oasis.

3. Seth of *Wnw* (one of the cult places of Seth, see *Onomastica*, II, p. 31 (343 D)).

4. Seth of *Spr-mrw* (*spr-mrw* was first mentioned in Ramesside times, and from then onwards evidently the most important town in the region given by earlier and later nome-lists as the XIX*th* nome The deity of both town and nome was Seth. See *Onomastica*, II, p. 110 (388)).

These were the four forms of Seth which were mentioned in the earlier versions, in at least four of the texts of the ancestors, but in the later versions we find instead of them the following four gods :

1 *Ntr '3 m sp3t f* (The great god in his nome).

2. *Nb snw* (Lord of the trees)

3. *Hnty-Bhdt* (Pre-eminent in Behdet).

4. *Nb hwt w'rt* (Lord of Avaris).

their place of burial)" (*E.* IV, 103, 11)

"Who has his being in the ancestors" (*E.* IV, 10, 13)

E. IV, 239,13 – 241, 14	*B3 nb ddw Hry-s'f ('I)mnhy*
Ptolemy VI, Philometor offers incense and libation to the senior ones. The nine divinities seated on thrones, each throne standing on its own podium.	*Hr-sdty ntr '3 m sp 3t.f Nb snw Bnnw Hnty Bhdt nb hwt-w'rt*

E. V; 61, 17 – 63, 16	*[B3] nb ddw Hry-s'f 'Imnhy*
A king (cartouches blank) offers incense and libation to the great and senior gods of Behdet.	*[Hr-sdty] Ntr '3 m sp3t f Nb snw Bnnw Hnty Bhdt Nb hwt-w'rt*

E. V, 160, 12 – 162,6	*B3 nb ddw Hry-s f 'Imnhy*
A king (cartouches blank) offers incense and libation to the great, and beneficent gods of Behdet.	*'ntywy ntr'3 m sp3t f Nb snw Bnnw Hnty Bhdt Nb hwt-w'rt*

E. VII, 118,4 – 119,8	*B3 nb ddw Hry sf ('I)mnhy*
Ptolemy, Soter. II presents incense and libation to the gods of Behdet.	*Hr-sdty Ntr '3 m sp3t ·f Nb snw Bnnw [Hnty] Bhdt Nb hwt w'rt*

E. VII, 279, 16 – 281,2	*B3 nb ddw Hry sf ('I)mnhy*
Ptolemy Alexander offers incense and libation to the nine dead gods of Edfu (=souls of Behdet).	[23. . . . . .] *Ntr '3 m sp3t .f Nb sn.w Bnnw Hnty-Bhdt Nb hwt-w'rt*

Philopator offers incense and libation to nine mummiform divinities.

E. II, 51, 3 - 52, 9 *B3 nb ddw Hry-s f Bnnw 'Imnhy ʿntyw y*

	Sth n snw
King Ptolemy IV,	*Sth n wh3t*
Philopator offers incense and	*Sth n wnw*
libation to nine mummiform divinities.	*Sth n spr-mrw*

E. III, 301, 8—16 *B3 nb ddw Hry-s'f Bnnw ('I) mnhy Hr-Sdty*

	[Sth n snw]
King Ptolemy VI	*Sth n wh3t]*
presents incense and libation to	*[Sth] n wns* [21]
the excellent souls (=the nine divinities).	*Sth n spr-mrw*

E III, 321, 5—12 *B3 nb ddw Hry-s'f Bnnw ('I) mnhy Hr-Sdty*

	Sth n snw
King Ptolemy VI	*Sth n wh3t*
presents incense and libation to	*Sth n wns*
the gons of Behdet.	*Sth n spr-mrw*

E. IV, 83, 4 - 85,8 *B3 nb ddw Hry-s'f ('I)mnhy Hr-sdty*

King Ptolemy VI, Philometor *ntr ʿ3 m sp3t f Nb snw B3* offers incense and libation to the *ntry Hnty Bhdt Nb hwt wʿrt* nine gods (not mummiform) each seated on a a throne set on a podium.

E. IV, 102, 17-103, 13 [22] *P3 ntr n hwt ntr wr n Bhdt*

Ptolemy VI, Philometor offers incense and libation to the god of the great temple of Edfu, a human-heded divinity.

"Who has his being in *T3 tnn* before the ancestors" (*E.* IV, 103, 10)

"The burier of the souls (or who buried the souls) in

8. *Hnty-Bhdt* " (26) Words to be said by *Hnty-Bhdt*, who resides in *ꜣht-hh* of the gods, who is at the head of the great ennead.'' (*E.* IV, 85,4)

9. *Nb-hwt-wꜥrt* " (27) Words to be said by the lord of Avaris (*Hwt-wꜥrt*), residing in Behdet, who conceals his body in *Wbn-Hr*" (*E.* IV, 85,5)

A vertical line behind the nine ancestors:

" (28) The excellent souls are in Behdet, being concealed in the mansion of *snbty*, protecting Mesen, guarding the mansion of the falcon, driving away evil from the place of piercing. They are the lord(s) of the necropolis, the rulers of the desert plateau, whose honoured mummies are burried in the desert (lit. 'the desert is joined with their excellent mummi(es) " (*E.* IV, 85, 7—8)

REVIEW OF THE TWELVE TEXTS DEALING WITH THE MYTHICAL ANCESTORS

NAMES OF THE DIVINITIES

E. 1, 173,3 - 174.7 *Bꜣ nb ddw Hry-ss f Bnnw 'Imnhy* [*ntywy*] [20]

Sth n whꜣt

Sth n nꜣ snw

Sth n wnw

Sth m spr-mrw

King Ptolemy IV, Philopator presents two adzes of Anubis to Osiris accompanied by Isis, both seated enthroned upon a podium, behind them stand nine mummiform gods.

E. 1, 382, 4 - 15

King Ptolemy IV,

They abiding in Behdet [without] perishing forever upon earth and for the duratian of the gods (or in the boundaries of the gods)" (*E.* IV, 83, 13—84,6)

1. *B3 nb ddw* " (19) We give thee the span of life which we spend in the otherworld like Re upon the seat of Horus.

Words to be said by Banebded, the great in Behdet, his mummy is of 86 cubits" (*E.* IV, 84, 7—8)

2. *Hry-s. f* " (20) Words to be said by Harshaphes, the great god, of great dignity, residing in Behdet, the width of his body is 9 cubits" (*E.* IV, 84, 9—10)

3. *Imnhy* " (21) Words to be said by the skillful bucher-god, in *3ht-hh* of the strong arm, with the skin of baboon," (*E.* IV, 84, 11—12)

4. *Hr-sdty* " (22) Words to be said by Harshedit, the great, the great god, residing in Behdet, the width of his body is [13 cubits] " (*E.* IV, 84, 13)

5 *Nir-'3-m-sp3t f* " (23) For recitation by the great god in his nome, who loves his father, the ruler, the possessor (owner or lord) of 31 cudits" (*E*, IV, 84, 14)

6. *Nb snw* " (24) Words to be said by the lord of the trees, the holly one, who conceais himself and who hides his corpse in the southern Behdet" (*E.* IV, 85; 1—2)

7. *B3-ntry* " (25) Words to be said by the *B3-ntry*, the self createsd, great of power, with shining radiance" (*E.* IV. 85,3)

Who have their being in . . . . ?

Whom their father protected afterwards.

These are the offsprings of the soul which is in the sky.

The youths of the Table god *tty* (or of the horizon god *3hty*).

The gods who cross the sky.

The aged ones of the shining one (or of the illuminator of the land *psd-t3*).

Who have become old

The offspring(s) of Horus

Who came forth from him.

Who visits their tomb in the Throne of Re, and whom the burial ground embraces in *3ht-hh*.

Who havegone to the underworld in *Wbn-Hr*.

Whose abode is hidden in the abode of eternity.

Who are buried in them in the underworld.

Whose [embalming booth] is in the pure mountain.

Pure are the excellent souls who are in this land.

Of the prominent positian in the presence of Osiris [19].

Re commanded to conceal their crypt (or Re commanded that their crypt has to be concealed).

The land was blessd from the very time of their concealment.

The Behdetite reaches Behdet to their Ka(s) that he may pour out libation for their excellent corpses, and the mistress of Dendera visits the place where their majesties are, in order to make offerings to their divine soul(s).

For recitation: The pleasant perfume comes to you from Nekhen in order that your nostrils may inhail it. I cause a high inundation to issue for you from the source. I flood your altars with it. I make libation for you with what the two sisters bring (namely) the desired incense and libation. (*E.* IV, 83, 4—7).

B. The king: " (15) King of Upper and Lower Egypt (heir of the two shining gods, chosen of Ptah, justiciar of Re, living image of Amun) (the beneficent god, son of Re (Ptolemy, may he live forever; beloved of Ptah). The beneficent god. The good nswty-[18] priest of the tired ones, the *w'b*-priest and the mortuary priest of the living (or divine) souls. The son of Re (Ptolemy, may be live forever, beloved of Ptah) is upon his throne, rejoicing in Pe and Mesen, taking his insignia, acquiring years, pouring out libation to those who are in the netherworld. He is like Horus, the burier of those who are at rest, lord of the inhabitants in the entry of the west."

Behind him: " (16) May all protection, life, dominion surround him like Re forever".

Above him is the solar disk:

" (17) The Behdetite, the great god, lord of heaven".
(*E.* IV, 83, 8—12)

C, Divinities: " (18) For recitation:

The gods of Bahdet.

The Children of H·rakhty, sacred in their abode in the divine mound.

Who came forth from Re.

6. *Sth* " (9) (Words to be said by Seth of the trees. I give thee the whole circuit of what the lord of all has made". (*E*. 11, 52, 4).

7. *Sth* " (10) Words to be said by Seth of the Oasis. I give thee what the left eye beholds at night". (*E*. 11, 52, 5).

8. *Sth* " (11) Words to be said by Seth of *Wnw*. [14] I give thee every place to the limit of the sun shine". (*E*. 11, 52, 6)

9. *Sth* " (12) For recitation by Seth of *spr-mrw* [15]. I give thee all what the Two Shining Ones see". (*E*. 11. 52, 7).

A vertical line behind the divinities :

" (13) These are the great and holly gods, who are upon the hill side, they are the august souls, [16] namely the children of Atum, Horus and Hather being their [17] funerary priests". (*E*. II, 52, 8—9)

The second scene is represented on the exterior of the Naos, west wall, second register. In this scene we find that the king is represented on the right, standing, facing left, wearing the Double Crown, presenting incense and pouring libation to the nine divinities (=the ancestors) who sit in front of him, facing right, each one of them seizes in his right hand the *'nh*-sign and holds in the left hand the *w3s*-sceptre. (*E*. IV. 83, 4 — 85, 8) ; pls. IV—VII.

The scene is entitled in this way :

A. Title and formula : " (14) Presenting incense and libation.

concealed in their crypt on the hill side to the south west of $\dot{D}b3$. When the god set his seal to their (destiny)? before their earthly span had been completed, their souls winged their way to heaven, so that they might live among the stars. The heart of Re became sad at seeing what had happend to his children, and his majesty ordered that their corpses should be adorned in the place where they (=men) treat them, to bandage (them) in Behdet, to donceal their corpses there, and to drive calves [12] to tread upon their tomb. The sacred grove concealing their crypt like that which is in Heliopolis [13], namely the great divine mound of Behdet which hides the (corpses of the caverns. Re goes there, his diadem goddess being with him in order to salute his children the great august and holly corpses that rest in Behdedet always. When their offering has been made at the entrance to their crypt they live (again), they are happy and praise them and shey (Re and Hathor) hear their (i.e the ancestors) petition the time of their return occurs". (*E.* II, 51, 9 - 15).

1. *B3 nb ddw* " (4) Words to be said by Banebded. The first of his brothers. I give thee the length of life of Re as king". (*E* II, 51, 16).

2. *Hry-s f* " (5) Words to be said by Harshaphes. I give thee the kingship of Atum while weering the Double Crown". (*E.* II,51, 17).

3. *Bnnw* " (6) Words to be said by Benenw (=the phoenix), the self-created. I give thee the years of the lord of all as a ruler". (*E.* II, 52, 1).

4. *'Imnhy* " (7) Words to be said by Imenhy (=the buchergod). I cause thee to renew thy youth like Khepry". (*E.* II, 52, 2).

5. *'ntywy* " (8) Words to be said by Antywy. I give thee what the right eye sees by day". (*E.* II, 52, 3).

seems very dificult, because neither the time nor the space allows us to make it. But a quick review [9] concerning the twelve texts of these ancestors seems, also, very useful; taking two [10] of them as examples: the first one belongs to the earlier versions, while the second belongs to the later versions to support this theory from one side and to throw more light on their aspect from the other side

The first text is located in the second Hypostyle Hall of Edfu Temple, south well, *4th* register (*E*, II, 51, 3-52, 9). See pls. I-III.

The klng is represented on the left of the scene, standing, facing right, wearing the Double Crown, burning incense and pouring libation to the nine ancestor gods of Edfu, who are standing in front of him and facing left in a mummiform.

The scene is entiled in this way:

A. Title: " (1) Prescnting incenss and libation to [the great gods], and offerings to those who are in their tomb". (*E*. II, 51, 3-4)

B. The King: " (2) Horus, the strong youth"

King of Upper and Lower Egypt (heir of the beneficent god) son of Re (the beloved of Isis). Son of the Behdetite, born of Hather, who pours (11) libation to those who are in Behdet. As long as the good god (the beloved of Isis) exists they will exist as kings at the head of the living. He is like Horus, who makes offerings to the dwellers of the underworld". (*E*. II, 51. 5-8).

C. Divinities: " (3) Words to be said by the living gods, who came forth from Re, the Ennead, the children of Atum,

The reason for this change seems to be that the Egyptians were, of course, well aware that their ruler was a foreigner. They shared the hatred of the priesthood for foreign rule, but they have been conquered, and were waiting for the due moment to overthrow the foreigners and their rule.

Apart from the religious motive the Egyptians were treated badly: there was discriminalion between the Greeks and the Egyptians in many ways, in social life, and in military service too [5]. Life was hard in Ptolemaic Egypt as Ed ly [6] said and "at no time since their days of imperial greatness in the second millennium B.C. have the Egyptians made first rate soldiers [7]", until the Battle of Raphia 217 B C proved that Egyptian troops; as well as Greeks, could acquit themselves bravely and honourably in war and make a major contribution to the victory.. The Egyptians returned to Egypt with new confidence in their military abilities They also returned in a dangerous frame of mind. Polybuios says that they were looking for a ruler, a leader who would bring about their independence, and soon revolts began to break out [8].

The Battle of Raphia not only restored the confidence and pride of the Egyptians in their military ability, it also led to an even more pronounced rejection of the Seth cult. This is well brought out in our texts of the ancestor gods of Edfu, where as I have mentioned above that it is an extraordinary fact that in the earlier versions at Edfu no less than four of these nine gods are forms of Seth. It is undoubtedly significant thet all versions after the middle of the reign of Ptolemy VI, i.e. after the Battle of Rphia, eliminate those forms of Seth and replace them by other names

To deal with the whole lot of these texts at the present time

called the ancestors. They were nine in number and were of more than normal size, the senior one for instance, the god Banebded, having a mummy of 36 cubits, i.e. approximately 75 feet. They are named to us as well.

These ancestor gods were none of them of local origin, but it is of the utmost iterest, particularly for the history of the kingship, to note that they were all Upper Egyptian and that not one of them was from the Delta.

We are told also that they died in Edfu and they were embalmed and buried there at the express orders of Re in order to prosper Egypt.

There was a procession to an upper temple, sacred mounds and sacred grove associated with them, all these lay on the desert edge to the west or south west of the ancient town and temple of Edfu.

The procession to the upper temple was to enable Horus and Hathor to visit a necropolis, not a necropolis of ordinary mortals but one in which were buried the divine souls to whom special offerings were made. Horus and Hathor visited them, the texts tell us, because they were the mortuary priests of these divine souls.

These Mythical Ancestors, as we have just mentioned, were nine in number and they were named for us too, but it is an extraordinary fact that in the earlier versions no less than four of them are forms of Seth. This is indeed remarkable in the Ptolemaic Period when the Seth cult was particularly unpopular, and above all at Edfu where the main emphasis is always violent enmity towards Seth. This paradox was apparently appreciated, for the later versions show that the Seth forms are replaced by others, though in a very disguised way.

In the same time, it is not inappropriate that this essay, as well as the previous ones [3], should close the discussion of these ancestors. In the preparation of it I have been increasingly impressed by immense part played by the ancestors and the ancestor cult in the instiution of kingship in Pharaonic Egypt. So, it is only a preliminary study to introduce these Mythical Ancestors to the reader, waiting for the due time to present a complete study to cover both of them i.e. the Royal Ancestors ; and the Mythical Ones.

To introduce the Mythical Ancestors, we are lucky enough to find a series of no less than twelve special texts from Edfu Temple which throw abundant light on them [4].

Who were these beings ?

Why were there processions to visit them ?

What was their role ?

Where was their burial place ?

Our special group of texts leave us in no doubt as to the answer to all these questions.

Most of these texts are in scenes of burning incense and pouring libation, the incense symbolising the offering of food to the gods, and the libations that they had been given life and strength.

Fortunately it is not hard to find an anwser to our questions. The devine souls, we are told repeatedly were the children of Re, who came forth from Atum, sometimes they are simlpy

Two texts dealing with the mythical ancestors*

By

Mohiy Eldin Ibrahim

I have devided the ancestors, before, [1] into two groups :

1. The Royal Ancestors i e. the kingly ancestors or in other words the dead kings, or still much better the devine co poration of which the kings on dying, became a member.

The evidence that has been discussed before, in a brief way, suggests that the kingship of the reigning king resided in his predecessor. In other words, his kingly office is derived from and inherent in his ancestors, and it was in the establishment and preservation of the direct link with the ancestors that his claim to rule resided

2. The Mythical Ancestors or as they sometimes were called the "Divine Souls" or the "Children of Re" or simply the "Ancestors", the subject of our present study.

I should like to remind the reader that these are the ancestors whom we have met before in the Festival of Behdet within the framework of the Festival of the Sacred Marriage [2].

---

* *E.* Refers to Edfu, the numbers without brackets refer to the Footnotes while those in brackets refer to the translitration.

EGYPTIAN HISTORICAL SOCIETY

EGYPTIAN HISTORICAL REVIEW

Vol. 24 1977

Cairo (A. R. E.)

